

تاريخ الرومـــان

من العصور الحجرية إلـى موقعة زاما ٢٠٢ ق.م

د. إبراهيم الجندى
قسم التاريخ
آداب عين شمس

٢٠٠٢

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أولى المفكرون والكتاب الغربيون اهتماماً خاصاً بالتاريخ الرومانى منذ مطلع عصر النهضة وما يزال اهتمامهم به إلى اليوم ، وكان ثمرة جهودهم اصدارات ضخمة من المجلدات والمقالات والبحوث بلغات أوربا المختلفة مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية . . الخ . ونود أن ننوه أن هؤلاء الباحثين قد انقسموا إلى شيع وأحزاب فى معالجتهم للتاريخ الرومانى ، فمنهم من اهتم بالتاريخ السياسى والعسكرى دون سواه ، ومنهم من اهتم بالتاريخ الاقتصادى ، ومنهم من اهتم بالتاريخ الاجتماعى ، ومنهم من اهتم بالتاريخ الحضارى ، وقد ساعد الباحثون فى توجهاتهم تلك توافر المصادر الأدبية والوثائقية التى تعالج وتخص تاريخ الرومان .

وإذا كان الكتاب الغربيون لهم قصب السبق فى الاهتمام بالتاريخ الرومانى واعتبارهم إياه مصدر تراثهم وما يزال هذا الاهتمام ، فإننا نحن العرب لم يلق هذا التاريخ منا الاهتمام الكافى على الرغم من أهميته لنا فقد وقعت أقطارنا العربية المطلة على البحر المتوسط جميعها فى قبضة روما فأثرت فيها بحضارتها وتأثرت بها حضارتها ، كما كان لها تأثيرها على مقدرات بقية مناطق عالمنا العربى التى لم تدخل فى حظيرة امبراطوريتها ، خاصة فى المجالين الاقتصادى والحضارى ، وعموماً يمكننا القول أن ما صدر من مؤلفات بالعربية وما نقل إلى العربية عن لغات أوربية يعد على الأصابع ، وعلى الرغم من جدتها ودقتها فى معلوماتها وأكاديميتها ، فمازالت المكتبة العربية فى مسيس الحاجة إلى مزيد من الكتب والدراسات الجادة التى تعالج هذه الفترة ، ولعل السبب فى هذا العجز هو كثرة ما

كتب باللغات الأجنبية المتعددة وشحة المصادر والمراجع المكتوبة بها والمتاحة لنا فى مكتباتنا ، وعلى الرغم من هذه الصعوبات أنه لحرى بنا أن نوجه ونولى اهتمامنا لدراسة تاريخ الرومان ، ولعل أهمية دراستنا له تكمن فى أن فيه عظة وعبرة لنا نحن العرب حيث أن جهود وأساليب تلك المدينة التى بدأت من لا شىء وانتهت إلى كل شىء ، فقد ابتدأت بالقرية والتى توسعت وضمت التلال السبعة وصارت المدينة الدولة (Urbs) ، وهذه اللفظة فى اللغة اللاتينية تعنى مدينة ، ولكن فيما بعد أن ارتفع نجم روما وسطع أصبحت تعنى فقط روما بمفردها دون سواها من المدن الإيطالية ، فكانت سيدة المدن ، سيدة لاتيوم ، وسيدة إيطاليا ، وسيدة الشعوب التى سيطرت عليها فى أوربا وآسيا وأفريقيا ، ولعل قول فرجيل فيه خير تعبير عن ذلك إذ نجده يقول : "... أما أنت يا روما ، فليكن عملك حكم الشعوب ، وليكن فنك أن تنشرى السلام ، وتبقى المغلوب ، وتقهرى بالسيف كل معاند مغرور" .

وجدير بالتنويه أن لدعاة الوحدة العربية أسوة حسنة فى جهود وأساليب مدينة روما فى توحيد إيطاليا بالتحالف مع جيرانها من اللاتين والشعوب الإيطالية وغير الإيطالية الأقربين والأبعدين ، كما أنها ربطت حلفاءها معها بحبل متين ، فقد ربطتهم معها بمنح مواطنيها ومواطنى تلك المدن حق المتاجرة والمصاهرة المتبادل فيما بينها مما أوجد أواصر القربى والمصالح المشتركة بين مواطنى تلك المدن ، ولكن عندما ثار عليها حلفاؤها اللاتين ، على سبيل المثال ، نجدها لم تنزل بهم عقوبة المنتصر بل كانت كريمة معهم فقد أدمجت معها نفراً منهم وصار هذا النفر جزءاً منها بمواطنيه وأراضيه له ما للرومان من حقوق وواجبات وفى نفس الوقت تركت له حرية إدارة شئونه وفقاً لنظمه وتقاليده وأعرافه وقوانينه ، وأجبرت النفر الآخر على التحالف معها مع شروط جديدة واتباعها لسياسة فرّق تسد ، فقد أباحت لمواطنى مدن هذا النفر التصاهر والاتجار مع مواطنى روما فقط دون

غيرهم أى أنها حظرت عليهم المتاجرة والمصاهرة فيما بينهم وبذلك عزلتهم عن بعضهم بعضاً ، وكانت هذه السياسة حافزاً لهم على ارضاء روما ، كما أن روما لجأت إلى تدعيم وجودها وذلك بتوسيع إقليمها على حساب جيرانها الذين حاربوها وحلفها ، ولتأمين وجودها به بادرت إلى إنشاء وزرع مستوطنات وقلاع عسكرية لها به ولحلفائها أيضاً ، كما لجأت إلى تمهيد وتعبيد الطرق للتغلب على المصاعب التضاريسية التى كانت تواجهها فى نقل قواتها فى مناطق إيطاليا المختلفة ، كما يحسب لروما أنها فى صراعها مع أعدائها كانت تتبنى أساليبهم وتقنياتهم العسكرية وحيلهم حتى تقدر على قتالهم وقهرهم ، كما أنها طورت من نظمها ودستورها وفقاً لظروف صراعها مع القوى المحلية فى إيطاليا والقوى الخارجية على حد سواء ، وبهذه الوسائل أمسكت بعوامل النجاح والانتصار على قوى أشد منها بأساً وأكثر منها عدداً وعتاداً وحضارة مثل الاترورين واليونان والغال ، وتوجت جهودها المضنية بخلق اتحاد إيطالى مرتبط بها بحبل متين يجمع شعوب متعددة الأعراق واللغات والعادات ومتفاوتة فى درجة تحضرها وتمدينها ، وأصبحت روما زعيمة لهذا الحلف وقائدة له ولم يخرج عليها منه إلا القليل فى الأوقات العصيبة فقط بينما كان أكثرية أعضائه أوفياء لروما فى أشد أوقات الأزمات وما لاقته فيها من صعوبات ، فقد كان هذا الحلف ظهيراً ونصيراً لروما فى حربها ضد الغال والقرطاجيين فى إيطاليا ، وفى خارجها فى صراعها مع الليريا ومقدونيا والدولة السلوقية . . الخ حتى قهرتهم قوة وراء قوة أحياناً وأحياناً أخرى واجهت بعضهم مجتمعين حتى توجت جهودها بأن جعلت البحر المتوسط بحيرة رومانية وسيذكره الرومان باسم بحرنا (Mare Nostrum).

وأخيراً وليس آخراً يزودنا التاريخ الرومانى بمثل فريد لدورة كاملة بالغة الأهمية من دورات الحضارة الإنسانية من نهوض وارتقاء على أساس متين من الخلق النبيل والصفات السامية الفاضلة إلى تدرج نحو الأفول والانحدار عندما

افسدت القوة الطاغية نفوس أصحابها وضمائرهم وتحكمت الأهواء والأطماع الشخصية وعمت الرشوة والفساد فى توجيه دفة الدولة ، ومما له أهميته القصوى أن هذا التاريخ يطالعنا بأمثلة حية للأساليب السياسية التى لا تفتأ الدول الكبرى ، مثل بريطانيا ومن بعدها الآن الولايات المتحدة تستخدمها لتحقيق أغراضها ومصالحها الأنانية لفرض هيمنتها على الشعوب والقوى الأخرى باتباعها لسياسة فرّق تسد ، والترهيب والترغيب للقوى المعادية والمناوئة لها حتى تخضعها لسلطانها أو تحتويها وتعزلها عن غيرها وعن أقرانها .

وإذا كان هناك من الباحثين من يهتم بجانب من تاريخ روما والرومان دون الجوانب الأخرى فقد حاولت فى هذه الدراسة الاهتمام بأحوال الرومان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً لتأثير كل منها على الآخر، وقد كانت دراسات أساتذتى الأجلاء إبراهيم نصحى ، وسيد الناصرى، وعبد اللطيف أحمد على ، ولطفى عبد الوهاب ، ومصطفى عبد العليم ، وفاروق القاضى نبراساً لى سرت على هديها وهداها .

وأود أن أوجه خالص شكرى لزوجتى التى وفرت لى الأجواء الملائمة لإنجاز هذا العمل ، كما أقدم عميق شكرى إلى أخى وصديقى فريد بورى الذى شجعنى على انجاز هذه الدراسة ، وأخص بشكرى للأخ والصديق د. أحمد زكريا على تشجيعه الدائم لى أثناء تواجدنا فى جامعة قطر لإنجاز هذا العمل والذى بدأت هناك وأخيراً أوجه شكرى للأستاذة الفاضلة مشيرة عبد المجيد التى تجشمت عناء كتابة وتصويب أخطاء هذا الكتاب والذى استغرق منها وقتاً طويلاً .

والله الموفق

إبراهيم الجندى

١٦ / ١١ / ٢٠٠٢

الفصل الأول

جغرافية وموارد إيطاليـا

أهمية موقع وجغرافية شبه الجزيرة الايطالية

على حضارتها

تلعب الظروف الطبيعية والمكانية بلا ريب، دوراً فعالاً فى توحيد حياة الأمم والشعوب، فطبيعة الموقع والمناخ والتضاريس والموارد الطبيعية تؤثر فى توحيد النشاط البشرى والعمرانى، وفى توحيد الاتصال الخارجى ، ولنا فى ذلك أسوة حسنة فى موقع مصر فقد ساعدها موقعها وظروفها الجغرافية على نشأة الحضارة وقيام الدولة الموحدة القوية منذ عهود سحيقة ووفرت لها عوامل الاستقرار والحماية ، وعلى العكس من ذلك نجد أن الظروف الطبيعية لبلاد اليونان قد وجهت تاريخها وجهة أخرى ، فقد أدت إلى الانفصالية السياسية بل وعمقتها فى نفوس أبنائها وأنفوا العيش فى ظل دولة واحدة ولم تتحد بلادهم إلا من خلال قوى من خارجها، كما أننا نلاحظ ان موقع بلاد اليونان والتداخل الكبير بين اليابسة والبحر وذلك العدد الكبير من الجزر الذى يحف بتلك البلاد قد جعل من اليونان قوما ميالين إلى ارتياد البحر وبثه فيهم روح المغامرة والرغبة فى البحث عن المجهول والتوجه ناحية الشرق اولاً حيث توجد مراكز الحضارة العتيدة التى نهلوا وأغترفوا من معينها فى شتى مجالات العلوم والمعارف ، ثم اتجهوا غربا حيث توجد الأماكن التى رأوا فيها طيب عيشهم فنقلوا إليها ما تعلموه من الشرق بعد أن صبغوه وصاغوه وفقا لطبيعتهم .

والآن علينا ان نحاول إلقاء نظرة على الظروف الطبيعية لشبه جزيرة إيطاليا وموقعها من هذه الزاوية فقط أى من حيث كشف وتبيان أثر الجغرافيا فى تشكيل التاريخ .

إن أول ما يلفت انتباهنا هو موقع شبه الجزيرة الايطالية، فهى تحتل موقعـــا وسطا بين كل من شبهى جزيرة البلقان وجزيرة ايبريا، وهى تمثل امتدادا جغرافيـــا لوسط أوربا جنوبا فى قلب البحر المتوسط وأحضانه، وتمثل هى وصقليـــة جســرا يكاد يفصل شرق البحر المتوسط عن غربه ويقربها من أفريقيا، ونتيجة لـــهذا فقــد أنقسم عالم البحر المتوسط إلى عالمين، أولهما : عالم البحـــر المتوســط الشــرقى وينتهى عند شرق شبه الجزيرة الايطالية، وثانيهما: عالم البحر المتوسط الغربـــى، ويبدأ من شبه الجزيرة الايطالية، وينتهى عند مضيق جبـــل طـــارق، وتعــد شــبه الجزيرة الايطالية أهم بلدان عالم البحر المتوسط الغربى وبوابته الشرقية.

وقد أهلها هذا الموقع المتوسط هذا فضلا عن كل من ظروفـــها الجغرافيـــة الملائمة وثرواتها الطبيعية الوفيرة وكثافتها السكانية العالية إلـــى أن تكــون القــوة الكبرى فى غرب البحر المتوسط أولا ثم فى شرقه ثانيا ، وإذا كـــان موقـــع بـــلاد اليونان قد أهلها لتلعب دورا فاعلا فى الحضارة الإنسانية وذلك لقربها مـــن مواقـــع ومراكز الحضارات الشرقية ، فإن الموقع البعيد لشبه الجزيرة الايطالية جعلها قـــد تأخرت فى الاحتكاك المباشر مع الحضارات الشرقية ، وكـــانت بمثابـــة المقتبـــس والتلميذ من حضارات الشرق واليونان مع فقرها. ولعل بعدها وظروفها الجغرافيـــة هى التى كانت مسئولة عن تأخرها فى السير فى ركب الحضارة عن بلاد اليونـــان القريبة، وإذا كانت ظروف بلاد اليونان الطبيعية قد وجهتها صوب الشرق المتمديـن وجعلها تدير ظهرها للغرب ، فإن ظروف شبه الجزيرة الايطاليـــة الطبيعيـــة قـــد جعلت وجهتها الطبيعية صوب الغرب. وجعلتها تدير ظهرها للشرق .

فقد كان ساحلها الغربى يتمتع بموانى طبيعية حرم منها ســـاحلها الشـــرقى ، هذا بالإضافة إلى أن أخصب سهولها وأفسحها وأكثرها ســـماحا لقيـــام مجتمعـــات سكانية كبيرة العدد يقع فى الغرب وليس فى الشرق ، وأمام هذا كله فقد تأثر وضـــع

إيطاليا الحضارى الباكر فلم يتح لها ما أتيح لبلاد اليونان من اتصال بالحضـــــارات الشرقية والإفادة منها ، وكان لإيطاليا أن تنتظر ما يفد عليها من شـــعوب الشـرق وغيرهم ليستوطنوا أرضها ، ويرفع من مستواها الحضـــارى خاصـة وأن شـبه الجزيرة الايطالية كانت أرضا مفتوحة ذات سواحل طويلة مما يسر الـهجرة إليـها بحرا وبرا، ونتيجة لهذا فقد كانت شبه الجزيرة الايطالية بؤرة جذب لهجرات شـتى برا من الشمال وبحرا من الشرق والجنوب ، ولما كانت كل هجرة مـن الـهجرات الوافدة عليها تمثل عنصراً جنسياً ولغوياً وثقافياً ومختلفاً عن غـيره فقـد ادى هـذا الاختلاف إلى تعويق قيام وحدة سياسية وحضارية واحدة فى إيطاليـا والتـى لـم تحدث إلا بعد جهد جهيد بقيادة روما ، ولم يكن الاختلاف العرقـى والثقـافى هـو العامل الوحيد بل كانت صعوبة المواصلات الداخلية فيها عاملاً فى تعويق الوحـدة، إذا أن سلسلة جبال الابنين تخترق شبه الجزيرة من الشمال إلى الجنـوب ، وهـذا الوضع كان يعيق الاتصال بين الساحلين الشرقى والغربى لشبه الجزيرة الايطاليـة ، كما أن الأنهار الايطالية لم تؤد دورا فعالاً فى تيسير الاتصال الداخلى بين السـاحل والداخل ، وذلك لسرعة تدفق مياهها وتفاوت كمياتها التى تحملها ، فهى غريزة فـى الشتاء قليلة فى الصيف وحتى نهر التيبر الذى هو أهـم هـذه الأنـهار وأصلحـها للملاحة لم يكن صالحا للملاحة فى كل أجزاء مجراه، وفى الواقع لم يتـأت لشـبه الجزيرة الايطالية أن تنعم بمواصلات داخلية سهلة إلا بعـد الجـهود التـى بذلـها الرومان لتنظيم المجارى المائية تنظيما اصطناعيا ، وبعـد شـبكة الطـرق التـى أنشأوها ، والتى سنتحدث عنها فى ثنايا هذه الدراسة ، ومع ذلك فإذا ما قارنا بينـها وبين بلاد اليونان فأنها كانت أسعد حظا منها فقد كانت الجبال والبحار تقطع بـلاد اليونان تقطيعا بينما كانت جبال الألب الشمالية الممتدة بشكل قوس تمثـل عنصـر حماية ووقاية طبيعية لإيطاليا . بينما كانت جبال الابنين تخـترق شـبه الجزيـرة

بانحراف من جهة الشمال فهى موازية للسواحل ورؤوسها المنفصلة عنها والبعيدة عنها كذلك أيضا ، وهذا الوضع قد خلق سهولا فسيحة ذات تربة بركانية لا مثيل لها فى كل بلاد اليونان وهذه السهول كانت الأمطار تجدد خصوبتها بما تحمل مياها من تربة بركانية ، كما أن مراعيها تغطى أنجادها وهضابها ولا تضاهيها مراعى بلاد اليونان ، فى رحابتها ولا نضارتها وغناها ، ونتيجة لهذا كله فإن شبه الجزيرة الايطالية كانت منطقة جذب لشعوب شتى ومنها الهجرات اليونانية الكبرى ابتداء من النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، بينما كانت بلاد اليونان منطقة طاردة لسكانها .

ونلاحظ أيضا أن ظروف إيطاليا المناخية وغناها فى ثرواتها الطبيعية قد أديا إلى ان تصبح شبه الجزيرة الايطالية من أكثر مناطق أوربا كثافة بالسكان ، وجعلها ثانى أكثر أراضى حوض البحر المتوسط كثافة فى السكان بعد مصر. وكان لهذه الوفرة السكانية أثرها ووزنها فى العصور القديمة، فقد أعطت إيطاليا تفوقا سياسيا على جيرانها ومدتها بإعداد وفيرة من الجنود فى مراحل صراعها المختلفة والتى سنتحدث عنها لاحقا.

وفى ضوء ما سبق كله فإن التاريخ الرومانى هو سجل لتاريخ روما "المدينة الدولة" التى استطاعت أن تمد حدودها من تلك الرقعة الصغيرة على ضفاف نهر التيبر حتى استطاعت أن تضم منطقة البحر المتوسط الذى أصبح بحيرة رومانية، كما كان يطلق عليه الرومان بحرنا "Mare Nostrum" وعلينا الآن أن ندرس موقعها وظروفها الجغرافية ومواردها الاقتصادية بإيجاز.

١-الموقـع :-

تمتد شبه الجزيرة الايطالية فى قلب البحر المتوسط وتمثـــل هـــى وصقليـــة المعبر بين أوربا وإفريقيا. ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب حوالى ١١٥٠ كيلـو متراً وعرضها فى سهل البو (Poe) حوالى ٥٨٠ كيلو متراً. ويتراوح عرضها فـــى الجنوب " شبه الجزيرة" ما بين ١٠٠ كيلومتراً و ٢٠٠ كيلو مـــتراً. ويحدهـــا مـــن الشمال جبال الألب، ومن الشرق كل من البحرين الأدريـــاتيكى والأيونـــى ، ومـــن الغرب البحر التيرانى ويتبعها جزيرة صقليـــــة المفصولـــة عنـــها بخليـــج مســـينا (Messina) .

كان لهذا الموقع عظيم الأثر على شبه الجزيـــرة الايطاليـــة مـــن النـــاحيتين التجارية والعسكرية ، فامتداد سواحلها شرقا وغربا فى قلب البحر المتوسط جعلـــها تولى وجهها "بقيادة روما" شطر القسم الغربى منـــه أولا باعتبـــاره أكـــثر اتصـــالا بايطاليا واعتبرته المجال الحيوى لها ، وبعد ان سيطرت على مقدراته سيطرة تامـــة اتجهت بثقلها كله نحو قسمه الشرقى من هذا البحر حتى تيسر لها أن تقضى علـــى كل منافس من الدول قد يكون خطرا عليها، فتاريخ روما بوصفها زعيمـــة الاتحـــاد الايطالى كان فى الواقع فى القرون الثلاثة الأولى قبل الميلاد ، هـــو توســـعها فـــى حوض البحر المتوسط .

وإذا كان موقع إيطاليا قد أهلها لأن تلعب دورا هاما ومحوريا فـــى مســـيرة تاريخ حوض البحر المتوسط فإن موقع روما فى قلب شبه الجزيرة الايطالية علـــى نهر التيبر، وبعدها عن شاطئها الغربى نسبيا قد جعلها فى مأمن من قراصنة البحـــر وأكسبها ميزة كبرى على كل من مدن الشمال والجنوب ســـواء بســـواء ، كمـــا أن موقعها الاستراتيجى على التلال السبع قد جعل منها مدينة حصينة صعبة المنـــال ،

لقد هيأتها هذه الظروف لتتولى بخطى حثيثة عملية الوحدة البطيئة للقوى القريبة منها والبعيدة عنها فى العرق والمكان فى شبه الجزيرة الايطالية ومكونة من الاتحاد الإيطالى .

٢-طبيعة تكوين إيطاليا

تتكون إيطاليا من اقليمين رئيسيين شمالى وجنوبى ويختلف أحدهما عن الأخر اختلافا بينا من حيث خصائصهما الطبيعية وهما على النحو الآتى :-

أ-الأقليم الشمالى أو وادى نهر البو :

كان سهل البو يمثل أمتداداً للبحر الادرياتيكى ولكن بمرور الزمن بدأ كل من نهرى البو وأديجى (Adige) يلقيان بما تجرفه مياههما من صخور بركانية وغرين فى هذه المنطقة حتى برز سهل البو الفسيح ، وهو أغنى سهول إيطاليا لأنه من صنع الصخور البركانية وتتجدد خصوبته كل عام بما تحمله مياه نهر البو من طمى طوال العام ، كما انه يتميز بخلوه من البراكين . وتحيطه من الشمال جبال الألب على هيئة هلال غير منتظم يمتد من البحر الادرياتيكى قرب تريستا حتى البحر المتوسط قرب نيس على الريفييرا الفرنسية . وفى الطرفين الشرقى والغربى لهذه السلسلة من جبال الألب يوجد ممران سهلا عملية الاتصال بين ايطاليا والمناطق الواقعة خلف جبال الألب فى أوربا ، ومما هو جدير بالذكر أن هذه الجبال قد لعبت دورا فعالا فى حمايتها فى الفترة الباكرة من الغزوات ، فقد شكلت حاجزا طبيعياً ضد الغزاة الذين يأتون من الشمال ، والسبب فى ذلك ارتفاعها الشاهق إذ تصل بعض قممها ١٥,٠٠٠ قدما ، هذا فضلا عن أنها تمتاز بعرضها الكبير الذى يمتد فى بعض الأماكن إلى مسافات تتراوح ما بين ٢٤٠ - ٢٧٠

كيلومترا ، كما أن بعض الممرات الموجودة بها كانت علـــى جـانب كبـير مـن الخطورة فى العصر المبكر ، ويقدم لنا استرابون وصفا لقسم مـــن ممـر سـانت برنارد بقوله " أن قسما من الطريق يبلغ من ضيقه أنه يؤدى إلـــى الـدوار سـواء للذين يسلكونه سيرا على الأقدام أو حتى لدواب الحمل التى لم تتعـــود عليـه ...." وليس هناك علاج لهذه الظاهرة ، ولا كتل الثلج البالغة فى الضخامة التـــى تـنزلق من أعلى المرتفعات والتى تقطع الطريق على القوافل أو تجرفها معها فى طريقـــها نحو الهاوية التى تربض فى أسفل الممر. ونتيجة لهذا فقد تهيأت الفرصـــة لسـكان إيطاليا فى الفترة المبكرة للالتقاء والتعامل الـذى ينـهى الطريـق إلـى التجـانس والاندماج وإذا كانت بعض العناصر قد رحلت من الخارج إلى شبه الجزيـرة فـى تلك الفترة البعيدة، فقد كان ذلك تسربا بطيئا من المهاجرين ، وقد ساعد هذا علـــى تشرب المجتمع الايطالى لهم .

وتظهر آيات ذلك بعد ظهور القيمة الدفاعيـــة لتلـك الجبـال فـى العصـر الجمهورى، فلم تتعرض إيطاليا طوال خمسة قرون إلا لأربع غزوات هـى غـزوة الغال حوالى سنة ٣٩٠ ق.م وغزوة هانبعل ق سنة ٢١٨ ق.م ، والتى تعرض فيـها جيشه لخسائر فادحة بفعل العوامل الطبيعية والتى سنتحدث عنها فيـم بعـد ، ثـم تجربة اخيه هازرد وبعل سنة ٢٠٧ ق.م ، وأخيرا غزوة كل من قبـائل الكمـبرين والتيوتون لإيطاليا وهى الغزوة التى استطاع القائد الرومانى ماريوس أن يكسـرها بعد ان هزمهم فى عام ١٠١ ق.م ، ومما لأمراء فيه ان هذا الوضع الذى لمس فيـه الرومان شر الخطر الخارجى إلى حد كبير ساعد على استقرار المجتمع الرومـانى بحيث استطاع الرومان فى النهاية أن يخرجوا من شـبه جزيـرة، حيـن وافتـهم الظروف كقوة متماسكة استطاعت أن تفرض شروطها على المناطق المحيطة بها.

كما تفصل جبال الأبنين التى تأخذ بشكل قوس مفرطحة والتى سنتحدث عنها لاحقا. سهل البومن الجنوب عن أغلب بقية شبه الجزيرة الايطالية.

ويفتقر هذا الإقليم إلى الشواطئ الطويلة ، ويقدر اتساعه من الشرق إلى الغرب بحوالى ٥٨٠ كيلومترا ومن الشمال إلى الجنوب بحوالى خمس ذلك تقريبا ويعد نهر البو أكبر أنهار إيطاليا كافة ويبلغ طوله ٦٧٠ كيلومترا، وينبع من جبال الألب فى الغرب، وبعد تغذيته من روافد كثيرة يصب فى البحر الأدرياتيكى فى الشرق. وكانت المستنقعات تغطى جانبا من أرضه .

٢-الإقليم الجنوبي: شبه الجزيرة الايطالية :-

يمثل هذا الإقليم شبه الجزيرة الايطالية ويقع بين البحر التيرانى فى الغرب والبحر الأدرياتيكى فى الشرق ، ويمتد هذا الإقليم من الشمال إلى الجنوب لمسافة تقدر بحوالى ١٠٠٠ كيلو متراً ، ويتراوح عرضه ما بين ١٠٠ و ٢٠٠ كيلومتراً وتحيطه البحار من الشرق والجنوب والغرب ويحده من الشمال جبال الابنين وسهل البو. وتقسم هذا الإقليم سلسلة جبال الأبنين الممتدة من الشمال إلى الجنوب فتبدأ عند الطرف الجنوبى الغربى لسهل البو ، وأعلى مناطقها يقع فى الشرق بينما يقل ارتفاعها كلما اتجهنا صوب الغرب ، وكانت هذه الجبال تمثل عائقا طبيعيا بين المناطق الشرقية والغربية التى تتوسطها هذه السلسلة الجبلية، ولكن مع ذلك فهى ممتدة فى خط واحد متواتر بحيث لا تمزق شبه الجزيرة، وكان من نتيجة ذلك أنها فقدت بسهولة خطرها كحاجز طبيعى حين استطاع الرومان أن يتغلبوا على ارتفاعها عن طريق مد الطرق الحربية التى نحتوها على مدرجاتها، بحيث حين وصل الرومان مرحلة تضخمهم السياسى والاجتماعى لم تصبح هذه السلسلة عائقا أمام الوحدة السياسية الإيطالية لأن وضع إيطاليا كشبه جزيرة قد سهل إلى حد ما،

وإن كان قليلا نسبيا، مسألة الاتصال بين سواحلها عن طريق البحر، كما أن قسما كبيرا فى كل من شمالى إيطاليا وجنوبها لا تصل اليه هذه الجبال اطلاقا ، ومن ثم تصبح طرق المواصلات ميسورة بين كل من هذين القسمين وبين المناطق الواقعة شرقى أو غربى جبال الابنين ، كما أننا علينا أن ننوه بالقول أن هذه الجبال قد شكلت عقبة فى سبيل الوحدة والاتصال بين مناطق إيطاليا إلى حين إلا أنها لم تكن شراً كلها على شبه الجزيرة الايطالية ، فقد كانت مصدر خير عميم لها ذلك أنه يتخللها كثير من الوديان الغنية الفسيحة ، كما انه فى جهات عديدة من هذه الجبال توجد غابات كثيفة ، ومراع رحبة فسيحة ، وأهم من ذلك ان هذه الجبال تساعد على تكثيف السحب وهطول الأمطار ، وتبعا لذلك فإنه تنبع منها أنهار كثيرة تغذى الوديان السفلى بمياه الرى والحاملة للغرين والطمى الذى يعيد تجديد خصوبة تربتها ويزيد من إنتاجيتها .

ويلاحظ أن هذه الجبال تقرب كثيرا من الساحل الشرقى فلا تترك إلا الشريط الساحلى الضيق على طوال هذا الساحل فيما عدا منطقة أبوليا فى الجنوب حيث يوجد سهل فسيح يهيئ مراعى ممتازة للماشية والأغنام . وهذا الشريط الساحلى الضيق تقطعه عدة مجار مائية قصيرة ، ولكن هذا الساحل فى عمومه فقير فى الأرض الخصبة ، ومن ثم فقد كان قليل السكان . أما عن السهول الغربية فقد كانت رحبة فسيحة مقارنة بالسهول الشرقية ، وكانت مقسمة على أى الأحوال، إلى ثلاثة سهول هى من الشمال إلى الجنوب اتروريا فى الشمال ، ولاتيوم فى الوسط وكمبانيا فى الجنوب ، والجدير بالذكر أن بعض التلال المرتفعة تتناثر بين تلك السهول ، وأن بها أربعة أنهار كبيرة نسبيا وهى من الشمال إلى الجنوب: الارنوس (Arnus) ويبلغ طوله ٢٥٠ كيلومترا ونهر التيبر ويبلغ طوله ٤٠٣ كيلومترا ولسيريس (Leris) وفولتورنيوس (Volturmius) ويبلغ طوله ١٦٧

كيلومترا، وهذه الأنهار تنبع من جبال الابنين ، وهى سريعة الجريان شديدة التدفق، فمياهها تندفع كالسيل الجارف حاملة معها الطمى وصخور رملية تصب وتلقى بما تحمله فى البحر التيرانى .

وتوجد فى السهول الغربية عدة براكين بعضها خامدة وبعضها الأخر مازالت تمارس نشاطها منذ العصور القديمة، وبالرغم من نتائج البراكين المدمرة وشرورها المتسطيرة على السكان فقد كانت تغمر مدن بحميمها المتلهبة ، إلا أنها كانت خيرا وبركة على تربة السهول الايطالية فقد ساعدت تلك الحمم على تكوين تربة بركانية خصبة للغاية فى كمبانيا.

٣- طبيعة السواحل الايطالية وأثر البحر فى توجه إيطاليا :

يبلغ طول سواحل إيطاليا حوالى ٣٠٠٠ كيلومترا ، وهى قليلة التعاريج فقيرة فى الخلجان العميقة والموانئ الطبيعية الجيدة ، وهنا يصدق وصف استرابون بأن هذه السواحل خالية من الأماكن التى تصلح لحماية السفن فيما عدا عدد قليل من الموانئ الكبيرة، والساحل الشرقى يكاد يخلو من الموانى ولا يوجد به إلا ميناء برنديزيوم (Brundisium) فى أقصى الجنوب. وهذا الساحل قليل السكان عموما مقارنة بالساحل الغربى حيث توجد الأراضى الخصيبة والسهول الفسيحة ولا توجد فيه الموانى الجيدة إلا فى خليج نابولى وميناءان جيدان فى خليج جنوه وهما جنوه ولوناى بورتوس (Lunne pirtus) واللذان لم يكتسبا أهمية تذكر إلا فى وقت متأخر من التاريخ الرومانى. ومما يجدر بالملاحظة أن موانئ خليج نابولى ، وكذلك الميناء الكبير الوحيد على الشاطئ الجنوبى تارنتوم كانت فى قبضه اليونان، ولكن كانت المياه التى تحف بهذا الساحل ليست عميقة بل ضحلة مما كان يسهل رسو السفن الصغيرة فى المراحل الباكرة ، وعندما شاع استخدام السفن الكبيرة ،

وبدأ القراصنة يعتدون على الموانى المكشوفة ظهر على الفور مثالب الافتقار إلـــى الموانئ العميقة التى يسهل الدفاع عنها .

وإزاء ما امتاز به الساحل الغربى على الســاحل الشــرقى لشــبه الجزيــرة الايطالية من حيث وفرة العمران ، ووفرة الأراضى الخصيبة ، والأنــهار الكبــيرة نسبيا ، وأسباب التيسير لرسو السفن وتبادل التجارة ، نجده قد قام بدور رئيسى فــى تقدم إيطاليا ماديا وحضارياً ، ومع ذلك فقد كان هناك ظــاهرة قلــة الموانــئ بــه وتعرض الجزء الأوسط منه لرياح غير مواتية، وأيضا لتعرض الســاحل الشــرقى كله لتلك الرياح وهذا قد ادى عموما، إلى تأخير إيطاليا فى دخول ميــدان النشــاط البحرى إلى فترة متأخرة كثيرا عن تلك التى برزت فيها بلاد اليونـــان فــى هــذا الميدان، ولكن انتفعت إيطاليا من البحر، حين دفعتها الظروف إلى الخروج اليــه ، مستغلة موقعها المتوسط فى قلب البحر المتوسط والموانى على الرغم مــن قلتــها لاتصالاتها الخارجية ، والطرف الجنوبى لشبه الجزيرة وجزيرة صقلية الملاصقــة له يقتربان إلى حد كبير من الشواطئ الأفريقية ، كما ساعد على سهولة الاتصــال بهذه القارة وجود كل من ميناء بوتيولى (Puetole) وسيراكوز كنقطتــى انطــلاق نحو هذه القارة ، بينما كان كل من المنيائين تارنتم وبرندزيوم يمثلان نقطتى البدايــة الطبيعية للطريق نحو بلاد اليونان وسواحل القسم الشرقى للبحر المتوسط – وهكــذا كان الموقع المتوسط هو الذى هيأ لروما – التى أصبحت سيدة إيطاليا الفرصــــة – لأن تصير فى يوم من الأيام مقراً لأول وآخر امبراطورية فى التاريخ قدر لــــها أن تشمل كل حوض البحر المتوسط.

٤ -جزيرة صقلية :-

تعد جزيرة صقلية أقرب جزيرة إلى إيطاليا ولا يفصلها عن إيطاليا إلا مضيق ميسنا الضيق، كما أنه لا يفصلها عن قرطاجة إلا مساحة ١٢٨ كيلومترا، وعندما صارت روما سيدة على إيطاليا بعد زوال خطر برهوس. ونظرا لقربها الشديد من شبه الجزيرة الايطالية فقد رأت روما ضرورة السيطرة عليها وذلك لحماية شبه الجزيرة الايطالية من الغزو الخارجي، مما سبب صدامها مع كل من القوى اليونانية وعلى رأسها سيراكوز وقرطاجة والذى خرجت منه روما فائزة بعد صراع دموى مرير سنعرض له فيما بعد .

٥ -المناخ وأثره :-

يعد مناخ شبه الجزيرة الايطالية شبيه بمناخ بلاد اليونان، فباستثناء الجزء الشمالى (سهل البو) الذى يقترب من المناخ فى وسط اوربا ، فأنها تتمتع بمناخ البحر المتوسط المعتدل، وهو حار جاف صيفا دافئ ممطر شتاء، ويتميز بصفاء الجو من الغيوم إذ تحظى إيطاليا بـ ٢٣٠٠ ساعة إشراق من الشمس فى العام، ويمكن أن ندرك قيمة هذا إذ ما قارناه بساعات إشراق الشمس فى بريطانيا التى لا تتجاوز ١٥٠٠ ساعة فى السنة، ويرى بعض علماء المناخ أن صفاء السماء بضوء الشمس المشرق اللطيفة الحرارة يساعد على صفاء الذهن ، وهى صفة تتميز بها شعوب البحر المتوسط، وقد سبق أن نوهنا إلى ذلك فى الحديث عن مناخ بلاد اليونان ... ونلاحظ ان هناك تباين فى درجات الحرارة وكثافة المطر من مكان إلى أخر فى إيطاليا تبعا لارتفاع المكان عن مستوى سطح البحر أو لانخفاضه عنه ولموقعه فى الشمال أو الجنوب ولقربه أو لبعده عن البحر، وعموما فأن نسبة

سقوط الأمطار وتوزيعها السنوى تكون كافية لزراعة مختلف أنواع الحبوب والأشجار المثمرة ، أما بالنسبة لتوزيع سقوط مياه الأمطار على مناطقها ، نلاحظ أن منطقة سهل البو والسفوح الغربية لجبال الابنين لها الحظ الأوفر ، ويقل المطر كلما اتجهنا جنوبا نحو صقلية ، وبفضل وفرة المياه فى شمال ايطاليا وفى غربها وسقوط الأمطار على جبالها ، وبفضل تربتها الخصبة أن كانت ايطاليا محط أنظار هجرات عديدة من مناطق قريبة منها وأخرى بعيدة عنها. ونظراً لكثرة هطول الأمطار فى بعض المناطق منها أن تكونت مستنقعات فى أراضى سهولها المنخفضة مثل مستنقعات سهل نهر التيبر، وهذه المستنقعات كانت بيئة لتكاثر البعوض مما جعل سكنى هذه المناطق ضار بالصحة لأنتشار الملاريا.

وأمام هذه الوضع ، فقد سعى سكان إيطاليا لمواجهة هذا الخطر ، وذلك بابتكار وسائل الصرف المنتظمة والزراعة المستمرة للارض لأن إهمال الأرض الواطئة ولو لفترة قصيرة يزيد من تكاثر البعوض مما يؤدى إلى انتشار حمى الملاريا بصورة وبائية ، وكان الجميع يعتقدون انه إذا هجرت الأرض مرة لن تصلح مرة أخرى للزراعة ، وتبين للايطاليين بالخبرة والتجربة أن خير الطرق للوقاية من هذه الحمى هو سكنى الأراضى المرتفعة؛ وارتداء الملابس الصوفية فى جميع فصول السنة ، وإبقاء النار ليل نهار مشتعلة داخل البيوت؛ ولعل هذا يفسر الاهتمام بالنار لدرجة التقديس والعبادة داخل المنازل، وكذلك تبين لهم أن الإقامة داخل أسوار المدن حماية لهم من هذا الوباء وهذا قد يفسر اهتمام الرومان بإقامة الأسوار حول المدن التى ينشئونها ، والذى يمكن تفسيره أيضا وبشكل مؤكد بأن بناء الأسوار كان لأغراض دفاعية ضد هجوم القوى المجاورة .

كما سعى الرومان والايطاليون إلى تجفيف أراضى هذه المستنقعات وتحويلها إلى حقول غناء .

موارد الثروة فى إيطاليا وأثرها على نشأة الحضارة

١- الثروة الزراعية والحيوانية :-

تتمتع شبه الجزيرة الايطالية بتربة خصيبة وبوفرة المياه الضرورية لريـــها من الروافد النهرية النابعة من قمم جبال الألب ، ويتكرر نفس الشيء فـــى الاقليـم الغربى من شبه الجزيرة ، وإذا ما زدنا على ذلك الأمطار التــى تـروى المنــاطق المرتفعة ، فإن رقعة الأرض المنزرعة أو القابلة للزراعة كانت كبيرة ، كما مكــن هذا بعض سهولها مثل سهل كمبانيا أن ينتج ثلاثة حاصلات متعاقبـــة فــى العــام الواحد ، ونتيجة لهذا فقد اشتهرت إيطاليا فى العصور القديمة بمزروعاتها وتربيـــة الحيوانات. فقد كانت أراضيها السهلية تنتج مختلف أنواع الحبوب، كما كان يجـــود فى كل أنحائها فيما عدا المناطق المرتفعة زراعة الكروم والزيتـــون خاصـــة منــذ القرن الأول، كما كان تغرس أشجار التين والنقل ودخلت حــاصلات جديــدة مــن الشرق مثل التفاح والكمثرى .

وكانت إيطاليا تتفوق على جل مناطق البحر المتوسط من حيث الغنـــى فــى غاباتها ، فكانت تنتشر فى الإقليم الشمالى على كل من الســفوح الجنوبيـــة لجبـــال الألب ، وفى وادى نهر ألبو ، وعلى امتداد ســاحل ليجوريـــا (Liguria) ، وفـــى الإقليم الجنوبى على سفوح جبال الإبنين ، وفى سهل لاتيوم وأوديـــة نـــهر التيـــبر وروافده ، وكذلك فى جنوب اتروريا حيث أعاقت طويلا زحف الرومان عبر هـــذا الإقليـم ، وكان الرومان والاترور يون واليونان والقرطاجيـــون يقومون باســـتخدام الخشب الايطالى فى بناء السفن، كما كان يتم استخدامه فى المبانى وصنع الأثـــاث، وكانت غابات الصنوبر مصدرا هاما للقطران والصمغ .

كما أن أحراج أشجار البلوط والزان والقسطل كـــانت توفـر علفـا ثمينـا للخنازير ، ومن المرجح أن إيطاليا كانت قديما اغنى بغاباتها واحراجها ممـا هـى اليوم . بل ويبدو أنه قبل ميلاد السيد المسيح بعدة قرون كانت مساحة الغابـات قـد اختفت نتيجة لنشاط الحطابين خدمة لأغراض مختلفـة ، وكذلـك نتيجـة لنشـاط الراغبين فى تطهير الأرض لزراعتها أو تحويلها إلى مراعى، ويبدو أنـه حيثمـا قطعت الأشجار مرة كلما خلفها أشجار أخرى ذلـك أن التربـة الصالحـة لنمـو الأشجار على المنحدرات الجبلية كانت عبارة عن طبقة رقيقة، وبعد قطع الأشـجار كانت مياه الأمطار تجرف تلك التربة قبل أن يتمكن النبت الجديد من النمو بل أنـه حينما أمكن ذلك كانت قطعان الأغنام والماعز التى تطلق لترعى فى تلك الأمـاكن كفيلة بالقضاء على كل ما ينمو فيهما.

واشتهرت إيطاليا بمراعيها الرحبة النضـرة ، وفـى العصـور الحجريـة والبرنزية كانت تربية الماشية تحتل المركز الأول قبـل الزراعـة فـى الاقتصـاد الايطالى .

واستخدمت رؤوس الماشية كأساس لتقدير ثراء القبيلـة والعائلـة. وأعتنـى سكان شبه الجزيرة الايطالية بمختلف أنواع الماشية ، كالأغنام والمـاعز والخيـول والحمير والخنازير كما أنهم ربوا البقر ، ولكن هذه الفصيلة من المواشـى كـانت محدودة العدد فى البداية ، وخاصة فى سهل لاتيوم ، ولقد شربوا حليب البقـر فـى بادئ الأمر ولم يعرف عنهم بأنهم استهلكوا لحمه ، ولقد حمت القوانيـن الصارمـة البقر فكان الموت جزاء من يجرؤ على قتل بقرة ، ونجد صـدى لأهميـة تربيـة الماشية ومنزلة بعض الحيوانات فى ممارسة شعائر وطقوس معينة ، فمثلا تطـهير منطقة أو تحريم شئ (Lustratio) والطواف يتم وفق تقاليد محددة ويتـولاه كـاهن يجر وراءه خنزير (Sus) وشاة (Ovis) وثورا (Taurus) وبعـد ان تتـم عمليـة

الطواف ، تذبح الحيوانات ويراق دمها بقرب ما يراد تكريسه مقدسـاً أو محرمـاً، ويطلق على هذه العملية اسم (suovetaurile) والاسم مركب من مفـردات ثـلاث ترمز إلى الحيوانات التى يتم التضحية بها، ومما هو جدير بالتنويه ان اسم إيطاليـا القديمة ربما كان مشتقا من (Italia) أو هو تحريف يونـانى للكلمـة الاتروسـكية القديمة (Vitellio) ومعناها أرض الثيران كناية عن الغنى فى المراعـى وتربيـة الماشية، وكان اليونان هم أول من أطلق هذا الاسم فى القرن الخامس قبل الميـلاد على الطرف الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة والذى شمل كعـب الحـذاء الايطـالى المجاور لصقلية ، وبالتدريج أخذ مدلول هذا الاسم يتسع فى استعمالات المؤرخيـن القدامى له ، وأصبح يعنى إيطاليا قبل نهاية القرن الأول قبـل الميـلاد ، ويشـمل جغرافيا وسياسيا كل البلاد من أقصى الجنوب حتى جبال الألب فى الشمال .

الثروة المعدنية ومواد البناء والعمارة :-

كانت شبه الجزيرة الايطالية تسد حاجتها من النحاس والحديد من مناجمـها ، فقد وجدت مناجم النحاس فى اتروريا وليجوريا وجزيرة سردينيا، وجـدت أيضـا مناجم الحديد فى كل من جزيرة البا القريبة من شاطئ اتروريا وفى إقليم اتروريـا. وبجانب مناجم النحاس والحديد فقد وجدت مناجم الزنك والفضة فى سـردينيا كمـا وجدت مناجم القصدير فى البا.

وكانت إيطاليا تسد حاجتها من الملح من خلال استغلال منـاجم الملـح فـى صقلية ، ومن المستنقعات الملحية الواقعة عند مصب نهر التيـبر وعلـى امتـداد الساحل الغربى فى وسط إيطاليا .

وقد حبى الله إيطاليا بمختلف أنواع الأحجار مثل الأحجار الجيرية والبللورية والجرانيتية والصوانية المتبلورة ، والرخام الذى وجدت محاجرة فى توسكانيا وليجوريا وفيرونا ، كما أن تربتها قدمت ووفرت المادة الخام لصناعة الأوانى الفخارية ، والطوب اللين والأحمر. وقد ساعدت هذه المواد على إقامة منشأت مدنية ودينية وعلى قدر من الفخامة، كما كانت مادة طيبة استخدمها الفنانون فى تشكيل تماثيلهم .

وهكذا فقد توفرت للايطالى عوامل بناء حضارة عظيمة ودولة متحدة قوية منيعة الجانب ، ولكن كان ذلك بعد جهد، فلم تكن الاتصالات الداخلية سهلة يسيرة بل صعبة عسيرة ، وذلك لامتداد شبه الجزيرة امتداد طويلا يلازمه امتداد جبال الابنين امتدادا منحرفا مما ترتب عليه إعاقة الاتصال بين كل من شرق وغرب شبه الجزيرة الايطالية هذا من جهة ومن جهة أخرى بين شبه الجزيرة الايطالية وبين سهل وادى نهر البو ، كما أن أكثر انهار شبه الجزيرة كانت سريعة الجريان وتتباين كميات المياه بها من فصل إلى فصل، ومن ثم فلم تكن مواتية لاستخدامها فى النقل والانتقال.

وهكذا كانت وحدة إيطاليا الجغرافية وحدة ظاهرية اكثر منها وحدة حقيقية وقد أسهمت الطبيعة مرة أخرى فى تعويق وحدة إيطاليا ، كما أن المميزات التى تمتعت بها إيطاليا شجعت على الهجرة إليها شعوبا عديدة شديدة اليأس محبة للحرب متباينة فى الأصل والحضارة وهذا قد عوق وأخر وحدة إيطاليا والتى تمت أخيرا على يد مدينة روما بعد جهود مضنية منها .

كان موقع روما الاستراتيجى الهام ، فى وسط إيطاليا وفى مكان حصين ، قد أكسبها ميزة كبرى على مدن الشمال والجنوب سواء بسواء، ومع ذلك لم يتيسر

لمدينة روما ان توحد شبه الجزيرة إلا بعد خوضها غمار حروب دامية ، وإذا كـــان موقع روما قد هيأ لها الفرصة ورشحها للقيام بدور القائد لتوحيد إيطاليا كلها، فقـــد كان لكثرة وكثافة سكانها ولمركزها المتوسط فى قلب البحر المتوسط أبلغ الأثر فـــى تشجيع روما على مد سيطرتها أولا فى منطقة مجالها الحيوى فى الغرب ، ثم ثانيـــا فى الشرق حيث توجد مراكز الحضارة العريقة والتى نهلت من معينها وطورت مـــا نهلته منها بفضل ما أتاحته ظروفها المادية الكبيرة. وقد نقلت ما نهلته وتعلمته إلـــى الغرب، فكانت معلمة للغرب وطالبة علم ومدينة بعلمها للشرق .

وبعد ان عرضنا لأحوالها الجغرافية والطبيعية ولموقعها وآثار ذلك عليـــها ، ننتقل الآن للحديث عن مراحلها الحضاريـــة ، ونبـــدأ بعـــرض لبـــذور وجـــذور حضاراتها فى العصور الحجرية والمعدنية .

الفصل الثانى

حضارة إيطاليا وروما من العصور الحجرية

إلى سقوط الملكية فى روما

حضارة العصر الحجرى

مصدرنا الأول والأساسى لهذا العصر هو آثار ومخلفات إنسان هذه العصور، كما يقدم لنا علم اللغات بعض المعلومات ويعطينا بعض التفسيرات لبعض ظواهر هذا العصر ولكن، فى الغالب، فإن ما يقدم هو أضواء باهتة ، لقد كشف لنا المسح الأثرى والتنقيبات الأثرية عن سكنى الإنسان لشبه الجزيرة الايطالية من أزمنة سحيقة استخدم فيها أدوات من الحجر، بدأت بادوات غير مشذبة إلى أدوات أتقن صنعها وزاد من كفائتها. ويقسم علماء الآثار هذا العصر ثلاثة عصور وهو تقسيم اصطلاحى لأن أدوات العصر الحجرى عموما متداخلة ومتزامنة مع بعضها البعض فى السمات ، وأول هذه العصور هو العصر الحجرى القديم ، وثانيها العصر الحجرى الوسيط ، وثالثها هو العصر الحجرى الحديث. وسنحاول أن نلقى الضوء على هذه العصور دون الخوض فى تفصيلات مظاهرها الدقيقة ونبدأ بالحديث عن أولها .

١- العصر الحجرى القديم: (٦٠٠,٠٠٠ - ١٢,٠٠٠ قبل الميلاد) :-

درج العلماء على تقسيم هذا العصر إلى ثلاثة عصور وهى على النحو الآتى:

١- العصر الحجرى القديم الأول ويبدأ من حوالى ٦٠٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد وينتهى حوالى ٢٢٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ويلاحظ ان هذه الحقبة لا يوجد بها آثار ومخلفات تدل على سكنى الإنسان لشبه الجزيرة الايطالية . ولكن بدأت آثار الإنسان فى الظهور فى كل من العصرين الحجرى القديم الثانى والثالث ، ويبدأ العصر الحجرى القديم الثانى من حوالى ٢٢٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد

وينتهى حوالى ٧٥,٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد، بينما يبدأ العصر الحجـــرى القديـــم الثالث من٧٥,٠٠٠ سنة قبل الميلاد وينتهى حوالى ١٢,٠٠٠ سنة قبل الميـلادى. وأهم خصائص هذين العصرى كما يلى :-

١- كشفت معاول الآثاريين عن أن أرض شبه الجزيرة الايطالية كانت مأهولة منـذ كل من العصرين الحجرى القديم الثانى والثالث ، فقد عثر على مخلفات بشـــرية فى كل أنحاء إيطاليا .

٢- يلاحظ أن مناخ هذه الفترة كان معتدلا، وأن إيطاليا تغطيها الغابات والمراعـــى. وعرفت إيطاليا فرس النهر والفيل والكركدن والوعل والثور والخيل وغير ذلـــك من الحيوانات .

٣-عرفت إيطاليا فى العصر الحجرى الثانى الإنسان المعروف بإنسان النياندرتـــال، إذ كشفت لنا جهود الآثاريين عن بقايا هيـــاكل بشـــرية وعـــن أدوات وأسـلحة صوانية فى الكهوف وفى حصباء الأنهار ، هذا فضلا عن عظام حيوانات فـــى كهوف مثل كـــهف رومـــا نللـــى (Romanelli) وكـــهوف جبـــل بليجويـــون (pellegleon) ، وأقدم آثار الإنسان تعود تقريبا إلى ٢٠٠,٠٠٠ قبـــل الميـــلاد وعثر عليها بالقرب من منطقة خيلتى (chielti) وفينوسا (venosa) ، كما تـــم الكشف عن أقدم جماعة بشرية سكنت إيطاليا فى توريمبترا (Torrimpietria) ؛ وكشفت بقايا هياكل إنسان النياندرتـــال فـــى ساكوباســـتورى (Sacopaotore) بالقرب من مداخل مدينة روما وفى كهوف جبل تشيرنيو .

٤- عرفت أوربا وإيطاليا فى العصر القديم الثالث هجرة بشرية إليها من كـــل مـــن قارتى أسيا وأفريقيا، وعاش إنسان ذلك العصر فى المغارات والكـــهوف اتقـــاء

من الحيوانات الكاسرة والظروف الطبيعية ، وكان يتميز إنسان هذا العصر بطول القامة وبرأس مستطيل دقيق التقاطيع .

٥- كشفت لنا جهود الآثاريين عن أن إنسان العصر الحجرى القديم الثالث قد عرف فن الرسم والتصوير ، إذ وجدت رسومات وتصاوير فى الكهوف صورت لنا كل من الأشكال البشرية والحيوانية والرسوم الهندسية ، وتمثل الأشكال الحيوانية التى كان يتم اصطيادها مثل الجاموس والوعل ، كما صورت لنا الحيوانات الأخرى التى كانت تعيش فى إيطاليا مثل الحمار الوحشى والحصان .... ألخ . ومن الجدير بالملاحظة أنه قد شاع تصوير الأكف البشرية ، وهذا يشير ويرمز لقدرة يد الإنسان الخارقة، فقد كانت يده هى أداته الأساسية فى قضاء حاجاته وصنع أدواته.

٦- كشفت لنا جهود الآثاريين عن أن إنسان العصرى الحجرى القديم الثالث قد دفن موتاه فى الكهوف مثل كهف جريما لدى الواقع على شاطئ ليجوريا. وأن الموتى كان يتم دفنهم فى خنادق وحفر عميقة أما ممددين وإما جالسين القرفصاء، وكان يتم تغطية الجثث بكميات كبيرة من الأصداف البحرية وبقلائد من تلك الأصداف. كما كان يتم وضع أدوات صوانية وبقايا المغرة "اللون الأحمر" والتى كانت تستخدم ، على ما يبدو ، فى طلاء جثث الموتى. وهذا قد يوحى الى أن إنسان هذه الحقبة كان يعتقد فى حياة أخرى ، وانه كان يعتقد بأنه بحاجة إلى الأشياء المادية التى كان يستخدمها فى حياته بعد مماته .

٧- عرف الإنسان فى هذا العصر النار ، ولكن ظل الإنسان يستخدم أدواته وأسلحته من الخشب والصوان. وأنه استخدم النار لاضاءة وتدفئة الكهوف ، ولانتاج طعامه ، وليدافع بواسطتها عن نفسه ضد كواسر الحيوانات ، وعموما

فقد كان معرفته للنار يمثل ثورة وانقلابا فى حياته يبدأ أثرها فيما بعد ، وقد عثر على الكثير من المراكز الحضارية فى كل من جنوب إيطاليا وفى صقلية.

٨- عاش الإنسان فى هذا العصر على كل من جمع والتقاط الثمار والنباتات وعلى الصيد البرى ، وهذا يعنى أن حياته لم تعرف الاستقرار ، وكان التنقل والترحال هو اهم ما يميزها. ويبدو أن المرأة فى هذا العصر كان لها دور فاعل ومكانة سامية، فقد كان الأطفال ينسبون إليها. وبعبارة أخرى لقد كان نظام الأمومة هو النظام السائد، الذى تم فيه تقديس المرأة ، فقد عثر بالقرب من بحيرة ترسيمينى (Trasimene) على تماثيل نحتها إنسان هذا العصر ، وهى مصنوعة من العاج والخشب ، وتمثل المرأة أو بعض أجزاء جسمها ، ولعلها تمثل ألهة أنثى وعلى العموم كان سكان هذا العصر قليلى العدد متناثرين .

٢-العصر الحجرى الوسيط:

يبدأ هذا العصر من حوالى ١٢,٠٠٠ سنة قبل الميلاد وينتهى حوالى ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وقد استمرت الكثير من الظواهر السابقة الذكر من العصر الحجرى القديم، فقد استمر الإنسان فى الجمع والالتقاط ، والصيد للحيوانات والأسماك ، وسكنى الكهوف والرسم على جدرانها، ولكن تطورت أدواته الصوانية تطورا كبيرا وتحسنت تقنياته وصناعاته، وتصور المناظر والرسوم فى الكهوف حياته العنيفة ، فقد كان يصطاد بالقوس والسهم ، وأن الإنسان كان يستخدم القوس فى اقتتاله مع أقرانه ، وقد وجدت أثار هذه الحقبة فى صقلية وجنوب إيطاليا وفى منطقة ليجوريا.

٣-العصر الحجري الحديث:

يبدأ من حوالى ٥٠٠٠ ق.م - إلى ما بعد عام ٣٠٠٠ ق.م ومن أهم سماته:

١- يلاحظ هنا ان التحديد الدقيق لبداية ونهاية هذا العصر يمثل معضلة بالنسبة للدارسين ، فإذا ما كان يبدأ بخمسة الاف سنة قبل الميلاد فإنه ينتهى فى فترة ما من الالف الثالث قبل الميلاد ، بل أن سمات هذا العصر تستمر فى الالف الثانية قبل الميلاد .

٢- يرى البعض من العلماء أن حضارة هذا العصر جاءت نتيجة لتطور الحياة السالفة، وأنه ليس من الضرورى أنها قد جاءت نتيجة لهجرة جديدة لأن عنصر الاستمرارية موجود من العصر الحجرى الوسيط ، بينما يرى البعض الأخر انه قد هبط على إيطاليا أفواج متتابعة من المهاجرين الجدد ، وأن البعض منهم قد جاء من شمال أفريقيا ، ودخل شبه الجزيرة الايطالية وصقلية وسردينيا وكورسيكا ، بينما جاء البعض الأخر من أسبانيا عبر الطريق الساحلى فى جنوب فرنسا ، ووصل إلى ليجوريا فى الشمال الغربى من إيطاليا، بينما جاء البعض الأخر من قلب أوربا ودخل وادى نهر البو عبر الممرات الجبلية فى الألب، وقد كشفت جهود الآثاريين عن وجود عدة أقوام مختلفة اللغات كانت تعيش فى إيطاليا حوالى عام ٢٥٠٠ ق.م . ولكن لغات هذه الأقوام كانت مختلفة عن اللهجات الهند واوربية، وتبين من الهياكل التى عثر عليها فى المقابر أن أغلب الأقوام الذين استقروا فى إيطاليا فى هذا العصر كانوا ينتمون إلى جنس البحر المتوسط وخصائصهم هى القامة المتوسطة والبشرة السمراء والشعر الداكن وجمجمة تميل إلى الاستطالة مع الفك المستقيم . كما وجدت جماعات ذات رؤوس مستديرة وهذا يكشف لنا عن هجرة شمالية من قلب أوربا ، كما تبين وجود جماعات أخرى تجمع بين الجماجم المستديرة

والمستطيلة وهذا يقدم لنا دليل على أن هناك امتزاج بين أصحاب الهجرات الشمالية وبين عنصر البحر المتوسط .

٣- كان المهاجرون الجدد أكثر تحضرا عن سابقيهم من السكان الأصليين ، وهذا يظهر من أدواتهم وأسلحتهم الصوانية الأكثر أتقانا فى تشذيبها وصقلها ، والأدوات التى صنعوها وشكلوها هى الفؤوس والأسلحة كالرماح والسكاكين والخناجر والمخارز والمناشير والمطارق وسنانير الصيد. وقد عثر على هذه الأدوات فى مواقع مختلفة من إيطاليا فى وادى نهر البو وصقلية وأبوليا وليجوريا وأتروريا وأومبريا وبيكنوم (picenum) وسط إيطاليا بمحازاة البحر الأدرياتيكى وكذلك فى جزيرة سردينيا.

٤- عرفت شبه الجزيرة الايطالية فى هذا العصر زراعة وإنتاج الحبوب واستئناس وتدجين أنواع مختلفة من الحيوانات ، ومن الجدير بالذكر أن إنتاج واستزراع الحبوب والحاصلات الأخرى قد بدأ فى الشرق الأدنى وانتقل منه إلى مناطق البحر المتوسط وإلى الجزء الشمالى الغربى من أوربا، ومن ثم فعلى ما يبدو أن المهاجرين من شمال أفريقيا قد نقلوا إلى شبه الجزيرة الايطالية نظام الزراعة وادخلوه فى سردينيا وكورسيكا وصقلية وجنوب إيطاليا ، وأن المهاجرين من قلب اوربا واسبانيا قد ادخلوه إلى شمال إيطاليا وشرقها. ويحتمل أن يكون نظام الزراعة قد ظهر لأول مرة فى إيطاليا حوالى عام ٣٥٠٠ ق.م وأنتشر فى كل أنحائها بالتدريج حوالى عام ٢٥٠٠ ق.م . ويبدو أن سر انتشار نظام الزراعة فى كل أنحاء إيطاليا يعود إلى الأسلوب البدائى فى الزراعة ، فلم يكونوا يعرفون فنون المحافظة على خصوبة الأرض ، ولذلك اضطروا للهجرة كل بضع سنين بحثا وراء أرض جديدة. وقد زرع سكان إيطاليا أنواعا مختلفة من الحبوب والكتان ولم يمارسوا غرس أشجار الفاكهة ، ومن ثم فقد كانوا يجمعون

البرى منها. وعلى العموم كانت الزراعة تمثل المصدر الثانى بعد تربية الحيوان ، ولكنها كانت تمثل ثورة فى تاريخ إيطاليا حيث أدت إلى معرفة الإنسان الاستقرار شبه الدائم والدائم . أما عن تربية الحيوان ، فقد استأنس سكان إيطاليا الحيوانات ، وقاموا بتربيتها مثل الثيران والأغنام والماعز والخنازير والحمير.

٥- كان لمعرفة الإنسان للزراعة ولتدجينه الحيوان ، فى هذا العصر ، أثره فى جعله يميل إلى الاستقرار وعدم التنقل والترحال ، وبدأ يعرف حياة العيش فى تجمعات كبيرة ، وهذا ما كشفته لنا تنقيبات الآثاريين فى جنوب وادى نهر البو وفى كل من الجزء الجنوبى الشرقى من إيطاليا وصقلية. وقد عاش هؤلاء السكان فى هذه القرى فى أكواخ مستديرة وبيضاوية الشكل ، وتحيط بقراهم مباشرة خنادق نحتوها فى الصخر ثم خنادق تحيط بالقرية وحقولها .

وزاد عدد سكان هذا العصر زيادة كبيرة ، وذلك بفضل إمكان إنتاج وتوفير كميات كبيرة من الغذاء بانتظام وبفضل معرفتهم طريقة تخزينها وحفظها ، وكانوا يكملون ما يحتاجون إليه من طعام ، بواسطة الصيد وجمع الأسماك الصدفية ، الذى كانوا قد درجوا عليه من العصور الحجرية السابقة. وإذا كان هذا العصر قد شهد وعرف التجمعات والمستوطنات البشرية الكبيرة إلا ان ظاهرة سكنى الكهوف قد استمرت ، إذ نجد أن نفرا من سكان إيطاليا ما يزال يعيش ويدفن موتاه فى الكهوف فى كل من صقلية وليجوريا.

٦- أدخل المهاجرون الجدد إلى إيطاليا كل من صناعتى النسيج والفخار، وكانت الآنية الفخارية تصنع باليد ثم توضع فى أفران غير مسقوفة ، ونظرا لتنوع وتعدد متطلبات واحتياجات الإنسان اليومية والجنائزية ، فقد تعددت أشكال

وأحجام الآنية الفخارية ، وكان منتجوها يزخرفونها بزخرفة هندسية ، وظهر بمرور الزمن فروق فى صناعة الفخار وتلوينه ، فقد عثر فى كل من جنوب إيطاليا وجزر ليبارى على فخار ملون أكثر جاذبية من فخار المناطق الأخرى ، ومما هو جدير بالقول أن فخار تلك الحقبة يتشابه وله وشائج وثيقة مع فخار مبكر للغاية ظهر فى شبه جزيرة البلقان وغرب آسيا وفى شمال أفريقيا. وعموما فقد عثر على فخار فى مختلف أنحاء إيطاليا فى جنوب إيطاليا وصقلية وشمال غرب إيطاليا.

٧- بعد استقرار الإنسان فى هذا العصر فى تجمعات بشرية كبيرة ، بدأ يتقهقر دور المرأة الذى كانت تلعبه ، وتحول المجتمع إلى مجتمع أبوى مع بقاء أثر لجانب من نشاط المرأة ودورها وتقديسها وجعلها من بين معبوداته .

٨- أنه على الرغم من أن التنقيبات الأثرية قد كشفت لنا عن تباين واختلاف فى المقابر من منطقة إلى أخرى فى إيطاليا فإنها قد كشفت لنا أيضا عن أن عادات الدفن فى كل أرجاء إيطاليا كانت متماثلة ، فقد كان يتم دفن الموتى تقريبا فى وضع القرفصاء "وضع الجنين فى بطن أمه" ، وكشفت التنقيبات الأثرية أن الدفن كان يتم أما فى خنادق أو حفر أعدت خصيصا لهذا الغرض ، وأنه أحيانا كانت جوانب المقابر وفتحاتها تغطى بالواح حجرية ، وأحيانا أخرى كانت تملئ باكوام من الحجارة لحماية جثث الموتى التى كانت تدفن فى العادة بملابسها وحليها ، وكان يتم وضع اسلحتهم بجانبهم وكذلك آنية فخارية تحتوى طعاما وشرابا ، وقد تم العثور على هياكل عظمية مطلية بالمغرة ، واختلف العلماء أمام ذلك، وانقسموا إلى فريقين أولهما يرى أنه بعد الوفاة كان يتم نزع اللحوم وبعدها كان يدهن الهيكل، وثانيهما : انه بعد تآكل اللحم كان الهيكل يدهن ويعاد دفنه .

٤- العصر الحجري النحاسي :-

لا نستطيع أن نحدد بدقة متى بدأت معرفة معدن النحاس والأدوات النحاسـية في إيطاليا ، وما يمكننا قوله هو أنها عرفته في فترة الألف الثالث قبـل الميـلاد ، ويلاحظ أن مناطق إيطاليا المختلفة قد عرفت استخدامه في أوقات مختلفة تـتراوح ما بين ما قبل القرن العشرين قبل الميلاد والقرن الرابع عشر قبـل الميـلاد. فقـد كشفت التنقيبات الأثرية أن كل مـن المنـاطق الشـمالية (لومبارديـا واتروريـا) والجنوبية (اومبريا صقلية) من إيطاليا قد عرفت النحاس كما عرفته أيضاً منـاطق إيطاليا الوسطى . ويتسم هذا العصر بالسمات الآتية :-

١- استمر استخدام الأدوات الحجرية والصوانية جنبا إلى جنب اسـتخدام الأدوات النحاسية ، ومرد ذلك إلى أن كمية النحاس التي كانت في متناول أيدي السـكان غير كافية لسد احتياجاتهم ، هذا فضلا عن أن معدن النحاس وحده كمـادة أقـل صلاحية وصلابة من الحجر للوفاء ببعض الأغراض . وعمومـا فقـد كـانت مظاهر الحضارة في هذا العصر تنم عن تطور تدريجي بطـئ مـن حضـارة العصر الحجري ، وآية ذلك أنه أحيانا يكاد يتعذر على الباحث المدقق أن يفـرق بين أدوات العصر الحجري الحديث والعصر الحجري النحاسي .

٢- لقد عرفت إيطاليا معدن النحاس نتيجة لهجرة كل من الشعوب الـهند وأوربيـة من منطقة الدانوب الغنية بالنحاس ، وكان أهل الدانوب قد عرفوا طريقهم إلـى إيطاليا في العصر الحجري الحديث ، ولهجرة أخرى أيضاً من شـرق البحـر المتوسط ، أو نتيجة لصلاتهم وعلاقتهم بحضارات حوض بحر إيجة والسـاحل السوري ، فمن المؤكد اليوم أن الحضارة بمظاهرها المختلفة قد انتقلت اعتبـاراً من الألف الثالثة قبل الميلاد ، من الشرق إلى الغرب ، ويرى العالم كلود شـايفر

أن الأقوام من حملة الأطواق التى سكنت الساحل الكنعانى، حيث استخرجت المعادن من مناطقه ومن المناطق المجاورة له، قد هاجرت بعد ان نضب قسم كبير من المعادن إلى أوربا الوسطى والغربية وعلمت سكانها صناعة المعادن وكان ذلك فى أوائل الألف الثانية قبل الميلاد . وإذا جاز أن منطقة الدانواب وشرق البحر المتوسط قد زودتا إيطاليا بالنحاس ، فإنه إزاء غناء وثراء اسبانيا فى النحاس فإنه من الراجح أنها زودت إيطاليا بهذا المعدن أيضاً .

٣- يلاحظ أن هذا العصر كان عصرا قصيرا أو انتقاليا ، إذ نجد أن بعض مناطق إيطاليا الوسطى قفزت مباشرة من العصر الحجرى النحاسى إلى العصر البرنزى حيث يعتقد أن عصر البرنز قد بدأ بها فى النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد. ومما هو جدير بالملاحظة أن العصر الحجرى النحاسى قد أستمر إلى حوالى ١٨٠٠ قبل الميلاد فى المنطقة الغربية من وادى نهر البو ، وفى المنطقة الوسطى والشرقية من هذا الوادى إلى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد .

٤- دلت الحفريات الأثرية على أن السكان قد بدأوا فى هذا العصر يعتنوا أكثر من ذى قبل بتربية مختلف أنواع المواشى والماعز والأنعام والخنازير.

٥- كشفت التنقيبات الأثرية عن تطور فى أنواع المقابر، فقد تم الكشف عن نوعين من المقابر الجماعية أولهما نحتت فى جوانب التلال والجبال وأن تفاوتت مساحاته وينتشر هذا النوع من المقابر فى صقلية وسردينيا وجنوب ووسط إيطاليا. وثانيهما: قد كانت مقابر حجرية مبنية فوق سطح الأرض على شكل حجرات وجدرانها واسقفها بنيت من الحجر .

٥- عصر البرنز :-

أثمرت التنقيبات الأثرية عن معلومات حول دخول معدن البرنز واستخدامه في إيطاليا وأوربا الغربية ونوجزها على النحو الآتي:-

١- كان الرأى السائد هو تأخر ظهور البرنز فى أوربا الغربية وإيطاليا حتى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد ، بينما وجد وشاع استخدامه فى بلاد الشرق ، وفى مناطق عالم بحر أيجه بين مطلع ونهاية الألف الثالثة قبل الميلاد .

٢- عرفت إيطاليا استخدام هذا المعدن فى الربع الأول من القرن العشرين قبل الميلاد، ولكن اختلفت الأوقات التى دخل فيها من منطقة إلى أخرى ، إذ يحتمل أن المناطق الغربية من وادى نهر البو قد عرفته حوالى ١٨٠٠ قبل الميلاد، بينما عرفته المناطق الشرقية والوسطى من هذا الوادى حوالى ١٤٠٠ قبل الميلاد . بينما يصعب علينا تحديد متى دخل فى المنطقتين الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة الايطالية ، ولكن من المرجح أن ذلك قد حدث فى النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد ، بينما من المحتمل أن كل من صقلية وسردينيا قد عرفتا هذا المعدن قبل ظهوره فى وادى نهر البو ، وذلك بفضل العلاقات التجارية بين هاتين الجزيرتين وبين كل من كريت المينوية ، وبلاد اليونان الميكينية منذ قبل عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، ودليلنا على ذلك الأسلحة البرنزية من الطراز الكريتى والآنية الفخارية من الطراز الميكينى فى مقابر صقلية التى ترجع إلى عصر البرنز ، وليس ببعيد أن حضارة صقلية قد اثرت على جنوب شبه الجزيرة الايطالية، وأن يكون ظهور حضارة هذا العصر فى هذه المنطقة أسبق من المنطقتين الوسطى والشمالية من شبه الجزيرة الايطالية .

٣- كشفت التنقيبات الأثرية عن أن استخدام البرنز لا يعنى التخلى عن استخدام الأدوات الحجرية فقد ظل استعمالها جنبا إلى جنب مع كل من النحاس والبرنز، وقد بقى استخدام المعادن محصورا جدا فى البدء وقاصرا على صنع بعض أدوات الزينة ، وبعد أن أهتدى الإنسان إلى خواص تلك المعادن وصار يستخدمها فى صنع أدواته وأسلحته مما زاد من قدراته وإمكاناته وحسن من تقنياته ، ومن الأمثلة على استمرار إنسان هذا العصر فى استخدام أسلحة من كل البرنز والحجر ما عثر عليه المنقبون فى جبانتين فى ريميديليو (Remeldello) فى وأدى نهر البو ، ومقابر الجبانتين هى مقابر فردية وهى عبارة عن حفر فردية فى الأرض وفى كل منها ميت دفن فى وضع القرفصاء ويمسك الميت فى يمناه خنجرا برنزيا وأحيانا حجريا. كما كشف المنقبون عن قبور مشابهة لتلك المقابر فى فونتانيلا (Fontanella) جنوب ريميديليو.

٤- إذا كانت الزراعة وتربية الحيوانات ما تزالا الحرفتين الرئيستين فمن الملاحظ أن هذا العصر قد شهد تطور التبادل التجارى الداخلى والخارجى ، وأيضا نمو الحرف وظهور التخصص فى بعض فروعها وخاصة الحدادة واستخراج المعادن .

٥- نلاحظ أيضا فى ضوء التنقيبات الأثرية تباين نمط وخصائص الحضارات والتجمعات الحضرية التى نشأت فى هذا العصر فى إيطاليا ولنا أسوة فى حضارتى البلافينى " الركائز الخشبية" والتيراماري اللتين نشأتا على التوالى فى شمال إيطاليا هذا فضلا عن انتشار حضارة عصر البرنز فى وسط وجنوب إيطاليا والجزر التابعة لها. ولنحاول الآن أن نعرف بإيجاز لخصائص وسمات هاتين الحضارتين .

حضارة البلافيتى :-

نستخلص من الحفائر واللقى الأثرية أن هذه الحضارة قد كان من سماتها :

أ- بدأت هذه الحضارة فى الظهور فى شمال إيطاليا ابتداء من ١٨٠٠ قبل الميلاد تقريبا ، حيث ظهرت مجموعات كبيرة من القرى تزيد على مائة تجمع بشرى بالقرب من البحيرات وفى منطقة المستنقعات فى فينسيا على الشاطئ الشمالى الشرقى .

ب- كانت المساكن بهذه القرى عبارة عن أكواخ تقام على قواعد مسطحة فوق الماء ترتكز على أوتاد طويلة أو أعمدة مغروزة فى قاع البحيرة أو المستنقع ، وكان يفصل بين الوتد والوتد ٥٠ سم تقريباً ، ويتراوح ارتفاع الأوتاد من ثلاثة أمتار إلى ستة أمتار . وتحمل الأوتاد مصطبة مكونه من عوارض مرصوصة جنباً إلى جنب ، ومشدودة إلى بعضها البعض بأربطة من الخيزران أو الأغصان ، أما هيكل البناء فكان مكونا أيضا من جذوع خشبية ، واتصلت هذه المساكن ببعضها البعض أو مع المجموعات السكنية على الشاطئ بجسر خشبى متحرك وعند رفعه تصبح القرية فى البحيرة وبمعزل تام عن اليابسة وعن جميع المخاطر ، وأحيانا استعيض عن الجسور الخشبية بجذوع أشجار محفورة، بشكل بدائى على شكل قوارب ، كما كانت تحمى غالبا هذه التجمعات السكنية أسوار خشبية مكونة من اوتاد خشبية ، ومن هنا فقد جاءت تسميتها باسم المساكن ذات الركائز أى التى تقام على أوتاد فى قلب البحيرات ، ولعل اقرب التعلات فى اختيار هذه الطريقة فى إقامة هذه المساكن ، كان سبب دفاعى حيث لا يمكن الأغارة عليها بسهولة ، إذ تشكل مياه البحيرات والمستنقعات عائقا لا بأس به فى وجه أية جماعة من المهاجمين ، والجدير بالذكر أن أصحاب هذه

الحضارة قد نقلوا طريقة بناء مساكنهم إلى وادى نهر البو بعد هجرتهم من منطقة البحيرات السويسرية .

جـ- كشفت التنقيبات الأثرية عن مقابر هذه التجمعات فى الأراضى الجافة بالقرب من مساكنها ، وقد عثر المنقبون على عدد من الأوانى الفخارية التى تحتوى على الرماد المتخلف من حرق جثث الموتى ، وهذا دليل مؤكد آخر على قدوم المهاجرين إلى شبه الجزيرة الايطالية من وسط أوربا حيث كان حرق جثث الموتى عادة مستقرة منذ عصور موغلة فى القدم.

د- اشتغل أصحاب هذه الحضارة بحرفة الزراعة وتربية الحيوان ومارسوا القنص وصيد السمك، ونسجوا الأقمشة وصنعوا الآنية الفخارية ، كما أنهم مارسوا التجارة فيما وراء الألب ، فقد عثر الآثاريون فى أماكن أقامتهم على كميات من حجر الكهرمان المستورد .

هـ- لم يمض وقت طويل حتى أندمج أصحاب هذه الحضارة مع جيران ومهاجرين جدد لهم طريقة حياة مميزة ، وهم أصحاب حضارة أنتشرت أيضا فى وادى نهر البو ، وأصحاب هذه الحضارة هم الذين أطلق عليهم الباحثون حضارة التيرامارى .

حضارة التيرامارى :

ويمكننا إيجاز خصائصها وسماتها فى ضوء اللقى الأثرية و الأدلة اللغوية على النحو الآتى :-

١- تشير تسميتها "بالتيرامارى" إلى ان أصحابها قد سكنوا الأراضى السوداء الخصيبة الوفيرة المياه بعد هجرتهم إلى شمال إيطاليا.

٢- ظهرت تجمعات هذه الحضارة فى قرى المنطقة الواقعة شمال شرق إيطاليا من وادى نهر الأديج ثم عبر الحوض السفلى لنهر البو. وقد قامت على أكتاف مهاجرين هندو أوربيين غشوا تلك المناطق بعد عبورهم جبال الألب عن طريق وادى نهر الأديج أو عن طريق المناطق الشرقية من جبال الألب. ويشير التشابه بين أوانيهم الفخارية وأوانيهم المعدنية مع نظائرها التى كان استعمالها سائدا فى العصر البرنزى فى مناطق البوسنة والمجر وبوهيميا الحالية إلى أن هؤلاء المهاجرين وفدوا إلى إيطاليا من الأراضى المحيطة بنهر الدانوب .

٣- يختلف الباحثون حول تاريخ دخولهم لإيطاليا ، فيرى أحد الباحثين انهم قد أقاموا حضارتهم فى الفترة ما بين القرنين السادس عشر والخامس عشر ، بينما يرى باحث أخر أنها قد ظهرت فى القرن الخامس عشر ، ويرجع باحث ثالث نشأتها إلى القرن الرابع عشر، وفى ضوء ذلك يمكننا القول أنهم قد دخلوا إيطاليا فى موجات واستقروا فى مناطق مختلفة من وادى نهر البو ، وهذا ما سيكشف لنا عنه تخطيط قراهم .

٤- يلاحظ ان أصحاب هذه الهجرة قد أقاموا مساكنهم على الأرض الجافة بل كانت تقام احيانا على مناطق مرتفعة ، وكان يظن حتى فترة قريبة أن كل المنازل التيرامارية قد شيدت على غرار منازل المستوطنات البلافيتية أى على ركائز، ولكن عوضا عن أن تكون الأوتاد مغروزة فى البحيرات والمستنقعات كانت قائمة على الأرض اليابسة ، ولكن كشفت التنقيبات خطأ هذا الظن، فقد أثبتت أنها تقام على الأرض الجافة ، وأن التلال ليست ألا تراكم عدة طبقات سكانية وأن المساكن كانت مبنية عادة من التراب المدكوك مع أغصان الشجر بينما قامت بعض الجماعات ببناء مساكنهم على ركائز فى السهول.

وكان يحيط ببعض التجمعات السكنية أو القرى جسر من التراب وخندق عريض تملؤه المياه وربما كان الغرض منه دفاعيا إلى جانب كونه موردا لمياه الشرب والطهى والاستعمال اليومى. بينما كان البعض الأخر محاط بجسر من التراب ويصحب الجسر سياج من الخشب .

وكان بعض هذه القرى يخطط وفقا لنسق واحد منحرف الشكل وتمتد فيه شوارع تتقاطع مع بعضها البعض فى زوايا قائمة وفى الغالب كان يجتازها شارعان رئيسيان متعامدان شمالى جنوبى وشرقى غربى. وكانت المساكن تقام على جانبى الشوارع الرئيسية والفرعية. وكشفت الحفائر أن مساكن هذه القرى كانت مستديرة الشكل فى أول الأمر ولكنها لم تلبث أن أصبحت مستطيلة.

٥- عثر المنقبون خارج أسوار القرى على مقابر دفنت فيها بقايا الأموات الذين كانت تحرق جثثهم ليوضع رمادها فى آنية فخارية ، وفى البداية كانوا يضعون الآنية فى صفوف متراصة فى المقابر ، ولكن حدث تطور فصار كل إناء يفصله عن الآخر لوح حجرى ، ثم حدث تطور أخر حيث صار يوضع كل أناء فى كل مقبرة على حدة ، كما عثر المنقبون على قليل من المتاع الشخصى ، فكان يوضع مع المتوفى عدد من الآنية الأخرى والحلى ، فضلا عن بعض الأسلحة والآلات الموسيقية المصنوعة من البرنز ، ويرى البعض أن هذا ربما يدل على عدم اعتقادهم فى الحياة الأخرى بعكس سابقيهم ، ولكن هذا الرأى لا يمكن قبوله على علاته فلماذا تم وضع هذه الأدوات ؟ ولعل وضعها قد يشير ويدل على عكس الرأى السابق بأن أناس هذه الحضارة قد آمنوا بالاعتقاد فى الحياة الأخرى. ومما هو جدير بالتنويه أن عادة حرق الموتى قد أخذت فى الانتشار فى أماكن أخرى من شبه الجزيرة إلى الغرب والجنوب من مناطق وادى البو ، ولا تكفى أدلتنا الأثرية كى نحدد إذا ما كان انتشار حضارة

التيراماري نتيجة لهجرات جديدة من نفس مجموعة المهاجرين التيرامارين إلـــى إيطاليا أو لمجرد التبادل التجاري وتبـــادل الأفكـــار وأســـاليب المعيشـــة بيـــن المهاجرين التيراماريين وبين بقية سكان إيطاليا .

٦- تشير مخلفات حضارة التيراماري على أنهم كانوا اوفر ثراء وأسمى حضـــــارة من أصحاب حضارة الركائز. وحضارة وسط إيطاليا، فقد أتقن التيراماريون فـن الزراعة فزرعوا البقول والحبوب والفاكهة ، وربوا الأبقار والماعز والخنـــازير والجياد ودجنوا الطيور وقاموا بالصيد ، كما قاموا بتصنيـــع الحبـــال ونســـجوا الأقمشة ، وبرعوا في صناعة الآنية الفخارية الهندسية ، كما صنعوا اســـلحتهم وادواتهم المختلفة من البرنز ، فقد عثر على قوالب وخناجر وعدد كبـــير مـــن المناجل البرنزية واستخرجوا النحاس واستثمروا القصدير من المناجم الواقعـــة في المناطق المجاورة والقريبة وخاصة في المنطقة التي سيطلق عليها فيما بعـــد أسم اتروريا كما قاموا بتصنيع أدواتهم وموادهم من الخشب، وكان لهم تجارتـــهم الخارجية ، فقد قاموا بالاتجار في العنبر.

٣- شبه الجزيرة في العصر البرنزي وصلاتها بحضارة بحر إيجة :-

نستخلص من التنقيبات واللقى الأثرية أن شبه الجزيرة الإيطالية قد اتســـمت بالخصائص الآتية :-

١- أن التقدم الحضاري في المنطقة الوسطى من إيطاليا كان أقل مما كان عليه فـــي الشمال والجنوب وينعكس هذا التأخر النسبي في ندرة اســـتعمال المعـــادن وأن الفخار المستعمل هنا كان أقل اتقانا .

٢- يرجع البعض أن هذه المنطقة قد شهدت هى الأخرى هجرات وفدت إليها فـــى خلال هذا العصر ، ولا يوجد دليل على هجرات دخلت عبر وادى البو ، وتبعـاً لذلك فقد تكون قد أتت من الخارج . وأغلب الظن انهم قد أتوا إليها فـى أفـواج تلو أفواج ، وإذا كان وسط شبه الجزيرة الايطالية قد شهد هجرات أقامت بـــه ، فإن جنوب شبه الجزيرة الايطالية وصقلية والجزر المجاورة لـــها قـد عرفـت هجرات فى عصر البرنز وكان لها علاقات مع عالم حوض بحـــر ايجـــه فـى عصر البرنز. فقد كشفت التنقيبات الأثرية عن وجود علاقـات وصـلات بيـن جزر صقلية وارخبيل ليبارى وجنوب إيطاليا وعالم بحر أيجة منذ مطلع الألـف الثانية خاصة مع كل من كريت ومراكز الحضارة الميكينية ، واسـتمرت تلـك الصلات حتى عام ١٢٢٥ ق.م ، فقد وجد تشابه بين اللقى الاثرية فـــى مقـابر جنوب إيطاليا وصقلية والجزر القريبة منها وبين اللقى التى عـثر عليـها فـى طروادة الثانية والثالثة وفى ليرنا فى البلوبونيز وفى مواقع أثرية يعود تاريخـها إلى الفترة الواقعة ما بين ١٨٠٠ - ١٤٠٠ ق.م . وهذا يؤكد أن صقلية وجنـوب إيطاليا والجزر القريبة منها قد عرفت عصر البرنز قبـل شـمال إيطاليـا. وأن الصلات بين تلك المناطق وبين حضارات الشرق قد استمرت فقد عثر على لقى أثرية فى ارخبيل ليبارى وصقلية وسردينيا ومالطة وفى جنوب ايطاليـا تؤكـد وجود صلات مع كل من مصر وكريت وعالم بحر ايجه فى عصـر الـبرنزى الوسيط ١٤٠٠ - ١٢٢٥ ق.م .

٣- ازدهرت صناعات الفخار والتعدين بصورة كبيرة .

٤- انتشرت عادة حرق جثث الموتى فى وسط وجنوب إيطاليا ، ولعل سـبب ذلـك أما بالتأثر بحضارة التيرامارى ، وأما نتيجة لهجرات غشـت تلـك المنـاطق وكانت تمارس هى الأخرى عادة حرق الموتى .

٦- حضارة عصر الحديد :-

كشفت لنا معاول الآثاريين أن الانتقال من عصر البرنز إلى عصر الحديد كان انتقالا تدريجيا لا فجائياً فى بعض الأحيان ، فقد وجدت مواد وأدوات برنزية جنبا إلى جنب مع مواد وأدوات حديدية ، ومما هو جدير بالقول أن معرفة إيطاليا لمعدن الحديد يمثل تطورا ورقيا جديدا فى مستوى حضارتها ، فقد بدأت الأدوات المصنعة من الحديد فى الظهور فى أواخر الألف الثانية قبل الميلاد ، وشاع استخدامها فى مناطق إيطاليا المختلفة الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، فقد عثر الآثاريون على أدوات حديدية بالقرب من شواطئ البحيرات الشمالية وفى منطقة أبولونيا وفى أترووريا وفى سهل لاتيوم . بيد أن الباحثين أطلقوا على كل التجمعات الحضارية فى إيطاليا حضارة "الفيلانوفا" وهذه التسمية نسبة إلى قرية فيلانوفا الواقعة بالقرب من بولونيا والتى عثر بها الآثاريون على أكبر مجموعة من المساكن فى مكان واحد يمثل عصر الحديد، وهذه المساكن والمكان الذى تشغله يمثل مدينة فعلية يمكن أن تضم حوالى عشرين الف نسمة من السكان.

وقد دار جدل بين الباحثين حول هل معرفة إيطاليا للحديد قد جاء نتيجة صلات تجارية خارجية أم نتيجة لهجرة جديدة حملت معها أدوات من الحديد؟ يرى فريق من الدارسين ان إيطاليا قد عرفت الحديد نتيجة لصلات أهل حضارة عصر البرنز الايطالية مع أهالى وادى الدانوب وشبه جزيرة البلقان ، وأنه لم تكن هناك هجرة جديدة حملت معها معدن الحديد ومن ثم فإن الأمر هنا فى رأيهم هو تطور فى الأدوات للسكان اللذين ظهرت بينهم كل من حضارتى الليجوريين والتيراماريين، ويرون أن السبب فى هذا الترجيح هو أنه برغم ظهور الأدوات الحديدية إلا أن صناعة الأدوات البرنزية لم تتوقف لدى أصحاب حضارة الفيلانوفا بل على العكس من ذلك فقد استمرت وازدهرت، وأنه لأمر له مغزى ، أن تصل

الصناعات البرنزية الايطالية إلى ذروة تطورها فى مدينة فيلانوفـــا فـــى القرنيـــن الثامن والسابع قبل الميلاد . وفى ضوء هذا ربما يكون ظهور استخدام الحديد بينـــهم نتيجة لاستيراده فى الأصل من منطقة الدانوب أى نتيجة للتجارة وليس بـــالضرورة نتيجة لموجة جديدة من المهاجرين من هذه المنطقة . ويخالف هذا الرأى نفر آخـــر يرى ان معرفة إيطاليا للحديد قد جاء فى ركاب هجرة جديدة أتت إليها فـــى أوائـــل الألف الأولى قبل الميلاد من وادى الدانوب حيث حضارة الهالشـــتات (Hallstat) التى ازدهرت – حوالى أواخر الألف الثانيـــة قبـــل الميـــلاد – صناعـــة الأدوات والأسلحة الحديدية بها ، وأيضا نتيجة لهجرة من الشرق دخلت إيطاليا من الجنـــوب عن طريق البحر المتوسط ، ويستدلون على ذلك أن مراحل التطـــور فـــى إيطاليـــا كانت متلازمة دائما مع دخول هجرات جديدة وافدة حملت معها أدواتـــها ، ونقلـــت إلى مناطق إيطاليا خبراتها.

وفى الواقع فإن كلا الرأيين فيه جانب من الحقيقة، والحضارة السابقة – فـــى إيطاليا أى حضارة عصر البرنز جاء جانب منها من نفس منطقة الدانـــوب ومـــن المحتمل أن العلاقات بين المهاجرين اللذين استقروا فى بعض أجزاء إيطاليا وبيـــن موطنهم فى الدانوب قد استمرت ، ومن ثم فمن المرجـــح أن إيطاليـــا قـــد عرفـــت الأدوات الحديدية، وان كان على نطاق ضيق للغاية قبل أن تعرف إيطاليا اســـتخدامه على نطاق واسع فجأة والذى يكشف لنا عن أن هجرات هندأوروبية جديدة وكبـــيرة قد جاءت من منطقة حضارة الهالشتات بوادى الدانوب والتـــى عرفـــت اســـتخدام الحديد وازدهرت بها صناعته ، ويرجح أيضا أن هذه الـــهجرات بعـــد اســـتقرارها استمرت على علاقاتها بمواطنها الأصلية فاستوردت منها الحديد فى بـــادئ الأمـــر إلى أن بدأت فى استغلال الموارد المحلية فى كل من جزيـــرة ألبـــا وفـــى ســـهل أتروريـــا .

وقد استقر نفر من هؤلاء المهاجرين فى شمال إيطاليا والغرب من بولونيـــا بينما اتجه نفر آخر منهم إلى إتروريا حيث استقر بها واتجه فريق ثالث منهم إلـــى سهل اللاتيوم وأقام به ، وأقام هؤلاء المهاجرون فى قرى متنـــاثرة غـــير منتظمـــة التخطيط ولم تسر على ما كان معروفاً فى عصر البرنز ، وهـــذا يفيـــد أن هنـــاك طرق جديدة قد عرفتها إيطاليا فى قراها أو مستوطناتها فى عصـــر الحديـــد، فقـــد كشفت لنا التنقيبات الأثرية عن أن القرى والمستوطنات السكنية التى عثر بها علـــى أدوات حديدية لم تكن محاطة ومحصنة بالقنوات والخنادق المائيـــة – مثـــل قـــرى وتجمعات حضارة التيراماري ولكنها كانت مفتوحة غير فسيحة ، وهذا يكشف عـــن أن هجرات جديدة قد عرفت طريقها إلى إيطاليا، وعاشت على نمـــط عيشـــها فـــى موطنها قبل هجرتها ، كما أن أصحاب هذه الهجرات قد عاشوا فى أكواخ مســـتديرة الشكل، كما أن استمرار استعمال الأدوات البرنزية على نطاق واسع مـــع تحســـين أساليب صنعها واتقانها أمر طبيعى ، فدائما ما نجد أن القديم يتطور ويســـير جنبـــا إلى جنب مع المبتكرات الجديدة ، وكما لاحظنا من قبل استمرار اســـتعمال الأدوات الحجرية بجانب الأدوات المعدنية فإنه يكون من الطبيعى اســـتمرار المصنوعـــات البرنزية بجانب المصنوعات الحديدية – وربما كـــانوا يســـتخدمون المصنوعـــات البرنزية بجانب المصنوعات الحديدية عند هجرتهم.

ويلاحظ أيضا أن جبانات القرى فى عصر الحديد كانت تقع بالقرب منـــها – وكانت قبور هذه الجبانات عبارة عن إما حفر غير منتظمة الشكل ويغطى فتحاتـــها ألواح من الحجر، وإما حفر مستطيلة الشكل ويغطى فتحاتها وكذلك جوانبها ألـــواح من الحجر، وكان أصحاب هذه الحضارة يمارسون عـــادة حـــرق الموتـــى، مثـــل سابقيهم، ويضعون رماد جثث موتاهم فى أوانى فخارية وتغطى بأطباق فخاريـــة أو بخوذات معدنية ، وقد حدث تطور فى بعض مناطق سهل لاتيوم حيث تـــم العثـــور

على آنية برنزية جنائزية تماثل فى شكلها شكل الأكواخ التى كان يعيش فيها الأحياء – وإذا كانت عادة حرق جثث الموتى قد شاع استخدامها وانتشارها فى الشمال والوسط ، فإننا نجد أن عادة دفن الموتى ظلت مستمرة فى الجنوب بجانب عادة حرق الموتى فيها.

وكشفت لنا التنقيبات الأثرية عن ازدهار مصنوعاتهم الفخارية والبرنزية والحديدية ، فقد عرفوا العربات ذات العجلات الحديدية ، كما كشفت جهود الآثاريين عن أنه كان لهم صلاتهم وعلاقاتهم مع قلب أوربا ، فكانوا يبادلون مصنوعاتهم الحديدية بالأدوات الزجاجية والكهرمانية مع وسط أوروبا .

وقد شهد شرق إيطاليا هجرة هندوأوروبية تزامنت فى دخولها مع هجرات الدانوب ، وقد حدث هذا نتيجة الضغط المتواصل من قبل الهجرة الأرنية والتسالية والدورية ، وخاصة الأخيرة التى تواصلت موجاتها فى بلاد اليونان ، مما جعل البعض منها يخرج من شبه جزيرة البلقان إلى المناطق المجاورة ، هذا فضلاً عن هجرة السكان الآخيين سواء إلى الشرق فى الغالب الأعم أو إلى الغرب حيث الأرض الايطالية ، فقد عبرت جماعات منهم البحر الأدرياتيكى الفاصل بين شبه جزيرة البلقان وبين شبه الجزيرة الإيطالية، وهذا ما أكده لنا ما ذكره المؤرخون اليونان والرومان بأن بعض سكان الأماكن على الشواطئ الإيطالية الشرقية فى فنيسيا فى شمال الشاطئ الشرقى وفى يابيجيا (Japygia) فى الشاطئ الجنوبى كانوا من سلالة سكان الليريا "البانيا الحالية" . وأيضا عضدته النقوش ، التى أكدت رواية المؤرخين ، فى شرق السواحل الايطالية ، والتى كشفت لنا عن أن لغة سكان هذه المناطق فى العصور التاريخية كانت قريبة من لهجة سكان الليريا ، كما أن التنقيبات قد كشفت عن تماثل طرق بناء المساكن فى كل من ألبانيا والبوسنة فى شبه جزيرة البلقان من جهة وفى فينسيا وأبوليا (Apulia) من جهة أخرى ، ومن

ثم فإن كل هذه الدلائل تكشف لنا عن حدوث هجرة من شبه جزيرة البلقان إلى شبه الجزيرة الايطالية . ويلاحظ أن الهجرات الألليرية قد استقرت فى المناطق الشمالية والجنوبية الا أنها لم تستطع الاستقرار فى القسم الأوسط من الساحل حيث استطاع السكان الأصليون فى هذا القسم أن يقاوموا هذه الهجرة .

وقد شهد هذا العصر هجرتين لأصحاب حضارة أكثر تقدما ورقيا إلى شبه الجزيرة الايطالية أيضا أولاها الهجرة الأترورية فقد وفدت جماعاتها إلى إيطاليا فى حوالى بواكير القرن الثامن واستقرت على الشاطئ الغربى شمالى نهر التيبر. وثانيتها الهجرات اليونانية التى وفدت تباعاً على شبه الجزيرة الإيطالية ابتداء من الربع الثانى من النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد واستمرت هجراتها واستيطانها للسواحل الايطالية الجنوبية والغربية وفى صقلية حتى منتصف القرن السادس ، وفى الواقع فإن وفود هاتين الهجرتين قد نقل إيطاليا إلى العصور التاريخية ، فقد أدخلتا إليها فن الكتابة، ويلاحظ أيضا أن إيطاليا قد شهدت هجرة هندواوربية أتت لشمالها فى القرنين السادس والخامس وهى هجرة الغال ولكن قبل الحديث عن تلك الهجرات وتأثيرها فى تاريخ روما ينبغى أن نلقى نظرة سريعة على التركيبة السكانية التى تكونت منها إيطاليا قبل دخولها الحقبة التاريخية.

٧- سكان إيطاليا وأصولهم عند القرن السادس قبل الميلاد

يعد من أصعب الدراسات دراسة وبحث أصول شعوب إيطاليا والهجرات التى كانت دائمة التوافد والهجرة إلى إيطاليا، وكذلك الأمر بالنسبة لدراسة قرابة هذه الشعوب بعضها ببعض أو تفرع سلالات عدة من سلالة واحدة فى الفترة الباكرة ، ويعتمد الباحث بشكل رئيسى على معطيات علم الآثار ، وعلم اللغة المقارن ، وعلى علم الاجناس والسلالات ، فقد كشفت لنا هذه الدراسات الجادة عن

وجود موجات من الهجرة ، وهى اما هجرات متقطعة يفصل بين الواحدة منها والأخرى إما فترة قصيرة وإما فترة طويلة ، ويلاحظ أن كل هجرة كانت تحمل معها فى الغالب الأعم ملمحاً وتقدما حضاريا جديداً يفوق حضارة من سبقها من الهجرات فى تقدمها وتحضرها. ويلاحظ أيضا أن هذه الموجات من الهجرة قد وفدت إلى إيطاليا من كل الاتجاهات من الجنوب والشمال والغرب والشرق ، كما يلاحظ امتزاج أصحاب الهجرات الوافدة مع أصحاب الهجرات السابقة الذين نزلوا عليهم والذين حلوا بينهم فاثروا فيهم وتأثروا بهم، وإذا كانت الكهوف والمغارات هى مأوى الإنسان فى العصر الحجرى فإن المساكن قد حلت محل تلك الكهوف وبدأت التجمعات البشرية فى شكل قرى فى عصور المعادن وذلك بعد التوسع فى الزراعة وتدجين الحيوانات والطيور، ويثير الباحثون عدداً من التساؤلات حول التنظيم الاجتماعى السائد بتلك التجمعات وحول نظم الحكم بها وحول ما هو وضع ملكية الأراضى التى كانت تسود فيها ؟ ولا نملك أدلة وقرائن على التنظيم الإجتماعى فى العصور الباكرة فى إيطاليا ولكن ومما لا شك فيه أن بعض بقايا أو بعض عناصر هذا التنظيم الإجتماعى قد بقى فى العصور اللاحقة عند بعض الشعوب الايطالية (الأومبوريون والسابينيون) فى عصور الكتابة – وفى ضوء ذلك يمكن القول أن التنظيم الاجتماعى كان تنظيماً بدائيا، وأن العشيرة (gens) هى الأساس وأن ملكية الأراضى كانت مشاعية بين أفراد العشيرة وأنه بمرور الزمن وعلى ما يبدو ، فقد عرفت أسر العشيرة الواحدة الملكية الفردية للأراضى أى أنه قد تم اقرار مبدأ الملكية الفردية لأسر العشيرة مع استمرار الانتساب للعشيرة ، ومع حلول الأسرة (Fanillia) فى الأهمية محل العشيرة أصبح رب كل عائلة صاحب السلطة فيها، ومن مجموعة أرباب الأسر تكونت العشيرة ، وعموما وعلى ما يبدو فقد شكلت العشيرة الواحدة اما تجمعا بشرياً مستقلاً أو اتحدت مجموعة من

العشائر وشكلت تجمعا بشرياً واحداً هو القرية ، بيد أن هناك تنظيما ما كان ينظم العلاقة بين أسر العشيرة الواحدة وبين العشائر مع بعضها البعض التى تقيم بالقرية، وعلى ما يبدو فقد كان هناك تنظيمات تجمع عدد من القرى ذات الأصل الواحد ، وهذه التنظيمات كانت تجمعهم وتنظم أمورهم عند الخطر وعند المنازعات بينهم حول حدود قراهم وعند الصدامات المسلحة بينهم، وهذه التجمعات كان يطلق على كل تجمع منها (Pagus) كما كان هناك على ما يبدو روابط تجمع بين عدد من التجمعات (Pagi) ، ومن المؤكد لم يوجد نوع من الوحدة السياسية بين سكان إيطاليا ذات الأصل الواحد الا على يد الأتروريين الدخلاء ثم من بعدهم على يد روما التى نجحت فى فرض الوحدة بالسلم تارة وبالحرب تارة أخرى مع مناطق إيطاليا القريبة منها أو البعيدة عنها.

وقد كشف لنا علم اللغة أن هناك العديد من اللغات واللهجات التى كانت لا ترتبط ببعضها البعض بأية رابطة كالليجورية والغالية، واليونانية والأترورية والأومبرية والفولسكية والسابيلية والأوسكانية والصقلية واللاتينية، وهذا يكشف لنا عن تنوع الهجرات وتنوع الاعراق التى عرفت طريقها إلى إيطاليا وقد جرى العلماء على تقسيم سكان إيطاليا إلى ايطاليين وغير ايطاليين ، وسنحاول دون الدخول فى دراسة مسهبة -إلقاء نظرة سريعة عليهم.

أ-الشعوب الايطالية:

انتشر الايطاليون فى مناطق كالبريا ولوكانيا وكمبانيا وفى اقليم اللاتين وهم موزعون على النحو الآتى: ١- اللاتين : فقد اقام هؤلاء فى سهل اللاتين، وكانوا ثمرة امتزاج العناصر الآتية: مهاجرو العصر الحجرى الحديث (بحر ابيض) ، ومهاجرو عصرى البرنز والحديد من أصحاب اللغة الهندأوربية، وعناصر هبطت

من جبال الأبنين ، وابتداء من أواخر القرن السابع فقد بسط الأترووريـون هيمنتـهم على سهل لاتيوم ، وامتزجوا بالسكان، وفى نهاية القرن السادس نزلـت جماعـات من جبال الأبنين واستقرت فى جنوب سهل لاتيوم ، كما نزلت عدة قبائل صغـيرة مثل الهرنيكى (Hernici) والفاليسكى (falisci) . ولم تندمج مع اللاتين ولكن كـانت هذه القبائل تماثل إلى حد ما اللاتين من حيث الجنس واللغـة ، ومـن ثـم فيمكـن اعتبارها فى عدادهم .

ونلاحظ انتشار عادة (الربيع المقدس) بين الشـعوب الايطاليـة (الأومبريـة والسابلية والسمنية واللاتينية وأيضاً بين الغال) ، وقد درجوا علـى اتباعـها فـى أوقات الأزمات ، إذ كانوا ينذرون فيها للآلهة مواليد الناس والحيوانات الأليفة التـى تولد خلال فصل الربيع الطالع، ووفاء النذر كان مدعاة كما هـو مظنـون ، لعـادة الذبيحة وتقديم القرابين، إنما كان يجرى استبدال الضحية بفكاك الخيـل المولـود ، ومواليد القبيلة أثناء الربيع وفصلهم خارجاً عن القوم عنـد بلوغـهم سـن الرشـد وطردهم خارج القبيلة – وقطع كل صلة بها، وكان من جراء الأخذ بهذه العـادة ان خرجت مجموعات صممت على شق طريقها إلى الحياة والاقامة فى مناطق بعيـدة وقريبة من قبائلها ، ولعل توسع القبائل السابلية فى الجنوب خير أنموذج على ذلك.

٢- القبائل الأومبرية والسابلية:

عاشت تلك القبائل فى وديان المنطقة الوسطى من جبال الأبنيـن ، وكـانت القبائل الأومبرية تعيش فى الشمال بينما عاشت القبائل السابيلية فى الجنوب، وكـان لكل منهما لهجتها الخاصة بها ، وإن كان هناك تشابه بيـن لهجتيـها وأهـم هـذه القبائل: الأومبرى والسابينى والمارسى (Marsi) والفولسكى (Volsci) والفسـتينى (Vestinie) والهيربينى (Harpini) والسمينية (Samnites) ، ويلاحظ أن القبـائل

السمنية قد انتشرت على حساب جيرانها صوب الجنوب والجنوب الغربى.. ومـــن المرجح أن هذه القبائل قد تكونت هى الأخرى بشكل أساسى من امتزاج سلالة أهـل العصر الحجرى مع مهاجرى أواخر عصر البرنز الهندأوربيين. وسنتناول علاقـــة هذه القبائل والجماعات مع روما عند الحديث عن جهود روما فى توحيد ايطاليا .

ب- الشعوب غير الايطالية:

ويلاحظ أن هذه الشعوب كانت تنتشر فى شمال ووسط وجنوب ايطاليا وهـى على النحو الآتى:

أ- الشعوب التي سكنت شمال إيطاليا .

١- الليجوريون:

سكن هؤلاء منذ العصر الحجرى الحديث المنطقة الشمالية الغربية مـن وادى نهر ألبو، وقد تأثر هؤلاء ببعض الهجرات التالية ، فنجدهم فـى مطلـع العصـور التاريخية يستخدمون لغة هندوأوربية ، ويلاحظ أيضا أن اليونان قد اطلقوا تسـمية الليجوربين على كل شعوب أوروبا الغربيـة، دون تميـيز وقـد امـتزج هـؤلاء الليجوريون مع الغال الذين دهموا سهل البو ، ونتج عن ذلك جماعة الغال أو الكلـت الليجوريين بينما انزوت بعض جماعاتهم فى مرتفعات جبال الألب والأبنيـن امـام ضغط الغال والأترورريين.

٢- قبائل الفنتى Veneti الالليرية:

سكنت هذه القبائل فى المنطقة الواقعة فى الطرف الشرقى شمال نـهر ألبـو فيما بين بحيرة جاردا وشبه جزيرة استريا . وكانت لغتها مثل لغة الالليرين بوجــه عام .

٣- **قبائل الرايتى (Raeti) :**

ويلاحظ أن لغتها هى مزيج من عناصر الليرية وعناصر لغات أواسط أوروبا ، مما ينم عن أن هذه القبائل كانت تتألف من مهاجرين الليريين وممن سبقوهم من تلك الأنحاء.

٤- **أصحاب حضارة الفيلا نوفا :**

وقد وقعوا تحت سيطرة الأترورين وامتزجوا بهم.

ب- الشعوب والقبائل التى سكنت المنطقة الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة الايطالية :

ويأتى على رأس هؤلاء الأترووريون والذين سنتحدث عنهم لاحقاً. وأقاموا فى سهل أتروريا وتوسعوا شمالاً وجنوبا، كما أنهم امتزجوا بأصحاب حضارة الفيلانوفا الوافدين من حوض الدانوب.

كما اقامت جماعات من البيكنيس (Picenes) أو البيكنتيس (Picentes) فى المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة الايطالية وفى شرق مناطق سكنى القبائل الأومبرية والسابلية . والبيكنيس هم ثمرة امتزاج سلالة العصر الحجرى الحديث مع بعض المهاجرين الالليريين فى أعقاب هجرتهم فى أواخر عصر البرنز.

جـ- شعوب وقبائل جنوب إيطاليا وصقلية :

١- اليابوجى (Japygı) وهى قبائل الليرية الطابع، وقد سكنت فى المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة ، ومن هذه القبائل الداوينى (Dauniei) والبيوكيتى (Peucetii) والمسابيى (Mesapii) ، ويلاحظ أن هؤلاء قد امتزجوا مع العناصر السابقة عليهم واستوعبوها .

٢- سكنت عدة قبائل فى اقليمى لوكانيا والبروتيى وهذه القبائل هى ثمـرة امـتزاج سلالة أهل العصر الحجرى الحديث الوافدين من شمال افريقيا مـع المـهاجرين الالليريين الذين غشوا المنطقة فى خواتيم عصر البرنز، ويستند العلماء فى ذلـك على النقوش العديدة المكتوبة بأحرف يونانية ، فقد استنتجوا أن لغة هؤلاء القـوم كانت هندوأوربية ، ولكنها تختلف عن اللهجات الإيطالية ، وتقترب بالعكس مـن لهجة النقوش التى تم العثور عليها فى الليريا البلقانيـة ، ممـا يؤكـد أصلـهم البلقانى. ومن أهم هذه القبائل قبيلتا الأوينوترى (Oenatri) والخونس Chones. وقد سيطر اليونان على اقليم البروتيى والجزء الساحلى مـن لوكانيـا ، ومـن الطبيعى أن تؤثر المستوطنات اليونانية فى جنوب إيطاليا على هؤلاء السـكان ، وقد كان لمدينة تارنتم الأثر والنفوذ الأكبر فى هذا المجال ، وينعكس أثار النفـوذ والتأثير اليونانى فى شكل المقابر والفخار الهندسى، ولكن يلاحـظ أنـه علـى الرغم من التغلغل الحضارى اليونانى فى المنطقة الا أنها احتفظـت باسـتقلالها السياسى وخاصة بعد ما شكلت كل مـن مـدن كانوسـا (Canosa) و روفـو (Ruvo) وبرنديزى اتحاداً فيما بينها وظلت مستقلة عدة قرون إلى أن سـقطت تحت ضربات الفيالق الرومانية .

كما نجد قبائل الأوسونيس (Ausones) وتنسبهم الاسـطورة إلـى أوسـون (Auson) بن أوديسيوس ولكنهم فى الواقع من سلالة العصـر الحجـرى الحديـث الوافدة من شمال أفريقيا ، وكانت تقيم هذه القبائل وتنفرد بسهل الأوسونيس ، إلـى أن وفد عليهم هجرات من اليونان منذ منتصف القرن الثامن ق.م. والذين سـبق أن تكلمنا عنهم والأترورين فى بواكير القرن السادس والسابليون فى النصف الثـانى من القرن الخامس .

٣- اقام فى صقلية وجنوب وجانب من غرب إيطاليا العناصر اليونانية وأطلق على هذه المنطقة بلاد اليونان الكبرى، وبجانب اليونان الذين اقاموا مستوطناتهم فى صقلية وجدت عناصر من سكان البحر المتوسط وهجرات الليرية دخلتها وأقامت بها وأطلق عليهم الايليميون والصقليون، كما أقام القرطاجيون مستوطنات ومحطات لهم بالجزيرة.

جملة القول أن إيطاليا قد عرفت أجناس ولغات ولهجات مختلفة اندمج بعضها مع البعض الآخر وانعزل بعضها عن البعض الآخر على الرغم من وجود وشائج القربى وصلات الدم ، وأن الاختلاف العرقى واللغوى قد شكلا جنبا إلى جنب مع العوائق الطبيعية حجر عثرة فى سبيل تحقيق الوحدة بين ربوع إيطاليا المختلفة مما اقتضى بذل الجهود الجبارة المتواصلة من روما بعد ظهورها على مسرح التاريخ لتحقيق الوحدة .

وبعد أن عرضنا لهذه التركيبة السكانية ننتقل للحديث عن الأتروريين الذين ظهروا فى سماء إبطاليا ولعبوا دوراً فاعلاً فى تاريخ شبه الجزيرة الإيطالية . وكانوا أول من حاول توحيد أجزاء من إيطاليا المختلفة .

الأترورريون

سطع نجم الأترورريين فى سماء إيطاليا فى القرن السابع ، ومثلوا القوة المؤثرة فيها وتوسعوا شمالاً وجنوباً بها. ولكن دراسة تاريخهم وجوانب حياتهم فى إيطاليا يكتنفه الغموض والعديد من المعضلات مثل ما هو اسمهم الحقيقى ، ومن هم ، ومن أين ومتى جاءوا إلى شبه الجزيرة الايطالية ؟

كما تزال لغتهم شبه مجهولة ولم تنفك طلاسمها كلية بعد كما أن تاريخهم السياسى غامض فى كثير من جوانبه! ونبدأ الآن بتناول تلك القضايا على النحو الآتى :

١- تسمياتهم:

كان الرومان يطلقون على جيرانهم فى الشمال الغربى الأتروسكى أو التوسكى إذ يقول المؤرخ تاكيتوس فى حولياته بأن سكان ليديا كانوا يعتبرون انفسهم حتى فترته كأخوة عرقيين للأتروسكيين، ويقول سنيكا بأن آسيا قد ادعت ابوة التوسكانيين ، وكان اليونان يطلقون عليهم التورسنوى (Tyrsenoi) أو التورنوى (Tyrrhenoi) نسبة إلى الأمير تيرنوس بن أتيس ملك ليديا وتيرنوس هو الذى قاد حسب الرواية قسماً من شعبه الليدى نحو إيطاليا ، ووفقا لرواية يونانية فقد كان الأترورريون يطلقون أو يسمون انفسهم باسم الراسنا (Rasenna) وهى لفظة اتروسكية ، ولا ندرى هل كان هؤلاء يسمون أنفسهم حقا بالراسنا أم اسما آخر، وعلينا أن ننتظر إلى أن يتم قراءة كتاباتهم ، فلعلها تكشف لنا عن اسمهم أو تسمياتهم الحقيقية .



٢- معضلة أصل الأتروريين :

يختلف الباحثون قديما وحديثاً حول أصل وجذور الأتروريين ، وانقسموا فيما بينهم إلى خمسة فرق فى الرأى ؛ وأول هذه الفرق ينادى بأصلهم الليدى ويأتى هيردوت على رأس هذا الفريق إذ يقدم لنا رواية فحواها أن مجاعة كبرى قد اجتاحت مناطق آسيا الصغرى فى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد مما اضطر الملك الليدى آتيس بن مانس إلى تقسيم شعبه إلى فريقين واقترع على الفريق الذى سيظل فى ليديا، أما الفريق الآخر الذى لم يقع عليه الاختيار فقد كان عليه أن يهاجر تحت إمرة ابنه الأمير تيرنوس وهام هذا الفريق على وجهه فى البحر طويلا قبل أن يصل إلى إيطاليا ويستقر فى منطقة الأومبريين حيث أسس مدناً عديدة وأبدلوا اسمهم القديم (ليديين) باسم جديد (تيرنيين) نسبة إلى قائدهم تيرنوس" .. وتبنى هذا الرأى نفر من الكتاب اليونان والرومان مثل تيمايوس وأبيانوس وفرجيلليوس وافيديوس وهوراتيوس وتاكيتوس وسنيكا – وشايع هذا الرأى أيضا نفر من الباحثين المحدثين.

وينادى ثانى هذه الفرق بالأصل الايطالى للاتروريين ، ويأتى ديونيسيوس الهاليكارناسى على رأس هذا الفريق وقد شايعه نفر من الباحثين المحدثين ويرى أنه ليس من المعقول أن الأتروريين قد انحدروا من الليديين ، إذ أن اللغة والحضارة الليدية تختلفان اختلافاً جذرياً عن اللغة والحضارة الأترورية ، ومن ثم يُعتقد بأن سكان أتروريا يمثلون شعبا محلياً موغلاً فى القدم وأن قدم هذا الشعب يقر لنا انفراده بلغة وبحضارة وبطباع خاصة به أى أن هذا الشعب أصله ايطالى المنبت ، وأن حضارة الأتروريين ليست الا تطوراً طبيعيا لحضارة الفيلانوفا، ذلك أن أغلب المدن الأترورية خلفت قرى فيلانوفية سابقة كانت تقوم على المواقع ذاتها أو بالقرب منها، وأن الأنواع المتتابعة لمقابر تلك المدن ، وكذلك خصائص تلك

المقابر ينم عن تطور متتابع متصل الحلقات ، كما لم يثبت ثبوتاً قاطعاً ان خصائص الأتروريين البشرية كانت تختلف عن خصائص أصحاب حضارة الفيلانوفا ، وان تفسير تقدمهم فى تخطيط المدن بأنه الظاهرة الطبيعية لحضارة متقدمة ، وأن العناصر اليونانية فى حضارتهم ، ليس شاهداً على أنهم جاءوا من آسيا الصغرى حيث يكون التأثير اليونانى كبير ، ولكن يمكن تفسير هذه العناصر بأنه نتيجة للعلاقات التجارية الوثيقة التى قامت بينهم وبين يونان إيطاليا، وفى ضوء كل هذه الاعتبارات يرى أصحاب هذا الفريق أنهم ايطاليون أصلاً وليسوا طوارئ على ايطاليا البتة .

وينادى الفريق الثالث ، وهو من الباحثين المحدثين، بأن الأتروريين قد وفدوا على إيطاليا من أواسط أوروبا وأنهم يشكلون فرعاً من المهاجرين الهندوأوربيين الذين اجتاحوا شبه الجزيرة الايطالية منذ عصر البرنز، فنجد الباحث دونالدصن J.W.Donaldsun ينفى رواية هيرودوت القائلة بأنهم أتوا من ليديا ويعتبرها أسطورة لا أساس لها من التاريخ ويقول "إن لم يكن الأتروريون من الطبقة السفلى من الجرمان القدماء ومن أنقى طبقات القوط فليس هناك جنس من البشر يستطيعون الانتماء إليه .

وينادى الفريق الرابع بأنهم قد أتوا من الجنوب وهم بلاسيجيون أو هم فرع من جنس البحر المتوسط البدائى جاءوا من افريقيا إذ يقول سيرجى (Sergi) بأن الأتروريين هم من البلاسبجيين الغربيين.

والفريق الخامس ينادى بنظرية توفيقية بين نظرية الأصل الشرقى والامتزاج بينه وبين حضارة البرنز والفلانوفا الإيطاليين إذ نجد العالم بيير جريمال يقول بأننا يجب ان نحذر من فكرة الغزو والصريح ، بل الأفضل لنا اليوم استناداً

إلى أخر معطيات علم الآثار أن نسلم بأن الاتروريين لم يفدوا إلى إيطاليـــا كغـــزاة حاملين معهم مختلف مظاهر حضارتهم من لغة ودين وفن نقول لـــم يفـــدوا إلـــى إيطاليا كغزاة محاولين فرض سيطرتهم وحضارتهم بالقوة على السكان المحليين بـــل وصلوا إليها فى شكل موجات متعاقبة وتمثلوا الحضارة الفيلانوفية وأضافوا إليـــها ما هو خاص بهم. كما نادى م. باللوتينو برأى قريب من الرأى السالف ، كما نجـــد ان كل من أندريه ايمار وجانين أو بوايه قد ناديا برأى قريب إذ يقـــولا "أن القـــول بأن أكثرية علماء العصر يأخذون بالرأى الذى يغلب الأصل الشـــرقى للاتروريـــن وترجيحه لا يوجب الاقناع ولا يلزم الأخذ به إذ أن معضلات هذا النـــوع لا تحـــل بالاقتراع وعد الأصوات ، فهنالك اليوم علماء بارزون يتبنـــون هـــذا أو ذاك مـــن الرأيين المعارضين لنظريتنا هذه ، فمن الأفضل والحالة هذه، الوقوف إلـــى جـــانب هذه الملاحظة العلمية، والبراهين التى تؤيد المنبت والأصل الشرقى للاتروريـــن ، تبدو بالنسبة لغيرها أكثر انسجاما وأقل عرضة للتجريح من سواها. أما القول بـــأكثر من هذا والذهاب إلى أبعد منه، ففيه عنت وفيه تغرير . . . إذ ليس فى هذه الحجـــج ما فيه القطع والجزم نفيا أو إثباتا ويقول ديورنت " لقـــد كـــان معظـــم المؤرخيـــن اليونان والرومان يرون أن من القضايا التى لا تحتاج إلى برهان أن التوسكانيين قـــد جاءوا من أسيا الصغرى والحق أن دينهم وثيابهم ، وشواهد كثيرة توحى بأصلـــهم الأسيوى ، وإن كان فيها أيضا عناصر كثيرة يلوح أنها من اصل إيطالى ، وأغلـــب الظن أن حضارة أتروريا قد نشأت من الثقافة الفلانوفية وأنها تأثرت مـــن الناحيـــة التجارية بحضارات اليونان والشرق الأدنى ، وأن التوسكانيين أنفسهم ، كما كـــانوا هم يعتقدون، قد غزوا البلاد من أسيا الصغرى، والراجح أنهم جاءوا من بلاد ليديـــا ومهما يكن أصلهم فإن تفوقهم فى القتال قد جعلهم هم الطبقة الحاكمة فى توسكانيا.

وبعد أن عرضنا لهذه الآراء فأى رأى منها أقرب الحقيقة ؟ بادئ ذى بدء فإن الرأيين الثالث والرابع يشوبهما الضعف والقصور لأن هناك ما يشبه الاجماع بين الباحثين على أنهم لا ينتمون إلى العائلة الهندوأوربية لا من جهة الجنس ولا من جهة اللغة، كما أننا نرجح أنهم ليسوا افارقة، فمن الواضح أنهم غرباء وسط الايطاليين ذوى القوام الرشيق ، فهم قوم تميل أجسادهم إلى الضخامة والبدانة.

أما عن رأى ديونيسيوس الهاليكارنسي ومن سايره من الباحثين المحدثين فيمكن الرد عليه وتفنيده على النحو الآتى :

أ- أن جهود علماء اللغة فى دراسة اللغة الاترورية ، على الرغم من عدم نجاحهم بعد فى فك طلاسمها، قد كشفت لنا عن الحقائق الآتية: أ- أنها لا تنتمى إلى عائلة اللغات الهندواوربية وبناء على ذلك فهى لغة لم تكن موجودة فى إيطاليا فى فترة هجرات التيراماريين فى عصر البرنز والفلانوفيين التى ظهرت قبل ظهور الاتروريين وبعبارة أخرى فأن لغة الاتروربين ليست لغة ايطالية.

ب- وجد المحدثون من علماء اللغة ، على الرغم من ملاحظة ديونيسيوس السالفة الذكر، أن هناك تشابه مؤكد بين بعض جوانب القواعد النحوية فى اللغة الاترورية ونظائرها فى اللغة الليدية وبعض اللغات فى أسيا الصغرى بشكل لا يمكن تجاهله ، ومن ثم فإن هذا التشابه يشير إما إلى أن اللغة الاترورية منحدرة من هذه اللغات، أو اللهجات التى وجدت فى أسيا الصغرى أو على أقل تقدير إلى ان المجموعتين تنحدران من أصل لغوى مشترك.

حـ- ان جهود علماء الآثار قد كشفت عن ان تخطيط المدن كان من سمات حضارة الشرق وأن منطقة اتروريا قد عرفت فن تخطيط المدن هذا بالإضافة إلى ظاهرة جديدة قد ظهرت فجأة مع ظهور الاتروريين، وهى عادة دفن

الموتى وانتشارها تدريجياً ، وهى عادة شرقية ، ويبـــدو أن أكـــثر الاتروريـيـــن كانوا يدفنون موتاهم ، مع ذلك فقد وجدت أدلة كذلك على حرق جثث الموتـــى ، وبخاصة فى شمال اتروريا وداخلها ، وفى حالة الدفن كانت توضع فى توابيـــت تزخرف بالنقوش ، بينما ، كما لاحظنا مـــن قبـــل ، أن أصحـــاب حضـــارات عصرى البرنز والحديد فى المنطقة قد عرفوا عادة الحرق لجثث موتاهم علـــى نطاق واسع . كما لاحظ الآثاريون ظهور سمات جديدة فى عمارة المقابر ، فقـــد انحسرت القبور التى كانت على شكل حفر فى العصور السابقة أمـــام انتشـــار القبور التى اتخذت شكل المساكن ، وبعض هذه القبور كانت على شكل حجـــرة كبيرة ، وأن هذا النمط الجديد من القبور يشابه نمط قبور آسيا الصغـــرى ممـــا يشير وينم عن وجود صلة ورابطة بينهما. ومع ذلك فإننا لا ينبغى أن نغفـــل أن الاتروريين قد وفدوا إلى إيطاليا فى شكل موجات متعاقبة وحلوا على عنـــاصر سكانية من أصحاب حضارة الفلانوفا وتمثلوا وأضافوا إليها ما هو خاص بـــهم مع محافظة أصحاب الحضارات السابقة عليهم بعاداتهم وتقاليدهم فـــى الحـــرق وليس الدفن . وفى ضوء نتائج الدراسات اللغوية والأثرية فـــان الكفـــة تميـــل لصالح رأى هيردوت القائل بأصلهم الشرقى ، كما يعضـــده أيضـــا أن المـــرأة الاتروريه كانت تتمتع بمكانة سامية فى مجتمعات الاتروريين ، وهذا مـــا كـــان سائدا فى مناطق عديدة من أسيا الصغرى. وإذا ما أضفنا إلـــى ذلـــك التشـــابه الكبير بين معتقداتهم الدينية ومعتقدات الشرق الادنى واختلافها اختلافا بينا عمـــا كان سائدا لدى اليونان واللاتين ، فقد كان على كهانهم العـــودة للآلهـــة دائمـــا للاستفسار عن مشيئتها ، وكذلك لتفسير بعض الرمـــوز والاشـــارات الصـــادرة عنها والتى لها صلة بمستقبل البشر على الأرض ، فقد احتلت العرافـــة مركـــزا مرموقا لدى الاتروريين وهذه الظاهرة كانت سائدة كما نعلم لـــدى العديـــد مـــن

شعوب الشرق الادنى ، كما أن عادة فحص أكباد الضحايا كانت رائجة في معتقداتهم لمعرفة وقراءة الغيب ومعرفة أحوال البشر ، وفي ضوء كل الحقائق السالفة يمكننا القول أن رأى هيرودوت فيه جانب كبير من الحقيقة ولكن لا يمكن أن نؤكده إلا بعد مزيد من التنقيبات الاثرية سواء فى ليديا أو فى منطقة اتروريا ، والتى قد تقدم لنا معلومات عن وجود الصلة بين الاتروريين والليديين ، أو أن يُكشف عن نص مكتوب بلغتين اللغة الاترورية ولغة أخرى مقروءة مدروسة وبه يتمكن العلماء من فهم معنى اللغة الاترورية وذلك أنه بالرغم من أن العلماء استطاعوا حتى الآن تمييز حروف اللغة الاترورية .

أما عن رأى العلماء المحدثين التوفيقى الذى يجمع بين كل من الرأى القائل بأصلهم الليدى والرأى القائل بأصلهم الايطالى. فقد حاول هذا النفر التوفيق فى الآونة الأخيرة بين الرأيين وأعتقد أنهم على حق .

ففى ضوء الآراء السابقة والتنقيبات الأثرية يمكننا القول أن الأتروريين يمثلون مزيجا بين سكان مهاجرين من أسيا الصغرى وأصحاب حضارة الفيلانوفا والحضارات السابقة عليها حيث بدأ المهاجرون من أسيا الصغرى يتسللون إلى حيث يسكن هؤلاء فى منطقة توسكانيا التى أصبحت فيما بعد تعرف باسم اتروريا ربما تحت اغراء الموارد المعدنية فى المنطقة ثم بدأ هؤلاء المهاجرون لسبب أو لأخر، وتحت ظرف أو أخر، يشكلون الطبقة الحاكمة فى المدن الاترورية. وفى ضوء هذا الافتراض تكون الحضارة الاترورية نتاجا لعناصر ايطالية محلية اختلطت بعناصر أسيوية وتأثرت بعناصر يونانية سواء قبل هجرتها من أسيا الصغرى أو نتيجة العلاقات التجارية بين الأتروريين وبين يونان إيطاليا ولعل ما يؤكد هذا الرأى استمرار عادة حرق جثث الموتى مع بروز ظاهرة جديدة وهى عادة دفن الموتى ، ومن المسائل والقضايا التى تخص تاريخهم أيضا أننا لا نعرف

المكان الذى رسوا فيه حين وفدوا بحراً إلى إيطاليا . ولكننا نعرف أنـــهم بنـوا أو فتحوا أو وسعوا مدنا كثيرة ، مدنا لا قرى من القش والطين كما كانت الحال قبـــل مجيئهم وسنعود للحديث عن ذلك لاحقاً ويؤكد هذا الرأى .

٣- قضية تاريخ استقرارهم فى شبه الجزيرة الايطالية :-

يختلف الباحثون الذين نادوا بأصلهم الأسيوى أيضا حول تـــاريخ وصولـــهم واستقرارهم فى شبه الجزيرة الايطالية، وإذا كـــان هـــيرودوت ومـــن تبعـــه مـــن المؤرخين قد رأى بأنهم قد هاجروا إلى شبه الجزيرة الايطالية فى القـــرن الثـــالث عشر قبل الميلاد أو حوالى ذلك وأنهم هم التورشا (Tursha) على حد قول بعـــض المؤرخين ويرى فريق آخر من الباحثين أنهم استقروا فى إيطاليا فى حوالـــى ١٠٠٠ ق.م. بيد أن نفراً ثالثاً من الباحثين المحدثين ، استناداً على المعطيات الاثرية ، قـــد رفض هذا الرأى ورأى أنهم قد هاجروا إلى شبه الجزيرة الايطالية واســـتقروا أولا على ساحل سهل اتروريا حوالى ٨٠٠ قبل الميلاد بعد طرد القبـــائل الهندأوروبيـــة إلى الداخل. وفى ضوء ما لدينا من مادة يبدو أولا أن بعض التجار الاترووريين قـــد وصلوا إلى المنطقة الواقعة بين نهرى الأرنوس والتيبر وتعرفـــوا علـــى خيراتـــها وأحوال سكانها ، وبعد عودتهم إلى بلادهم أخذت أفواج من بنى جلدتهم تفد تباعـــا فى الفترة الباكرة من عصر الحديد أى حوالى بداية القرن الثـــامن قبـــل الميـــلاد . وبرغم قلة عددهم فقد استطاعوا السيطرة على المنطقة وذلك بفضل كونـــهم أرقـــى حضارة وأفضل تنظيما وأقوى تسليحا من أهالى المنطقة ورويـــدا رويـــدا ظـــهروا على مسرح التاريخ الايطالى بشكل ظاهر فى القرن السابع .

٤-المدن والعمارة والفنون الاترورية :-

أ-المـدن :-

كشفت لنا التنقيبات الاثرية أن الاتروريين عندما حلـــوا أول الأمــر علـــى الساحل الايطالى فى منطقة توسكانيا وأستولوا على المواقع الاســتراتيجية القريبــة من الساحل الغربى وأقاموا بها مدنـــهم مثـــل تـــاريكوينى (Tarqiunii) وكـــايرى (Cacre) وفولكى (Vulci) وفتولونيا (Vctulonia) وبوبولونيا (Populonia) ثـــم أخذوا يتوغلون فى الداخل حتى سيطروا على إقليم إتروريا بأسره وأســـسوا مدنـــا أخرى منها فولوينى (Voloinii) وبروجيا (Perugia) وارتزو (Arezzo) وفيـــاى (Veii) ، وهذا قد يشير إلى أن الاتروريين قد وصلوا فى أفواج تلو أفـــواج وعلـــى فترات زمنية غير متصلة وينقض هذا رواية هـــيرودوت الســـالفة الذكـــر، وكـــان الاترويون ينزلون عادة على مواقع القرى القديمة المقامة فـــوق قمـــم التـــلال أو بالقرب منها أو فى أماكن يسهل الدفاع عنها.

وكشفت لنا معاول المنقبين عن أطلال ثمانى عشرة مدينة حصينة عريضـــة الثراء. وعموما فقد كانت الحضارة الاترورية حضارة مدن دول فقد كانت المدينـــة الاترورية مركزا لمختلف الأنشطة ، فكانت المنطقة التى تقوم عليها المدينة منطقـــة مقدسة وحرام ، وكانت المعتقدات الدينية الاترورية تقتضى أن يحدد إطار المدينـــة بواسطة خط يخطه سن المحراث ، وإن يكون لكل مدينة ثلاثة أبواب وثلاثة معـــابد. ويلاحظ الآثاريون أن المدن الاترورية كانت من أكبر المدن فى العالم القديم ، فقـــد بلغ زمام كل من تارخونا (Tarchuna) وفياى (Veii) ثمانية كيلومترات ، أما عـــدد سكان كل منها فكان قد بلغ حوالى مائة ألف ، وتدل اثار بعض المـــدن الاتروريـــة على أن أغلب المدن قد بنيت على هضبة واحيطت بأسوار ، ونشاهد تلك الظـــاهرة

فى كورتونـــا (Cortona) وبوبلونيـــا (Populinia) وروســـيللانا (Rusellana) وفيتولونيا (Vetulonia) وفيلا تـــيرى (Velathre) وبروســـيا (Perusia) ومـــن الملاحظ أن المدن الداخلية كانت أكثر تحصينا من المدن الساحلية وتعطينـــا أثـــار مدينة مارزبوتو (Marzabito) فكرة عامة عن تخطيط بعض المـــدن الاترورية ، فقد تقاطعت طرقها وكان مخططها على شكل رقعة الشـــطرنج ، وكـــان يخـــترق المدينة من الشمال إلى الجنوب طريق رئيسية واحدة ويجتاز هذا المحـــور الكبـــير ثلاث طرق عرضية. وفى المدن الأخرى نجد أنها كانت تقام على تخطيط منتظـــم قوامه طريقان كبيرتان متقاطعتان مع بعضهما البعض ، ويتفـــرع مـــن كـــل مـــن الطريقين عدة شوارع ، وكانت الشوارع المهمة منها تحظى بقـــدر مـــن العنايـــة ، فكانت ترصف بالاحجار وتزود بالمجارى لتصريف مياه الأمطار. ويلاحظ أن لكـــل مدينة أيضا نوعان من التحصينات : أحدهما مادى يتألف من جسر طينى ضخـــم ، كانت بعض أجزائه تغطى أحياناً بطبقة من الأحجار ، والأخر معنوى كـــان عبـــارة عن منطقة خلاء تحيط من الخارج بالجسر ولا يجوز شغلها أو زرعها، على نحـــو ما تم من طقوس وشعائر لانشاء مدينة روما حيث كان هذا النـــوع مـــن الأســـوار يسمى بومريوم (pomarium) .

ب- منازل ومعابد الاتروريين:-

وكشفت لنا معاول الآثاريين عن أن منازل أهل اليسار من الاترويين كـــانت رحبة فسيحة ذات طابق واحد أو طابقين مبنية مـــن الخشـــب أو الطـــوب اللبـــن والمحروق والحجارة ، ويتوسط كل منزل فناء مكشوف به بهو أعمدة مربع الشـــكل من الطراز المعروف عند اليونان (peristylon) وكان الفناء يـــؤدى إلـــى بـــاقى حجرات المنزل ومنها إلى الحجرة الرئيسية (atrium) وهى التى كانت تتقدم الفنـــاء

وقد أقتبس الرومان فكرتها فى منازلهم . وتكشف لنا أطلال مدينـــة مـــاززابوكو ان اغلب مساكنها كانت صغيرة المساحة ، أما أثار المبانى الكبـــيرة بـــها والتـــى تـــم الكشف عنها فيعود أغلبها إلى المعابد .

وتكشف لنا التنقيبات الأثريـــة عن أن الاترووريين قـــد اســـتخدموا الحجـــر الجيرى ، والطوب اللبن والمحروق والخشب لبناء مســـاكنهم ومنشـــآتهم ، بينمـــا استخدموا الحجر لبناء مقابرهم واسوار مدنهم وبعض أجزاء من معابدهم .

وقدمت لنا التنقيبات الاثرية والمصادر الأدبية معلومات قيمـــة عـــن طـــرز معابدهم فقد عثر على العديد من النماذج المصغرة، وهى مـــن الطيـــن المحـــروق، للمعابد ومن ثم فهى تعطينا فكرة عن تصميم وشكل المعبـــد الاتـــرورى وتطـــابق أشكال هذه النماذج ما جاء من وصف للمعابد الاترورية عنـــد المـــهندس والبنـــاء الرومانى فيتروفيوس (Vitruvius) كما ان وصفه كان ينطبق أحيانا علـــى قبـــور الاتروريين ، ونستنتج من وصف فيتروفيوس أيضا أن المعابد الاترورية كـــانت ، فى جوهرها ، تتبع الطرز اليونانية ، غير أن الطراز التوسكانى قد أدخـــل بعـــض التعديل على الطراز الدورى ، بأن ترك الأعمدة خالية مـــن الحـــزوز أى ملســـاء وأقامها على قواعد وجعل نسبة الطول إلى العرض فى جسم المعبد كنســـبة ٦ : ٥ بدل النسبة الاتيكية الرشيقة وهى ٦ : ٣ ، وفى ضوء ما لدينا من معلومات يمكننـــا أن نقدم وصفا للمعبد الاترورى ، فقد كان يتكون من بناء رئيسى من الطوب اللبـــن ورواق من الحجارة ومن عوارض فوق الأعمدة ومقصات من الخشب، ومن نقـوش وحلى من الطين المحروق، ويقوم البناء كله على قاعدة متصلة أو ربـــوة ويطلـــى بالألوان الزاهية من داخله وخارجه .

وعلى العموم فقد كان المعبد النمطى يتكون من قسمين أولهما قاعة العبـــادة فى بعض الأحيان وثلاث قاعات فى أحيان أخرى وثانيهما: بهو الأعمدة ويقع أمـــام حجرة العبادة وكان يتكون من صفين من الأعمدة تطل على القسم الخلفى المكـــون من ثلاث هياكل، وكان السقف يتكون من عوارض خشبية تشكل ســطحين مــائلين يلتقيان فى زاوية حادة وتكس بطبقة من الفخار ومن هذه المادة كانت تصنع تمــاثيل توضع فوق السقف .

وقد كان للآتروريين الفضل فى إدخال العقود والقباب فى الابنيـــة المقامــة لأغراض غير دينية كأبواب المدن وأسوارها ومجارى المياه ومصارفـــها ويلــوح أنهم جاءوا بهذه الأنماط من ليديا.

جـ - المقابر الاتروريةوطرق الدفن:-

كشفت لنا معاول الآثاريين عن عدة أنواع من المقابر ، فقــد كــانت مقــابر الفقراء عبارة عن حفر أو خنادق ، بينما كانت مقابر أهل اليسار منـــهم تبنـــى إمـــا على شكل غرف وتغطى بكومة كبيرة من التراب وأما غرف مستديرة الشكل مقببــة السقف وأما عددا كبيرا من الغرف المنحوتة فى الصخر . وكـــانت مقــابر أهــل اليسار منهم تزود بأثاث على قدر كبير الأناقة مما يدل على الثروة والذوق الرفيـــع للنبلاء الاتروريين . فقد عثر المنقبون على عدد كبير من الأوانى الفخارية بعضـــها صنع محلياً وبعضها مستورد من بلاد اليونان ، وعثروا أيضا على الأدوات التـــى استخدموها فى حياتهم اليومية فضلا عن أدوات للزينة صنع أغلبها فـــى اترووريـــا، وهذا يشير إلى ما تمتع به نفر من الاتروريين من ثراء عريـــض . وكشــفت لنــا التقيبات الأثرية عن أن عادة الاتروريين الغالبة هى دفـــن موتـــاهم ولكـــن بعـــض

المواقع أظهرت للآثاريين أن البعض منهم وبخاصة سكان شمالى وشرقى اترووريـــا كان يمارس عادة حرق جثث موتاه .

الفن الاتروري :-

تقدم لنا المقابر الاترورية صورة واضحة من فنونهم وحضارتهم. فقــد مــر فنهم بثلاث مراحل أولاها: المرحلة المتأثرة بالشرق بين عام ٧٠٠و ٥٧٥ ق.م فقــد كان التأثير الشرقى - الفينيقى - القبرصى - والمحاكاة جلياً فى هذه المرحلة فـــى التحف والأدوات التى شكلها وصنعها الفنانون الاتروريون. وثانيتها مرحلة التـــأثير اليونانى فقد تسللت التأثيرات الفنية اليونانية إلى أعمال الفنانين الاتروريـــين التـــى بلغت ذروتها فى الفترة بين ٦٢٥ / ٥٧٥ ق.م واستمرت بعد ذلك، وفى هذه الفـــترة انتقل عدد كبير من الصناع والفنانين اليونانيين إلى اتروريا وتجلى التأثير اليونـــانى فى صنعة الأوانى التى عثر عليها فى مقابر تاركوينى وفولتشى. وثالثتها: بدأت فـــى أواخر القرن الرابع ويلاحظ أن مستوى المنتجات الفنية كانت أقل جـــودة وصنعـــة مقارنة بفن المرحلة السابقة وهذا يعود إلى فقد الاتروريين سيادتهم التجارية، وعلـــى العموم إذا كان الاتروريون قد تأثروا بغيرهم نجدهم قد أثـــروا فـــى غـــيرهم مـــن شعوب إيطاليا وخاصة روما وهو ما سنتحدث عنه فى ثنايا الدراسة .

الديـــانة :-

كانت ديانة الاتروريين منظمة تنظيما دقيقا واحتلت مكانة بارزة فى حياتـــهم، ومن أهم سماتها :

١- آمن الاتروريون بتعدد الآلهة وكانت هذه الآلهة ترعى الحرف وتحمى المـــدن، وأعظم آلهتهم هو الإله تينيا (Tinia) المتصرف فى الرعد والبرق ، وكان مـــن

حوله جماعة من الآلهة يأتمرون بأمره ، وهم الارباب الأثنا عشر ، وقد بلغوا حدا يجعل مجرد ذكر أسمائهم جريمة لا تغفر وكان أشد هؤلاء الأرباب رهبة هما مانتوس (Mantus) ومانيا (Mania) سيد العالم السفلى وسيدته ، وكان لكليهما حشد عظيم من الشياطين المجنحين يأتمرون بأمرهما. وكان أشد الأرباب غضبا لاسا (Lasa) ومين (Mean) إلهة الأقدار التى تمسك بيدها سيفا أو أفعى تلوح بهما، وتتسلح بقلم ومداد تستخدمهما فى الكتابة ، وبمطرقة ومسامير تدق بها أوامرها التى تتحول عنها ، كما وجدت فى البيوت معبودات البيت ، وصوروها على شكل تماثيل صغيرة .

٢- يلاحظ أن لكل مدينة عبادة خاصة بها إلا أنها اشتركت جميعا فى القرن السادس فى عبادة الثالوث المكون من تينيا و أو نى (Uni) ومنيرفا (Menerva) واقتبس الاتروريون بعض المعتقدات والآلهة مباشرة من اليونان مثل عبادة هرقل وأبوللو وارتيميس المشهورة باسم ديانا عند الرومان.

٣- ويلاحظ ان الاتروريين آمنوا بوجود كائنات وسيطة بين الآلهة والبشر ، وهى من الشياطين والعفاريت ، وهى إما خيرة وإما شريرة وأن هذه الكائنات كانت تلعب دورا كبيرا فى دنياهم وآخرتهم ، ففى دنياهم كانت تلهمهم أحيانا وتعلمهم أصول وكيفية التعرف على مشيئة الآلهة ، ولعل أسطورة تاجس حفيد تينيا خير إنموذج على ذلك إذ تروى الأسطورة أن مزارعا يدعى ترخون كان يحرث حقله عندما ظهر فجأة أمامه من باطن الأرض كائن قزم غير معروف الشكل ، له شكل طفل وحكمة شيخ ، وأخذ يتقدم نحو المزارع المذعور الذى صرخ صرخة دوت فى كل أنحاء اتروريا ، فاجتمع الناس من كل حدب وصوب، فطمأنهم تاجس أنه مرسل لتعليمهم أسرار العرافة ، وأمرهم أن يدونوا جميع أقواله فى كتاب مقدس وبعد أن بلغ رسالته أختفى مجددا فى باطن الأرض،

وتتلخص تعاليمه بأنها تسمح بالكشف عن أسرار المستقبل ، ولكن لا يجيد هـــذا الأمر إلا العرافون الذين تمكنوا من الأسرار الدينية ، ويقتضى معرفـــة الغيـــب التمرس الطويل بأحكام العبادة والكتب الدينية ، وتقضى تعاليم تاجس أن ينظـــر إلى أكباد الحيوانات المضحى بها ، كما ينسب البعض إلـــى الحوريـــة فيجـــوى (Vegoe) كتابا يحتوى على تعاليمها القاضية بمراقبة البرق والصواعق والرعـد أو أية ظاهرة طبيعية أخرى ، تغاير مظهر الناموس المألوف، ومراقبة حركـات وحومات الطيور. وهكذا فقد كانت طقوسهم شديدة التعقيد تتطلـــب فئـات مـــن الاخصائيين والخبراء والمدربين لاقامتها والحفاظ على تقاليدها.

٤- قد أتبع الاتروريون فى حياتهم اليومية تعاليم وتقاليد ومراسم دقيقة ، كما أنـــهم اتبعوا مراسم معينة عند انشائهم المدن وقد أوردها كتاب بايجوه الـــذى علمـــهم أيضاً طريقة تخطيط المدن وكيف تتجه الشوارع وأين تتقـــاطع، كمـــا ورد بـــه المراسم المتعلقة بإنشاء المعابد .

٥- أعتقد الاتروريون أيضا فى الحياة الأخرى والإيمان بالعقاب فى الدار الآخـوة ، فقد كانت روح الميت، كما نراها فى الصور والنقوش التى عـــثر عليـــها فـــى القبور، يسير بها الجن إلى محكمة الدار الآخرة ، حيث يتاح لها الفرصـــة فـــى يوم الحساب الأخير الدفاع عن أعمالها فى الحياة الدنيا، فإذا عجزت عن تـــبرير هذه الأعمال حكم عليها بضروب مختلفة من التعذيب ، حيث راحـــت الابالســة والشياطين تظهر لترعب الموتى، ولكن كان فى وســـع الأحيـــاء مـــن أقـــارب وأصدقاء الموتى المعذبين ان يقصروا أمد عذابهم بمـــا يقدمـــوه مـــن الأدعيـــة والقرابين سواء أكانت قرابين من الحيوانات أو من البشر، فإذا ما نجت الـــروح من هذا العذاب انتقلت من العالم السفلى إلى صحبة الآلهة الأعلين لتستمتع معـهم بالولائم ومظاهر الترف والسلطان التى صورتها آمال الأحياء فى القبور .

٦- كشفت لنا التنقيبات الأثرية أن الاتروريين كانوا يقدمون الأضاحي من الحيوانات ومن البشر على حد سواء فكان الضحايا من البشر يذبحون أو يدخنون أحيانا في مياتم العظام وكان أسرى الحرب يذبحون أحيانا طلباً لرضا الآلهة ، ولهذا السبب رجم الفوكيون في اليا ٥٣٥ ق.م في سوق كايرى (Care) ، كما ضحى بنحو ثلاثمائة من الرومان سنة ٣٥٨ ق.م في (تاركوينى).

٧- يرى البعض أن التعليم الديني والتوغل في دراسة أسرار العقيدة والعرافة كان قاصرا على الأسر الأرستقراطية الاتروربة. وأنه كان سلاحاً رهيباً استخدمه الأرستقراط للسيطرة على مقاليد الأمور في المدن.

النشاط الاقتصادي:-

تمتع الاتروريون بثراء عريض. وخير دليل على ذلك هو ما عثر عليه الآثاريون في مقابرهم واستمدوا ثراءهم من ثلاثة مصادر هي:-

أ- الزراعة :-

كانت الأرض أهم مصدر للثراء عند الاتروريين، واستغلوها أفضل استغلال، ووفقا لقول الشاعر فرجيل فقد كانت ملكية الأرض عند الاتروريين مشاعية ثم تحولت إلى ملكية خاصة للأسر إذ نجده يقول " كانت الأرض فيما مضى مشاعا بين المزارعين، ولم يكن مسموحا أن تقسم بل كانت ملكا مشاعا بين الجميع الذين كانوا يشتركون فيما بينهم بالمحاصيل ، ويستطرد قائلا . . . "ولكن عندما طالب يوبيتر بحقوقه بالنسبة لأرض أتروريا سمح كما تقول الحورية الاتروريــة

(Vegaia) أن تقسم الأرض وأن تحدد الحقول إذ أن الاله بعمله هذا ، أراد أن يضع حدا لجشع البشر". وفى ضوء المشاهد التى عثر عليها فى المقابر يبدو أن المجتمع الاترورى كان مجتمعا طبقيا اقطاعيا. ويقول فارو (Varo) أن اتروريا قد اشتهرت بخصب أراضيها منذ القدم ووفرة إنتاجها من الحبوب والأعناب والزيتون، ولم يكن فى مقدرة المرء أن يشاهد حقولا غير مستثمرة ، ويعلل الشاعر أوفيديوس مهارة الاترورين فى المجال الزراعى بعلاقاتهم مع الشرق ومع قرطاجة ، فقد برع الاتروريون فى مجال تجفيف المستنقعات واستزراعها وإقامة السدود والقنوات ، مما زاد من أتساع رقعة الأرض المنزرعة ، إذ تكشف لنا التنقيبات الأثرية عن بقايا مشروعات الرى والصرف البارعة- مثل السدود وقنوات الصرف الكثيرة التى اقاموها فى جنوب اتروريا لحجز المياه وتصريفها ، كما انشأ المهندسون الاتروريون مجارى تحت الأرض يسير فيها ما زاد من مياه البحيرات ، كما انهم قد توسعوا فى استصلاح الأراضى بعد قطعهم للغابات والحفاظ على التربة من التآكل . وقد أدى كل هذا إلى زيادة الرقعة المنزرعة ووفرة الإنتاج من الحبوب والكروم والزيتون ، فكانت تصدر اتروريا الفائض من حبوبها إلى روما ، وصدرت الفائض من انتاجها من النبيذ إلى خارج شبه الجزيرة الايطالية إذ ذاع صيت خمرها فى بلاد اليونان، وعرف الاتروريون زراعة الكتان واشتهرت منسوجاتهم الكتانية .

ب- الصناعة والتعدين:-

يمثل استغلال مناجم المعادن المورد الثانى لدخلهم وثروتهم، فقد استعمل الاتروريون مناجم الحديد والنحاس والصفيح فى اتروريا ، وجزيرتى البا وكورسيكا ، وقد ذاع صيت المدن الاترورية بإنتاج المصنوعات المعدنية الحديدية

والبرنزية ، ولعل أقوال المؤرخ تيتوس ليفيوس تكشف لنا عن ازدهار الصناعة فـى المدن الاترورية ، إذ نجده يذكر أن المدن الاترورية المختلفة قـد زودت اسـكيبيو الأفريقى فى حملته ضد قرطاجة بالحبوب والأسلحة وأدوات القتال اللازمـة، وقـد أمدته مدينة كايرى (Care) بالحبوب ومختلف أنـواع المـؤن اللازمـة للبحـارة والسفن، بينما أمنت مدينة بوبولونيا الحديد الضرورى ، وزودتـه مدينـة فوليـترا بالقمح والعتاد الضرورى للسفن، وقدمت له مدينة ازيزو (Azezzo) خمسين ألـف قطعة سلاح من خوذات ومزاريق ورماح ...ألخ . كما قدمت له الفؤوس والمعـادن والمناجل....الخ كما زودته بمائة وعشر ألف مكيال من القمح وكذلك مبلغـا مـن المال يؤمن نفقات الجنود والمجدفين . وقدمت له كـل مـن بيروسـيا (Perusia) وخيوسى (Chiuisi) وروسيلاى (Rusellae) خشب الصنوبر اللازم لبناء السـفن وكميات كبيرة من الحبوب .

واشتهر الاتروريون بصناعة المعادن ، فقد أشتهر صاغتهم بمهارتـهم فـى صناعة الحلى والمجوهرات والمشابك والدبابيس والأقراط مـن الذهـب والفضـة والمرصعة بالاحجار الكريمة، كما أشتهر الاتروريون بإنتاج المرايـا والصنـاديق البرنزية المختلفة ، كما أنهم انتجوا الأوانى البرنزية وقد ذاعت شـهرة المنتجـات الصناعية المعدنية خاصة فى بلاد اليونان وغيرها ، واشتهروا فى صناعة الأوانـى الفخارية وأنتجوا فخاراً أسوداً شبيه بالبرنز واستخدموه للأغراض الجنائزية. كمـا أنتجوا التماثيل الفخارية .

التجارة :

اشتغل الاتروريون بالتجارة مع المناطق القريبة منهم والبعيدة عنهم فقد انشـأوا علاقات تجارية مع القرطاجيين ومع المدن الفينيقية فى شـرق البحـر المتوسـط ،

ومع المستوطنات اليونانية فى شبه الجزيرة الايطالية ، ومع بلاد اليونان ذاتها. فقد صدروا الحبوب والنبيذ والمعادن والمصنوعات المعدنية ، واستوردوا الأوانى الفخارية من بلاد اليونان كما راجت تجارتهم من المصنوعات الحديدية مع وادى الراين العلوى والأوسط ، وكان التجار الاترورويون يتجرون مع جميع البلاد الواقعة على شاطئ البحر الترهانى ، ويأتون بالكهرمان والرصاص والحديد من بلاد أوربا الشمالية وينقلونها فى نهرى الراين والرون وفوق جبال الألب ، كما أنهم تاجروا بإنتاجهم في جميع ثغور البحر المتوسط الكبرى. وأدى ازدهارهم التجارى إلى تركهم وسيلتهم القديمة فى التعامل ، ومنذ أوائل القرن الخامس أخذت مدن مثل بولونيا تسك عملة بعضها من الذهب وبعضها من الفضة وبعضها من النحاس مستخدمة فى أول الأمر القاعدة التى كانت ليديا تتبعها ، ثم فيما بعد القاعدة الشائعة فى يوبويا وكمبانيا.

جملة القول أن ثراء الاتروريين جاء نتيجة الاستغلال الأمثل للأرض والزراعة الكثيفة والاستغلال المنظم لمناجم النحاس والحديد والصفيح، والقيام بتصنيع مختلف الأدوات اللازمة لحياتهم اليومية وأدوات القتال، ونتيجة لتجارتهم الرائدة مع القرطاجيين والفينيقيين واليونان ومناطق فى أوربا.

التنظيم الإجتماعي والحياة اليومية:-

تقدم لنا المصادر الوثائقية والأدبية أضواء باهتة على النظام الاجتماعى عند الاتروريين، فكان نظامهم نظاما طبقيا فقد أنقسم المجتمع إلى طبقتين أولاها الطبقة الاستقراطية ، وهى مكونة من الأقلية الاترورية والتى تتكون من طبقة النبلاء (lucumones) ، وهم من كبار ملاك الأراضى وأقطاب التجارة والصناعة، وثانيتها الطبقة الدنيا من الايطاليين وهم من صغار الحرفيين والتجار والزراع ومن

الاتباع أو الموالى الذين يعيشون على أراضى النبـــلاء ويحتمـــون بـــهم. وعــرف المجتمع الاتروری العبيد وذلك من خلال شنهم الحروب ووقوع الكثير من الأســـوى فى أيديهم، واستخدمهم الاترورين للعمل كخدم فى بيوتـــــهم وقصورهــم ، وفـــى استخراج المعادن من المناجم ، وفى استزراع اراضيهم، فقـــد صـــورت الرســـوم الجدارية بالمقابر العديد من الأرقاء من نساء ورجال فى أوضــــاع مختلفـــة وهــم يقومون بخدمة أسيادهم فى البيوت أو فى القصـــــور، يلاحـــظ ان بـــوادر المـــرح والنشاط تبدو على وجوههم وحركاتهم، ويقول الكاتب بوسيدونيوس (Posidonies) أن لباسهم البهى والبديع لا يتناسب ووضعهم العبودى، وهذا ينم عـــــن أن معاملـــة الأسياد لعبيدهم فى المنازل كانت أفضل بكثير من معاملتهم للعبيـــــد الذيـــن كـــانوا يعملون فى المناجم والحقول .

وتكشف لنا الرسوم الجدارية بالمقابر والرسوم على الأوانى الفخارية عــن أن طبقة النبلاء كانت تزاول حياة تشبه حياة نبلاء اليونان، فقد صورتهم المناظر وهـــم يحاربون على صهوة جيادهم أو يمارسون مختلف أنواع الألعاب الرياضية المألوفـــة بين اليونان – الجرى والقنص ورمى القرص والرمــــح والملاكمـــة والمصارعـــة وسباق العربات ، وكان قليلو الشجاعة منهم يتبارون فى رفع الأثقال ، ولعب الـــنرد والنفخ فى الناى والرقص . وتصور الرسوم حياتهم المرحة فتصور منـــــاظر مـــن مرح الشراب تبين ما يخيم عليها من جو بعيد عن الكآبة ، وهى فى بعض الأحيـــان مقصورة على الرجال دون النساء يتحدثون فيها عن الخمر، وفى بعضـــــها الآخـــر يختلط الرجال بالنساء وهم جميعاً يلبسون أحسن الثياب ويتكئون مثنى مثنـــى علـــى أرائك وثيرة يأكلون ويشربون، ويقوم على خدمتهم العبيـــــد وتســـليهم الراقصـــات والمغنيات ، وتزدان الوليمة أحيانا بمناظر يحتضن فيها الرجال النساء ويرجــــح أن النساء هنا من الحظايا- أو يقيمون المآدب الفاخرة والحفلات المتصلـــــة بـــالطقوس

الدينية. ويلاحظ أنهم كانوا قصار القامات ممتلئ الأجسام كبار الـرؤوس، لا يكـاد يوجد فرق بين ملامحهم وملامح أهل أسيا الصغرى، مـوردى البشـرة وخاصـة النساء ، ونلمح فى وجوه بعض الرجال الرقة والنبل، وكـانوا يطيلـون شـعورهم ويرسلون لحاهم ، ويرتدون ثيابا على الطراز الايونـى وكـان الرجـال والنسـاء مولعين بالتزين. واشتهرت نساؤهم بجمالهن.

وتمتعت المرأة الاترورية بمكانة سامية فى المجتمع الاتـرورى ، وتمثلـها الرسوم تمثيل من لها مقام عال فى جميع مناحى الحياة، وتكشف النقوش الجنائزيـة أن الابناء كانوا يسجلون اسماء أمهاتهم ، وهذا قد يشـير إلـى الأصـل الأسـيوى للاتروريين، ولم يكن التعليم عندهم مقصوراً على الرجال ، وخير انمـوذج علـى ذلك السيدة تناكويل زوجة الملك تاركونيوس العتيـق التـى برعـت فـى العلـوم الرياضية والطب والتنجيم وفى الدسائس السياسية، وتصـور المنـاظر والصـور الروابط الزوجية الوثيقة والحياة العائلية الهادئة والأطفال يسرحون ويمرحون حـول أبويهم وهم سوءا فى سذاجتهم وجهلهم، وعلى العكس من ذلك فقد رسـم الكتـاب اليونان والرومان صورة قاتمة لا نملك دليل على تأكيدها – إذ يقـول بلوتـوس إن النساء الأتروريات قد تاجروا بمحاسنهم قبل الـزواج ليجمعـن مـهرهن، ويقـول ثيوبومبوس (Theupompos) أن النساء الأتروريات كن ملكا مشاعا بين الرجـال ويعنين بأجسامهن إلى درجة كبيرة ويتدربن عاريات ، غالبا مع الرجـال وأحيانـا فيما بينهم ، إذ ليس من العار لديهن أن يظهرن عاريـات ، وان لا يجلسـن علـى المائدة بالقرب من أزواجهن ، ولكن بقرب أوائل القادمين مـن المدعويـن.. ولقـد اشتهرن بجمالهن الفاتن وبشربهن الخمر بكثرة..." ويستطرد قائلاً "أن الاتروريـين يتعهدون جميع المواليد على السواء ولا يعرفون فى الواقع من هو والـد المولـود الجديد ، أما بالنسبة للجماع ، فلم يكن ينظر إليه على أنه عمـل شـائن ، ويزعـم

الكاتب بأنهم كانوا يمارسونه أحيانا علانية وبدون خجل ، ويضيف قائلاً أن اللـــواط كان شائعاً فى المجتمع الاترورى."

ومن المؤكد أن كل من بلوتوس وثيوبومبوس قد بالغا فى ذكر مثالب النســـاء الاتروريات، وكما قلنا من قبل ان المرأة تمتعت بمكانة عاليـــة ، وأنـــها خـــالطت الرجال وانها كانت تحيا حياة تجمعها الروابط الأســـرية وكـــانت ناصحـــة أمينـــة لزوجها – ويمكن أن نشبه مكانتها بمكانة المرأة الكريتية والأسبرطية.

وتكشف لنا المناظر والصور ان كل من الرقص والموسيقى قد احتلا مكانـــة كبيرة فى حياة الأتروريين اليومية، واشهر آلاتهم الموسيقية هى: القيثـــارة والنـــاى المزدوج والصنج والصور والقرن والبوق. وتكشف المناظر عن أن الاتروريين قـــد اصطادوا بعض فصائل الحيوانات على انغام الناى، وقد خدمت الموسيقى كوســـيلة للطرب والمرح فكانت الموسيقى تصـــاحب الاحتفـــال بالاعيـــاد والاســـتعراضات العسكرية والألعاب والحفلات الرياضية وفى نفس الوقت لعبـــت دوراً كبـــيراً فـــى المراسم والطقوس الدينية والجنائزية.

وتكشف لنا المناظر أن الاتروريين قد عرفوا الرقص المنفرد والجماعى فـــى احتفالاتهم وكانت بعض الألعاب الرياضية تمارس وكأنها حركات راقصة كما كـــان الرقص ركنا من اركان المراسم والطقوس الدينية.

التنظيم السياسى:

لم تعرف منطقة اتروريا الوحدة السياسية ، وانما كانت تضم عدداً من المـــدن الدول المستقلة عن بعضها البعض ، وأدى إلى ذلك الظروف الطبيعية مـــن جبـــال وغابات ، هذا فضلاً عن التحاسد والتنافر فيما بينها .

وإذا كانت قد اتحدت أو تحالفت مع بعضها البعض لصد غارات اعدائـــها إلا أنها اعتزت كل منها بسلامتها وسيادتها منفردة عن غيرها، وكثيراً ما كانت تقـــف لتشاهد العدو الخارجي يغير على اخواتها حتى خضعت كلها لروما واحدة في اثـــر واحدة. ولكن مما هو جدير بالذكر أن هذه المدن المتحالفـــة ظلـــت طـــوال القـــرن السادس قبل الميلاد اقوى قوة سياسية في ايطاليا ، وكان لها جيش حسن التنظيم بـــه فرق من الفرسان ذائعة الصيت واسطول بحرى كان في وقت مـــن الأوقـــات هـــو المسيطر على البحر الترهانى ، وكان الحلف الاترورى يتكون مـــن اثنتـــا عشـــرة مدينة، وكان يجتمع اعضاء هذا التحالف سنوياً في مدينة بلزنا (Belzna) لمناقشـــة مختلف الشئون والقضايا التي تهم مختلف الاعضاء، وفي القـــرن الســـادس كـــان اعضاء الحلف ينتخبون حاكماً عاماً يمثل الاتحاد ويتعـــاونون فـــى أمـــور الســـلم والحرب ويصيغون الخطط الدفاعية لمختلف المدن بل وكانت مدن الحلـــف تضـــع أحيانا مختلف جيوشها تحت امرة قائد واحد في ساعات الحرب.

أما عن نظام الحكم في المدن فقد كان النظام الملكى هو السائد في البدايـــة ، ويختلف الباحثون فيما بينهم فيرى فريق منهم ان الملك كان يرث الســـلطة ، بينمـــا يرى فريق آخر أن الوظيفة كانت بالانتخاب من بين النبلاء ويشغلها الملك المنتخـــب مدى الحياة ، ولكن لا يمكن الجزم والتعميم إذا ما كانت الملكية وراثية أو انتخابيـــة لمدى الحياة أو لمدة معينة وقد أطلق على الملك لقب (lucumn) ومارس الســـلطات المدنية والسياسية والعسكرية والدينية ، ولكن حدث تطور فـــى القرنيـــن الســـادس والخامـــس إذ حل محل الملك رئيـــس أو حاكم منتخـــب للمدينـــة واطلـــق عليـــه (Zlath Purthne) ، ويشغل منصبه لمدة عام ، وتحول الحكـــم هنـــا إلـــى حكـــم الأرستقراط فيما عدا مدينة فياى التي حافظت على نظامـــها الملكـــى، وكـــان يتـــم انتخابه من خلال مجلس الأرستقراط ويوكلون إليه سلطاته التنفيذية ، وكان الرئيـــس

والموظفون الكبار يحيطون انفسهم بشيء من مظاهر الأبهة والعظمة، فهم يرتــدون العباءات الارجوانية ويحملون فى الكرسى العاجى الهزاز ، بينما كان يحيــط بــهم اتباع وكان عددهم اثنا عشر عضواً يحملون فى ايديهم مجموعــات مــن العصــى والبلط ، رمزاً لحقهم فى العقاب وفى تنفيذ عقوبة الاعدام . وسنجد أن الرومان قــد ورثوا هذه المراسم والتقاليد عن الاتروريين.

تعطينا المصادر معلومات عن الجيش فقد شــكل الأرســتقراط الاتروريــن واتباعهم جماعة الفرسان فى الجيوش الاترورية ، بينما علــى مــا يبــدو كــانت جماعات المشاة ثقلى وخفيفى العــدة مــن المرتزقــة ومــن الشــعوب الخاضعــة للأتروريين خارج حدود اتروريا وكــان الفرســان والمشــاة يســلحون بــالدروع والسيوف والبلط والرماح والمزاريق.

توسع وانكماش النفوذ الاتروري في إيطاليا

بعد ان استقرت جماعات الاتروريين وأسسوا عدداً من المدن الدول المســتقلة عن بعضها البعض سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، بدأت هذه المدن فى مد ســلطانها وسيطرتها فى جنوب اقليم اتروريا ابان النصف الثانى مــن القــرن الســابع قبــل الميلاد. ففى هذه الفترة نجدهم قد عبروا نهر التيبر جنوبا ليجتاحوا ســهل لاتيــوم واسسوا ملكيات اترورية فى عدد من مدن هذا السهل ، وكانت روما أهمها ، ووفقــاً لرواية مشكوك فى صحتها ولكنــها تحــدد ٦١٨ ق.م. كتــاريخ لاســتيلاء أحــد المغامرين الاتروريين على عرش روما ، وفى النصف الأول من القــرن الســادس امتد زحفهم وتقدمهم جنوبا إلى سهل كامبانيا ، ولم يتوقف تقدمهم فى الجنــوب الا نتيجة لتصدى يونان كوماى لهم وردهم خاسرين سنة ٥٢٤ ق.م. ثم أوقف اليونــان والسمنيون زحفهم فى الجنوب . وفى سنة ٥٣٦ ق.م تحــالفوا مــع القرطــاجيين

للقضاء على الهيمنة والسيطرة البحرية ليونان فوكايا ومستعمرتهم ألاليا (A lalia) ، وبالفعل قضوا على سيطرة الفوكيين وحطموا مستوطنهم ، وآلت السيطرة على كورسيكا إليهم ، بينما سيطر القرطاجيون على سردينيا ، ونظراً لوقوف اليونان والسمنيين فى وجه التوسع الاتروورى ولى الاترووريون وجوههم شطر الشمال، ففى النصف الثانى من القرن السادس نجدهم قد عبروا جبال الابنين واستولوا تقريبا على كل المنطقة الواقعة بين اقليم الليجوريين غربا واقليم الفنتى شرقا.

وقد أنشأوا المستوطنات فى فيرونا (Verona) وبدوا (Padua) ومنتوا (Mantua) وبارما (Parma) ومودينا (Modena) وبولونيا ورمينى (Rimini) ورافنا (Ravenna) وأدريا (Adria) وهى ميناء صغير على البحر الادرياتيكى نسبة إليها واحاطو روما بمستوطنة فى فيدينى (Fidenae) وبرنسيتى (Praeneste) وكابوا (Capua) ولعلهم استقروا أيضا فى موسكولم (Musculum) .

ويلاحظ أن الاتروريين كانوا أهم قوة سياسية فى شبه الجزيرة الإيطالية فى القرن السادس قبل الميلاد - وإذا كان كل من يونان كوماى وحلفائهم اليونانيين والسمنيين قد أوقفوا زحفهم جنوباً الا أن الاتروريين قد أوقفوا هم الآخرين زحف وتوسع اليونان فى شمال إيطاليا وكان هذا دون شك عاملاً أدى إلى المحافظة على الشخصية الايطالية لها، وكان هذا مساعد دون شك ولأكثر من اعتبار على تهيئة المجال للوحدة الايطالية مستقبلا .

ويلاحظ أيضا أن توسع الاتروريين لم يأت نتيجة جهود جماعية من المدن الاترورية بل كان نتيجة لجهود فردية لجماعات صغيرة من المحاربين الاشداء من الأتروريين كان يعمل كل منها لحسابها الخاص دون أن يوجد بينها الا قدر ضعيف من التعاون. وإذا كانت غالبية المدن الاترورية قد انضوت فى اتحاد فإنها لم

تعترف بأية سلطة مركزية تجمعها، بل كانت تتبادل العون عادة فى أوقات الأزمات والشدائد ، وتشترك معاً فى الاحتفالات الدينية، ولم يلبث هذا الاتحاد ان ضعف نتيجة لاختلاف مصالح وأهداف اعضائه من المدن الدول الاترورية ، فقد كان التوسع الاتروري مجرد اجتياح للمناطق الايطالية التى توسعوا فيها دون أن يثبتوا سيطرتهم على أساس راسخ متين ، فقد سيطروا على سكان هذه المناطق عن طريق القوة والرهبة فحسب دون محاولة احتوائهم أو التقارب معهم ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ألا يشعر هؤلاء السكان نحو سادتهم الاترورريين بأى ولاء ، وكذلك لم تكن المدن الاترورية تتمتع بالاستقرار الكامل داخل كل مدينة ، فقد قلمت الثورات وحركات التمرد ، وهذا قد أدى إلى زعزعة وتشتت النفوذ الاتروري ، سواء فى الشمال أو الجنوب ، أمام ضربات الغال واليونان واللاتين .

ويلاحظ أيضاً أن توسع الاترورريين قد أدى إلى توفر موارد وفيرة أدت إلى اثراء الحكومات الاترورية بحيث نجدها قد توسعت فى بناء المدن فى المناطق التى سيطرت عليها ، وقدمت المثل لسكان المناطق التى استولوا عليها فبنوا مزيداً من المدن على اراضيهم، وكان ثمرة ذلك هجرة متزايدة من سكان الريف للاستقرار فى المدن مما أدى إلى نمط جديد من الحياة الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية المترتبة على ذلك .

كما كان التوسع الاتروري خيراً وبركة على المناطق التى استولوا عليها إذ انتشرت الأبجدية الاترورية والكتابة والتى كان لها عظيم الأثر فى إيطاليا.

ونلاحظ أيضا أن النفوذ الأتروري قد انكمش نتيجة للعوامل السالفة الذكر وحلت بهم الكوارث، فتم طرد الملك الاتروري من روما سنة ٥٠٩ ق.م. ونجحت بعض المدن بمساعدة كوماى عند اريكيا Aricia سنة ٥٠٤ ق.م. من الحاق

الهزيمة بجيش اتروري ، ثم الحقت كوماي بمساعدة من هيرون حـــاكم ســـيراكوز الهزيمة بالاتروريين سنة ٤٧٤ ق.م. الذين كانوا قد شنوا هجوماً بريا وبحرياً علـــى كوماي ، ثم هاجمت وأغارت سيراكوز علـــى كورســـيكا والبـــا ســـنة ٤٥٣ ق.م وشواطئ اتروريا نفسها.

وفى أوائل القرن الرابع نجد ديونيسيوس الأول حاكم سيراكوز قد اغار علـــى سواحل اتروريا واستولى على الموانى الاترورية فى البحر الادرياتيكى. وانكمشـــت سيطرة الاتروريين فى أواسط شبه الجزيرة الايطاليـــة نتيجـــة لتوســـع الســـمينيين وسيطرتهم على كابوا سنة ٤٣٨ ق.م. وفى الشمال انكمشت سيطرتهم على الشـــمال بعد وصول القبائل الغالية حوالى ٤٠٠ ق. م. واستيلائهم على سهل البو . وكـــانت روما قد بدأت تمد فى نفوذها فى نفس الوقت على بعـــض المنـــاطق فـــى ســـهل اتروريـــا إلى أن نجحت فى ضمهم إليها كحلفاء لها بعد أن خاضت معهم الحـــروب الضروس .

وهكذا حين انقضى القرن السادس قد حل الضعف بالاتروريين وبدأ الأمـــر يخرج من أيديهم خاصة بعد ظهور روما التى اجهزت على مدنـــهم الواحـــدة بعـــد الأخرى إلى أن ضمتهم جميعاً إليها. وإذا كان الاترور يـــون قـــد فقـــدوا مركزهـــم السياسى الا أنهم قد تركوا آثارا على الحضارة الايطالية فـــى العمـــارة وتخطيـــط والدين والتنظيم السياسى ورسوم الحكم واساليب الحرب. وإذا كان الاتروريون قـــد تركوا بصماتهم وتأثيرهم الحضارى فى شبه الجزيرة الايطالية فإن اليونـــان الذيـــن أقاموا فى إيطاليا مستوطنات كان لهم آثار إيجابية وســـلبية علـــى شـــبه الجزيـــرة الايطالية .

عند حديثنا عن حركة الاستعمار اليونانى تكلمنا عن استيطان اليونـــان فـــى جنوبى إيطاليا وصقلية وعددنا بعض هذه المستوطنات والمدن الأم التـــى أسســتها وتكلمنا عن انتقال مرض الانفصالية السياسية إلى المناطق التى استقر بها اليونـــان بل والاقتتال بين المستوطنة والمدينة الأم المؤسسة لـــها. وتكلمنــا عــن تــأثيرهم الحضارى فى إيطاليا وغرب البحر المتوسط، فقد علموا الايطـــاليين بشــكل غــير مباشر من خلال الاتروريين وبشكل مباشر نتيجة لاحتكاكهم بالشـــعوب الايطاليــة أولاً فى شكل علاقات تجارية والحروب بينهم ، وكان من ثمرة هــذا الاحتكــاك ان تعلموا منهم الكتابة ونقلوا الآداب والفلسفة والقانون والأساطير والديانـــة والفنــون والعمارة والصناعات وغرس أشجار الاعناب والزيتون بعد أن كانت تنمـــو بريــة حتى استقرارهم فى إيطاليا، حتى صارت إيطاليا حديقة أوروبا كمــا أنــهم علمــوا الايطاليين فنون القتال سواء فيما يتعلق بتحصين المـــدن بالاســوار المبنيــة مــن الاحجار المستوية أوفى حسم المعارك لصالحهم عـــن طريـــق اســتخدام التكتيـــك الحربى الذى يقوم على أساس الحركة السريعة المكثفة للكتائب المكونة من حـــاملى الدروع المسلحين بالحراب. وقد زاد فيض هـــذا التـــأثير اليونـــانى علـــى رومـــا خصوصاً وكل شبه الجزيرة الايطالية عموماً بعد أن سيطرت روما علـــى المـــدن اليونانية فى جنوب إيطاليا وصقلية وبعد أن سيطرت على بلاد اليونان وقد ترك لنــا الكتاب اليونان بعض الكتابات عن الشعوب الايطالية المختلفة.

ومما هو جدير بالذكر أن اليونان فى جنوب إيطاليا إذا كان تـــأثيرهم غالبــا على إيطاليا فانهم أيضا قد شكلوا عقبة كؤود فى سبيل تحقيق الوحـــدة الايطاليــة، عندما حاول الاتروريون مد سيطرتهم على الجنوب وبعد انحسار النفوذ الاتـــرورى عن سهل كمبانيا سنجد أنهم قد قاوموا التوسع والسيطرة الرومانية على الجنوب بـــل

كانوا عنصراً خطراً على روما عندما استدعوا برهوس، وســــنتناول هــذا الأمــر بالتفصيل لاحقاً.

ومن الشعوب التى كان لها تأثيرها على إيطاليا الغال اللذيـــن انتقلــوا إلــى إيطاليا واستقروا فى سهل البو - وسنعود للحديث عنهم فى حديث لاحق عند حديثنا عن جهود روما لتوحيد إيطاليا. وعلينا الآن الحديث عن مدينة روما ونشأتها.

حضارة سهل لاتيوم ونشأة روما وفترة نظام الحكم الملكي بها .

أ- حضارة سهل لاتيوم :-

هذا السهل كما سبق أن ذكرنا هو أحد ثلاثة سهول فى غرب شبه الجزيرة الايطالية ، ويقع موقعاً وسطاً بين سهلي اتروريا وكامبانيا، ويحده من الشمال نهر التيبر الذى يفصله عن سهل اتروريا، ومن الشرق شعاب جبال الابنين والتى تكتنفه فى بعض المناطق ، ومن الغرب البحر الترهانى. وحدوده الجنوبية عند راس كير كيرم، وتبلغ مساحته ٢٠٠٠ كم^{٢} وتتسع المنطقة السهلية من اقليم لاتيوم عند حديه الشمالى والغربى ، أما الجزء الأوسط منه فيتكون من مجموعة من التلال التى تكونت نتيجة للثورات البركانية وما كانت تلقيه من حمم، وتربة هذا السهل تربة بركانية، وقد وجدت به المستنقعات بالقرب من الساحل.

ظل هذا السهل غير مأهول بالسكان فترة طويلة من العصر البرنزى بسبب النشاط البركانى وبسبب المستنقعات ووعورة مناطقه، بيد أنه من الجدير بالقول أنه فى بواكير الألف الأول قبل الميلاد بدأت جماعات من السكان تغشاه وتنزل فى تجمعات قروية (Vici) عند أطراف البراكين الخامدة، واعتمدت حياة هذه الجماعات المعيشية على الرعى والزراعة.

ولم تؤثر حضارة الفيلانوفا إلا قليلا على سكان هذا السهل . وقد استطاع الباحثون المحدثون ، من خلال دراسة قوائم الجماعات اللاتينية التى تركها المؤرخون القدماء ، أن يخلصوا إلى أن هذه الجماعات قد تجمعت فى عشرات القرى وقد بنى سكان هذه القرى أكواخهم المستديرة الشكل على تلال أو مرتفعات يسهل الدفاع عنها ولا تكتسحها الا مياه الفيضان .

وتدل مخلفاتهم الأثرية على أن فريقا منهم كانوا يمارسون عادة حرق جثث الموتى، وعلى أن الأثاث الجنائزى الذى وجد فى المقابر اللاتينية الباكرة كان يشابه الاثاث الجنائزى الذى وجد فى مقابر فيلانوفا. كما كشفت لنا التنقيبات الأثرية عن ان فريقا آخر كان يمارس عادة دفن الموتى ، وهذا يشير إلى أن سكان سهل اللاتين كانوا مزيجاً من أربعة عناصر رئيسية هى: مهاجرى العصر الحجرى الحديث، ومهاجرى أواخر عصر البرنز، ومهاجرى عصر الحديد الذين وفدوا من المناطق المجاورة فى جبال الأبنين ، وكانوا مثل العنصر الأول يدفنون موتاهم، أما فى الجنوب فقد استقرت جماعات سابيليه وخاصة الفولسكى الذين سكنوا الجزء الساحلى الجنوبى من سهل لاتيوم ، وبصفة عامة فقد كان سكان هذا السهل ادنى حضارة عن الشعوب التى سكنت أو تعاملت مع شعوب إيطاليا اعتباره من القرن الثامن من الاتروريين واليونان والقرطاجيين . وحتى أواخر القرن السابع ظل اللاتين يعيشون فى تجمعات قروية منعزلة عن بعضها البعض وشبه عن العالم الخارجى ويسهل الدفاع عنها ، ويحيون حياة بدائية بسيطة، لها صلات محدودة للغاية بالعالم الخارجى ، فقد عثر فى مقابرهم على القليل من الأوانى الفخارية والأدوات البرنزية اليونانية . بيد أنه فى أواخر هذا القرن دخل سهل لاتيوم مرحلة جديدة بدخول الاتروريين الاسمى حضارة إليه وسيطرتهم عليه وصبغه بحضارتهم ، وهذا ما نستخلصه من المخلفات الأثرية التى تعود إلى نفس الفترة ، فقد ادخلوا إليه صناعة البرنز والمعادن الثمينة – الذهب والفضة ، وأدخلوا إليه طرز عمارتهم وتخطيط مدنهم وتحصينها، وعلموا اللاتينية طريقة بناء السدود وشق قنوات الصرف والتى عثر عليها فى وادى نهر التيبر وفى السفوح الجنوبية لتل البالونس، كما علموهم الحروف الأبجدية، وتحولت القرى فى عصرهم إلى مدن حصينة .

كان سكان سهل لاتيوم ينقسمون إلى شعوب Populi ، وكل شعب Populus يسكن منطقة محدودة (Pagus) مركزها بلدة حصينة Oppidum. وقد حدث اندماج بين بعض الجماعات القوية والضعيفة فيها ، ولكن لم تحدث وحدة تجمع بين تلك الجماعات جميعاً ، ولكن ما حدث هو أنها مالت إلى التجمع ، فتجمعت في ثلاثة اتحادات أو اخلاف دينية فى البداية والتى ستتحول فيما بعد إلى احلاف سياسية. وأشهرها الحلف الذى شارك أعضاؤه فى إقامة الشعائر المشتركة والاحتفالات المشتركة للإله يوبيتر لاتياريس على تل البالونس ولا نعرف عدد أعضاء هذا الحلف الا من ديونيسيوس الهاليكرناسى ، إذ يشير أن ٤٧ جماعة شاركت في الحفل السنوى للأله يوبيتر لاتياريس وكانت مدينة البالونجا اشهر مدن هذا الحلف وزعيمته وذلك لقربها من مقر عبادته وثانى هذه الأحلاف الحلف الذى تعبد أعضاؤه للالهة ديانا (Diana) عند بحيرة نموكنسيس Lacus Nemocensis وثالثها الحلف الذى تجمع اعضاؤه للتعبد للألهة فينوس فى لافينيوم.

وقد بدأت هذه الأحلاف تأخذ طابعاً سياسياً بجانب طابعها الدينى منذ أواخر القرن السادس ، فقد كان الحلف المتعبد للإلهة ديانا يعقد اجتماعاته في معبدها. وتشير المصادر إلى أن عدد مدن هذا الحلف كان يتكون من ثمانى مدن وأهمها أردا (Ardea) واريكيا (Aricia) وتيبور (Tibur) وتوسكولوم (Tusculum) ولعل السبب فى تطور هذا الحلف وصبغه بصبغة سياسية هو رغبة أعضائه فى التخلص من السيادة الاترورية ثم الدفاع عن استقالهم ضد توسع روما فيما بعد.

موقع مدينة روما:

تقع مدينة روما على الحدود الفاصلة بين كل من سهلى أتروريا واللاتين وعلى بعد خمسة عشر ميلاً من مصب نهر التيبر ، حيث توجد مجموعة من التلال

قامت عليها عدة قرى ومن اتحاد هذه القرى نشأت مدينة روما. ونتيجة لموقعها فقد تمتعت بمزايا طبيعية واستراتيجية اسهمت فى بناء عظمتها ذلك أن موقعها فى سهل لاتيوم هيأ لها اقليما خصيباً ، اتاح لها عدد من السكان أكبر من المعتاد مقارنة مع المدن اللاتينية الأخرى ذات المساحة المماثلة لها. وبفضل تلالها كانت إلى حد ما فى مأمن من الأضرار الناجمة عن فيضان النهر، كما أن موقعها فوق هذه التلال اعطاها موقعا دفاعياً حصيناً وموقعاً هجومياً متميزاً على المناطق المجاورة. كما أن موقعها على نهر التيبر قد أعطاها ميزة الاتصال البحرى بالساحل الغربى لايطاليا والعالم الخارجى والتحكم فى الاتصال البرى بين شمال إيطاليا وجنوبها وكان ثمرة كل هذه الميزات ان مدينة روما كانت مؤهلة بما حباها الله لقيادة مدن هذا السهل وتوحيده تحت رياستها ثم السيطرة على كل شبه الجزيرة الايطالية.

نشأة مدينة روما

كشفت لنا التنقيبات الأثرية أن مدينة روما قد قامت على أكتاف التجمعات القروية اللاتينية على التلال اللاتينية ، وعلى عناصر دخلتها وتسربت إليها من المنطقة الوسطى من جبال الأبنين ، ويؤيد هذا المفردات السابينية التى وجدت فى اللغة اللاتينية ، ويعضد هذا أيضا وجود عدد من العبادات والآلهة السابينية بين آلهة الرومان ، وتشير الأبحاث الأثرية إلى تسرب تدريجي من السابينين ليمتزج مع السكان الأصليين لروما.

وكشفت لنا التنقيبات الأثرية أن أولى الجماعات القروية التى سكنت تلال روما هى الجماعة القروية التى استقرت على تل البلاتيوم فى القرن العاشر أو التاسع ، وتلاها جماعة قروية أخرى استقرت على تل اسكويلنوس (Esquilinus)

بعد الجماعة الأولى بقرن من الزمان تقريبا، أى فى القرن التاسع أو الثامن، وتلاها استقرار مجموعة قروية ثالثة على تل كويرينوس Quirinus، وفى بداية الأمر كانت كل جماعة قروية من الجماعات القروية الثلاث السالفة الذكر تعيش فى عزلة عن الأخرى بيد أنه بمرور الزمن اخذ يحدث تقارب بين جماعتين قرويتين وقامت رابطة دينية بينهما إذ شاركتا فى إقامة الشعائر الدينية ، والاحتفال السنوى والذى أطلق عليه احتفال التلال السبع، ويرجح أن هذا الاحتفال كان يضم سبع جماعات تسكن على سبع مرتفعات تدخل ضمن تكوين تلين من هذه التلال الثلاث هما تلى البلاتيوم واسكويلينوس . ويبدو معقولاً ان القريتين اللتين اتخذتا هذه الخطوة الأولى نحو الوحدة كانتا متجاورتين ومن اليسير الاتصال بينهما.

وتشير القرائن والأدلة الأثرية إلى أنه فى القرن السابع قامت قريتان على تلى كايليوس وفيميناليس ، وانهما انضمتا بالإضافة للجماعة القروية المستقرة على تل كويريناليس لاى الرابطة التى اسستها القريتان السالفتا الذكر وكان يحكم كل جماعة قروية ملك (Rex) ويعاونه مجلس من الأشراف ورؤساء العشائر ، وبالرغم من أن سلطات الملك كانت مطلقة الا أنها كانت مقيدة بالعرف السائد بين القرى، ولم تلبث أن اتحدت تلك القرى ونشأ من اتحادها مدينة روما فى أقدم عصورها ، ويلاحظ أن وادى الفورم قد تم وقف الدفن به فى حوالى بداية القرن السادس ، وتحول إلى سوق للمدينة، وتحويل تل كابيتولينوس ليكون حصنا وملاذا لسكان التلال ، كما تم إقامة سور حول المدينة وسياج معنوى ، وهو عبارة عن منطقة خلاء تحيط بالسور من الخارج ، ويلاحظ أن تل الكابيتولينوس لم يكن داخلاً فى اطار سور المدينة وسياجها المعنوى..، ويرى البعض أن الإجراءات الأخيرة مرتبطة بدخول الأتروريين لسهل لاتيوم فى النصف الثانى من القرن السابع أو مع اقتراب هذا القرن من نهايته ، وهنا نتساءل هل كان للاتروريين صلة بتأسيس

روما ؟ ينقسم الباحثون إلى فريقين أولهما يجد من الادلة ما يشير إلـــى أن تأســـيس روما قد حدث بعد دخول الاتروريين لمنطقة لاتيوم واحتلالهم لمدينـــة برابنســـتى، ومن ثم فقد يرى البعض أن الغزاة الأترورويين هم اللذين فرضوا الوحدة على قـــرى التلال وأنشأوا مدينة روما ، فقد عبروا نهر التيبر عنوة من المنطقة المقابلة للتـــلال التى قامت عليها روما ثم حصنوا المنطقة وسوروها على هيئة مدينة لتصبـــح رأس جسر ينتفعون به فى استيلائهم على بقية سهل لاتيوم ، على أساس أن هذه المنطقـــة هى أول منطقة هامة قابلوها بعد عبروهم نهر التيبر ، وقد يعضد هذا الرأى الخـــط أو السياج الوهمى الذى خُط أو رُسم حول المدينة ليحميها مـــن الأرواح المعاديـــة حيث أن هذا الخط كان من سمات المدن الأترورية ، ويعضد هـــذا الـــرأى أيضـــا الكشف عن مجموعة المقابر المنحوتة فى تل ماريـــانوس وراء تـــل يـــانيكولوس ، ويستند أصحاب هذا الرأى أيضا على أن أسماء ملوك روما ونبلائها واســـم رومـــا ذاته مشتقة كلها من الأترورية . ولكن يعارض نفر من الباحثين هذا الرأى ويدللـــون على عدم أصالته بالنقاط الآتية :

١- ان مسألة اشتقاق اسم المدينة وأسماء الملوك والنبـــلاء بالمدينـــة مـــن أســـماء اترورية هى مسألة افتراضية وليس لها سند يعضدها.

٢- ان الطقوس الدينية الرومانية الباكرة تخلو تماماً من أسماء الآلهة الأترورية.

٣- ان مقابر تل ماريانوس لا يمكن أن تكون دليلاً على سيطرة الأترورويين علـــى روما ذاتها لأن هذا التل يقع فى أتروريا بل ان تل يانيكولوس الاقرب إلى رومـــا لم يصبح جزءاً منها الا فى العصر الامبراطورى.

٤- انه لو صح ان الأترورويين هم اللذين أنشأوا روما لكان لهذا الحدث اصداء فـــى الأساطير حول نشأة المدينة . ويرى أصحاب هذا الرأى أن الأترورويين كان لـــهم

يد فى إنشاء روما الباكرة بمعنى أن الخوف من عدوانهم هو الذى حدا بـــالقرى على تلال روما السالفة الذكر إلى الاتحاد وتكوين مدينة حصينة وربما اقتبســوا الخطط والأساليب والطقوس الأترورية فى تحصين مدينتهم وهذا ما قــد تشــير إليه اسطورة رومولوس فى انشائه للمدينة .

ولكن يبقى التساؤل كيف نجح هــؤلاء الأتروريــون فــى دخــول المدينــة والوصول إلى سدة الحكم فيها ، فهذا يشير إلى سيطرة فعلية على المدينة ، ويلاحـظ ان الأترووريين قد شكلوا أقلية ارستقراطية حاكمة بينما الأغلبيـــة المحكومــة مــن اللاتين ، وهذا يقودنا إلى القول بأنهم قد اســـتغلوا تفــرق الجماعــات اللاتينيــة ، وسيطروا عليهم جميعاً وأنهم قد أدخلوا مـــن مظـــاهر حضارتـــهم إلـــى رومـــا، فوروردوها وسيجوها وفرضوا عليها الوحدة السياسية، وحققوا لها المكانة العاليـــة بين المدن فى سهل اللاتين ، وارتقوا بنظمها وحضارتها وحققـــوا لـــها الازدهـــار الاقتصادى ومن المؤكد فإن طقوس تدشين مدينة روما قــد اجريــت تحــت نفــوذ اترورى .

وإذا كان ما عرضنا سابقا حول تطور ونشأة روما فـــى ضـــوء المعطيـــات الأثرية فإن لدينا الكثير من القضايا التى لم تحصل على اجابة لها بعد فهل تقدم لنـــا الأساطير الرومانية واليونانية تلك الإجابة.؟ يمكننا القـــول ان الأســـاطير لا تقـــدم أخباراً تفصيلية عن تطور التجمعات القروية ودخولها فـــى رابطـــة دينيـــة والتـــى تحولت إلى وحدة سياسية. وهذه الروايات قد روج لها الكتاب اليونـــان والرومـــان وهى تفيض علينا بتفصيل خبر تأسيس مدينة روما. ولكنها لا تتفق فيما بينها حـــول مؤسس تلك المدينة ولا على سبب تسمية المدينة بهذا الاسم. كما أنها تقدم لنا بعـض المعلومات عن أن مدينة البالونجا كانت تنشئ مستعمرات تابعـــة لـــها فـــى ســـهل اللاتيـــن .

ونلاحظ أن الأساطير التى اطلقها اليونان كان الغرض منها فى البداية إبـراز انهم هم المسئولون عن نشر الحضارة فى سهل اللاتين عموما وروما خصوصاً خاصة وأنهم كانوا القوة الوحيدة الظاهرة فى البداية، ولكن اليونان ، عندما كانوا فى صدام مع الأتروريين ، وسيطرة الأخيرين على سهل كامبانيا ولاتيم، ردوا ونسبوا تأسيس المدن إلى زعيم من زعماء حرب طروادة وهو البطل اينياس.

بينما روج الرومان بأن منشئ مدينة روما هو ايطالى وأن كان من أصل اسيوى وأرجعوا نسبه إلى اينياس، والسبب وراء كل هذا التخبط والضبابية هو ان سجلات روما قد احرقها الغال فى أثناء دخولهم لها وحصارهم للرومان على الكابيتولوس . وعلينا الآن ان نوجز الروايات حول نشأة روما وهى على النحو الآتى، يقول البعض وفقا لبلوتارخ، أنه بعد أن طاف البلاسجيون العالم تقريبا وأخضعوا كثيراً من الأمم حطوا رحالهم فى هذا المكان ودعوا مدينتهم روما تنويها لما لسلاحهم من قوة، ويقول البعض أيضا أنه بعد سقوط طروادة نجا جماعة من أهلها وتيسر لهم الحصول على سفن ثم قذفت بهم الرياح فرسوا على شواطئ اتروريا بالقرب من نهر التيبر ، وكان التعب قد أنهك قوى نسائهم وحلت مشاق السفر وكانت بينهن واحدة تدعى روما لا يقل ذكاؤها عن كرم محتدها اقترحت عليهن اضرام النار فى السفن فعملن بنصيحتها ، وهنا غضب الأزواج بيد أنهم استسلموا للأمر الواقع، واقاموا حول جبل حيث فاقت سعادتهم ما كانوا يأملون ووجدوا من الأرض ومن الأهالى ترحيباً ولذلك خصوا روما بالاكرام، وأطلقوا اسمها على المدينة ، التى كانت سببا لوجودها، ويقال ان عادة تسليم الرومانيات على أهليهن وأزواجهن بقبلة على الفم أصلها ان الطرواديات بعد اشعالهن النار فى السفن كن يهدئهن غضب أزواجهن بالتوسل إليهم وتقبيلهم على هذا النحو. ويزعم البعض ان روما التى دعيت المدينة باسمها هى بنت ايتالوس ولوكاريا ويقول

آخرون انها حفيدة هرقل وأنها تزوجت اينياس ، بينما يقول آخرون أنـــها تزوجــت من ابن اينياس.

ويدعى البعض ان الذى بنى روما هو رومانوس بن اوديسيوس والحوريـــة الالهية كيركى ، وأن ابنا آخر لاوديسيوس والحورية الالهية تيركى قد أسس مدينـــة توسكولم ، ويدعى البعض الآخر على أن الملك ايفاندروس قد هـــاجر مـــن شـــبه جزيرة اركاديا فى شبه جزيرة البلوبونيز ، ويرد نشأة المدينة إليه وأنه نشر الثقافـــة والحضارة والفنون بين سكان إيطاليا الأول وعلمهم الموسيقى وفن الكتابة ووضـــع لهم تشريعات وقوانين ، ويرى البعض الآخر ان روموس بن اماتيون هو مؤسســـها والذى أرسله ليوميد إلى طروادة. ويقول البعض الآخر ان الذى رفع أساســـها هـــو روموس ملك اللاتين بعد أن طردت منها الأترورييين.

ويقول البعض أن الذى وضع أساسها هو رومولوس ودعاها باســـمه ولكـــن هناك خلاف حول أصله، ويحسبه البعض ابن اينياس وأنه نقل إذ كان طفـــلا مـــع أخيه ريموس إلى إيطاليا وأن نهر التيبر طغى فحطم جميع السفن الا سفينة الطفليـــن التى دفعها بلطف إلى شاطئ ممهد ونجت على غير المنتظر، ودعيا المكان رومـــا ويقول آخرون أن روما ابنة رومولوس ويرى البعض ان رومولـــوس هـــو ثمـــرة اتصال سرى بين ابنة اينياس ولافينا بالاله مارس . وهناك روايات أخـــرى ولكـــن أشبه الروايات بالحقيقة، على حد قول بلوتارخ ، هى رواية فابيوس بيكتور ، وقـــد وقعت بها اختلافات الا أنها فى جملتها ما يأتى :

انتهى أرث سلالة اينياس الملكية إلى الأخوين نوميتور وأموليوس وقد قســـمه أموليوس إلى قسمين أحدهما هى المملكة والآخر المال والذهب الذى جئ بـــه مـــن طروادة، اختار نوميتور المملكة ، ولكن اموليوس صار بماله أقوى نفوذاً من أخيـــه

وسلبه التاج بأهون سبب، وخشى أن تلد بنت اخيه ابناء فجعلها كاهنة لفستا حتى لا تتزوج وتقضى حياتها عذراء، بعضهم يدعوها "اليا" والبعض "ريا" وآخرون "سلفيا"، ولكنها وجدت بعد قليل حبلى خلافاً لقوانين الكاهنات، وادعت أن والد من فى رحمها هو الاله مارس بيد أن بعض المؤرخين يقولون أن ذلك وهم منها لأن أموليوس كان مدججا بالسلاح حينما دخل يغتصبها. وتشفعت لها ابنة الملك لدى والدها فأبقى على حياتها، وخشى اموليوس أن تلد على غير علم منه فأودعها سجناً ضيقا لا يراها فيه أحد، وضعت توأمين من أجمل وأفخم ما تلد الوالدات، ازداد خوف أموليوس فعهد إلى خادم ان يعرضهما للهلاك، وضع الخادم الطفلين فى مهد ونزل يلقى بهما فى النهر، ولكنه وجد التيار شديداً فلم يجرؤ على النزول فألقى بهما على الشاطئ وعاد: هدأت المياه واحتملت المهد بلطف إلى أرض ممهدة، وكان على مقربة منها شجرة تين برية، وأتت ذئبة (Lupa) وأرضعتهما وعاونها فى ذلك نقار الخشب (الشقرق) . وفى رواية أخرى قام بارضاعهما زوجة راعى تدعى أكا لارنتيا (Acca Larentia) ويكنونها لوبا (Lupa) لأن حبها عارم كحب الذئاب ، ويستطرد بلوتارخ قائلا أن "فاوستولوس راعى خنازير أموليوس قد قام بتربية الطفلين فى منزله على غير علم من أحد ويزعم البعض وهو أدنى إلى الصواب أن نوميتور كان يعلم ذلك وأنه كان يمدهما بما يحتاجانه إليه حقيقة ، ونقلا بعد ذلك إلى مستعمرة اقامتها البالونجا على بعد اثنى عشر ميلاً من روما لتعليم اللغة وكل ما يجب أن يتعلم الإشراف" . ويستطرد بلوتارخ قائلا "رعى رومولوس وريموس نسبة إلى الثدى" لأنه قد شاهد الذئبة ترضعهما، وكان لهما اعتدال قامتهما ووسامة وجهيهما ، ما يدل منذ الصبا على ما يكون لهما من شأن وكلما ازدادت أيام حياتهما ازداد كل منهما شجاعة وجرأة وأقداما عند الخطر ، ولكن رومولوس كان يفرق أخاه لسلامة الذوق والمهارة فى تدبير الأمور ، ففى

المرعى أو القض أو كل علاقاته مع جيرانه، يبدو علية أنه خلق للقيادة أكثر منه للطاعة، ولذلك كانا محبوبين من جمع زملائهما ومن كانوا دونهما،.... ولم تكن الحرية فى نظرهما البطالة ، بل العمل : رياضة البدن ، القنص، الركض ، القضاء على قطاع الطرق واللصوص ، حماية المظلومين من ظلم الظالمين، بذلك اكتساب شهرة واسعة.... وحدث ان رعاة نوميتور قد اشتبكوا مع رعاة اموليوس فى معركة واختطفوا منهم قطعانا فاستاء كل من رومولوس وريموس لذلك واقتفوا أثرهم وشتتوا شملهم وعادوا بالغنائم التى سلبت، فزع نوميتور من ذلك وغضب وكانا قد حشدا جندا من الأهالى والعبيد بحجة اتقاء العصيان والثورة وفى أثناء غياب رومولوس لتقديم القرابين أن دا ت معركة بين رجال نوميتور وبين ريموس ورجاله وكانت الغلبة لرجال نوميتور وتم أسر ريموس واقتيد إلى نوميتور ولم يجرؤ على عقابه خشية إغضاب اموليوس (وهنا نجد رواية بلوتارخ بأن نوميتور كان قد تولى رعايتهما) وتقدم إلى الأخير طالبا أنصافه فهو أخوه، وعطف اموليوس على مطالب اخيه وسلمه ريموس ليفعل به ما يشاء، فاصطحبه إلى منزله ولكنه لم يستطع إلا ان يعجب به لما رآه فيه من الجمال والقوة والجرأة والثبات، وعندما سأله فقد سأله فى هوادة ولين من هو وما مولده، وإجابة ريموس بجرأة أنى لا أكتمك شيئا وأنت مع ما يلوح لى أولى بالحكم من أموليوس لأنك على الأقل تسمع وتتحقق قبل أن تعاقب، أما هو فإنه يسلم المتهم بلا تحقيق، ... واستطرد فى حديثه كنا نحسب أنفسنا حتى اليوم ابناء فاوستولوس خادم الملك، ونحن توءمان، ولكن من وشوا بنا اليك واضطرنا للدفاع عن انفسنا سمعنا أقوالا مدهشة... يقولون أنا ولدنا خفيه وأنا غذينا وارضعنا بطريقة غاية فى الغرابة وأن الطيور الجارحة والوحوش البرية التى القينا إليها قامت بتغذيتنا، إذ كانت ذئبة ترضعنا ثديها والشقرق يقدم لنا ما يلتقطه أيام كنا فى المهد على شاطئ النهر.... ولا يزال المهد

محفوظا تحيط به شرائط كأسية وعلية حروف لا تكاد تقرأ قد تكون لوالدنيا يوما ما علامة لتعرفنا ، قارن نوميتور بين هذه الأقوال وعمر ريموس والزمن الذى عرض فيه الطفلان للهلاك فخامرة أمل بهيج ، فعول على محادثة ابنته وكانت لا تزال رهن السجن...، ويستطرد قائلا لما علم فاوستولوس أن ريموس قد تم أسره وتسليمه إلى نوميتور تعجل رومولوس لاغاثته وكشف له عن سر ميلاده وحمل بنفسه المهد وأسرع به إلى نوميتور وأوقفه رجال نوميتور وأجبروه على أظهار المهد ، ولكن كان بينهم حارس وهو الذى كان امولیوس قد عهد إليه بإبعاد الطفلين وشهد ما تعرضا له من خطر ، فما رأى المهد حتى عرفه من شكله وما كان محفورا عليه من الكلمات..وأسرع بفاوستولوس إلى نوميتور الذى روى له أن الطفلين حفيديه ما يزالان على قيد الحياة، واحضر المهد إلى "اليا" لأنها تريد أن تراه وتلمسه ليقوى فيها الأمل بأن ولديها لا يزالان على قيد الحياة..... وفى هذه الأثناء كان رومولوس قد جهز جيشا كبيرا واتجه به لتحرير أخيه ولكن كان جنده قد تعرف عليه، وانضموا جميعا وقبضوا على الملك امولیوس وقتل وتولى نوميتور الحكم الذى كان قد سلف منه ويستطرد بلوتاخ قائلا "عادت السكينة إلى المدينة ولكن رومولوس وريموس لم يقبلا المقام فى البا دون أن يحكماها ولم يقبلا أن يحكما فى حياة جدهما، فبعد أن أقرا السلطة بين يديه وقاما بواجب التكريم لوالدتهما عولا على الرحيل ليسكنا مكانا يكون لهما الأمر فيه ولاتباعهم من الجنود من المنفيين والعبيد الأبقين والذين ضاقت بهم البا ذرعاً ، وعليه اعتزما إنشاء مدينة ولكنهما اختلفا حول المكان المنشود، فقد رأى رمولوس أن تكون على تل بالاتيوم بينما ريموس رأى أن تكون على تل الافنتين حيث كان جدهما يرعى قطعانه. واتفقا على أن يفض النزاع بينهما ما تشير إليه الطيور. فوقف كل منهما فى المكان الذى اختاره ويقال أن ريموس شهد مجموعة من طائر الحدأة وعددها

ست. بينما شهد رمولوس اثنتي عشر حدأة ويزعم البعض ان ما شاهد ريموس كان حقيقة بينما خدع رمولوس أخاه، وعندما علم أنه خدع حزن حزناً شديداً أو أخذ يسخر من أخيه وهو يخط سياج المدينة ويعطل تنفيذه ويقول البعض أن رمولوس قتله في الحال ويقول أخرون أن أحد أصدقاء رومولوس هو الذى قتله ، وبعد دفنه لأخيه اشتغل ببناء المدينة وأحضر من اتروريا أناسا علموه نظام الحفلات والتقاليد الواجب مراعاتها.

وقد بدأ عمله الانشائى بحفر حفرة حول المكان المعروف باسم "كوميس" والقوا فيها بكورة من كل شئ حلال من الشرع وضرورى من حيث الطبيعة، وأخذ كل واحد قبضة من تراب البلد الذى أتى منه والقاه فيها بعد مزجها كلها وأطلقوا على الحفرة أسم "العالم" ومن هذه النقطة رسموا زماما للمدينة ، وضع رمولوس سلاحا من النحاس فى المحراث وعلق ثورا وبقرة وشق الخط المرسوم، وكانت مهمة السائرين خلفه أن يأخذوا الطين الذى يخرجه المحراث فيلقوه فى الحفرة لا يتركون منه شيئا. وكان الخط بمثابة حد السياج للمدينة، وكان فى الأماكن التى يراد جعلها أبوابا يرفع المحراث فيبقى بلا أثر ، لذلك يعتبر الرومان الجدران مقدسة اما أبواب؛ فلا لأنها لو اعتبرت مقدسة لكان إدخال الضروريات إلى المدينة وإخراج الأشياء النجسة مخالفة للدين وهكذا وفقا لهذه الأسطورة فإن المدينة التى أنشأها تقع على تل البالاتيوم فقط أو سورها وأنه صار ملكا عليها .

ويختلف الكتاب الرومان حول تاريخ إنشاء مدينة روما فقد أرجع الشاعر كوينتوس إينوس (Quenteus Ennius) تاريخ إنشائها إلى حوالى عام ٩٠٠ ق.م ويرى المؤرخ بيكتور فابيوس ان تاريخ إنشائها عام ٧٤٨ ق.م وسايره فى هذا كل من كاتو وبوليبيوس ويرى المؤرخ كينكيوس اليمنتوس (Cincius Alementus) ان تاريخ إنشأئها عام ٧٢٨ ق.م بينما قال الفقيه الرومانى ماركوس ترنتيوس فارو

(Marcus Terentuis Veru) بعد بحوث دراسات مستفيضة أو روما قد تم تأسيسها في عام ٧٥٣ ق.م. ويذكر شيشرون أن تاريخ تأسيسها هو ٧٥٣/٤/١٧ ق.م وفـــي ضوء ما سبق عرضه فأنه لا يمكننا إلا ان نقرر أن ليس لهذا التـــاريخ الأخـــير أي سند صحيح يمكن التعويل عليه. خاصة وأن المعطيات الاثرية تشير إلى أن ســـكنى تل البالاتيون قد تم فى القرن العاشر/ التاسع، وأن التلال الأخرى قـــد نـــزل بـــها اللاتين تباعا. كما ان المصادر تشير فى رواية إنشاء روما ان رمولوس قـــد ســـور المدينة التى أسسها على تل البالاتيوم فقط كما أنه رفض أن يقيم المحلـــة الســـكنية التى كان يسعى أخوه لانشائها. وهنا تتفق الأسطورة مع الأدلة الاثرية علـــى ان أول استيطان على تلال روما كان على التل المذكور من قبـــل اللاتيـــن ولكـــن الأدلـــة الاثرية تشير كما سبق أن ذكرنا إلى تاريخ بالكر عن التاريخ الـــذى أتفـــق عليـــه المؤرخون وهو سنة ٧٥٣ ق.م ولعل قول الشاعر كوينتوس اينوس بـــأن بتـــاريخ إنشائها هو حوالى ٩٠٠ ق.م يتفق مع المعطيات واللقى الاثرية من تل البالاتيوم.

روما تحت الحكم الملكي:-

إذا كنا فى حيرة من أمرنا بشأن توحيد قرى روما فى مدينة واحـــدة وحـــول تاريخ نشأتها، فـــأننا لا نملك مصادر موثوقة حول تاريخها الباكر فيما بيـــن فـــترة تأسيسها وبين إنهاء الحكم الملكى فيها فى أواخر القرن السادس، فلا تجـــود علينـــا المصادر الوثائقية بمعلومات موثقة عن تلك الفترة سوى نقش يعـــود تاريخـــه إلـــى القرن السادس قبل الميلاد، وهذا النقش عبارة عن جزء من قانون دينى وردت فيـــه كلمة ملك (Rex) ، أما عن معلومات المصادر الأدبية فالحقائق التاريخية بها تغلفـــها الأساطير والحكايات الخرافية حول النظام الملكى، وما يمكن أن نستخلصه منـــها ان قرى روما قد عرفت النظام الملكى ، وأن روما ، بعد ان توحدت قراهـــا صـــارت

مدينـــة ، قد خضعت لحكم الملكي بالتأكيــد ، ودليلنا على ذلك أن آثار هذا النظــام قد بقيت فى أنظمة العصر الجمهورى ، فمن الألفـــاظ الدالـــة علـــى ذلـــك لفظة "Interrex" والتى يشير معناها الحرفى إلى شخص يشغل المنصب الملكى لفـــترة انتقالية بين حكمى ملكين ، وقد بقيت هذه اللفظة فى العصـــر الجمـــهورى لتطلــق علىأى شخص يرأس الدولة فى الفترة الانتقالية ، أى يشغل وظيفة القنصليـــة فـــى حالة وفاة القنصلين أو مرضهما أو استقالتهما ليشرف على انتخاب خليفتيـــهما فـــى خلال فترة محددة ولفظة أخرى تعنى ملك القرابين (Rex Sacrum) وهى اللفظـــة التى كانت تطلق على أحد كبار الكهنة . وتشير الروايات التاريخيـــة عمومـــا إلـــى وجود سبعة ملوك حكموا روما وهم على النحو الآتى:-

رومولوس:

لقد جعلته الأساطير المحلية منشئاً لروما، وواضح من أســـمه أنـــه اختـــلاق وضعته الاسطورة اشتقاقا من أسم المدينة، وتقدم لنا الروايات التاريخية معلومـــات حول جهوده فى إنشاء المدينة وتقويتها، فيقول بلوتارخ أنه لما تم بناء المدينة أخـــذ رومولوس فى تقسيم رجال جيشه إلى فرق تؤلف كل فرقة من ثلاثـــة آلاف رجـــل وثلاثمائة فارس وأطلق عليها الجيوش المنتخبة دلالة على أنـــه اختـــار مـــن بيـــن الأهالى من يصلح للقتال وترك للباقين مهام الشعب فأطلق عليهم هـــذا الاســـم...، واختار رمولوس أيضا مائة من الأعيان والف منهم مجلسا ودعاهم أباء أو حمـــاة، ودعى هذا المجلس بمجلس الشيوخ وأنه قسم الرومان إلى فريقين فريق الأشـــراف "الحماة" وفريق العامة ، وتروى الرويات أن رومولوس بعد أربعـــة شـــهور مـــن تأسيس المدينة فكر فى اختطاف السابينيات لذلك لم يختطف سوى عدد قليـــل مـــن الفتيات لا يزدن عن الثلاثين عدا لأن حاجته إلى الحرب كانت أشد من حاجته إلـــى

زوجات ، ويقول بلوتارخ أن الأقرب إلى الصواب هو ان رمولوس قد رأى المدينة ملأى بالأجانب ولا نساء لهم سوى نفر قليل والباقون من ذوى الحاجة ، وأن رجالات القبائل المجاورة رفضوا تزويج بناتهم لهم، ولذا فقد خطط لاختطاف بنات السابين ولتحقيق ذلك فقد أشاع أنه قد وجد مذبح الاله كونسوس يحت الأرض وأعلن أنه احتفاء باكتشافه سيقيم حفلة تكريم للاله مع تنظيم المهرجانات والألعاب، ودعى السابين ، بناتهم ونساءهم ، لحضور الحفل وقد حضروا بالفعل في اليوم الموعود ، وكان رمولوس قد أتفق مع رجاله على إشارة الهجوم وهى: أن يقف ويثنى طرفا من ثوبه ثم يرده ، ووقفت طائفة من الرجال ترقب الإشارة مسلحة بالسيوف ، ولما أعطيت الإشارة استل القوم سيوفهم وهجموا صارخين واختطفوا بنات السابين تركوا الرجال يهربون لا يتبعهم أحد ، ويزعم البعض أن اللواتى اختطفن لم يتجاوزن الثلاثين فتاة ، ولكن فلاريوس يقول أن عددهن سبعمائة وسبعة وعشرون فتاة ، ويقول جوبا أنهم ستمائة وثلاثة وثمانون وكلهن أبكار، ولم يكن بينهن إلا امرأة واحدة ، ولم يكن الغرض من هذا العمل الإساءة للسابين ولا إشباع شهوة حيوانية بل كان الغرض توثيق الاتحاد بين الشعبين... أرسل السابين مندوبين إلى رومولوس يعرضون عليه شروطا معتدلة وهى أن يرد عليهم بناتهم وأن يعمد إلى الإقناع والطرق المشروعة لتوثيق عرى المودة والاتحاد بين الشعبين فأبى رومولوس رد البنات، والزمهم المصادقة على الزواج ، جهز السابين جيشهم وعقدوا لواء القيادة لملكهم تاتيو ، وحاصروا قلعة الكابيتول التى كانت تحت قيادة القائد الرومانى تاربيوس وأمسك السابين بابنة هذا القائد تاربيا ووعدها تاتيوس إن هى فتحت لهم أبواب القلعة بأن جنوده سيعطونها الأساور التى يلبسونها فى معاصمهم اليسرى، وفتحت لهم تاربيا أحد أبواب القلعة ليلا فدخلها السابين وعقابا على خيانتها لقومها القى تاتيوس سواره ودرعه على رأسها وتبعه جنوده فى إلقاء

دروعهم حتى خرت صريعة، ولما رأى رومولوس ان السابين امتلكوا القلعة دفعتـه ثورة الغضب إلى إعلان القتال فقبله تاتيوس بـلا تـردد، وكـانت سـاحة القتـال محصورة بين الجبال وسيئة الحال فكان النهر قد طغى عليها قبل ذلك بأيام فـترك أرض الفورم موحلة. دارت معارك عنيفة بين الجانبين، هلـك فيـها خلـق كثـير وأصيب رمولوس بجرح فى رأسه من حجر كاد يقتله. وفى هذه الأثنـاء اندفعـت النساء السابينيات المسببات فى الحرب إلى الوقوف بين الفرقاء وتصيح صيحـات الفزع والألم متقدمات إلى ازواجهم وآبائهم، وكانت طائفة منهم تحمل الأبناء فـوق اذرعتهم والأخريات محاولات إثارة الشعور لدى الطرفين فكـن يدعـون السـابين والرومان بأعز الأسماء... تأثر المتقاتلون وافسحوا لهم مكانا بين الجيشـين، بلـغ صياحهم اخر الصفوف وكان منظرهن يملا القلوب حنانا بلغ أشـده قولـهم مـاذا جنينا، بأية جريمة أذنبنا استحقينا ما جلبتم وما تجلبون علينا مـن الألام، اختطفنـا رجال بالقوة رغم كل شريعة وأصبحنا منهم ولم يفكر فينا إخواننا وآباؤنا وأقاربنـا إلا بعد أن صار هؤلاء الرومان الذين كنا نبغضهم أعزاء علينا.. وأصبحنـا نـألم ونبكى لقتال أولئك الذين حملونا قسوتهم وظلمهم لم تأتوا لتأخذوا بثارنـا أيـام كنـا لانزال عذارى وجئتم اليوم تنتزعون النساء من ازواجهم وأمـهات مـن أبنائـهم، ياولين ألم يسؤنا نسيانكم أيانا كما تسؤنا اليوم عودتكم هذه ثمار العطـف والمحبـة التى لقيناها من اعدائنا وهذه ثمار عطفكم علينا! إذا كان هناك باعث أخـر حملكـم على حمل السلاح لكان الواجب أن تعدلوا عن ذلك إكراما لنا نحن اللواتـى جمعنـا بينكم وبين من تحسبونهم أعداءكم بروابط القرابة والصداقة أما إذا كنتـم تحـاربون من أجلنا فخذوا معنا أصهاركم واحفادكم أعيدونـا إلـى آبائنـا وأقاربنـا دون أن تحرمونا من أزواجنا وأبنائنا إنا نضرع إليكم أن توفروا علينا استعباداً جديداً.

ونستخلص من هذه الحادثة أن النساء فى المجتمع السابينى والرومانى كـــن يتمتعن بقدر كبير من الحرية ، فكن يشاركن الرجـــال فـــى حضـــور الاحتفـــالات والألعاب والمباريات ، كما أن النساء كن يشاركن فى تقرير ورسم مصائر أممـــهن، فقد رأينا كيف نجحن فى إيقاف نيران الحرب .

وهنا توقفت الحرب وتفاوض زعماء الفريقين، وكانت النســـاء تجمـــع بيـــن أزواجهن وأبنائهن وبين آبائهن وأخواتهن.

تقدمن المؤنة المحتاجين وتنقلن الجرحى إلـــى منازلـــهن تضمـــد جراحـــهم وتواسيهم وتريهم مكانتهن من ازواجهن وكيف أنهن موضع عطف واحترام الجميـــع وبعد ذلك تم التعاهد بين الطرفين علي البنود الآتية:-

١- ان النساء اللواتى ترغبن المقام مع أزواجهن لا ترغمن على شئ سوى غـــزل الصوف.

٢- يشترك السابين والرومان فى سكنى المدينة وأن يبقى لها أسمها"روما" من اســـم رومولوس.

٣- يتولى حكم روما تاتيوس ورمولوس بالاشتراك وأن يقتسمان قيادة الجيوش .

٤- تم أخذ مائة شيخ من السابين وانضموا إلى القدماء أى الشيوخ الرومان كما تـــم زيادة عدد الفرق كل إلى ستة آلاف راجل وستمائة فارس وتم تقسيم الشعب إلـــى ثلاث فئات.

٥- يجمع الملكان المجلس كله ليعرضا عليه ما يعد من المسائل بل ينفرد كل منـــهما بدرسها درسا مبدئيا مع شيوخه ثم ينعقد المجلس كله للفصل فيها.

وكان من ثمرة هذا الاتفاق أن تبنى السابين نظام الشهور الرومانية، كما أخذ رمولوس عن السابين الدروع الطويلة واستعمالها، كما أن كل من السابين والرومان قد اشتراكا فى الاحتفال بأعياد بعضهما بعضا.

وقد خص رومولوس النساء بكثير من امتيازات الشرف والتكريم فقد كان يخلى لهن أسمى مكان فى الطرق ولا تلفظ فى حضرتهن كلمة غير شريفة ولا يترأى لهن أحد عاريا. ويرى البعض ان رولوس قد سن شريعة قاسية التى تحرم على النساء مفارقة ازواجهن وتخول للرجال حق طلاق النساء إذ أمتلكن مفاتيح مقلدة أو لعلة الزنا، اما إذا طلق الرجل امرأته لغير احدى هذه العلل فتأخذ الزوجة نصف ماله وتعطى النصف الثانى للإلهة كيرس ويلزم الزوج بتقدمة لآلهة الجحيم.

ويقال أنه كان يعتبر جريمة قتل الإنسان جريمة لا تغفر وأنه من المحال ان يقتل الولد أباه.

ويروى أن جماعة من السابين من ذوى قربى الملك تاتيوس قد قامت بسلب أموال جماعة أخرى وقتلهم وطالب اهالى القتلى من رومولوس أن يتم تسليمهم ولكن الملك تاتيوس سوف فى تسليمهم ، ومن ثم فقد قام أهالى القتلى بقتل الملك تاتيوس وقام رومولوس بدفنه ، ولكنه لم ينتقم من قتلته، ولم يثر السابين الاضطرابات بسبب هذا وذلك لحبهم لشخص رومولوس .

ويروى أنه قد أشتبك مع المدن المجاورة فخرب بعضها ودمرها ونقل سكانها إلى روما وأبقى على البعض الأخر وأرسل إليها جاليات رومانية، كما تعرضت روما فى عهده لوباء الطاعون، كما آل إليه حكم البالونجا بعد موت جده وعامل شعبها بكرم إذ نزل لهم عن حكومة بلدهم محتفظا لنفسه فقط بحق أرسال حاكم يقيم العدل بينهم.

ويقال أن رومولوس عندما كان يدعو مجلس الشيوخ كان يدعوهم لا للمفاوضة والمناقشة، ويسمعون صامتين أوامر الملك ولم يكن لهم فضل على الشعب سوى سبق المعرفة بما تقرر ، وهذا كان يضايقهم ، وقد زاد بعضهم له أنه وزع الأراضي على الجنود دون ان يستشيرهم وأن يوافقوا على ذلك. وقد رأى أعضاء المجلس أن ذلك، ذراية وامتهانا. لذلك فقد وقعت الشبهة على الشيوع عند اختفاء رومولوس، فقد رماهم الناس بالظنون والتهم وأنهم وثبوا عليه في الهيكل وقتلوه وأخذ كل منهم قطعة من جثته يخفيها تحت ردائه ، وهناك رواية أخرى تقول أن عاصفة هوجاء اختطفته ومهما يكن من هذه الروايات فقد اختفى من بين الناس وهو في الرابعة والخمسين من عمره وفي السنة الثامنة والثلاثين من حكمه.

نومابومبيليوس:-

نشب خلاف بين السابين والرومان حول مسألة انتخاب ملك جديد، فكل أمة كانت تبغي أن يكون الملك منها ، فقد رأى الذين اشتركوا مع رومولوس في تأسيس روما أنه من الظلم أن يدعى السابين السيطرة على شعب دعاهم لمشاركته المدينة واراضيها، بينما يقيم السابين البراهين التي لا تقل قيمة عن هذه بقولهم أنهم بعد موت تاتيوس ملكهم لم يشقوا عصا الطاعة على رومولوس بل تركوا له الحكم هادئا مطمئنا ، وعلية يجب لهم في مقابل ذلك أن يختار الملك منهم، ويضيفون إلى ذلك أنهم يوم جاءوا إلى روما لم يكونوا أقل قدرا من الرومان وأنهم زادوا في قوتهم زيادة كبيرة وجعلوا من مدينة روما تلك المدينة القادرة القاهرة .

أمام هذا الخلاف فقد خشى الشيوخ اضطراب الأحوال واتفقوا فيما بينهم أن يتولى كل منهم الحكم واحدا بعد واحد يقدم التقديمات المعتادة على ما كان يفعله رومولوس وأن تكون مدة حكمه ست ساعات نهارا وست ساعات ليلا، رضى

الشيوخ بهذا الاتفاق لتداول السلطة بين أيديهم ويرى كل شيخ فى كل نــــهار وكــل ليلة وطنيا وملكا فتزول أسباب الفرقة وقد أطلق الرومان على هذا العهد عـــهد مــا بين الحكومتين . ولم ينج الشيوخ بالرغم من اعتدالهم وتقربهم للشعب مــن الريبــة والتذمر ضدهم ، فقد أتهمهم الشعب بتحويلهم الحكومة الفردية إلى حكومة جماعيــة وانهم يضمرون عدم انتخاب ملك ليبقوا الحكم بين أيديهم، فاتفق كل مــن الســابين والرومان أن يختار كل منهما ملكا من الفريــق الأخــر ، ورأى الرومــان أن مــن مصلحتهم أن يختاروا ملكا سابينيا أفضل من ان يختار لهم السابين ملكــا رومانيــا ولعل السبب فى ذلك الخلاف بينهم على من يكون ملكا منهم ، وبعد المداولة وقــع اختيارهم على نوما السابينى ولم يكن نوما من السابين الذين أقاموا فى روما، ولكنــه رجل ذاعت فضائل شهرته بين الجميع بحيث أن السابين هتفوا عند سماعهم أكــثر من الذين انتخبوه. أعلن الانتخاب إلى الشعب وارسلوا وفدا من الفريقين إلى نومــا يرجوه المجئ الاستلام أزمة الحكم.

كان نوما يتحلى بالفضائل وزادها كمالا بالعلم والصبر والفلسفة فقــد طــهر نفسه من جميع الأهواء المخجلة بل من الأهواء التى يفتخر بها البدائيون كالقســوة والشراهة لاعتقاده أن الشجاعة الحقيقة هى إخضاع الشهوات للعقل ، وأبعــد عــن بيته جميع أسباب الترف والفخفخة ، وخص أوقات فراغه لا للســعى وراء التمتــع بالملاذ ولا بجمع الثروة بل لتكريم الآلهة والسمو بعقله إلى معرفة طبائعها وقدرتــها امام كل هذه الفضائل فقد اكتسب سمعة طيبة مما جعل الملك تاتيوس يزوجه ابنتــه الوحيدة ، وبقى فى مدينته على خدمة والده ، وبقيت زوجته معه ثلاث عشرة ســنة فى المدينة ، ولكنه بعد موتها هجر المدينة وأقام فى الريف، مما دفع النــاس إلــى الظن بأنه وجد رفيقة إلهة وتزوجها وهى الحورية ايجيريا وفى الواقع أن الضجــر والحزن هما اللذان حملاه على الابتعاد عن الناس.

كان نوما فى الأربعين من عمره عندما وصل إليه وفد روما يرجـوه قبـول الملك وبحكومة مدينة ولدت فى الحروب ونمت فى ظل السلاح ، ورد عليهم بقـول بليغ رافضاً. فى كل تغيير يحدث فى حياتنا خطر علينا أما من لا يعوزه شـئ ولا يشكو حالة فمن الجنون أن يعدل عاداته ويغير من شأنه ، وأن يستعيض عمـا هـو مؤكد الفائدة بما لا تؤمن عقباه كما يستفاد مما حدث لروموليوس ، فقد الصقـت بـه تهمة قتل زميلة تاتيوس وتركه التهمة لاحقة برجال مجلس الشيوخ بعد موته بأنـهم هم الذين قتلوه.....يقولون أن روموليوس غذى فى طفولته وأنقذ بعناية الهية خاصـة اما انا فمن البشر غذيت، ونشأت بين رجال تعرفونهم وما تمتدحونه فى من الصفات ليست ما يلزم لرجل يقدم على تولى الحكم ، إن ما احببته دائما هو الراحة والـدرس بعيدا عن مهام الأشغال وما يلازمها أنى أحس بميل شديد للسلام، للرياضة البعيـدة من الحرب، لتلك المجتمعات التى تشتغل بتكريم الآلهة التى تمتع بالمسرات البريئـة يعود منها المرء إلى حراثة الأرض ومرعاته القطعان أن المدينـة محتاجـة فـى مقاومتها إلى ملك ممتلئ حماسة وفى عنفوان الصبا، لقد أعتاد هذا الشعب الحـروب والنصر مغرى بشجاعته ، ويعلم الجميع أنه لا يريد سوى التوسع والسـيادة علـى الشعوب الأخرى ، فيكون من المضحك خدمة الالهة وتعويد الأهالى العدل وبغضـة الحروب واحتمال الشدائد فى أمة حاجتها إلى قائد جيوش أشد منها إلى ملك..."

بذل الوفد جهدا لاقناعه "بقولهم ألا يرمى بهم إلى الاضطرابات ثانيـة لأنـه هو الرجل الوحيد الذى ارتضاه الفريقان"... وشارك والـده وصديقـه جـهدا فـى اقنـاعه ، بعد انسحاب الوفد ، لقبول المنحة الالهية الجميلة . بقولهما " إذ كان لـك من ثروتك ما يغنيك ولم تكن فى حاجة إلى كنوز إذا كنت لا تطمع فى مجد السـيادة والسلطة بمالك من فضيلة من مجد محقق فلتعتبر على الأقل أنه فى تولـى الحكـم خدمة للآلهة أن الإله هو الذى يدعوك اليوم ولا يريد أن تبقى العدالة التى اقـترنت

به عاطلة لا أثر لها فى تقادم ارادته، لا تر فض الحكم أنه مجال يأتى فيه الرجـــل العظيم جلائل الأعمال هناك يستطيع ان يكرم الآلهة اكبر تكريم باخضاع الرجـــال لعواطف التقوى بما يقدمه الملك من القدوة الصالحة المؤثرة .. لقد احب الرومـــان تاتيوس وهو غريب عنهم وأكرموا ذكرى رومولوس بتكريمات دينية ومن يـدرى إذ لم يكن هذا الشعب المنتصر قد مل الحروب وشبع من النصر والأسلاب ، تاق إلـى رجل يحب العدل يقيم خير الشرائع التى تكفل له السلام وإذا بقـى الشـعب علـى ميوله وشهوته الحربية ألا يكون من الخير تحويل هذه الحمية إلى شـئون أخـرى متى قبضت على أعنة الحكم بجمع كلمة المواطنين وتوثيق روابـط المـودة بيـن السابين وأهالى المدينة العامرة .

لقد ضمن لنا بلوتارخ كل أفكار نوما لاصلاح أحـوال الرومـان فـى هـذه المحاورات السابقة كما ضمن لنا طبائع الشعب الرومانى. ويستطرد بلوتارخ بقولـه "يقال ان فألا حسنا أيد هذه الأسباب ، وزادها رجاء مواطنيه الذين أسـرعوا إليـه عندما سمعوا بقدوم وفد روما والحوا عليه السفر وقبول الملكيـة ليوثـق الاتحـاد والألفة بين رجالات الشعبين. عندئذ قبل نوما العرض وانتقل إلى رومـا واسـتقبله كل من رجال مجلس الشيوخ والشعب يحدوهم الشوق لرؤيته ، وهتفت لـه النسـاء هتاف الفرح وقدمن التقديمات له فى الهياكل ، وشـمل الفـرح الجميـع كأنـهم لا يستقبلون ملكا بل مملكة . وصل نوما إلى ساحة المدينة ، وشـرع الرومـان فـى أجراء الانتخاب واجتمعت الأصوات على انتخابه ملكا وقدموا له الشارات الملكيـة عندئذ طلب نوما التريث حتى يتأكد من رضا الالهة، وقد رأوا فى مقدم الطيور فـألا حسنا وهنا ارتدى نوما الرداء الملكى وتوسط الشعب فعلا هتـاف الفـرح يحيـى الجميع الملك ، كان على نوما الملك المنتخب أن يقوم بأعمال جسام حتى يحقق مـا كان يصبوا إليه من تحويل الرومان من شعب مقاتل إلـى شـعب محـب للسـلام

وترقيق طبائع الرومان الفظة. وتخفيف حدة النزاع بين الرومان. اخذ يلين اخـــلاق الشعب كما يلين الحديد. وأن يبدل ميوله القاسية الحربية عواطف أرق وأعدل .

كان نوما يعلم انه من الصعب للغاية أن يحمل هذا الشعب المتكبر الحربـــى على حب السلم فاستعان بالدين لتحقيق ذلك، فأكثر من الاحتفـــال بالأعيـــاد الدينيـــة وتقديم القرابين وإقامة المهرجانات التى أشرف عليها بنفسه، كما عمل أحيانا إلـــى الإفضاء إليهم بأحاديث ومزاعم عن معجزات مختلفة أظهرتها إليـــه الآلهـــة ورؤى غريبة وأصوات تهديد، ويقال فى ذلك أنه دعا جماعة كبيرة لتناول العشـــاء وقـــدم لهم وعاء واحدا عليه طعام تقشف مبتذل جداً ، بينما كانت الجماعة تـــهم للجلـــوس حول المائدة قال لهم " هذه آلهتى آتية للزيارة وفى الحال رأوا المنزل ملئ بالأوعيـــة الفاخرة. ومدت على الموائد أشهى والذ الأطعمة فى أعظم أبهة ، وزعم أنـــه كـــان يحادث إلهة الشعر وكان يغزو إليها أكثر ما أوحى به إليه وسن للرومـــان شـــرعة وفى عهده حدث وباء أنتشر فى إيطاليا واجتاح رومـــا وزعـــم أن ورقـــة برنزيـــة سقطت من السماء بين يدى نوما فأخذ الملك يروى عنها أحاديث غريبة زعـــم أنـــه علمها عن الحورية إيجيريا وإلهة الشعر قائلات على زعمه أن هذه الورقة أرســـلت لنجاة المدينة وأنه يجب الاحتفاظ بها.. ويقال أيضا أنه قبض على الهتين وقيدهمـــا وأخذتا تغيران من هيئتهما وتظهران فى أشكال رهيبة ولكنهما رأتا فى النهايـــة أن قيودهما لا ترخى فظهرتا لنوما وكاشفتاه بـــأمور مقبلـــة وعلمتـــاه التفـــادى مـــن الصواعق بواسطة البصل والشعور والشخوص بدلا من تقديم الاضاحى البشـــرية. وتدل هذه الخرافات المضحكة على مبلغ ما وصل إليه رجال ذلك العصر من التـــأثر بالسلطة الدينية وإلى أى حد من الخضوع بلغ بهم لنوما. يقول ليفى عنـــه " عمـــل على ان يبعث فى قلوب الشعب الخوف من الالهة ويجعل ذلك الخوف أقوى أثـــرا فى قلوب الأقوام الهمج وإذا كانت جهوده فى هذه السبيل لا توصلـــه إلـــى الـــهدف

الذى يسعى إليه إلا إذا كان مرجعها إلى حكمة البشر، فقد ادعى انه كان يلتقى في الليل بايجيريا الحورية المقدسة وانه يعمل بنصيحتها حين ينظم الطقوس، والمراسم الدينية التى هى أحب الطقوس إلى السماء ويعين الكهنة لكل أله من كبار الآلهة .

أهتم نوما بالشئون الدينية اهتماما بالغا، فقد نظم سلك الكهنة وأقام الهياكل للآلهة فقد أفلح فى توحيد دين قبائل روما المختلفة وأزال ما بينها من فروق فى العبادات ، وقوى بذلك وحدة الدولة وزادها استقراراً ، ويقول شيشرون أن نوما، حين وجه اهتمام الرومان المولعين بالحرب والقتال إلى شئون الدين، نشر لواء السلام بين شعبه على مدى أربعين عاما ويغرى إليه إنشاء هيئة الكهنة وزاد عدد الكهنة إلى ثلاثة بدلاً من أثنين وهم كاهن مارس وكاهن جوبيتر أما الكاهن الجديد فكان لرمولوس وتولى رياستها ككاهن أعظم ومن وظائفه مراقبة عذارى الربة فيستا ، إذ يقال أن نوما هو الذى أنشا نظامهن وعهد إليهن العناية بالنار المشتعلة على الدوام والحرص على الطقوس والتقاليد، ولعل أن نوما قد رأى أن مادة النار الطاهرة النقية لا يصح أن يعهد فى رعايتها إلا لأجسام طاهرة بلا دنس ولعله لاحظ الشبه العظيم بين اللهب العظيم بطبيعته والبتولة ، ووظيفة العذارى المقدسة منحصرة فى صيانة النار الدائمة، وبدأ نوما بتعيين كاهنتين أولا ثم جعلها أربع كاهنات ثم زاد عددهن فى عهد الملك سرفيوس إلى ست كاهنات. وقد سن نوما للعذارى العفة مدة ثلاثين عاما العشرة الأول لتلقى العلوم والعشرة الثانية لممارسة العمل والثالثة لتعليم الناشئات، ومتى انتهت هذه المدة كان لهن الخيار فى ان يتزوجن أو يتركن المعابد أو أية عيشة يرون ، ولكن يؤكدون أن قليلات منهن اللواتى استفدن من هذه الحرية ومن فعلت منهن لم تجد ما يسر بل قضت بقية حياتها بين الندم والحزن فكانت مثلا يدخل الخوف الدينى إلى نفوس زميلاتها فتؤثرن البتولة الدائمة على الزواج .

وقد منحهن نوما امتيازات عظيمة ، مثال ذلك ، يرثن في حيـــاة والدهــن ويمتعن بحقوق الزوجة التي لها ثلاثة أولاد فتدبر أمرها كما تريــد بــلا رقيــب ، ومتى خرجت أحدهن سارت المشاعل أمامها ، وإذا قابلن مجرما يساق إلى القتــل خلى سبيله بشرط أن تقسم العذراء أنها قابلته على غير اختيار صدفة لا تدبير فيـها، وإذ مر أحد تحت الحمالة التي تقلهن كان ذلك ذنبا موجبا للموت أمـــا إذا أقــترفت عذراء ذنبا عاقبها الكاهن الأعظم بالجلد وكان يوقع عليهن القصـــاص فـــى مكـــان مظلم سحيق وهن عاريات لا يسترهن سوى ثوب رقيق ، أما التـــى تخـــون نـــزر بتولتها فتدفن حية بالترب من باب التل ، ويوجد في ذلك المكـــان داخـــل المدينـــة رجمة كبيرة يدعونه المدخل أنشأوا فيه حفرةً ينزلون إليها من فتحـــة علـــى ظـــهر الأرض وأودعوا الحفرة سريرا وسراجا مضيئا وقليلا من المؤنة الضرورية للحيـــاة وقليل من النبيذ والخبز والماء وجرة لبن وقليل من الزيت كأنهم يخفون قصدهم مـــن إماتة إنسانة مقدسة جوعا. وتوضع المحكوم عليها على حمالة تغلق غلقـــا محكمـــا تشد عليها بالحبال بحيث لا يسمع صوتها ثم يجتازون بها الساحة العمومية وحينئـــذ يصطف الناس في حزن وصمت عميق ، مشهد لا يوجد في روما أفظع منه ويـــوم لا يوم مثله ، ترى فيه المدينة غارقة في الكدر ، ومتى وصلت الحمالة إلى مكـــان التنفيذ يحل رجال المشاعل عنها الوثائق ويؤدي رئيس الكهنة صلاة ســرية رافعـــاً يده إلى السماء ثم يجذب المقضي عليها من الحمالة وعليها غشاء وتضع على السلم الذي ينزل منه إلى الحفرة ثم يعود باقي الكهنة ، ومتى نزلت إلـــى قـــاع الحفـــرة رفعوا السلم ثم يغطون الحفرة بأن يكسوا عليها التراب متى ســـاوى الأرض هـــذا جزاء العذارى اللواتي يخن عهد ونزر بتولتهن على حد قول بلوتارخ.

ويقال أن نوما هو الذي انشأ هيكل الالهة فيستا المستدير لتحفظ فيـــه النـــار المقدسة ، وأنه أنشأ هيكلا أخرى في قصر يدعى بيت الملك كان يسكنه عادة ويقـــدم

فيه المقترحات ويعلم الكهنة ويحادثهم فى شئون العبادة، كما أنه أقام هيـاكل لآلهـة الحدود وأقام معبد للإله يانوس إله البدايات وكان لهذا المعبد عدة أبواب فى جانبيـه الشرقى والغربى وكانت تغلق هذه الأبواب فى وقت السلم بينما تفتح أيام الحـرب ، ويقال أن هذه الأبواب بقيت مغلقة طيلة الأربعة والثلاثين عاما التى حكم فيها نومـا، بيد أنها فتحت بعد وفاته وبقيت مفتوحة حتى أقام أغسطس حكمه الامبراطورى.

ويقول بلوتارخ أن نوما قد حرم على الرومان أن ينسبوا للآلهة شكل إنسـان أو حيوان ولم يكن بينهم فيما مضى صورة ولا تمثال الهى، وظل الرومـان لمـدة المائة وسبعين سنة الأولى لا يضعون فى هياكلهم ولا معـابدهم صـورة ماثلـة ، معتقدين انه من الكفر تمثيل "الأكمل" فى الأحقر، وإنـه لا سـبيل لمعرفـة الله إلا بالفكر، وكانت تقديماته عبارة عن الدقيق والفول واشياء بسـيطة وأخـرى وحـرم الذبائح .

وعلم الكهنة طقوس الجنازات وأنه ينبغى إلا يكون بها ما يدنس بل يجـب أن تكرم آلهة الجحيم الذين يتلقون خير عناصر زواتنا ، وجعل مدة الحداد مناسبة لسـن الميت ، فلا حداد على من مات دون الثالثة من عمره ومن مات وعمره مـا بيـن الثالثة والعاشرة يحد عليه بنسبة شهر عن كل سنة عاشـها، ولا يـزاد عليـها ولا يتجاوز أطول حداد عشرة شهور وهذه مدة ترمل الزوجات اللواتى فقدن أزواجـهن أما التى تتزوج قبل مضى هذه المدة فيجب عليها أن تضحى بعنزة سمينة.

تمكن نوما من أن يحفظ للرومانيات ماكن يتمتعن به فى زمـن رومولـوس حين كان الأزواج يحتالون كل حيلة لينسوهن حادثة الاختطاف فأحاطهن بسياج مـن الحياء منعهن للتطلع وعليهن الإحتشام والصمت وحرم عليهن الخمر بـلا اسـتثناء ولم يُجْزلهن الكلام حتى فى أشد الأحوال لزوما إلا بحضور أزاوجهن ، ويقال أنـه

حذر مرة أن امرأة دافعت عن نفسها فى قضية لها فى المحكمة فأرسل مجلس الشيوخ يطلب الاستيضاح من أبوللو فيما يتوقع للمدينة من هذا الحادث، وكانت المرأة الرومانية تتميز باللطف ودماثة الخلق فى الغالب الأعم ، وكان يتم تدوين أسماء الناشزات ، كما تدون أسماء المثيرات للفتن والحروب الأهلية ، وجعل نوما البنات تحت رقابة قاسية ، وحتم عليهن عيشة معتدلة ، لائقة بجنسهن ، ولكن بلوتارخ يقول أن نوما ذهب إلى الدعوة لاشتراكية النساء وأنه شابه فى ذلك لوكورجوس فكان للرومانى ، حسب رأى نوما، الذى يكثر أنباؤه ان ينزل عن زوجته لمن يشتهى أن يكون له أبناء مع الاحتفاظ بحرية تركها كل الترك أو استردادها.

ويقول بلوتارخ ان اكثر الرومان كانوا يزوجون بناتهم فى سن الثانية عشر وما دون ذلك وأهمية ذلك أن المرأة فى هذه السن تكون أطهر جسما وأعنف نفسا وأسهل قيادا لزوجها، وأن نوما قد ترك للوالدين حرية تربية أبنائهم على ما تشاء أهواؤهم ووفق حاجاتهم فيجعلونهم زراعا أو نجارين أو حدادين.

ويقال أنه سن قانونا لطف به القانون الذى كان يخول للأباء بيع ابنائهم فاستثنى الأبناء الذين يتزوجون برضى والديهم لأنه رأى من القسوة أن امرأة تتزوج رجلا حرا ترى نفسها زوجة عبد كما نجده ، قد شرع للعبيد الذين ولدوا فى العبودية أن يذوقوا معانى الحرية، شرع لهم الجلوس أيام الحصار إلى موائد سادتهم يقاسمونهم ملاذها وإليه يرجع هذا القول المأثور. يجب أن يكون للزارع نصيبه من محصول زراعته ، ويرى البعض أن هذا التشريع كان الهدف منه الإشارة إلى المساواة .

سبق أن ذكرنا أنه قد أقام هياكل لإله الحدود لأنه حارس السلام، فالحقيقـة أن الحدود إذا حفظت كانت عائقا فى سبيل القوة وإذا أهملت كانت شهادة ظلم ، وكانت حدود روما فى أول عهدها ضيقة جدا ولكنها اتسعت بسلاح رومولوس، قسم نومـا الأراضى الجديدة على الفقراء ليقضى على البؤس وهو سبب الفساد ولكى يحـول الشعب إلى الزراعة فالزراعة تؤدى فى رأيه إلى دماثة الأخلاق لأن لا شئ يحمـل على الرغبة فى السلام أكثر من الحياة الزراعية، وفى نفس الوقـت تحفـظ علـى الرجال شجاعتهم الحربية فى الدفاع عن املاكهم بقوة السلاح ولكنها تـنزع منـهم شهوة الجشع التى تغريهم باغتصاب أملاك الأخرين، لقد رغب نومـا فـى حمـل الأهالى على حب الزراعة كخير وسيلة فحملهم على حب السـلام والتـهذيب مـن أخلاقهم بأكثر مما تغنيهم تقسيم الأراضى أقساما ، وجعل مع كل منـها مراقبيـن، وكان يزورها بنفسه يشهد أثر العمل فى أخلاق الأهالى ، يكرم الممتازين بنشـاطهم ويؤنب الكسالى ويصلح إهمالهم.

كما نجده قد قام بتقسيم الشعب حسب حرفتهم لأن المدينة كانت مؤلفـة مـن حزبين، فقد أراد خلط الفئتين وذلك بإزالة أسباب الشجار وكسر شرة الخلاف فقـد قسم الشعب إلى جماعات صغيرة، جماعة الموسـيقيين، الصبـاغين، النجـارين، الدباغين، الحدادين، والفاخورية وجعـل لكـل جماعـة جمعيـة أو إتحـاد وأيـام اجتماعاتها وحفلاتها فأخذت الفوارق تتلاشى بين السابين والرومان بعد شدتها وبـدأ التآلف وتم الامتزاج فى قلب واحد .

وامتدت اصلاحاته إلى التقويم ، فقد غير ترتيب الشهور فجعل مـارس أول شهور السنة الرومانية ثالثها واستبدله بيناير وهو الحادى عشر فى عرف الرومـان وكان فبراير آخر السنة فصار الثانى ومهما يكن فمن المتفق عليه أن نوما هو الـذى أضاف شهرى يناير وفبراير إلى السنة الرومانية التى لم يكن سوى عشرة شهور.

ويقول بلوتارخ أن أثر اصلاحاته قد امتد إلى المدن المجاورة لروما وحـــل السلام ولم تحدث فى عهد نوما حرب ولا فتنة ولا رغبة فى تغيير نظام الحكم، ولـم يجلب على نفسه بغض أو حسد أى إنسان فلم يجسر أحد على المؤامـــرة ضـــده أو احداث أى شغب ، وقد يكون ذلك خوفا من الألهة التى منحت رومـــا رضاهـــا أو احتراما لقضائها، وأن الصوت الذى غناه نوما كان منطوياً على الرقة والدعة فـأفلح فى تهذيب أخلاق الرومان ولطف مزاجهم التأثر وحبب إليـــهم العـدل والسـلام. ويستطرد بلوتارخ أنه من أعجب وأسمى الأمور أن يُدعى أجنبى إلى حكم شـــعب فيتمكن من تبديل نظام بغير شئ سوى الاقناع دون ان يلجأ إلى سلاح أو إكـــراه ، ويُمكن من حكم مدينة تمزقها الفتن المتضاربة وجعل الحكمة والعدل سبيله لتوحيـــد كلمة الشعب والتأليف بين عناصره بشدة أواصر الصداقة" .

مات نوما واجتمعت الشعوب يحملون الهدايا والأكاليل وحمل الشيوخ النعـش على أكتافهم وسار الكهنة فى جنازته ومعهم النساء والأطفال فصارت كأنها ليســت جنازة مليك كبير السن بل جنازة صديق عزيز اقتطفته يد المنون فى ربيع شـــبابه ، كان الجميع يذرفون الدمع ويرسلون نفثات الألم والأنين ، ولم تحرق جثتـــه لأنـــه حرم ذلك ، ووضع فى قبره فى نعش بينما وضعت الكتب المقدسة التى خطها بيـــده فى نعش بناءً على طلبـــه لأنه رأى أنه ليس من اللائق أن تصون هـــذه الأحـــرف الميتة تلك الأسرار التى كان قد شرحها وعلمها للكهنة .

لقد اختفت سياسة نوما بموته ، فقد اختل السلام وذلك الوئام اللذان أقامـــهما فى روما فلم يكد يوارى التراب حتى فتحت أبواب معبد الإله يانوس .

تولوس هو ستيليوس Tullus Hostiluis :-

يختلف الباحثون حول أصله ، فالبعض يرى أنه سابينى ، بينما يرى البعض الآخر أنه رومانى ، إذا كان نوما داعية سلام فإن خليفته على العرش كان صقر حرب وقتال فقد اعاد توللوس هوستيليوس (٦٧٢ - ٤٦٠ ق.م) إلى الرومان حياتهم السابقة العادية التى ألفوها من قبل ، فلما رأى أن قوى الدولة أخذة فى الأنحلال لطول عهدها بالخمول ، أخذ يتطلع إلى حجة يتذرع بها لايقاد نار الحرب، واختار عدوا له مدينة البالونجا التى كانت هى أصل أو أم مدينة روما ومنشأها فغزاها ودمرها عن أخرها . ويعزو المؤرخون أن سبب هذه الحرب إلى نزاع دب بين قروى المدينتين وزعم كل طرف من الطرفين أن الطرف الأخر قد اعتدى عليه وسرقه ، وبادر كل من توللوس هوستيليوس وملك البالونجا بارسال رسله لاسترداد ما سرق منه ، فذهب رسل روما لالبا لونجا بينما ذهب رسل البالونجا ودارت حرب بينهما ، ولكن فى تلك الأثناء مات ملك البالونجا وعين مواطنو البالونجا واحدا منهم يدعى ميتلوس ونصبوه دكتاتورا عليهم ، وقف ميتلوس الدكتاتور بين الجيشين وطلب أن يكون النصر بمعركة فردية ، حقنا للدماء، ومنعا لضياع أرواح كثيرة، فوافق الملك توللوس على هذا الاقتراح واختار كل طرف من بين صفوفه ثلاثة أبطال أخوة ، والمنتصر يكون له السيادة على مدينة الطرف الأخر وكان النصر حليفا للرومان إذ مات من أبطالهم اثنان بينما مات أبطال البالونجا الثلاثة . وبعدها أصبح مواطنو البالونجا خاضعين لروما وكانوا مجبرين على مساعدة روما فى حروبها ضد القبائل المجاورة ، ولكن حاكم البالونجا لم يفقد الأمل فى الخلاص من النير الرومانى بيد ان آماله ذهبت أدراج الرياح ، فعندما لم يناصر الرومان فى حربهم ضد الاترورييين ، تم إعدامه وحرقت مدينة البالونجا ونقل سكانها إلى روما ، ورحب نبلاء روما وأشرافها

بنبلاء البالونجا فى مدينتهم، بينما أصبح الريفيون الالبيون أصدقاء العامة الرومـــان، وكما صار حكم الرومان والسابين واحدا فى عهد رومولوس كذلك أتحـد الرومـــان والالبيون تحت حكم ملك واحد ، وهكذا فقد تضاعف عدد مواطنى روما ضعف مـــا كان عليه من قبل تقريبا ، كما أصبح تل الكابيتول المركز الدينى الأول فـــى ســـهل اللاتيوم بدلا من المعبد الكائن على جبل كافو (Cavo).

قضى توللوس هوستيليوس بقية حياته فى صراع مـــع اللـــترورين ولكـــن نجاحه لم يخلق فيه التواضع بل تجبر وتكبر ، وأهمل الطقوس الدينية وخدمة الآلهـة ، وأهمل القوانين الحكيمة العادلة التى كان قد سنها نوما ، فغضبت عليـــه الآلهـــة وأرسلت طاعونا فتك بالشـــعب دليلا على عدم رضاها عن ســـيرة الملـــك وســـقط الملك نفسه فريسة المرض ، وهنا تذكر هوستيليوس الآلهة أثنـــاء محنتـــه فصلـــى وابتهل لجوبيتر الغاضب ولكن جوبيتر ارسل عليه صاعقة من السماء صعقته فـــى قصره ، وبذلك فقد انتهى عهده بعد أن حكم اثنين وثلاثين عاما وهذا ما أخبرتنا بـــه الروايات .

أنكوس ماركيوس : Ancus Marcius

عندما مات جده الملك نوما كان يبلغ من العمر خمس سنوات وتولى الملـــك بعد موت توللوس هوسيتليوس ، وكان محبا للسلام مثل جده إلا أنه لم ير بأسا فـــى إتباع فلسفة توللوس هوسيتليوس الحربية ، ويقول عنه ديون كاسيوس "أنه لا يكفـــى من ينشدون السلم أن يمتنعوا عن أذى الناس ... بل أنه كلما اشتدت رغبة الانســـان فى هذا السلم اشتد تعرضه للأذى ... ، وكان (انكوس ماركيوس) يرى أن الرغبـــة فى الهدوء لا تحمى الانسان من الأذى إلا إذا صحبها الاستعداد للحـــرب ، وكذلـــك كان يعتقد أن الإبتهاج بالبعد عن المشاكل الخارجية سرعان ما يقضى على الذيـــن

يسرفون فى حماستهم لهذا البعد ويصدق بلوتارخ على هذا القول بروايته التى هـــى على النحو الآتى :

رأت قبيلة (Latenius) أن الملك الجديد كان محباً للسلام ويميل إليه ويقضى وقته فى التنسك والعبادة ويقدم الذبائح للآلهة فبدأ أفرادها فى سلب وتدمـــير البـــلاد المحيطة بروما ظانين أنهم لن يعاقبوا على ما اقترفت ايديهم ، ولكنهم سرعان مـــا تبينوا أن الملك المسالم كان قادراً على القتال كما كان قادراً على الصـــلاة . دارت معارك عنيفة بين الطرفين ونجح انكوس فى تدمير مدنهم وساق سكانها إلى رومـــا، ليقيموا على تل الأفنتين وصمم انكوس على ان يسيطر على نهر التيبر فضـــم تـــل الجايكولوم الى روما وحصنه فأقام جسراً خشبياً على النهر اسماه الجسر الخشـــبى الأعمدة ، ونجح فى الاستيلاء على المنطقة الواقعة بين روما والبحر وشـــيد علـــى البحر ميناء أوستيا .

ويرى البعض أن أول عمل بدأ به حكمه هو إعادة خدمة الآلهة التى أهملـــت فى عهد سلفه ، وانه أمر بتسجيل قوانين جده نوما على الواح من الخشب تعـــرض على الشعب .

مات انكوس ماركيوس بعد أن حكم اربعة وعشرين ســـنة وخلـــف أبنـــاءه صغاراً ليس لهم من يقوم على رعايتهم من اسرته ، ولذا فقد تركـــهم فـــى رعايـــة صديق والدهم لوكيوس تاركوينيوس الاتروّرى الأصل .

لوكيوس تاركوينوس (Lucius Tarquinius)

وفقا للروايات ، فقد كان إبنا لتاجر كورينثى يدعى دمراتوس (Damaratus) انتقل من كورينثة للعيش فى مدينة تاركوينى الأترورية بعد ثورة الأرستقراط علـــى

الديمقراطيين وإمساكهم بأزمة السلطة والحكم فى كورنيثة. تزوج دمراتـــوس مـــن امرأة أترورية وانجب منها ولدين مات أحدهما وكبر الآخر وتولى تجارة والـــده ، ويدعى لوكومو الذى تزوج من سيدة أتروريـــة تدعـــى تانـــاكويل (Tanaquil) ، وكانت امرأة كريمة المحتد وعلى قدر كبير من التعليم والطموح ، فقـــد رأت أن لا مستقبل لزوجها فى مسقط رأسها لأن أهالى مدينتها ينظرون إليه على أنـــه نصـــف أجنبى ، برغم ثرائه وكياسته ، فأقنعته بالهجرة إلى روما ، ليجرب حظه فيها حيـث لا فرق بين أجنبى ومواطن كل يقدر حسب أعماله وقدراته ، فجمعا مالهما وســـافرا إلى روما حاملين أمتعتهم ومواشيهم ، وما أن أشرفت قافلتهم علـــى تـــل يـــانيكوم بالقرب من إحدى بوابات مدينة روما حدث شئ غريب إذ ظهر نسر ضخم انقـــض على رأس لوكومو فخطف غطاء رأسه وطار به عاليا فى السماء ، ثم راح يحـــوم حول عربتهما ، وهو يحدث أصواتا عالية ثم أعاد غطاء الرأس فوق رأس لوكومـــو واختفى عائدا من حيث أتى ، دهش لوكومو مما حدث بينما فرحـــت واستبشـــرت زوجته وهللت لأنها كانت تفهم لغة وحركة الطير وفسرت له المشهد بأن النسر مـــا هو إلا رسول السماء لأنه ملك الطير وأنه يرمز إلى قرب وضع تاج الملـــك فـــوق رأسه ، وفرح الزوجان لهذا الفأل الحسن وسارا فـــى طريقـــهما واجتـــازا بوابـــة المدينـــة ، وهناك نزلا بأحد أحياء روما واشتريا منزلاً كبيراً ، واضطر لوكومـــو إلى تغيير اسمه إلى لوكيوس تـــاركوينيوس ، وفيمـــا بعـــد أطلـــق عليـــه العتيـــق (Priscus) . وأقام اقامة سعيدة فى روما وسرعان ما ذاع صيته حتى أصبح صديقاً للملك انكوس .

ويرى البعض أن لوكيوس تاركوينيوس قد أغتصب العرش بالدهاء والمكـــر من ورثته الشرعيين بينما يرى البعض الآخر أنه رفعه عليه حلـــف مـــن الأســـر الأترورية فى المدينة والإحتمال الثانى أرجح من الأول ، إذ يقول ليفـــى أنـــه أول

ملك سعى إلى التاج وألقى خطبة يطلب فيها معونة العامة من المواطنين الذيـــن لا يستطيعون أن يثبتوا إنتسابهم إلى الآباء الذين أسسوا المدينة .

زاد سلطان الملكية على الأشراف فى عهد تاركوينيوس ويلوح أنه كان يمثـل سلطان رجال الأعمال التجارية والمالية المتزايد على ســـلطان الاشـراف مـلاك الأرض كما زاد فى عهده نفـوذ الأتروريين فى شئون روما السياسية والمعماريـة والدينية والفنية .

كانت شجاعته فى ساحات الوغى مثار إعجاب رعاياه ، فقد حارب الســابين الذين هددوا روما وانتصر عليهم وردهم خاسرين وقاتل اللاتين واخضع الكثير مـن مدنهم لسلطان روما واخضع الأتروريين لسلطانه وكدليل على خضوعهم له أرسـلوا إليه كثير من الهدايا الملكية الغالية : تاجا من الذهب وصولوجا ، وكرسيا عاجيـا ، وعباءة مطرزة بخيوط الذهب والفضة وشملة إرجوانية ، وأثنتـــى عشـرة بلطـة مربوطة إلى حزمة العصى .

وإذا كان هذا الملك محاربا شجاع فقد كان بناء عظيما ، فقـد بنـى معبـدا عظيما للآله جوبتير فوق تل الكابيتول ، ويقال أنه استخدم مـوارد رومـا ليجمـل مدينة تاركوينى وغيرها من المدن الأترورية ، بيد أنه جاء بالفنـانين الأتروريـين واليونان إلى روما عاصمة ملكه ، وزينها بالهياكل الفخمة ، ومـن أهـم منجزاتـه المعمارية ايضا الفورم واقامة صفا من الحوانيت حوله ، كما أقام الملعـب الكبـير وحلبة السباق الكبرى لتشجيع الأهلين على التربية الرياضية والمباريـات وألعـاب القوى . كما أمر بشق قنوات للصرف حتى لا تكون الوديـان المملـوءة بـالبرك والمستنقعات ، والواقعة بين تلال روما ، مباءة للبعوض والحشـرات ، وتتحسـن

الصحة العامة فيها .. ويعزو البعض إليه إدخاله علم رؤية الطالع عن طريق رصد حركات الطير .

وزاد فى عهده سكان روما زيادة كبيرة وحاول زيادة عدد قبائل المدينة ولكن حذره عراف منه مما جعله لا يقدم عليه ، ويروى البعض انه قد ضاعف عدد الأشراف فى كل قبيلة ، كما زاد من فرق الفرسان.

بعد فترة حكم دامت ثمانية وثلاثين سنة فى رأى البعض فقد تم قتله على يد الأشراف غيلة لأنهم أرادوا أن يحدوا سلطان الملكية ويفرضوا عليها سلطان الدين، بينما يرى البعض الآخر أن أبناء انكوس ماركيوس هم الذين اغتالوه لأنه كان قد اختار خليفة دونهم إذ اختار شاباً اسمه سرفيوس توليوس (Servius Tullius) زوج ابنته . ولكن تاناكويل ارملته وملهمته تولت بنفسها الأمر ، واستطاعت أن ترفع زوج ابنتها السالف ذكره .

سرفيوس توليوس (٥٧٨ ـ ٥٣٤ ق.م)

اختلفت الروايات التاريخية حول أصله فبعضها تذكر أنه مجهول الأصل ، وأخرى تذكر أنه كان عبداً للملك تاركينيوس العتيق وأنه حرره وزوجه من ابنته ، والبعض الآخر يرى أنه سابينى الأصل ، ويقول عنه الإمبراطور كلوديوس فى خطابه المدون على لوحة ليون والموجه إلى مجلس الشيوخ عام ٤٨م. بأن سرفيوس توليوس ثانى ملك اتروسكى ليس سوى المحارب الاترورى ماستارنا (Mastarna) ، بينما يقول شيشرون أنه أول ملك رومانى استطاع أن يتولى الملك دون أن يختاره الشعب أى أن تختاره الأسر الكبيرة .

كانت سياسة هذا الملك تسير على غرار سياسة كـل مـن الملكيـن نومـا وانكوس ماركيوس ، فقد كان محباً للسلام ولم يحارب ضد أحد غـير الاتروريين وعقد معاهدة مع اللاتين .

حكم هذا الملك البلاد حكماً صالحاً وأنشأ حول تلال روما خندقـاً عرضـه حوالى مائة قدم وسوراً طوله حوالى ١١ كم ليحميها من الغارات .

ووفقاً للروايات لم يرض الأشراف عن حكمه ودبروا له المؤامرات وادعـوا أن حكمه غير شرعى لخلعه ، وذلك لأنه سن قانوناً سُر له الرومان متوسطو الحـال والفقراء ايما سرور وسُمى هذا بالقانون الملكى وكان هذا القانون يمنـع الأشـراف من مضايقة الفقراء . . . فمهما كان أصل المواطن الرومانى وضيعاً فإنه يسـتطيع أن يتولى مناصب السلطة فى الدولة إذا جمع ثروة وأصبح غنيـاً ، وشـجع هـذا القانون على الجد والاجتهاد ، حتى إذا جمعوا ثروة سهل عليهم الوصول إلـى مـا يصبون إليه ، ولكن كما قلنا فقد أغضب الأشراف ، وكان نتيجة هذا أنه قد تحـالف مع أثرياء العامة . وأعاد تنظيم الجيش والناخبين ليقوى بذلك مركزه فبدأ باحصـاء السكان والأملاك وقسم المواطنين إلى طبقات على أساس ثروتهم لا علـى أسـاس مولدهم ، فترك بذلك الأشراف القدامى محتفظين بكيانهم ، ولكنه رفع تجاههم طبقـة الفرسان (equites) ، كما قسم سكان روما والمناطق التابعة لها إلى خمس وثلاثيـن قبيلة جديدة ورتبها حسب مسكنها لا حسب طبقتها أو ما بينها من صلات القرابـة ، وفعل ذلك ما فعله كليستنيس فى أثينا بعد جيل من الوقت ، ونتيجة لهذه الإجـراءات فقد أضعف ما كان للأشراف من تماسك سياسى وقوة تجارية *.

* ولكن فى رأينا أن كل (هذه الإصلاحات تمت فى العصر الجمهورى وليس فى العصر الملكى) وهو ما سنعرض له عند الحديث عن الجيش فى العصر الملكى .

أمام هذا فقد حاول الأشراف خلعـــه وانضـــم إليـــهم زوج ابنتـــه لوكيـــوس تاركوينيوس حفيد تاركوينيوس العتيق وزعموا أنه تولـــى الحكـــم بصـــورة غـــير شرعية، واستفتى سرفيوس الشعب فنال ثقته الإجماعية كما يقول ليفـــى ، غـــير أن تاركوينيوس لم يقنعه نتيجة هذا الاستفتاء فعمل على خلعه وأصبح تحديه له واضحاً إذا ارتدى الملابس الملكية وجلس فى مقعد الملك الخاص بمجلس الشـــيوخ دون أن يلومه الشيوخ الحاضرون على ذلك ، ولما علم الملك بذلك ذهب إلى السناتو وأمـــره بالنزول من فوق العرش وأن يخلع عنه الحلة الملكية ، فألقى بالملك أسفل الســـلالم ، فأصيب ببعض الإصابات ، واتجه الملك بعد ذلك إل منزله ولكن اتبـــاع لوكيـــوس قتلوه ، ولما بلغ ابنة الملك توليا خبر مصرع والدها ســـرها الخـــبر ولـــم تحـــزن وركبت عربتها واسرعت إلى السوق لتهنئ زوجها لوكيـــوس بـــالعرش ، وكـــانت امرأة شريرة طموحة يملؤها الغرور والكبرياء ، ونادى بنفسه ملكاً علـــى رومـــا ، ورفض بعد توليه الملك رفض فى كبرياء أن يسمح لجثته بأن توارى الثرى حســـب الطقوس الدينية .

لوكيوس تاركوينوس المتغطرس Superbus

هو حفيد لوكيوس تاركوينيوس العتيق ، وكان زوجاً لابنة الملـــك ســـرفيوس توليوس كما سبق أن ذكرنا ، وتولى ملك روما عقب اشتراكه فـــى مؤامـــرة قتـــل حميه ، وامتدت فترة حكمه فى الفترة ما بين عام ٥٣٤ وعـــام ٥٠٩ ق.م. ووفقـــاً للروايات فقد كان ملكاً قاسياً بدأ حكمه بإلغاء تنظيمات ســـلفه القتيـــل ، فقـــد أمـــر بتحطيم الألواح الخشبية التى كتب عليها سرفيوس كثيراً مـــن القوانيـــن الحكيمـــة الصالحة ، ورفض استدعاء مجلس الشيوخ للاجتماع محاولاً الاســـتئثار بالســـلطة والاستبداد بالحكم ، قام بطرد الأشراف والاستيلاء على أملاكهم ولـــم يـــتردد فـــى

إعدام النبلاء ، فعلى سبيل المثال فقد استهل حكمه بإعدام رئيس مجلس الشيوخ الذى كان يعضده حتى وصل إلى سدة الحكم ، أما الفقراء فقد أجبرهم على العمل المرهق حتى صاروا أقرب إلى العبيد منهم إلى الأحرار ، وتبعاً لهذا فقد أوجد حرساً خاصاً لحمايته وأصبح للأتروريين فى عهده النفوذ الأعلى فى البلاد .

وتشير الروايات إلى أن هذا الملك كان أيضاً صقر قتال ، فقد حسب أن النصر فى ميادين القتال يكسبه حب الشعب الرومانى ورضاه ، فقاتل اللاتين ، وتغلب على الكثير من مدنهم ، كما أرسل الجيوش تلو الجيوش لاخضاع مدينة جابيى (Gabii) ، التى كانت قد رحبت بالأشراف الذين نفاهم من روما ، ونظراً لأن المدينة قد أظهرت قوتها وصمودها أمام جيوشه المتعاقبة لإخضاعها ، فقد لجأ إلى الحيلة والخداع لفتحها ، وذلك بأن جعل ابنه يتظاهر بأنه لاجئ من بطش والده ، وعمل على كسب ثقة أهالى جابيى ، وبالفعل نجح فى كسب ودهم وثقتهم وعينوه قائداً عاماً لجيشهم وبدأ الابن فى تنفيذ ما خطط له هو وأبوه ، باتهام أشراف المدينة الواحد تلو الآخر بالخيانة ، ومن ثم وجد المسوغ لقتلهم حتى قضى على جميع النبلاء ، وبذا سلمت المدينة للملك تاركوينوس بالدهاء والخديعة ، وتشير المصادر إلى أنه انتصر بعد ذلك على الفولسكيين الذين كانوا يعيشون فى جنوب لاتيوم ونهب أغلب مدنهم ، كما أنه قاتل الروتاليين .

وإذا كان هذا الملك صقر قتال فقد كان بناءً عظيماً أيضاً ، فتشير الروايات إلى استخدامه للأموال التى نهبها من أعدائه فى الداخل والخارج فى بناء المعبد العظيم القائم فوق الكابيتول ، كما زين روما بالكثير من المبانى الجميلة ، وأتم مشروع المجارى الضخم الذى بدأه جده أيضاً ، وكذلك وسع السوق وزودها بالأروقة والأبهاء الواسعة لتقام فيها الاجتماعات الكبيرة .

وتشير الروايات أيضاً بأن عرافة تدعى سبيلى وفدت على روما وعرضت على هذا الملك شراء تسعة كتب للعرافة ، وطلبت منه ثمناً باهظاً ، فرفض الملك شراءها ، ولكن العرافة أحرقت ثلاثة منها وعادت للملك وطلبت منه نفس الثمن فرفض فما كان منها إلا أن كررت نفس ما فعلته بحرقها ثلاثة كتب أخرى من الستة كتب الباقية ، وعادت للملك وطلبت منه نفس الثمن الباهظ للكتب الثلاثة الباقية ، وهنا أثار هذا الأمر عجبه وسؤاله ونُصح بأن يشتريها لأنها تحتوى على مصير وأحداث روما المستقبلية ، ومن ثم فقد دفع الثمن واختفت العرافة ، وتم وضع هذه الكتب فى صندوق متين وحُفظت فى خزانة فى الكابيتول وعُين عليها حراس ، وكلما ألم بالمدينة ملمة أُستشيرت تلك الكتب .

وتشير المصادر إلى أن نهاية حكم هذا الملك كانت الطرد له ولأسرته من المدينة ، وذلك عندما ألحق ابنه سيكستوس (Sextus) العار بأحد أقاربه ، ويدعى تاركوينيوس كوللاتينوس ، وذلك باغتصاب زوجته ، والتى انتحرت خجلا ، ويروى لنا المؤرخ ليفى هذه القصة بالتفصيل على النحو الآتى : أن سيكتوس عندما كان فى معسكر أبيه فى إحدى الليالى ، ، قد تناقش مع لوكيوس تاركوينيوس كوللاتينوس فى فضائل زوجتيهما وأيهما خير من الأخرى ، فعرض عليه الأخير أن ينطلقا على ظهر جواديهما إلى روما ويفاجئا زوجتيهما بزيارتهما فى أواخر الليل ، فوجدا زوجة الأول فى وليمة مع بعض صاحباتها ، أما لوكريتيا (Lucretia) زوجة الثانى فكانت تغزل الصوف لتنسج منه ثياباً لزوجها ، وتاقت نفس سيكستوس ليجرب وفاء لوكريتيا ويستمتع بحبها ، فما كان منه إلا أن عاد فى السر بعد بضعة أيام من ذلك الوقت إلى بيت لوكريتيا وتغلب عليها بدهائه وقوته وقضى منها وتراً فما كان منها أن استدعت والدها وزوجها وأخبرتهما بما حدث لها من اغتصاب وطلبت الانتقام ، ثم انتحرت بطعنة خنجر ، وعلى أثر ذلك أهاب

لوكيوس يونيوس بروتــوس (Lucius Junius Brutus) أحــد أصدقـــاء زوجـــها كوللاتينوس جميع الصالحين من الرجال أن يطردوا آل تاركوينيوس جميعـــهم مـــن روما ، وكان هو نفسه ابن أخى الملك ، وكان الملك قد قتل أباه وأخاه وتظاهر هـــو بالجنون حتى يُبقى تاركوينيوس على حياته فيثأر لمقتل أبيه وأخيـــه مـــن عمـــه ، ولذلك سمى بروتوس أى الأبله ، وذهب مع كوللاتينوس إلى مجلس الشيوخ وقصـــا عليه القصة ومازالا به حتى أقنعاه بوجوب اخراج الأسرة المالكة كلها من رومـــا ، وكان الملك مع جيشه خارج روما ، فلما علم بدلك عاد مسرعاً إلى رومـــا تاركـــاً الجيش وعندما علم بروتوس بذلك سار إلى الجيش وقص عليه قصة لوكريتيا مـــرة أخرى ، وكسب بذلك معونته وتأييده ، وكان من نتيجة ذلك أن اغلقت روما أبوابـــها فى وجه الملك وتخلى عنه الجيش ، فر تاركوينيوس إلى اتروريا وطلب إلى أهلـــها أن يعيدوه إلى عرشه ولكن قبل الحديث عن تلك المحاولات ماذا فعل الرومان علـــى أثر طـــرده ؟

بعد نفى تاركوينيوس المتعجرف وأسرته من روما تشير الروايـــات إلـــى أن الرومان قد قرروا ألا يحكم عليهم بعد ذلك أى ملك ، وقـــرروا أن يتبعـــوا قوانيـــن سرفيوس الحكيمة وأن يختاروا فى كل عام من بينهم رجلين يقومان معـــاً بأعبـــاء الحكم كلاهما رقيباً على الآخر ، وأن يعطوهما نفوذاً وسلطاناً متعادلاً ، وحق ســـن القوانين ، ومراعاة أن العدالة تعم البلاد ، ويحكمان لمـــدة عـــام ، وكـــان مجلـــس الشيوخ مع الشعب هم الذين يختارون هذين الرجلين سنوياً ، وأطلقوا عليـــهم اســـم البريتورس والذى تبدل فيما بعد بالقناصل .

وتقول الرواية أن القنصلين الأوليـــن كانـــا بروتـــوس وكوللاتينـــوس ، ولكن ثانيهما استقال من منصـــبه واختـــير بـــدلاً منـــه بوبليـــوس فاليريـــوس

(Publius Valerius) الذى لقب فيما بعد بـ "صديق الشعب" لأنه تقدم إلى الجمعية بعدة قوانين والتى ظلت من القواعد الأساسية فى دستور روما وهى :-

١- أن كل من يحاول أن ينصب نفسه ملكاً يجوز قتله من غير محاكمة .

٢- كل من يحاول أن يتولى منصباً عاماً من غير رضاء الشعب يعاقب بالإعدام .

٣- كل مواطن يحكم أحد الحكام بإعدامه أو جلده يحق له أن يعرض أمره على الجمعية .

٤- سن أيضاً سنة حتمت على القنصل إذا أراد دخول الجمعية أن يفصل رأس البلطة عن مقبضها ويحفظها ، إشارة إلى سيادة الشعب وإلى أن عقوبة الإعدام فى وقت السلم من حق الشعب وحده .

وقد اتفق الرومان على أن يزود كل قنصل نفسه بستة رجال مسلحين يأتمرون بأمره ، فإذا توجه إلى السوق أو سار فى شارع تقدمه أولئك الرجال حاملين عصياً للعقاب ، وبلطة للقتل ، كإشارة على قوة سيدهم وبذلك النظام أصبحت روما جمهورية ، وألغى النظام الملكى بها إلى غير رجعة على الرغم من محاولات الملك المطرود .

وتكشف لنا الروايات على أن أحوال روما فى ظل باكورة قيام الحكم الجمهورى بها لم تكن مستقرة ، فقد كان هناك محاولات متكررة لعودة الملك سواء بعون من الخارج أو من خلال أعوانه فى الداخل ، فقد كان هناك من يود عودة الملك ، خاصة من قبل كثير من شبان الأشراف والذين اتصل بهم رسل الملك وخططوا لإعادته ، ولكن خطتهم تم كشفها ، إذ سمع بها أحد العبيد وأبلغ الأمر إلى القنصلين فأمرا بالقبض عليهم وأودعوهم السجن ، وتم مكافأة العبد وذلك بتحريره وصار مواطناً رومانياً . وكان من بين المقبوض عليهم تيتوس وتيبريوس ابنا بروتوس "القنصل" فانتاب هذا القنصل الشجاع اليأس عندما علم أن ولديه ، اللذين

يحبهما حباً جماً ، قد اتهما بالخيانة ، ولكنه غلب الواجب على العاطفة وحكم على المتآمرين ومن بينهم ولديه بالموت ، وكان من نتيجة هذه المؤامرة أن سن مجلس الشيوخ قانوناً بأن يُنفى من روما ، نفياً أبدياً ، كل من يسمى تاركوينيوس البغيض، وبناء على ذلك فإن كولاتينوس ، الذى كان اسمه تاركوينيوس ، قد استقال من القنصلية ، وغادر المدينة إطاعة لذلك القانون .

ونتيجة لفشل تلك المؤامرة أن لجأ تاركوينيوس إلى الأترورين وحثهم على مساعدته لاسترداد عرشه ، وبالفعل استجاب الأترورين لندائه ودارت الحرب بينهم وبين الرومان ، وقتل فيها القنصل بروتوس ، وحكم رفيقه فاليريوس روما ، وفى عهده تم منح الرومانى حق الاستئناف من حكم الإعدام ، فإذا ما حكم القنصل على مواطن بالإعدام كان من حق المواطن أن يستأنف هذا الحكم أمام الشعب مما قوى من ترابط الشعب مع حكامه كما سبق ان ذكرنا .

لجأ بعد ذلك تاركوينيوس إلى الملك لارس بورسينا (Lars Porsenna) ملك كلوزيوم الأترورية طالباً عونه ونجدته واستجاب الأخير لدعوته وجمع جيشاً كبيراً من مدن اتروريا المتحالفة معه ، وزحف به على روما، وأمر الرومان بفتح أبواب مدينتهم ، فرفضوا ، فحاصر المدينة ، وكان على الرومان أن يهدموا الجسر المقام على نهر التيبر لوقف تقدم الأعداء نحو مدينتهم ، وهنا تقدم ثلاثة فرسان رومان لحراسة الجسر حتى يتم هدمه وهم هوراتيوس الأعور (Horatius Cocles) وسبوريوس لارتيوس (Spurius Lartius) ، وهيرمينيوس (Herminius) ، ولما اقترب لارس بورسينا وجيشه من الجسر ، سخر منهم فى البداية ، ولكن ثلاثتهم أظهروا شجاعة منقطعة النظير ، ووقفوا سداً منيعاً فى وجه الأترورين المهاجمين ومنعوهم من اجتياز الجسر ، وعندما كان الجسر على وشك الانهيار عاد كل من البطلين الثانى والثالث عبر الجسر قبل انهياره ، بينما بقى هوراتيوس حتى انهار

الجسر وألقى بنفسه فى النهر وهو جريح ووصل إلى بر الأمان ونجى مـــن ســـهام الأعداء ، وتلقفته أيدى الرومان وكافأه مجلس الشيوخ بمنحـــه قطعـــة مـــن الأرض وأقام له نصباً تذكارياً تخليداً لاسمه وجرأته ، شدد بورسينا حصاره على المدينـــة ، وتقدم لنا رواية أن شاباً رومانياً يدعى جايوس ميكيوس قـــد تطـــوع لقتـــل الملـــك بورسينا وبارك مجلس الشيوخ خطوته ، ولكن باءت محاولته بالفشل وقبض عليـــه ومثل أمام الملك ، وبينما كان الملك يحاول أن يستنطقه بأخبار الجيش الرومــــانى ، وضع جايوس ميكيوس يده فى النار ، وهنا اعجبت شجاعته الملك وأطلق ســراحه ، بيد أن هذا الشاب أخبر الملك بأن هناك ثلاثمائة شاب رومانى قد أقسموا على قتلـــه وهنا قدر الملك الموقف فعرض شروطاً للمدينة الجائعة ، ووعد بالانســـــحاب مـــع جيشه عند قبول الرومان شروطه وهى :

١- تسليم تاركوينيوس الملك المخلوع وأسرته لأملاكهم .

٢- تنازل الرومان عن أراضيهم على الضفة اليمنى لنهر التيبر .

٣- ألا يستخدم الرومان الحديد إلا فى الزراعة .

٤- يسلم الرومان عشرين رهينة كريمة المحتد عشرة شبان وعشر شابات .

وافقت روما على هذه الشروط نتيجة الحصار المفـــروض عليـــها ، ولكـــن إحدى الرهائن أبت أن تبقى فى الأسر وتدعى كوبليـــا (Coblia) وعـــبرت النـــهر سباحة إلى روما ، ولكن الرومان أعادوها إلى الملـــك احترامـــاً لتعهداتـــهم فســـر بورسينا من هذا العمل ووجد الرومان قوماً نبلاء فـــأطلق ســـراح الفتـــاة ورفـــض مساعدة تاركوينيوس وهدم معسكره على تل الجانيكولولوم ، وعـــاد أدراجـــه إلـــى بلاده وقدم جميع المؤن والقمح التى كانت بمعسكره إلى المدينة الجائعة .

ولكن لدينا رواية أخرى تشير إلى أن لارس بورسينا قد استولى على روما وأنها استسلمت له ونزلت له عن بعض أملاكها إلى فياى (Veii) والمدن اللاتينية التى كان ملوك روما قد نهبوها ، وان الملك لارس بورسينا قد أظهر للمدينة المغلوبة بعض المجاملة إذ لم يطلب إعادة تاركوينيوس إلى عرشها . ولا ندرى هنا كيف انسحب الملك من روما .

أمام هذا الموقف استمر تاركوينيوس فى محاولاته لاسترداد ملكه فطلب العون من اللاتين لاسترداد عرشه ولبوا النداء ، فما كان من الرومان أمام هذا الخطر إلا أن عينوا لأول مرة ، دكتاتوراً جعلوا له القيادة العليا على الجيش وخولوه سلطة واسعة كما لو كان ملكاً ، وذلك لمدة ستة شهور ، وهذا الدكتاتور هو أولوس بوستوميوس (Aulus Postumius) ودارت الحرب الضروس بين الطرفين ، وكان النصر حليفاً للرومان ، وانفض اللاتين من حول تاركوينيوس وتحالفوا مع الرومان ، ولجأ تاركوينيوس بعدها إلى مدينة كوماى اليونانية حيث مات بها .

ويرفض ويشكك نفر من الباحثين المحدثين فى صحة هذه الأحداث التى أدت إلى الإطاحة بالملكية وإقرار النظام الجمهورى ، ويرون أن ما حدث هو انقلاب وثورة على النظام الملكى قام به الأشراف فى روما وأعلنوا قيام الجمهورية ، وأحسب أنهم على حق لأن الأشراف كانوا غير راضين على حكم تاركوينيوس العتيق فسكتوا عن اغتياله ومن بعده لم ترضهم اصلاحات سرفيوس التى أشركت معهم الطبقات الأدنى مرتبة فى تصريف أمور البلاد والدفاع عنها فتآمروا عليه وسكتوا عن قتله ، ثم أنهم لم يرضوا عن حكم تاركوينيوس المتعجرف لاستبداده واضطهاده لهم وعدم الأخذ برأى واستشارة مجلس الشيوخ . ومن الراجح أن الأشراف هنا ليسوا من اللاتين فقط فقد كانوا مزيجاً من اللاتين والسابين والألبيين

والأترورين ، ولعل رواية اغتصاب لوكريتيا تكشف لنا عن أن من أوقدوا شـرارة الثورة ضد حكم الملك لوكيوس تاركوينيوس المتعجرف هم من الأترورين ، فقـد كان أحد قواد الانقلاب هو بروتوس ابن أخيه ، كما أن زوج لوكريتيا كان ابن عـم الملك تاركوينيوس وما حدث هنا هو نفى تاركوينيوس وأفراد أسـرته ومصـادرة أملاكه لسوء السلوك ولعدم رضا الرومان عموماً على ما قـام بـه وأن زعيمـى الثورة كانا من الأترورين وأنهما قد توليا أسمى المنـاصب الرومانيـة ألا وهـى وظيفة القنصلية .

وكان من أهم نتائج هذه الثورة نتيجتان : أولاها : أنها مثلت بداية لانحسـار النظام الملكى ليس فى روما فحسب بل فى مدن دول لاتينية كان يحكمـها ملـوك اتروريون مثل اتيوم ، داركليا .. الخ . وثانيتها : أنها استبدلت حكم الملوك بحكـم الأشراف وقيام النظام الجمهورى (Res Publicus) .

وإذا ما أردنا أن نضع تقييماً لفترة الحكم الملكى فنجمله فى نقاط وهى علـى النحو الآتى :

١- أن هناك ملوك أسطوريين مثل رومولوس وتاتيوس وهنـاك ملـوك اصطلـح المؤرخون المحدثون على أنهم شخصيات تاريخية وأن النظام الملكى قـد ظـل قائماً فى روما قرابة قرنين ونصف من الزمان .

٢- أن أسماء وشخصيات الملوك تكشف عن هوية هؤلاء الملـوك فأربعـة منـهم يحملون أسماء لاتينية ، على الرغـم من أن البعض منهم كـان فـى الأصـل سابينياً ، كما أننا نجد أن الاثنين الباقين من الملوك قد حملا أسـماء إترووريـة ، وهذا قد يشير ويفسر على أن الأترورين قد استولوا وسيطروا على رومـا وأن أتروري تاركوينى (Tarquinii) وفولكى (Vulci) وكلوزيـوم (Clusium) قد

تبادلوا السلطة فى روما سواء فى العهد الملكى أو فى الفترة التـــى تلــت قيــام الحكم الجمهورى وغزو بورس لارسينا لروما .

٣- أن الرومان قد كان من عادتهم أن يختاروا الملوك من قبـــل مجلــس الشــيوخ وموافقة جمعية الأحياء ، ولكن فى ضـــوء الروايــات ، فــإن مؤســس رومــا الأسطورى كان قد تولى مُلك روما لأنه مؤسســـها ، وعلـــى مـــا يبـــدو فــإن الأتروريين قد تولوا الحكم عنوة على الرغـــم مـــن أن الروايـــات تشـــير إلـــى اختيارهم من قبل الشيوخ .

٤- نستخلص من الروايات والمأثورات أن اشراف الرومـــان كـــانوا قـــد حـــاولوا التخلص من الحكم الملكى بعد موت ملكهم الأول الأسطورى ولكنهم عدلوا عـــن هذا لاضطراب الأحوال فى بداية عـــهدهم بـــالحكم الملكـــى ، فعقـــب مـــوت رومولوس فكر الأشراف فى إلغاء الملكية ومارس الآباء كل بـــدوره وظـــائف الملك ، لكنهم تحت ضغط الطبقات الدنيا التى لا تريد أن يحكمها الآباء ورؤســاء العشائر اظطروا إلى جعل الملكية انتخابية ، وجعلوا من مجلس الشـــيوخ هـــو الذى يختار ، وجمعية الأحياء تؤيد وتعضد هذا الاختيار وأخيراً يقول العرافـــون من البطارقة كلمتهم حول هل المنتخب مرضياً عنه أم لا !

٥- على الرغم من السلطات الواسعة التى كان يتمتع بها الملك إلا أن الأرســـتقراط كانوا يقفون فى وجه طغيانه المطلق وبيان ذلك علـــى ســـبيل المثـــال ، ووفقـــاً للروايات ، أنه حينما حاول الملك رومولوس أن يزيد من سلطانه وأن يتخلـــص من مجلس الشيوخ ، وذلك بتحببه للطبقات الدنيا ، لكن الآباء قد عـــادوه فـــهلك غيلة .

وبعد هذا التقييم المقتضب ننتقل لدراسة ومناقشة دستور روما فـــى العصـــر الملكى ونظمها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية .

أولاً : دستور روما ونظامها السياسي :

كان الشعب الرومانى ، المكون من الأسر والعشائر والقبائل الرومانية ، هــو الذى يتولى اختيار الملك من خلال مجلس الشيوخ وجمعية الأحياء وأركان الدستور الرومانى يمكن إجمالها على النحو الآتى :

١- الملك (Rex)

كان الملك يتم تسلمه السلطة الملكية ، فى الغالب ، من خلال الانتخاب ، ولـم يكن نظام الملك فى روما وراثياً ولم يتضمن على أى حق إلهى للملك يجيز لـــه أن يدعى الاتصال بالآلهة أو مساندة الآلهة له ، وإن كان نوما قد زعم اتصاله بالآلهــة، كما كان الحال فى الملكيات الشرقية الوراثية ، وكل ما كان يحـــق للملــك بحكـم الدستور هو حق التكهن (auspicia) بما تريده الآلهة ، وهو أمر كان يشكل طقســاً دينياً يسبق أية إجراءات على مستوى الدولة لضمان رضاء الآلهــة ، وكــان دور الملك فيه هو أن يصل إلى هذا التعرف بطريقة أو بأخرى من بينها اطــلاق طــائر والتعرف على رضاء أو عدم رضاء الآلهة من الجهة التى ينطلق إليــها الطــائر ، ولكن تفسير ذلك كان يخضع لتعقيدات استلزمت على مر الزمن وجــود مجموعــة من المفسرين الدينيين المتخصصين (augures) لاعطاء الرأى الســديد فــى هــذا الأمــر .

كان مجلس الشيوخ هو الذى يقوم بانتخاب الملك فى الغالب ممن تتوفر فيــهم الشروط التى يراها المجلس لازمة وضرورية لشــغله المنصــب ، وبعــد إقــرار الانتخاب من قبل مجلس الشيوخ كانت تقره جمعية الأحياء (Comitia Curiata) ، وكان هذا يتم بمقتضى قانــون يسمى قانــون جمعية الأحيــاء الخــاص بالســلطة

(Lex Curiata de Impero) وبمقتضاه يرتبط أعضاء الجمعية بطاعة الأوامر التـي يصدرها الملك والتى اصطلح على تسميتها (Imperium) ، ومع ذلك على ما يبـدو أن بعض الملوك قد تولوا زمام السلطة أو استمروا فى السلطة رغمـــاً عـــن إرادة مجلس الشيوخ واستندوا فى تثبيت شرعيتهم على تعضيـد جمعيـة الأحيـاء مثـل تاركوينيوس العتيق الذى حصل على المُلك ، رغماً عن إرادة مجلـس الشـيوخ ، مستنداً على الطبقات الدنيا ، وسرفيوس توللوس الذى حاول الشيوخ اتهامه بأنه لـم يُنتخب بطريقة شرعية وسحبوا الثقة منه إلا أنه استعان عليهم بالشعب .

ومما هو جدير بالذكر أن الملك قبل تنصيبه وجلوسه على كرسـى العـرش كان يقاد إلى أكمة الكابيتول ، ويجلس على مقعد من الحجر موليـاً وجهـه نحـو الجنوب ، وعلى شماله يجلس أحد العرافين وقد غطى رأسه بلفائف مقدسة وأمسـك بيده عصا الاستخارة فيرسم فى اتجاه السماء بعض الخطوط ويتلو دعاء ويضع يـده على رأس الملك ويتوسل للآلهة أن تبين آية مرئية أن هذا الملك مرضى عنه منـهم ، ثم بمجرد ما يتضح موافقة الآلهة من البرق أو طيران الطيور ، يسـتحوذ الملـك الجديد على منصبه وقد قدم لنا المؤرخ ليفى هذا الوصف عند تنصيب الملك نومـا ، ويؤكد ديونيسيوس الهالكرناسى أنه كان يحدث لجميع الملوك ثم استمر هذا التقليـد سارى المفعول فى العصر الجمهورى عند تنصيب القنـاصل ويضيـف أن هـذا الإجراء كان مستعملاً فى زمانه ، ومثل هذه العادة لها ما يبررها حيـث سـيصبح الملك الرئيس الأعلى للديانة وعلى أدعيته وقرابينه ستتوقف سلامة المدينة ، ولذلـك كان يحق له فى التأكد أولاً من أن هذا الملك مقبول من الآلهة ، وبناء علـى هـذا القبول كان يمنح الملك المختار سلطة الامبريوم التى تضمنت وخولـت لـه حـق ممارسة سلطات واسعة المجال لا تمنح لغيره وهذه السلطات هى :

أ – السلطة الدينية :

كان الملك يمسك بزمام السلطة العليا فى الشئون الدينية لأنه مسئول عن قيـام علاقات سلام طيبة بين سكان روما من البشر وسكانها من الآلهة (Pax deorum)، فكان الملك هو الكاهن الأكبر فى الدولة ، إذ تصور الروايـــات أن الملــوك كـــانوا كهنة دائماً وأولهم رومولوس الذى كان متفقاً فى علم الاستخارة والذى أسس المدينــة حسب الشعائر الدينية ، ونوما الذي كان يقوم بأغلب الوظائف الدينية ، علـــى حـــد قول ليفى ، ولكنه تنبأ بأن سيكون على خلفائه أن يعانوا الحروب فى أغلب الأوقـات ولن يستطيعوا أن يتفرغوا لمشاكل القرابين ، ومن ثم فقد فوض الأمر إلـــى كهنـــة (Flamenes) ، لكى يقوموا مقام الملوك عند تغيبهم عن روما فى حرق الأضــاحى، ولما صار من المتعذر على الملوك ، من بعده بالفعل ، أن يقوموا وحدهم بالأعبــاء الدينية العديدة والواجبة الأداء ، فقد فوضوا جانباً منــها إلــى عــدد مــن الكهنــة والعرافين ، فقد تم تفويض القيام بأعباء طقوس الآلهة الرئيســية يوبيــتر ومــارس وكوبرنيوس الإله السابينى الأصـــل ، كمــا تــم تفويــض خمســة مــن الكهنــة (Pontifices) للقيام بالشعائر الرسمية للدولة ، كما عُهد إلى هيئة العرافيـــن أمــر استطلاع رغبات الآلهة ، وإلى عذارى الربة فيستا (Virgones Vestae) الســـهر على بقاء النار المقدسة مشتعلة باستمرار فى معبدها . والجدير بـــالذكر أن هــؤلاء الكهنة كان يتم اختيارهم من بين أبناء وبنات الأشراف ، وتصور لنا الروايـــات أن الملوك كان عليهم بعد ذلك القيام بتقديم القرابين للآلهة وتثبيت تقويم الدولة الرســمى الذى كان يسير على نظام الشهور القمرية بما يستلزمه من تعديلات تُـــزاد الســنة بمقتضاها كل عامين إلى ٣٧٧ يوماً حتى تتمشى مع فصول السنة .

ب- السلطة العسكرية "الامبريوم العسكري":

كان الملك بمجرد اختياره ومصادقة مجلس الشيوخ وجمعية الأحيـــاء علـــى ذلك يمنح سلطة الامبريوم والتى بمقتضاها كان يخول له عقد المعـــاهدات وتقريـــر السلم والحرب وتمثيل الدولة فى علاقاتها الخارجية وتوليه قيادة الجيش فى الميـــدان بنفسه وأمره بالتعبئة العسكرية ، وجمع الأموال اللازمة لذلك بصفته قـــائداً أعلـــى (Imprator).

حـ- السلطة القضائية والتشريعية:

كانت كلمة الملك قانوناً فهو الذى يصدر القوانين ويعلنها ويطبقـــها ويصـــدر الأحكام والسنن القضائية التى تتحول إلى قوانين ، هذا فضلاً عن اتباعه للأعـــراف السابقة عليه والتى كان لها سلطة نافذة فى المجتمع الرومانى ، وتنظيـــم العلاقـــات بين الناس فى روما الباكرة ، وعموماً فقد كانت سلطة الملك القضائية سلطة مطلقـــة ولا يحد من نطاقها إلا سلطة رب الأسرة (Pater Familias) على أفراد عائلتـــه ، فكان تدخل الملك فى حالات النزاع بين المواطنين مقصوراً على تعييـــن محكميـــن (Arbitre) يقومون ببحث النزاع واصدار حكمهم فيه باسم الملك ، ويتركون تطبيـــق القرار لمن صدر فى صالحه ، بيد أن الملك كمسئول عن الأمن العام فقد كـــان لـــه سلطات جنائية واسعة فيما يتعلق بالعقوبات الضرورية لاقـــرار العدالـــة ويطبقـــها خاصة على من يرتكبون ضد مجتمعهم نوعين رئيسيين من الجرائم وهما الخيانـــة والقتل دون مبرر ، وكانت عقوبتهما النفى أو الإعدام أو الغرامـــة أو الجلـــد تبعـــاً لظروف كل قضية ، وكان الملك ،على ما يبدو فى أواخر عهد الملكيـــة بعـــد أن زادت مساحة روما وزاد عدد سكانها ، يعهد بالنظر فى تلك القضايا إلى عدد مـــن القضاة (Questores) يعينهم خصيصاً للنظر فى هذا النوع من القضايـــا ، وكـــان

يحق للملك وبناء على إرادته تخفيف الأحكام الشديدة وإن كان أحياناً يسمح لجمعية الأحياء إذا ما رأى إعادة النظر فى الحكم الصادر ، ولعل أوضح دليل على النتائج لممارسة الملك لسلطاته فى هذا المجال بشكل حاسم ومؤثر هو عدم وجود القتل بسبب الثأر فى روما فى العصر الملكى .

هذه هى السلطات التى خولتها له سلطة الامبريوم ، وكان الملوك يتبعون سلسلة من الرسوم والمظاهر الشكلية ، فكانوا يلبسون العباءات الأرجوانية ويجلسون على الكرسى العاجى المحمول بينما يحيط بهم مجموعة من الأتباع (Listores) يحملون حزماً من العصى والبلط (Faseces) إشارة إلى حق الملك فى إنزال العقاب بالضرب بالعصا أو الإعدام بقطع الرأس بالبلطة ، ويذكرون الناس بالطاعة الواجبة نحو ملوكهم .

٢- مجلس الشيوخ (Senatus) :

كان هذا المجلس يتكون فى البداية من مائة عضو إذ يقول ليفى أن رومولوس قد اختار مائة من رؤساء العشائر فى قبيلته ليعينوه على تشييد روما وليكون منهم مجلس شيوخه ، وقد سُمى كل واحد منهم فيما بعد (Pater) أى الأب، وسُمى ابناؤهم وأحفادهم بطارقة (Patricii) أى "المنحدرون من الآباء" ، وعلى ما يبدو فقد تم زيادة عدد أعضاء هذا المجلس إبان العصر الملكى ، وكان ذلك نتيجة لنقل وتهجير بعض سكان المدن التى ضمتها روما إليها بحيث أننا نجد أنه قد وصل عدد أعضائهم إلى ثلاثمائة عضو فى العصر الجمهورى .

ويدل اسم هذا المجلس على أنه كان مجلساً للمسنين من الشخصيات البارزة فى روما والذين كان يتم اختيارهم من بين الأسر الشريفة (Patricii) ورؤساء العشائر .

وكان لهذا المجلس الحق فى الاجتماع بالملك وإبداء رأيهم فى أمور وقضايا المدينة ، ولكن كان رأى هذا المجلس رأياً استشارياً وغير ملزم للملك ، فقد يأخذ أو لا يأخذ به ، ولكن كان رأى هذا المجلس ، مع ذلك ، له وزنه من الناحية العملية ، والسبب فى ذلك أنه صادر عن شخصيات لها وزنها وتأثيرها فى المجتمع لوضعها الاقتصادى والاجتماعى ، وعند موت الملك كانت السلطة الملكية فى روما تنتقل إلى هذا المجلس والذى كان يعين فى هذه المناسبة واحداً من أعضائه ويمنحه السلطة الملكية بصفة انتقالية حتى يتم انتخاب الملك الجديد ، وكان هذا الشخص يطلق عليه الحاكم أو الملك الانتقالى (Interrex) وكان هذا الحاكم يقوم ويتولى إجراء الانتخابات الضرورية لاختيار ملك جديد من خلال الاقتراع الذى يقوم به مجلس الشيوخ ، ثم يتم عرضه على جمعية الأحياء للموافقة والمصادقة على انتخاب الملك .

٣-جمعية الأحياء (Comitia Curiata) :

كان سكان روما مقسمين إلى ثلاث قبائل ، وهذه القبائل كانت مقسمة إلى أحياء (Curiae) والتى كان عددها ثلاثين حياً ، ولا ندرى كم كان عدد الأحياء عند انشاء روما ، ولكن من الراجح أن عددها قد ازداد بالتدريج تبعاً لازدياد عدد سكان المدينة واتساع المساحة المأهولة منها إلى أن أصبح عددها فى العصور التاريخية ثلاثين حياً . وكان لكل حى طقوسه الدينية الخاصة به أو كذلك مكان لعقد اجتماعاته . وتشكلت من الأحياء جمعية الأحياء ، وكان من مهامها النظر فى أمور التبنى أو شرعية الأبناء والوصايا ، ومن ثم فإن الأحياء هى التى كانت صاحبة الأمر والنهى فى تقرير من يدخل فى زمرة هيئة المواطنين ، فقد كانت عضوية أحد الأحياء تكسب صاحبها حق حضور اجتماعات جمعية الأحياء ، كما كان من

مهامها أيضاً اعتماد اختيار الملك الجديد ، وكان هذا يتم بقانون يسمى قانون جمعية الأحياء لتفويضه السلطة (Lex Curiata de Imperio) .

وكان للملك الحق فى دعوة هذه الجمعية للانعقاد لبحث بعض القضايا والمسائل مثل الحكم بالاعدام على أحد المواطنين أو لاعطاء الثقة أو البيعة للملك فى حالة الحرب ، أو فى حالة الأزمات السياسية التى قد تستدعى التعبير عن هذه الثقة .

ولم يكن بوسع هذه الجمعية أن تعقد اجتماعاتها إلا بناءً على مرسوم ملكى ، وكانت صلاحياتها فى المناقشة محدودة ، فكان يعرض عليها القضايا لإبداء الرأى فحسب ، وربما كانت طريقتها فى إبداء الرأى ليس عن طريق اعطاء الأصوات وعدها وإنما بالتصفيق والصياح الذى يمكن أن يعرف منه مدى استجابة أو عدم استجابة الجمعية لما يعرض عليها .

وبعد هذا العرض الموجز لأركان الدستور الرومانى ننتقل الآن للحديث عن الحياة الاقتصادية .

ثانياً : الحياة الاقتصادية فى ظل العصر الملكى :

كانت الأرض هى المصدر الأساسى للثروة والجزء الأكبر منها كان يستخدم فى الزراعة والتى كانت تمثل الدعامة الأساسية لدخل الرومان ، كان الرومان يزرعون نوعاً من القمح يمتاز بوفرة انتاجه مقارنة بالأنواع الأخرى الموجودة فى مناطق البحر المتوسط ، وعرف الرومان أيضاً غرس الأعناب وصار الكروم محصولاً رئيسياً لهم فى العصر الملكى .

وكانت الأرض فى روما وزمامها تنقسم إلى قسمين : أولهما : قسم الأرض الخاصة : كان مكوناً من الأراضى الزراعية المملوكة ملكية رقبة وكان هذا القسم موجوداً فى زمام روما ، وتشير بعض الروايات إلى توزيع الأراضى على الجنود من قبل رومولوس من أراضى البلاد المفتوحة ، كما تشير أيضاً إلى توزيع نوما للأراضى على فقراء الرومان ، ولكن الروايات تشير أيضاً إلى تركيز ملكية الأرض فى أيدى فئة قليلة من الرومان وهى فئة الأشراف . وثانيهما : قسم الأرض العامة : وكان مكوناً فى الغالب من أرض مراعى وكان هذا القسم يلى فى الأهمية الأرض الزراعية حيث أنه كان أقل مساحة من الأراضى الصالحة للزراعة ، ويلاحظ أن هذا الجزء قد تقلص رويداً رويداً وحل محله الأرض المزروعة ، وكان يحق للرومان جميعاً الانتفاع به بيد أن نفراً قليلاً من الرومان الأثرياء هو الذى كان له النصيب الأكبر منه نظراً لما كان يملكه من قطعان كبيرة من الحيوانات .

ب- الصناعات والحرف :

شهد العصر الملكى قيام وازدهار الصناعات المختلفة ، فقد ازدهرت فى روما صناعة الفخار والبرونز والحديد والجلود والمنسوجات والأخشاب ، وتشير الروايات لى أن هذ العصر ، وخاصة فى عهد الملك نوما ، قد شهد تكوين الروابط والاتحادات الحرفية أو تجاوزاً النقابات "للعمال الأحرار المشتغلين بصناعة الفخار وصياغة وسبك المعادن والصباغة والجلود والأخشاب ، وأعمال البناء والعاملين فى حقل الموسيقى . وتشير المصادر إلى أن العصر الملكى قد شهد ازدهار حرفة البناء ازدهاراً كبيراً ، فقد شهدت روما نشاطاً عمرانياً كبيراً تمثل فى بناء سور حولها وانشاء المعابد المختلفة مثل بناء معبد يوبيتر على الكابيتول والذى كانت

أساساته من الأحجار الكبيرة ، كما شـــقت القنـــوات لتصريـــف الميـــاه وغطيـــت بالأحجار، وخير أنموذج لها هو القناة الرئيسية لتصريف المياه فى ساحة الســـوق ، فقد غطيت بسقف مقوس وكان ذلك بمثابة الخطوة الأولى نحو الابـــداع فـــى بنـــاء القباب فى الفترة اللاحقة .

ح -التجارة:

كشفت لنا المصادر عن أن الاقتصاد الرومانى قد تجاوز مرحلـــة الاكتفـــاء الذاتى العائلى إلى مرحلة التعامل التجارى الخارجى الواسع ، وهذا ما يـــدل عليـــه العدد الكبير من الآنية الفخارية الاتيكية والكورينثية والتى يعود طرازها إلى القـــرن السادس وعثر عليها الآثاريون فى حفائرهم وتنقيباتهم فى روما . ومن الراجـــح أن تجارة روما الخارجية قد ازدهرت بعد انشاء سوق عند معبد الربة ديانا ويؤيد هـــذا الازدهار والنمو بناء موقع سكنى ، فى العصر الملكى ، على تل الافنتيوس المطـــل على شاطئ نهر التيبر والمراسى التى أقيمت على النهر لشحن المراكب وتفريغـــها على حدود هذا الموقع ، كما يؤيده الاحتفال الدينى الذى كان يقام عند معبـــد الربـــة فوق هذا التل ، وفى أثناء هذا الاحتفال ، والذى يرجع إلى العصر الملكـــى ، كـــان يلتقى التجار اللاتين من كل أنحاء سهل اللاتين مع التجار الآخرين مثل الأتروريين أو اليونـــان فى سوق معبد الربة ديانا فيتبادلون معهم سلعهم مثل الملح والأخشـــاب . . . الخ .

وبعد هذا العرض المقتضب للأحوال الاقتصادية ننتقل للحديـــث ، وبشـــكل موجز ، عن المجتمع الرومانى والحياة الاجتماعية فى روما .

ثالثاً : المجتمع والحياة الاجتماعية :

كانت الأسرة (Familia) فى روما الباكرة تمثل وحدة اقتصادية واجتماعية ودينية ، وتمثل حجر الأساس فى بنية المجتمع الرومانى ، وكان رب الأسرة (Pater Familias) يتمتع ، بفضل سلطته (Auctoritus) ، بسلطة غير محدودة على زوجته وبناته وأبنائه وأخلافهم وعبيده ، وأتباعه وممتلكات الأسرة (Familiares) ، وقد يكون رب الأسرة ابناً فيكون وصياً على أمه واخوته القصر حتى يبلغوا سن الرشد وأخواته غير المتزوجات حتى يتزوجن والأتباع والعبيد . فقد كان عليه إدارة الأنشطة الاقتصادية للأسرة وخاصة زراعة أراضيها، كما كان يقرر الأمور القانونية من خلال مجلس الرجال البالغين فى الأسرة مثل قبول عضو جديد فيها أو رحيل عضو عنها (بالزواج مثلاً) وبالمثل عقوبة المذنبين ، كما كان يمثل الأسرة فى إدارة شئونها الخارجية بالإضافة لقيامه بدور كاهنها ، فكان يرأس عبادة الأسلاف (Sacra Familiae) ، ووضع رب الأسرة القانونى غير المحدود السلطة والمطلق يمكن تتبعه فى قانون الألواح الاثنى عشر والذى كان يسمح له أن يبيع أبناءه فى سوق النخاسة ، ووضعه ومكانته يمكن أن يرى أيضاً كصورة مصغرة لحكم الأرستقراط المكون من أرباب الأسر الهامة فى الحياة السياسية فى الدولة ، كما كان له الحق أن يضرب زوجته وأولاده أو أن يقتلهم أو أن يبيع الأولاد فى سوق النخاسة وبعبارة أخرى كان له الحق الأول فى التصرف بمقدرات زوجته وأبنائه مهما كان سنهم وبناته حتى زواجهم دون أن يجرمه القانون .

ولما كان من غير المقبول لدى الرومان أن رب الأسرة امرأة فكان من حق رب الأسرة تبنى ابناً عندما لا يكون له ابناً شرعياً حتى يضمن استمرار وبقاء الأسرة ، وكان الابن المتبنى يحتل فى الأسرة التى تبنته الوضع ذاته الذى كان يحتله لو أن أب الأسرة هو الذى أنجبه من صلبه ، فمنذ تبنيه تنقطع صلته بأسرته

الأصلية وتنتقل الولاية عليه إلى الأب بالتبنى ، ويصير عضواً فى أسرته ويحق لـه ان يخلفه بعد مماته ويصبح هو رب الأسرة .

وعندما يكون لرب الأسرة أكثر من ابن ويأتيه الموت كان ابناؤه الراشـدون يصبحون بدورهم آباء أسر ويقتسمون أملاك الأسرة الأصلية ، وكانت الأم والبنـات غير المتزوجات والأبناء القصر يصبحون تحت سلطة أحد هؤلاء الأبنـاء إلـى أن يبلغ القصر سن الرشد وتتزوج البنات ، كما ذكرنا آنفاً ، وإذا مات هذا الابـن "رب الأسرة" قبل الأم أو قبل زواج البنات أو بلوغ القصر سن الرشد آلت الولاية عليـهم إلى أقرب أقارب رب الأسرة المتوفى .

وتشير أسماء الأسر الرومانية فى العصور التاريخية إلى اختلاف كبير فـى الأصول التى انحدرت منها ففى عهد الامبراطور ، أغسطس كان لايـزال يوجـد نحو الخمسين أسرة تتصل عندما تصعد فى سلسـلة أسـلافها ، إلـى آل اينيـاس وصحبه ، وأسر أخر تدعى أنها من نسل الأركاديين أتباع ايفاندروس ، ومنذ زمـن لا تعيه الذاكرة كان رجالات هذه الأسر يحملون على أحذيتهم هلالاً صغـيراً مـن الفضة كعلامة مميزة لهم ، كما زعمت أسرتا بوتيتيا (Potitea) وبيناريا (Pinaria) أنهما تنحدران ممن كان يسمونهم أتباع هرقل ، أمـا آل توليـوس (Tulius) وآل كونيكتيوس (Quinctius) وآل سرفيليوس (Servilius) ، فقد وفدوا على روما مـن البالونجا بعد الاستيلاء عليها وتدميرها ، كما كان الكثير من الأسـر تضيـف إلـى اسمها لقباً يذكرها بأصلها الأجنبى ، فلدينا آل سولبيكيوس كاميرنيوس (Sulpicius Camerinus) وآل كومينيوس أورونيس (Comenius Aurunes) وآل اسـكينيوس سـابينوس (Sicinius Sabenus) وآل كلوديـوس ريجلينسـيس (Claudius Regillenses) وآل أكويليـوس توسـكوس (Aquillius Tuscus) ، وأصـل آل اوريليوس (Aurelius) سابينى ، وآل كيكيليوس (Caecilius) من برينسـتى وآل

اوكتافيوس فينوس من فيلتيريس (Velitres). وفى ضوء ما سبق عرضه لأسـماء الأسر نستخلص أن مجتمع روما متعدد الأعراق والأصول .

وتشير الروايات إلى أن الأسـر التى تجمعها رابطة القربى والمنحدرة مـن جد مشترك غالبا ، كانت تعيش متجاورة أيضاً ، وكونت عشائر ، فكـان أعضـاء العشيرة الواحدة يحملون اسم عشيرتهم بجانب اسمهم الشخصى (nomen gentile) كما كانت العشـيرة تمثل وحدة دينيـة واحـدة وتحتفـل بشعائـرها الدينيـة المشتركة (Sacra gentilica) . وكانت العشائر إما عشائر تخص الأرستقراط وإمـا عشائر تخص العامة والتى أقاموها وكونوها تقليداً لتلـك العشـائر التـى كونـها الأرستقراط من أقرانهم .

وقد كونت العشائر اتحادات تمثلت فـى قيـام الأحيـاء (Curiae) ، وهـذا المصطلح من الواضح أنه مشتق من لفظة (Coveria) وهى تعنى "اتحاد الرجـال" وتقدم لنا الروايات معلومات عن أن عددها كان ثلاثين حياً من زمن رومولـوس ، ولكن لا يمكننا قبول هذه الروايات فمن المؤكد أنها كانت أقل عدداً عند نشأة رومـا ولكن ازداد عددها ونمى إلى أن وصل إلى ثلاثين حياً فى العصور التالية . وكـان على رأس كل حى (Curia) رئيس (Curio) ، وكانت الأحياء وحدات هامـة فـى الحياة العامة "الدينية" فقد كونت وأسست نظام الجمعية الشـعبية وأيضـاً الجيـش والجمعية العامة للأحياء قد قامت على الأحياء (Comitia Curiata) والتى سـبق الحديث عنها .

وتشير الروايات إلى اتحاد الأحياء مع بعضها البعض فى ثلاث قبائل ، وكـل قبيلة (Tribus) كانت تتكون من عشرة أحياء (Curiae) ، وأسماء هذه القبائل هـى تيتيس (Tities) ، ورامنيس (Ramnes) ولوكريس (Luceres) . والجدير بـالذكر

أن أسماء هذه القبائل هى أسماء أترورية ، وهذا يشير إلى أهمية التأثير الأتـــرورى على النظام الاجتماعى فى روما الباكرة ، ويرى البعض أن هذه القبائل كانت تمثـل تقسيم المواطنين الرومان حسب الجنس بمعنى أن أولاها كانت تتألف من الســـابين وثانيتها من اللاتين وثالثتها من الأتروريين ، بينما يرى البعض الآخر أنــها كــانت تمثل تقسيم المواطنين على أساس مناطقـــهم الســكنية أى علـــى أســاس التقســيم الجغرافى ، ويبدو لنا أن كلا الرأيين فيه جانب من الحقيقة ، فالروايـــات المــأثورة وما سبق ذكره بشأن الأسر تشير إلى أن روما كانت خليطاً مـــن النـــاس ، فكـــان بعضهم من جماعة اللاتين وبعضهم من جماعة الســـابين وبعضـــهم مـــن جماعـــة الأتروريين . . . الخ ، والأقرب للحقيقة أن كل جماعة من هذه الجماعـــات كـــانت تقيم فى منطقة يجاور عشائرها وأسرها بعضهم بعضاً . وقد يكون هناك تداخل بيـن تلك الجماعات من خلال الجيرة والمصاهرة .

ويلاحظ أن هذه القبائل كانت أقل دوراً فى الحياة العامة مقارنة بدور الأحيـاء فى الفترة الباكرة ، ومع ذلك ، فقد كان لها قدر كبير من التأثير فى حياة المجتمـــع السياسية ، وكان على رأس كل قبيلة شيخها أو نقيبها (Tribionus) وهو الذى يقود القبيلة .

وهكذا فقد كان الشعب الرومانى (Populus Romanus) يتكون مـــن كافـــة المواطنين الأحرار الصالحين لأداء الخدمة العسكرية فى قواته المحاربة والمشـاركة فى طقوسه الدينية وحضور جمعيته الشعبية ، وكان هـــؤلاء المواطنـــون يعرفـــون باسم (Quirites) أولاً إلا أنه قد صار يطلق عليهم رومان (Romani) وأصبحـــت كُنية (Quirites) تطلق على المدنيين الرومـــان ، وقـــد يكـــون لـــها صلـــة مـــع (Querinal) أو ربما مع (Coverites) أى رجـــال الأحيـــاء ، ويقـــدر البـــاحثون

المحدثون أن عدد المواطنين الرومان كان يتراوح ما بين خمسة عشر ألفاً ومائة ألف من المواطنين .

ونستخلص من الروايات المأثورة أن المجتمع الرومانى كان ينقسم إلى طبقات وهى على النحو الآتى :-

أولاها : طبقة الأشراف "الحماة" (Patricii) :

هذه اللفظة تعنى من الناحية الحرفية "الذين يتمتعون بمركز متميز فى الجشع يعادل مركز الأب بين أفراد أسرته". وكانت هذه الطبقة تتكون من كبار ملاك الأراضى فى زمام روما ويمتلكون قطعاناً كبيرة ، والروايات تقول أنه بعد قبول عشيرة أتيوس كلوديوس (Atius Claudius) السابينى مؤسس عشيرة (Gens Claudia) قد حصل على مساحة ٢٥ فداناً (Jugera) من أرض روما بينما حصلت كل أسرة من الخمسة آلاف أسرة مهاجرة على مساحة فدانين .

وتمتعت طبقة الأشراف بنفوذ واسع وامتيازات كبيرة ذلك أنه بفضل ثروتها كان يمكن لأفرادها توفير العتاد والتدريب على أساليب القتال ويتحملون نفقات خيولهم وغذائها ، وحتى إدخال نظام المشاة ثقلى العدة فى النظام العسكرى فإن البطارقة كانوا يتمتعون بالسيطرة العسكرية الباكرة فقد شاركوا فى المعارك على رأس قوات أتباعهم . وتشير الروايات إلى أنهم قد هيمنوا على مجلس الشيوخ أو احتكروا عضويته ، وفى الظروف الاستثنائية عندما يخلو كرسى الملك كانوا يختارون واحداً منهم (Interrex) ، وبفضل ثروتهم وعراقة أصلهم وثقافتهم توافرت الفرص لهم ، فقد كانت الفرصة متاحة لهم ليكونوا هيئة مستشارى الملك فى أمور الدنيا والدين على السواء ، فقد ظلت عضوية الهيئات الدينية حكراً عليهم فى العصر الجمهورى إلى أن قضى العامة على هذا الحكر بعد كفاح سلمى مرير.

وتبعاً لذلك فقد تشكلت منهم الهيئة السياسية العليا فى الدولة ، ومارسوا سيطرة كاملة فى مجال السياسة كما أنهم قد هيمنوا على الجمعية الشعبية ، التى كانت فى شكلها القديم تعتمد على الأحياء ، وهذا قد سمح لهم باستعراض قوتهم مع اتباعهم .

ويرى بعض الدارسين أن الأشراف هم فى الأصل ممن اختارهم رومولوس من رؤساء العشائر ليعينوه على تشييد روما ، وليكون منهم مجلس شيوخه ، بينما يرى البعض الآخر أنهم غزاة غرباء لعلهم سابين غزوا سهل لاتيوم وحكموا اللاتين ، ووضعوهم فى منزلة دون منزلتهم وأصبحوا يشكلون طبقة العامة ، وأن هؤلاء الغزاة قد كونوا عشائر تملكت الأرض بفضل تفوقها الاقتصادى أو الحربى، ثم حولوا زعامتهم الزراعية والحربية إلى سيطرة سياسية ، وعلى العكس من ذلك يرى بعض الباحثين أنهم من سلالة الغزاة الأتروريين الذين فرضوا أنفسهم على روما . فأى هذه الآراء هو الصحيح أو الأقرب إلى الصحة ؟ لا يمكننا قبول هذه الآراء الثلاثة كما هى فكل منها يعتوره القصور ، وما يمكننا قوله أن كل منها يحمل لنا جانباً من الحقيقة ، إذ من الراجح ، وفقاً للروايات المأثورة ، أنهم كانوا خليطاً من عناصر مختلفة من اللاتين والسابين والأتروريين . . . الخ ولعل احتفاظ بعض الأسر الكبيرة والمشهورة بمزاعمها حول أصولها فى عهد الإمبراطور أغسطس يؤكد هذا كما سبق أن ذكرنا . كما يمكننا القول أن هذه الطبقة تزايدت أعدادها منذ زمن مبكر نتيجة لضم ونقل بعض الجماعات الأرستقراطية من اللاتين والسابين من الأرستقراطية المحلية فى بلادهم إلى روما ، هذا فضلاً عن انضمام عناصر أترورية إليهم كمهاجرين وغزاة . وعموماً فقد برزت هذه الطبقة بشكل جلى تحت حكم الملوك الأتروريين .

ونستدل من المصادر أن هذه الطبقة قد صارت فى نهاية العصر الملكى طبقة منغلقة على ذاتها ، وصار الانتماء إليها يعتمد على أساس المولد هذا فضلاً

عن احتكارها لجل النشاط الاقتصادى وامتيازاتها السياسية والاجتماعية والدينيـــة ، فعلى سبيل المثال كان الزواج بين الأشراف والعامـــة ممنوعـــاً ، ووفقـــاً للأصـــل الاجتماعى فإن أعضاؤها ، فى الممارسة العملية قد عدوا أنفسهم الرجـــال الأخيـــار فى الجماعة (Viri boni et stramue) ، كما أن هذه الطبقة قد قـــاومت محـــاولات الإصلاح التى كان بعض الملوك يسعون للقيام بها . ونذكر منها على سبيل المثـــال، محاولة الملك سرفيوس توليوس لتوزيع الرومان على خمس فئات بحسب الـثروة لا بموجب النسب ، ولكن علينا أن ننوه بالنسبة لهذه المحاولة ، أن بعـــض البـــاحثين يرى أن هذا الإصلاح لم يحدث إلا فى أواخر القرن السادس أى أنه لم يحدث فـــى زمن هذا الملك ، وأنه نسب إلى عهده خطأ .

ثانيتها : طبقة العامة (Plebis) :

تواجه الباحث معضلة أصل هذه الطبقة ، إذ يرى البعض أن السواد الأعظـــم من العامة كان يتكون من الأهالى القدماء الذين غلبوا على أمرهم وأخضعـــوا مـــن قبل السابين ، بينما يقول ليفى أن الأشراف لم يكونوا يأخذون عليهم أنهم من الأهـــالى المغلوبين على أمرهم بل كانوا يأخذون عليهم أنهم قوم لا ديـــن لـــهم أو أســـرة ، ويرى البعض الآخر أن الفرق الأصلى بين طائفتى الأهلين بين فى رومـــا فمدينـــة الأشراف وأتباعهم هى التى أسسها رومولـــوس حســـب الشـــعائر علـــى هضبـــة البلاتيوس وسكن العامة هو الملجأ (Asylum) على سفح الكابيتول وهو الذى قبـــل فيه الملك الأول القوم الذين لا نار لهم ولا كان فى استطاعته أن يدخلـــهم بلدتـــه ، وأنه فيما بعد عندما وفدت على روما أقوام جديدة من العامة غربـــاء عـــن ديانـــة المدينة أسكنوهم على تل الأفينتيوس أى خارج حرم السور وخارج البلدة ، إن كلمـــة واحدة تميز هؤلاء العامة أنهم لا عباءة لهم أو على الأقل يأخذ عليهم الأشراف أنـــه لا ديانـــة لهم وليس لهم أسلاف ، كما أن الزواج المقدس لم يكن موجوداً بالنســـبة

لهم ، وأنهم لا يعرفون شعائر ، وحيث أنه لا موقد لهم فإن القـــران الـــذى ينشـــئه الموقد محرم عليهم ، فأى الآراء أقرب إلى الصحة ؟

وإذا ما حاولنا مناقشة وتفنيد هذه الآراء ، نقول أننا لا يمكننا قبـــول الـــرأى الأول ؛ فقد أشارت الروايات إلى أن رومولوس وصحبه هم الذين أسسوا رومـــا ، وأنه اختار رؤساء الأسر وجعلهم أعضاء فى مجلس شيوخه وبالتـــالى فـــإن بقيـــة الأسر عوملت معاملة أدنى ، كما أن الروايات تشير إلى أن رومولوس خاض حربـاً مع السابين بسبب خطفه لبناتهم بغرض تزويجهن من أتباعه اللاجئين إليه والذيـــن رفض أن يزوجهم أحد من القبائل المجاورة ، ولعل موقف النساء الســـابينيات فـــى وقف القتال بين الشعبين السابينى والرومانى يشير إلـــى أن الأشـــراف فـــى هـــذه المرحلة تكونوا من اللاتين والسابين وأن العامة أو السوقة ضموا عناصر من كـــلا الشعبين . وفى ضوء ذلك لا يمكننا قبول غزو السابين لروما وأنهم أنزلوا اللاتيـــن منزلة أدنى منهم .

أما عن قول ليفى فلا يمكننا قبوله على علاته والقائل بأنهم لم يكن لهم أســـرة ولا موقد ، فالروايات المأثورة تشير إلى أن أتباع رومولوس جلبوا معهم سواء مـــن البالونجا أو من أوطانهم المختلفة الأخرى مدرة من ثراها وألقوا بها فـــى الحفـــرة التى حفرها رومولوس ، كما أن قوله بأن الأشراف كانوا يعتبرون العامة قومـــاً لا دين لهم ولا أسرة قول مردود عليه لأن روما كانت فى هذه المرحلة بحاجة ماســـة إلى مهاجرين جدد ، ومن ثم كان لا يمكن اثارة الدين ، هذا فضلاً عـــن أن الديانـــة كانت متشابهة فى الملامح فى كل منطقة سهل اللاتيوم ، بل لعـــل قصـــة ادعـــاء رومولوس كشفه عن مذبح لإله سابينى وإقامة الاحتفالات بهذه المناسبة خير دليـــل على أن الرومان كانوا يتعبدون إلى آلهة القبائل والشعوب المجـــاورة ، أو أن آلهـــة المنطقة كانت مشتركة بين الشعوب فى المنطقة ، فى ضوء دراستنا لديانة الرومـــان

فى هذه المرحلة الباكرة لا يمكن القول بأن العامة كانوا قوماً لا دين لهم إذ نعــرف أن الديانة الرومانية كانت ديانة متسامحة قبلت فى شــعائرها وطقوســها طقـوس وشعائر أجنبية كما ضمت بين آلهتها آلهة أجنبية ، كما أن روما فى ضمها لأقــوام من اللاتين والذين كانوا داخلين مع روما فى حلف دينى تحول إلى حلــف سياســى يقدم ما يدحض فكرة أن العامة لا دين لهم ، كما أن ضم سكان مدن أخرى يدحــض هذا القول إذ كان يتم ضم أشرافهم إلى طبقة الأشراف وعامتهم إلى طبقــة العامــة الرومانية ، ولعل قصة هجرة الزعيم السابينى ، والتى سبق ذكرها ، ومنحه خمســة وعشرين فداناً مقابل منح كل واحد من أتباعه على مساحة فدانين خير شاهد علــى ضم عناصر أجنبية إلى العامة ، كما أن ظهور الأتروريين فــى رومــا وانضمــام البعض منهم إلى طبقة الأشراف فى روما . ولعل قصة تاركينيوس العتيــق خــير شاهد على ذلك وتأكيد له ، إذ لم يقبل فقط فى صفوف الصفوة بل عين ملكاً علــى روما ، وفى ضوء دراستنا ، وما يمكننا قوله حول هذه الطبقة هــى أنــها كــانت تتكون من رجال أحرار تمتعوا بالمواطنة الرومانية مثــل البطارقــة ولكنــهم لــم يحوزوا على امتيازات مثلهم . فلم يكن لهم حق الترشيح لعضوية مجلــس الشــيوخ وشغل الوظائف العليا فى روما . وإذا ما حاولنا أن نعــرض لجذورهــم نقــول أن العصر الملكى قد شهد بداية ظهورهم ، وأن وجودهم كان له أهمية كبرى ، فموقــع روما بين اللاتين والسابين والأتروريين . . . الخ كــان يفــرض عليــهم حروبــاً مستديمة ويتطلب ذلك أن يكون بها عدد كبير من الأهالى ، ومن ثــم فقــد رحــب الملوك بجميع الغرباء واستدعوهم دون النظر إلى أصلهم ، فقد وجد الساخطون مــن السابين والأتروريين واللاتين ملاذاً فيها وانضموا للعامة ، كما تشير المصادر إلــى ضم ونقل سكان بعض المدن التى انتصر عليها الرومان فى العصر الملكى ، فكــان يتم ضم ساداتهم وأشرافهم إلى طبقة الأشراف الرومانية بينما عامتهم وفقراؤهم إلــى

طبقة العامة ، كما كان لموقع روما الاستراتيجى عظيم الأثر فى جـــذب الأجـــانب إليها من التجار والحرفيين من المدن المجاورة للإقامة والتوطن بها ، فكان التجـــار والحرفيين الحاصلين على المواطنة ، وفقاً للروايات ، ينضمون إلى طبقـــة العامـــة وشكلوا الشريحة العليا منها ، وقد قبلت روما هؤلاء فى مواطنيها لأن رومولـــوس ، وفقاً للرواية ، كان قد منع الرومان الذين سرحوا من الخدمة العسكرية أن يكونـــوا حرفيين وتجاراً ، كما ضمت هذه الطبقة إلى أفرادها زمرة من الأتباع عندما يمـوت حاميهم بغير ذرية ، كما كان ينضم إليها الشريف الذى يصاهر من هو أدنـــى مـــن طبقته ، أو الذى يرتكب إحدى الخطايا التى تجلب سقوط الحقوق، كان يهوى إلـــى طبقة العامة ، كما انضم إليها كل نغل كانت تصده أو ترفضـــه ديانـــة الأشـــراف الطاهرة ويطرح فى السوقة أو العامة ، فكان الابن من زواج على غـــير الشـــرائع يعتبر نغلاً كالذى يولد من الزنا ، ولا وجود للديانة المنزلية له .

أمام هذه الروافد المتعددة فقد زادت أعدادهم باطراد ، فقد عاشوا فى الريـــف وزادت أعدادهم نتيجة لتفتت ملكية الأراضى التى كـــان يملكـــها صغـــار المـــلاك ومتوسطيهم من الرومان على إثر انتقالها عن طريق الميراث لأعداد أكبر من جيـــل إلى جيل بحيث لم تعد كافية للقيام بسد أود أصحابـــها وأســـرهم ، كمـــا تكـــاثرت أعدادهم وجموعهم فى المدينة وظهروا كطبقة واضحة نتيجة لازدهـــار الصناعـــة على أثر النمو السياسى لروما والاحتياجات الجديدة التى واكبت هذا النمو وبخاصـــة إذا عرفنا أن هذا النمو قد أدى إلى توسع نفوذ روما علـــى أثـــر الســـيطرة علـــى جيرانها سواء بالغزو المباشر أو عن طريق الأحلاف التى فرضتها عليهم وقـــد أدى هذا إلى ازدهار الصناعة .

وتشير القرائن إلى منح الملوك لأفراد طبقة العامة فى الريف قطع أراضـــى ومن هؤلاء الملوك نوما وسرفيوس ، كما أن سرفيوس قد كون أربع قبائل جديـــدة

وزعت فيها الأهالى كافة حسب السكن دون أن يهدم القبائل الثلاث القديمـــة حيـث كانت أسر الأشراف والاتباع موزعة طبقاً لمولدهم ، كما أقـــام ســرفيوس مذبـح للاريس (Lares) فى كل تقاطع للشوارع فى روما وفى كل دائرة فى الريف .

وتشير الروايات إلى سبب منح بعض الملوك الامتيازات للعامة إلى وجـــود توتر بينهم وبين الأشراف ، فقد زاد الصراع بينهم من أهمية طبقة العامـــة ، فقـد شعر كل من العامة والملوك أن عدوهما واحد ، فقد كان هدف الملوك ومطمحـــهم هو التخلص من مبادئ الحكم القديمة التى كانت تقيدهم فى مزاولـــة ســلطتهم دون تعويق لها من قبل مجلس الشيوخ والأشراف وقد عاضدت طبقة العامة من جانبـــها الملوك بكل ما ملكت يمناها ، وشجعتهم على إنماء سلطاتهم وتثبيتها ، فقد تمســكت فى روما بإعادة الملكية بعد رومولوس وذلــك بتعييــن نومــا كمــا أنــها عينـت هوستيليوس ونصبت تاركوينيوس المتعجرف ، وإذا كــانت العامــة قــد عضــدت الملوك وحاولت إقامة الملكية من سقطتها فإن ذلك لم يكن وليد تعلق حقيقـــى بـــهذا النظام ، فإنها لم تكن تحب الحكم المطلق بقدر ما كانت تبغض السراة ، فقـــد كـــان تعضيدها للملوك عندها وسيلة للغلبة والانتقام من الأشـــراف وتحطيـم الحواجـز القديمة التى كانت تحرمهم من المشاركة السياسية ، وهكذا قام بينهما تحالف ثـــابت بمقتضاه حمى الملوك العامة وعضدت العامة الملوك .

وبعد أن سقط الحكم الملكى بدأ الصراع السلمى بين الأشراف والعامة بشــكل مباشر وسافر نالت خلاله العامة حقوقها بالتدريج ، وهو ما سنعرض له بعد ذلك .

ثالثتها : طبقة الأتباع :

إن المعنى الحرفى للفظة هو المنصتون أو المستمعون وهذا يشير إلى أنـــهم لا يشتركون فى الكلام أو إبداء الرأى وإنما كان دورهم هو أن ينصتوا أو يســتمعوا إلى حاميهم .

وليس معروفاً على وجه اليقين كيف نشأ هذا النوع من التبعية ؟ بل يتعذر علينا أن نكون فكرة صحيحة عن وضع الاتباع فى روما الباكرة ، وعلى أى الأحوال فالاتباع هم جماعة من الناس الأحرار قد دخلوا فى علاقة ولاء (Fides) مع أشراف أثرياء أقوياء من الرومان الذين منحوهم الحماية وخصصوا لهم ولأسرهم قطع أراضى من أراضيهم ليزرعوها بالأجرة .

وكان الاتباع فى الغالب من الرومان والسابين المعدمين إضافة إلى بعض الأجانب الذين خضعوا لسلطان الأسر الشريفة ، ومن الخطأ هنا أن نساوى بين العامة والاتباع فقد نجح الأول فى جعل أنفسهم طبقة مقفلة بينما فشل الأخر فى ذلك لاعتمادهم على طبقة الأشراف ، ومع ذلك لم تكن الحدود بين العامة والاتباع حادة ، فكان يمكن للاتباع نيل حريتهم والتحرر من الروابط مع الشريف ، على سبيل المثال إذا لم يترك ورثة بعد موته ، هنا كان يتم تحريرهم ولعلهم كانوا يلتحقون بالعامة ، وفى المقابل فقد كان يحدث أن يأتى أعضاء من العامة أحياناً ويجدوا الأمان فى المجتمع الرومانى من خلال ارتباطهم بأشخاصهم مع أسرة من الأشراف ، كما أن بعض العامة كان ينتقل إلى طبقة الاتباع عندما يبيعوا أملاكهم للأشراف .

وكانت التبعية بمثابة رباط مقدس كونتها الديانة وما من شىء يستطيع أن يفصمها ، وبمجرد أن يصير المرء تابعاً لأسرة فإنه لا يستطيع أن يخلع نفسه منها لأن ولاء تلك الأزمنة الأولى لم يكن صفة اختيارية طارئة بين رجلين بل صفة وراثية ، والإنسان تابع بحكم الواجب من أب إلى ابن ، وكان التابع يتخذ اسم أسرة حامية علامة على المشاركة الدينية فكان يعتبر عضواً فيها عن طريق التبنى .

لقد وُجد رباط وثيق وتبادل فى الواجبات بين التابع وحاميه ، فقد كان الأتباع يكسبون لقمة عيشهم إما بالعمل كأجراء يفلحون أرض حاميهم من الأشراف أو كمستأجرين مشاركين لقاء العمل فى هذه الأرض وهذه العلاقة الاقتصادية أصبحت تدعمها علاقة اجتماعية بين الطبقتين ، فإذا الحق الحامى أذى بتابعه فعليه اللعنة (Sacer esto) وليمت ، فقد كان على صاحب الأرض "الحامى" توفير الاحتياجات المادية للفلاح سواء أكان عاملاً زراعياً أو مستأجراً مشاركاً بالعمل ومساعدته فى الحصول على حقوقه فى أى نزاع بينه وبين طرف ثالث بكل الوسائل وكل القوى التى تحت تصرفه بدعائه ككاهن وبرمحه كمحارب وبقانونه كقاض ، وفيما بعد عندما أصبح قضاء المدينة يستدعى التابع أمامه كان على حاميه أن يدافع عنه ، فكان عليه أن يكشف له عن صيغ القانون الخفية التى تجعله يكسب قضيته .

لم يكن التابع تحت رياسة الرئيس الأعلى للأسرة "الحامى" فحسب بل تحت الفروع الصغرى من الأسرة أيضاً ، والفرق بينه وبينها أن العضو فى فرع أصغر، إذا ما صعد فى سلسلة أسلافه وصل دائماً إلى أب (Pater) أى إلى رئيس أسرة فى أدعيتها. بينما لا يصل ابن التابع قط مهما صعد فى سلسلة نسبه ، إلا إلى تابع ، وليس فى أجداده أب (Pater) ومن هنا لصقت صفة أو حالة انحطاط لا يجد منها مخرجا . ولكن كان على التابع حقوق وواجبات تجاه حاميه فمال التابع ليس له ، فالحامى هو مالكه الحقيقى ويستطيع أن يمد يده لحاجاته الشخصية ، بمقتضى هذا الحق كان القانون ينص على أنه من واجب التابع أن يقدم بائنة لابنة الحامى وأن يدفع عنه الغرامة وأن يقدم فديته أو أن يساهم فى تكاليف مناصبه .

والتفريق بين هاتين الطبقتين واضح فيما يخص المصالح المادية فإن ممتلكات الأسرة بأكملها للرئيس ، بيد أنه يقتسم التمتع بها مع الفروع الصغرى ،

بل مع التابع أيضاً ، ولكن بينما كان للفرع الأصغر ، على الأقل ، حق متمتع على الأرض ، في حالة ما إذا حداث أن انقرض الفرع الآخر ، فإن التابع لا يستطيع أن يصبح مالكاً إطلاقاً والأرض التي يزرعها ما هي إلا وديعة لديه وإذا مات عادت إلى حاميه . كما أن التفريق جلي من أجل ذلك ، في مجال الديانة ، فإن سليل الحامي هو الذي يستطيع دون سواه أن يقوم باحتفالات وطقوس عبادة الأسرة فقد كان يحضرها التابع ويقدم القرابين من أجله لكنه لم يكن يقوم بها هو بذاته فبينه وبين معبود الأسرة وسيط على الدوام ، بل أنه لا يمكنه أن يقوم مقام الأسرة إذا اندثرت ، فإذا حدث أن انقرضت هذه الأسرة فإن الأتباع لا يواصلون العبادة بل يتفرقون إذ أن الديانة ليست ميراثاً لهم أي أنها لم تأت إليهم من أسلافهم الخصوصيين أي أنها ليست من دمهم ومن ثم فإنها ديانة مستعارة ومن ثم لهم حق التمتع بها ليس حق الملك فيها .

رابعتها : طبقة العبيد :

يأتي العبيد في أسفل السلم الاجتماعي الروماني ، ونعرف من المصادر أنهم كانوا قليلي العدد في هذه المرحلة ، وقد تنوعت روافد العبودية في روما وهي على النحو الآتي :

أولاً : روافد داخلية وهي :-

١- الرقيق بالولادة : حيث كان الطفل الوليد يتبع عادة وضع أمه القانوني ، فإذا كانت عبدة صار عبداً .

٢- البيع والشراء : أعطى العرف والتقاليد الرومانية الأب الروماني سلطة مطلقة على أفراد أسرته ، ومن ذلك الحق في بيعهم في سوق النخاسة ، بيد أن القوانين التي أصدرها الملوك قد فرضت بعض القيود على استخدام الأب لهذا

الحق فقد منعت بيع الأبناء المتزوجين ويعيشون فى كنف أبيهم ، إذ لا يعقل أن يصير الابن عبداً وزوجته حرة .

٣- الأطفال اللقطاء : عندما يكون الأب لا يعترف بابنه أو ابنته الوليدة ، ويلقى به أو بها فى العراء ، ويلتقطه أو يلتقطها شخص آخر قد يجعله عبداً أو عبدة أو قد يتبناه أو يتبناها .

٤- رقيق الدين : كان العرف والتقاليد تسمح للدائن أن يضمن سداد دينه ليس من أملاك مدينه فحسب بل أيضاً بضمان شخص المدين ومن يعولهم . فإذا ما عجز عن سداد دينه ولم تكف أملاكه كان من حق الدائن أن يعود على شخص المدين وأفراد عائلته وفقاً للعقد المبرم بينهما ويسترقه أو يسترقهم ، وبذلك يتحول المدين الحر إلى عبد أو المدين الحر وأسرته إلى عبيد . وقد استمرت آثار هذا العرف فى العصر الجمهورى فى قوانين الألواح الإثنى عشر إذ ينص أحد بنودها بأنه إذا وجد عدة دائنين فيحق لهم أن يتوازعوا لنفس الرهنية أو الضامنة وذلك بتقطيع الجسد ، ولم يتم الغاء هذا النوع من الاسترقاق إلا بموجب قانون صدر سنة ٣٢٦ ق.م على حد قول ليفى ، ومع ذلك يضيف هذا الكاتب أنه على الرغم من ذلك فإنه ليس من المؤكد أن هذا القانون قد تم تطبيقه واحترامه ، أى أن الممارسة القديمة ظلت سارية المفعول .

ثانياً : روافد خارجية وهى :

١- الأسر فى الحروب ؛ كانت الحروب التى خاضتها روما مصدراً للرقيق ، وقد قام الأشراف وثراة العامة بشرائهم .

وعموماً فقد كان العبيد قليلى العدد فى روما الباكرة ، ولذا فقد عاملهم سادتهم معاملة حسنة وعدوهم أعضاء ذوى نفع كبير لأسرهم ، فكان العبد لا

يختلف في وضعه كثيراً عن أعضاء الأسرة ، فكان مثلهم عضواً في الأسرة ويعيش بينهم طوال اليوم ، ويمكنه التمتع بعلاقة وثيقة مع سيده رب الأسرة (Pater Familias) ، ولكن كان عليه واجبات داخل المنزل كخادم وفي أملاك السيد كمزارع وراعي ، مع أفراد الأسرة الأحرار . وهذا ما نستشفه من الروايات المأثورة وهي من عصر متأخر عن هذا العصر ، والتي تذكر أن كاتو الأكبر ، على الرغم من شدته وقسوته في معاملة عبيده ، كان يشاطرهم العمل ، كما كان يشاطرهم الخبز ويشرب نفس الخمر ، بينما كانت زوجته تطبب وتمرض أبناء العبيد بجانب أبنائها .

وإذا كان هناك من عامل عبيده معاملة حسنة ، فإنه منزلة العبيد القانونية كانت منحطة عموماً ، وهذا ما نستشفه من الأعراف والقوانين التي أباحت معاملة العبيد كما يعامل المرء متاعه ، فيحق له بيعه وقتله ورهنه وعتقه ، دون أن يسائله أحد ، كما أن قوانين الألواح الاثنى عشر تؤكد وتشير إلى وضاعة منزلتهم . فالرجل الذي يكسر عظام عبد مسئولاً فقط عن نصف قيمة التعويض المستحق إذا ما أوقع نفس الإصابة برجل حر .

وتشير المصادر القديمة ، ولكن ينبغي علينا النظر إليها بشك كبير ، إلى ان العبيد قد شاركوا الأحرار من العامة في محاولة إعادة الملك تاركوينيوس المتعجرف سنة ٥٠١ ق.م ، فقد كانوا في الغالب مندمجين في الأسر المالكة لهم ، والتي كان أغلبها من الأشراف ، كما أن الصراع الاجتماعي الباكر لم يكن توتراً بين الأحرار والعبيد ولكن بين مجموعات المواطنين الأحرار أي بين الأشراف والعامة .

رابعاً : الحياة الدينية :

نستخلص من المصادر الأدبية والمخلفات واللقى الأثرية أن الرومان وشعوب شبه الجزيرة الإيطالية قد حافظوا على معتقداتهم الدينية العتيقة وشعائرهم وأنهم لم يغيروها أو يبدلوها بين عشية وضحاها ، بل إن بعضها قد استمر بثبات فى العصور التاريخية فى روما وإيطاليا .

ويستخلص الباحث من الروايات المأثورة ومن المخلفات واللقى الأثرية أن الديانة الرومانية قد مرت بعدة مراحل إلى أن وصلت إلى العصر الملكى ، وقد سبق أن عرضنا لملامح روما إبان العصر الملكى ونجملها هنا على النحو الآتى :

أولاً : طقوس وشعائر معتقدات من المرحلة البدائية "مرحلة الجمع والالتقاط : فقد كان الرومان ، مثل غيرهم من سكان إيطاليا ، يرون العالم من حولهم خاضعاً لقوى وأرواح نشطة (Numina) ، غير مرئية يظهر نشاطها فى الظواهر الطبيعية كالليل والنهار والرياح والطقس ، ونمو النبات والحيوان وتحللهما ، وفى مجريات الحياة الإنسانية من الميلاد حتى الممات ، وأرواح الغابات والأشجار والكهوف والصخور وأرواح التناسل .

وقد بقى الرومان فى عصور استقرارهم على إيمانهم بهذه القوى وظلوا يمارسون الطقوس التى كان يلجأ إليها أسلافهم وإلى التعاويذ وسائر القوى السحرية التى ثبت لهم مفعولها اتقاء لشرها ولجلب نفعها مع استحداث ما يتلاءم مع نمط حياتهم الجديدة .

ثانياً : استمر الرومان واللاتين فى عبادتهم الأسرية وإيمانهم بالقوى والأرواح بعد أن عرفوا الاستقرار "أى بعد معرفتهم للزراعة واستئناس الحيوان" وأضافوا إليها أو آمنوا بأرواح جديدة ، مثل أرواح الحقول (Lares) وإله الحدود

(Termenus) الحارس لعلامات الحدود الحجرية للحقول ، والأرواح الحامية للبيت والحارسة والهادية لهم مثل يانوس الحارس لعتبة الباب وحـامى البيـت والأرض بوجه عام (Lar Famuliares) ، وحماة خزانة الحبـوب والطعـام (Penates) ، وفيستا (Vcota) الروح الحامية أو الراعية لنار البيت .

وعموماً فقد كانت فكرة الرومان ، فى هذه المرحلة ، عن معبوداتـهم فكـرة غامضة إلى حد أنهم كانوا يعجزون عن أن يتصوروا أشكالها أو أن يقطعـوا بأنـها كانت من الذكور أو الإناث فى كل حالة .

وقد أقاموا لمعبوداتهم الجديدة طقوساً وشعائر تطهرهم هم أنفسهم ومزارعـهم وحيواناتهم كما أقاموا أعياداً للبذر والحصاد .

كانت طقوس وشعائر العبادة لا تخرج عن الضراعة وسكب قدر من اللبـن عادة أو من النبيذ نادراً ، وقد أقيمت هذه الشعائر لكسـب رضـاء الآلهـة واتقـاء لغضبها وشرها ، وحثها على القيام بوظيفتها بطريقة مرضية للعابد أو المتضـرع ، أي أنه دخل فى مساومة معها ، فالحقيقة هنا هى الأخذ والعطـاء (do ut des) أى أعطيك شيئاً لتعطينى شيئاً ، وفى ضوء ذلك فقد كان كل إنسان كاهن لنفسـه عنـد التعامل مع الأرواح التى تؤثر عليه وإذا لم تستجب الآلهة كان لابد من الاسـتمرار فى إقامة تلك الشعائر مع الحرص على حسن أدائها لأن عدم الاستجابة يعود إلـى وقوع خطأ فى شعيرة من الشعائر أياً كان نوعها ووجب إعادتها مـن جديـد ولـو تطلب ذلك إعادتها ثلاثين مرة ، وهكذا فإن معنى لفظة (Relgio) هو أداء الشـعيرة الدينية بعناية التى تحتمها الديانة ، ولكن إذا ما استجاب الإله إلى الضراعـة كـان لابد من تقديم قربان أو ضحية على هيئة كعكة توضع فى الموقد أو كمية من النبيـذ تلقى فى نار البيت ، وتكون فى الريف أول ثمرة تخرجها الأرض ، وقد تكون كلبـاً

أو كبشاً أو خنزيراً أو ثوراً ، وكانت هذه الحيوانات الثلاثة تذبح معـــاً فـــى أكـــبر المناسبات أهمية أى فى عيد الخنزير والشاة والثور (Su – Ove – Tour) ، وتقديم الضحية كان بمثابة الوفاء بالنذر إذا ما استجاب الإله ومن هنا ظهرت فى النقـــوش، صيغة ترددت ، فى العصور التاريخية ، ألا وهى : "لقد أوفى النذر برغبتـــه إلـــى الإله الذى كان جديراً به".

ثالثـاً : بعد تأسيس كل من المدن اللاتينية وروما ، وقيام الحكم الملكية بـــها تحولت العبادات الأسرية إلى عبادات عامة ، وتشير المصادر إلى ظـــهور عـــادة إحياء ذكرى الموتى المعروفة باسم (Parentalia) وظهور أيضاً عبادات العـــذارى الفيستاليات ، هذا فضلاً عـــن آلهـــة وفـــدت علـــى رومـــا مثـــل مـــيركوريوس (Mercurius) وكيريس (Ceres) وفورتونا (Fortuna) وديانا (Diana) وأبوللـــو ، كما ظهرت آلهة إيطالية قدامى فى ثوب جديد مثل نبيتونوس (Neptunus) الـــذى أصبح ذا سلطان على البحار كلها فيما بعد وصار شبيهاً ونظـــيراً للإلـــه اليونـــانى بوسيدون ، كما كشفت لنا المصادر عن تبنى الرومان لشعائر وطقوس أجنبية وافـــدة خاصة الطقوس والشعائر الأترورية واليونانية ، وتشير المصادر إلى بناء الملـــوك الأتروريين الذين حكموا روما لمعابد حقيقية ، مختلفة فى نظام بنائها عـــن العبـــادة فى الكهـــوف والمذابح أو الأضرحة والمحاريب الصغيرة التى كـــانت تبنـــى فـــى العراء ، ولا شك أن الأتروريين هم الذين بنوا المعبد الكبـــير المقـــام علـــى أكمـــة الكابيتول وأهدوه للثالوث الإلهى يوبيتر ويونو ومنيرفا ، فتشير الروايـــات إلـــى أن بناءه فى عهد تاركوينيوس المتعجرف وانتهى فى بداية العصر الجمـــهورى ، كمـــا أقاموا تماثيل للآلهة ، وبدأوا فى تصوير الآلهة فى شكل بشرى ، كما شـــهد هـــذا العصر دخول آلهة يونانية وإن تخفت وراء أسماء آلهة إترورية أو لاتينيـــة ، مثـــل مينرفا = أثينا ، كـــيريس (Ceres) = ديميـــتر (Demeter) ، ليـــبر (Liber) =

ديونيسيوس ، ليـــبرا (Libera) = كـــورى (Core) ، هركوليـــس (Hercules) = هركليس (Heracles) ، ديانـــا (Diana) = أرتميـــس (Artemis) ، مركوريـــوس (Mercurius) = هرميس (Hermes) وأبوللو ، وهو فقط الـــذى احتفـــظ باســـمه اليونانى وتعزى التأثيرات اليونانية إلى حد كبير إلى نبوءات ســـيبلى (Sibiyllae) وهى التى حصلت عليها روما من المدينة اليونانية كوماى فى أواخر عهد الملكيـــة أى فى عهد الملك تاركوينيوس المتعجرف ، كما تشير المصادر إلى تبنـــى واتبـــاع العادة الأترورية بجعل استطلاع رغبات الآلهة (Auspicia) إجراءً ضروريا أوليـــا يجب اتباعه قبل الإقدام على عدة من الأمور العامة ، فقـــد أخـــذ الرومـــان عـــن الاتروريين تفسير النذر (Omina) ، فقد درج العرافون الرومـــان علـــى فحـــص أحشاء الأضاحى وعلى تفسير الظواهر الطبيعية ، وغير ذلك من النـــذر ، ولعـــل التأثير الاترورى البالغ يظهر من قول ليفى بأن الرومان كانوا يســـتخدمون خـــبراء – اتروريين فى العرافة (Laruspices) منذ عهد الملك تاركوينيوس المتعجـــرف ، وعلى مر الزمن أصبح للعرافين الاتروريين هيئة ازدادت أهميتها باضطراد حتـــى أصبحت منافساً لهيئة العرافين الرومان ، وإذا كان الرومان قد اقتبسوا الكثير مـــن الاتروريين فى مجال الديانة بعد تأسيس مدينتهم ، فإن تأثرهم كـــان منـــذ اللحظـــة الأولى التى فكروا فى انشائها ، فقد تبنوا العادة والعـــرف الاتـــرورى واليونـــانى لإنشاء المدن ، عند إنشائهم لروما ، فقد كان للاتروريين كتب قيدوا فيـــها شـــعائر وطقوس كاملة للاحتفالات والشعائر بمناسبة انشاء المدن وفـــى ضـــوء الروايـــات المأثورة فإن رومولوس اتبع العرف الاترورى على النحو الآتى : إن أول ما اهتـــم به رومولوس هو الاختيار لموقع المدينة ، والذى كان قد تركه لاختيار الآلهة ، كمـــا أنه قد بدأ بتقديم القرابين عند وضع حجر الأساس ، وقام أصحابه باشـــعال النـــار وكل واحد منهم يقفز خلال لهبها الخفيف وذلك بغرض التطهير مـــن كـــل دنـــس

جسمانى وخلقى ، ثم بعد ذلك حفر رومولوس حفرة صغيرة مستديرة الشكل وألقى فيها كتلة من الثرى الذى أتى به من مدينة البالونجا ، ثم ألقى كل واحد من أصحابه قليلاً من الثرى الذى أحضره من المنطقة التى أتى منها فقد كانت الديانة تحرم ترك الإنسان للأرض التى ثبت فيها الموقد والتى يرقد فيها الأسلاف الإلهيين ، وللتخلص من هذا الإثم كان يعمد كل واحد من هؤلاء إلى محال وأن يحمل معه فى صورة رمزية مدرة من الثرى من تلك الأرض المقدسة التى دفن فيها أسلافه والتى ترتبط بها أرواحهم ، ولم يكن الرجل يستطيع أن ينتقل إلى جهة أخرى إلا إذا أخذ معه أرضه وآلهته وكان لابد أن تتم هذه الشعيرة الدينية لكى يستطيع القول وهو يشير إلى المكان الجديد الذى اتخذه أن هذه أيضاً أرض آبائى ، هنا وطنى إذ أن هنا أرواح أسرتى ، وكانت الحفرة تعنى إقليم الأرواح ، فمن هذا المكان ذاته أرواح الموتى تمرق ثلاث مرات فى السنة متطلعة لرؤية الضوء لحظة ما ، وهكذا فقد اعتقد هؤلاء أنهم بوصفهم مدرة من ثرى وطنهم القديم فى الحفرة أنهم حبسوا فيها أرواح أسلافهم أيضاً ، وكان لهذه الأرواح المجتمعة هنا أن تتلقى عبادة دائمة وأن تسهر على سلامة ذريتها وقد أقام رومولوس فى المكان مذبحاً وأوقد ناراً ، فكان ذلك موقد المدينة وحول هذا الموقد كان يجب أن تقوم المدينة .

بعد ذلك قام رومولوس بتحديد محيط المدينة على النسق الاتروروى وذلك بشقه خطاً بين سور المدينة ، واقتضت الطقوس استعماله سكة المحراث من النحاس وأن يجره ثور أبيض وبقرة بيضاء ، وقد قبض رومولوس نفسه على مقبض المحراث وهو مقنع الرأس مرتدياً الملابس الكهنوتية ، ووجد المحراث وهو يتلو الأدعية ، ومشى أصحابه فى صمت دينى ، وكلما رفعت السكة كتلة من الثرى ألقوا بها بعناية داخل السور قليلاً ، كى لا تكون أية ذرة من الأرض المقدسة فى ناحية الأجنبى، وهذا السور الذى رسمته الديانة مصون لا يمس، وليس

لأجنبى ولا مواطن أن يتخطاه ، فالقفز فوق هذا الشق الصغير عمل غير صـــالح ، وتشير الروايات أن ريموس قد ارتكب هذه الخطيئة فدفع حياته ثمناً لـــها ، وكـان الشق مقطوعاً فى بعض المواضع لكى يكون الدخول إلى المدينة والخـــروج منـــها مستطاعاً للناس والآلهة ، وللوصول إلى ذلك كان رومولوس يرفع ســكة محراثـه ويحملها ، وكانت تلك الفتحات هى بوابات روما (Portae).

وقد بنت روما والرومان عبادة المؤسس ، فقد عبد الرومان رومولوس بعــد موته فكان له معبد وسدنة ، كما تشير الروايات إلى أنهم عبدوا اينياس فقد كـان أول من أسس مدينة لافينيوم التى خرج منها أهالى ألبالونجا وبذلك اعتبروه أول مؤســس لروما ، فقد كان اينياس وفقاً للرواية حارساً لآلهة طروادة ومنقذهم ، فقد ظهر لــه هكتور فى رؤيا أثناء الليلة التى قضى فيها على طروادة ، وقـال لـه "تسـتودعك طروادة آلهتها ، وبحث عن مدينة أخرى ، وفى نفس الوقت سلمه الأشياء المقدســة والآلهة الحامية ونار الموقد التى لا يجب أن تخمد . وبهذه الرؤيا فقد أصبح اينيـاس مستودع آلهة المدينة وكشف له عن رسالته المقدسة وهكذا فقــد هلكـت طـروادة ولكنها لم تهلك ، فبفضل اينياس لم ينطفئ الموقد ولا تزال للآلهـــة عبـادة ، لقـد هربت المدينة والآلهة مع اينياس وجابت البحار وبحثت عـــن إقليـم يسـمح لـها بالوقوف والذى اختارته له الآلهة .

وهكذا فمن المؤكد أن الرومان قد اقتبسوا الشعائر والطقوس الخاصة بنشــأة مدينتهم من الأتروريين ومن المدن اللاتينية فى سهل لاتيوم إذ يقول فارو أن هــذه الشعائر كانت شائعة بين اللاتين والاتروريين كما يخبرنا كـاتو الأكـبر أن جميــع مؤسسى المدن استعملوا شعائر مماثلة ، وأن للاتروريين كتب قيدوا فيها شــعائرهم الملازمة لإنشاء المدن .

جملة القول لقد عبد الرومان آلهتهم القومية وآلهة وافدة عليهم أدخلوهـا فـى مجمع آلهتهم وهى إما سابينية أو لاتينية أو يونانية أو اترورية ، وكان ذلك نتيجـة للاحتكاك غير المباشر والمباشر مع تلك الشعوب . وقد قدر فارو الآلهة التى كـان يتعبد لها الرومان بنحو ثلاثين ألفاً ، لقد آمن الرومان أن مدينتهم تملأها الآلهـة ، إذ يقول ليفى "ليس فى المدينة مكان لا يتشبع بالدين ولا يشغله معبود ما . . . الآلهـة يسكنونها". وأمام هذا الاعتقاد فى بواكير العصر الجمهورى ، رأى الرومـان أنـه من الواجب عليهم ألا يتركوا المكان الذى استقرت فيه آلهتهم حيث وعدت المدينـة بالخلود . ويصدق هذا قول البطل الرومانى كاميللوس "إن مدينتنا أسست طبقاً للديـن وأن الآلهة عينوا موضعها واستقروا فيها مع آبائنا ، وبالرغم من أنها كلها خرائـب، أى بعد تدمير الغال لها ، فإنها لاتزال مسكن آلهتنا القومية" .

فى ضوء ما سبق كان الرومانى يؤمن إيمانـاً شـديداً ، ووفقـاً للروايـات المأثورة أيضاً ، بالتأثير القوى للقوى الإلهية فى مسار حياته من المهد للحد ، فقـد كان الطفل يتعلم أن أباه هو الحافظ للأسرة وأنه رمـز القـوة الخلاقـة الداخليـة (Ginius) التى لا تفنى بفناء الجسم بل يجب أن تتغذى على الدوام عند قـبر الأب ، وكانت الأم هى الأخرى تحمل رباً من الأرباب وكان عليه أن يعاملها أيضاً معاملـة الإلهة ، فكان فيها الربة يونو (Juno) ، وهى روح قدرتها على الحمـل ، وتقـابل قدرة الأب على الخلق ، وكان للطفل ايضاً يونـو (Juno) وهـو ملاكـه الحـافظ وروحه أو النواة الإلهية فى عالمه الفانى ، كما كان يعتقد أنه محاط من كل مكـان بأطياف "أشباح" رحيمة (Di Manes) هى أطياف الذكور من الأسلاف التى كـانت أقنعة وجوههم الرهيبة معلقة على جدران المنزل تحذره مـن أن يتنكـب طريـق هؤلاء الأسلاف وتذكره بأن الأسرة لا تتألف فقط من أولئك الذين كانوا فى الأيـام الخالية أو سيكونون فى الأيام المقبلة أعضاء فيها بأجسامهم ، والذين يكونون لـهذا

السبب جزءاً من مجموعها الروحى ووحدتها الأبدية . وكان الطفل يؤمن أيضاً بـأن أرواحاً أخرى تساعده كلما كـبر فكوبـا (Cuba) تحرسـه وهـو نـائم وابيونـا (Abeona) تهدى خطاه وفبولينا (Fabullina) تعلمه الكلام ، وإذا ما غادر منزلـه وجد نفسه مرة أخرى فى حضرة الآلهة أينما حل : وكانت الأرض نفسها آلهة فـهى تارة تيللوس (Tellus) وتارة تراماتر (Terr Mater) وتارة أخرى مـارس (Mars) أى الأرض التى يطؤها بقدميه وحصنها المقدس ، وأحيانـاً تكـون هـى الإلهـة الصالحة (Bonna Dea) التى تمد النساء والحقول بالأرحام الخصبة كما كان يتعلـم أن (Lar Familiares) هو الذى يحرس حقول ومبانى وسعادة ومصير أسـرته وأن البناتيس (Penates) حماة مخازن الأسرة وبيادرها والإله يانوس حـارس البـاب ، والإله مارس باعث الحياة فى النبات كل ربيـع ، ثـم إلـه الحـرب ، ويوبيـتر (Jupiter) المسيطر على الشمس والأمطار . وكان يعتقد أنه فى المزرعة يوجد إلـه معين لكل عمل وكل بقعة فيها ، مثل بومانـا (Pomana) للبسـاتين ، وفونـوس (Faunus) للماشية وباليس (Pales) للمراعى ، واستركولوس (Sterculus) لأكوام السماد ، وساتورنوس للـزرع ، وكـيريس (Ceres) للحـاصلات ، وفورنـاكس (Fornax) لتحميص الذرة فى التنور ، وفلكـانوس (Valcanus) لايقـاد النـار ، وترمنيوس (Terminus) المشرف على الحدود ويتمثلـه ويعبـده فـى الحجـارة والأشجار التى تحد المزارع . . . الخ. ويتعلم أن نار الموقد التى لا تخمد ليسـت إلا رمز الإلهة فيستا ومادتها هى الشعلة المقدسة التى ترمز إلى حياة الأسرة وإلـى دوامها ، ومن أجل هذا كان من أوجب الواجبات ألا تنطفئ هذه النار وأن يُعنى بـها العناية المقدسة وأن تغذى بنصيب من كل وجبة .

وكان يتعلم طقوس وشعائر التطهير للمحاصيل الزراعيـة والقطعـان مـن الماشية أو للجيش أو للمدينة والطقوس المتبعة هى أن يطوف موكب بالشىء المـواد

تطهيره ، ويقدم له الصلوات والذبائح فيتطهر بذلك من المؤثرات السيئة ويرد عنه الشر ، وإذا ما تليت الصيغة حسب الأصول المرعية ووجهت إلى الإله الذى يجب أن توجه إليه الرجاء لابد أن يجاب ، فإن لم يجب فإن غلطة ما قد حدثت فى الطقوس المرعية .

وكانت ديانة الدولة الرسمية فى نهاية العصر الملكى تماثل إلى حد كبير ديانة لأسرة ، ذلك أن الدولة جعلت من التعبد إلى الآلهة يانوس وفيستا ولارس وبياتيس وغيرها حماة المساكن والمزارع وقطعان الماشية والأغنام عبادات تقام لها شعائر وطقوس تماثل فى جوهرها الشعائر التى كانت الأسرة تقيمها لهذه المعبودات ، وفضلاً عن ذلك فإن الدولة جعلت من بعض المعبودات الريفية حماة للمجتمع بأسره فى كل وجه من وجوه نشاطه ، ففى الديانة أصبح يانوس حارس أبواب روما ومارس الإله الذى يحول تيار المعارك الحربية إلى صالح الدولة الرومانية وكذلك يوبيتر الإله الأكبر الذى يسهر على مصالح الدولة وتشد أزره فى الاضطلاع بالمهام إلهتان هما يونو ومنيرفا ، ومن هؤلاء تكون الثالوث الرومانى الأكبر .

ولما كانت الديانة الرومانية فى أول الأمر ديانة الأسر ، فقد كان أرباب هذه الأسر هم كهنتها ، وكان كل رب أسرة يعرف الألفاظ والطقوس المناسبة ، وهى التى كانت تنتقل من الوالد إلى الولد حتى أصبحت ثابتة : فى تعامله مع الأرواح والقوى الإلهية التى تؤثر على منزله ومزرعته وحياته ، وكما كان رب الأسرة هو كاهنها فقد كان الملك هو كاهن المدينة الأكبر ، ولما تزايدت اعباؤه لاتساع رقعة الدولة ولكثرة الحروب فقد اعتمد على عدد من الكهنة لمساعدته ، والجدير بالذكر أن هؤلاء الكهنة هم قوم عاديون لا يكونون طبقة خاصة ، بل كانوا زملاء يشتركون فى تنظيم العبادة والاحتفالات وقد شكلوا عدة طوائف هم كبار الكهنة

(Pontifices) ، وهيئة الكهنة حارقي القرابين (Flamenes) ، وهيئة العُراف (Augures) وهيئة الراقصين (Salii) ، وهم الذين يؤدون رقصات دينية وهم مسلحون استجداء لرضاء إله الحرب مارس ، وهيئة اخوة الذئب (Luperci) وهم الذين كانوا يجرون حول السياج المقدس (Pomerium) ، ليدفعوا الأرواح الشريرة عن المدينة ، والعفو عن نسائها وقطعانها .

جملة القول أن عبادة الأسرة كانت رمزاً لوحدة الأسرة وأن العبادة الرسمية كانت رمزاً لوحدة الدولة ، وأن اجراء الطقوس على النحو الصحيح كان يضمن استجابة الآلهة لابتهالهم ودعواتهم .

<u>خامساً</u> : الجيش والتوسعات الرومانية فى العصر المكى :

فى ضوء الروايات المأثورة يمكننا القول أن الجيش الرومانى فى الفترة الباكرة من نشأة المدينة ، كان جيشاً عشائرياً إذ كان يشارك فيه الفئات الأكثر قدرة من أعضاء العشيرة أى فئة الأشراف واتباعهم ، ثم تحول الجيش إلى جيش قبلى عندما اتحدت الأحياء والعشائر وكونت القبائل ، ولم يكن الجيش الرومانى فى هذه الفترة جيشاً نظامياً دائماً بالمعنى العصرى للكلمة وإنما كان أقرب إلى ما يمكن تسميته قوات احتياطية مستدعاة أو ميليشيات يتم تعبئتها فى شكل قوة مقاتلة فى حالة أى ظرف دفاعى أو هجومى ، وكما أن هذا الجيش فى هذه المرحلة لم يقم بالتدريب الصارم والدائم بشكل يومى ، ولم يوجد فيه ضباط محترفون ترقوا فى السلك العسكرى ووصلوا إلى أسمى المراتب ولكن كان على رأس القوات القبلية نقيب لقوات المشاة ونقيب لقوات الفرسان .

ولا ندرى كم كان عدد القوات التى كان يمكن للرومان تعبئتها فى روما بعد إنشائها أو فى بواكير عهدها ، ولا يمكننا قبول أن عدد رجالات الجيش منذ البداية

كان ٣٠٠٠ من المشاة و٣٠٠ من الفرسان . وما يمكننا قوله أنه بعد أن وصل عـدد الأحياء "العشائر" إلى ثلاثين حياً فى فترة ما من العصر الملكى ، فقد كان على كـل حى (Curia) "العشيرة" أن يقدم عند الحاجة وحدة عسكرية مكونة من مائة جنـدى مشاة (ميئينا) هذا فضلاً عن عشرة من الفرسان . ومن ثم فقد كان الجيش يتكـون من ثلاثين ميئيناً من جنود المشاة ، وثلاث ميئنات من الفرسان . وبعبـارة أخـرى كان على كل قبيلة أن تقدم ألف مقاتل من المشاة ومائة فارس .

وكان الجيش يتكون فى أغلبه فى المرحلة الأولى من الأشـراف وأتباعـهم والفئات الميسورة الحال والذين كان فى وسعهم تزويد أنفسهم بالسلاح ، فلما كـان هؤلاء يتمتعون بملكية الأرض وحيازتها ويتمتعون بالامتيازات فقـد كـان لزامـاً عليهم فى حقيقة الأمر ، الدفاع عن مصالحهم ، ثـم وجـد هـؤلاء أن مصالحـهم تقتضى توسيع القوة الرومانية العسكرية لارتبـاط مصالحـهم بمصـالح المنـاطق المحيطة بروما ، فقد قبلوا أن يضموا إلى جانب قوتـهم قـوة بعـض المواطنيـن الميسورى الحال من العامة .

وتشير المصادر إلى أن الملوك الاترورين قد حولوا نظام القتال القديم مـن العفوية واللانظامية إلى نظام أكثر إحكاماً وذلك نتيجة لتوسع روما ، كما أنـهم قـد زادوا عدده ، فوفقاً للروايات فقد حاول الملوك الاتروريون زيادة عدد الجيش فقـد حاول تاركينيوس العتيق أن يوجد ثلاث قبائل جديدة وثلاث وحدات حديدة (الواحـدة منها مائة شخص) من الفرسان غير أنه واجه معارضة شديدة ، مما اضطـره لأن يحقق نواياه بمضاعفة قوة الجيوش التى كان يملكها دون أن يغـير النظـام القـائم بمعنى أنه قد زاد الجيش إلى ستة آلاف من المشاة وسـتمائة مـن الفرسـان . ولا ندرى مدى صحة هذه الروايات ، ولعل ما حدث هنا قد يكون استثناء للعدد المعتـاد

السالف ذكره وقد يكون قد تم تجنيد هذا العدد لمواجهة حروباً كان على الرومان خوضها فى عهده .

كما تعزو الروايات إلى الملك سرفيوس توليوس اجراء اصلاحات جذرية فى كل من البنية الاجتماعية للمجتمع الرومانى والجيش الرومانى . فقد قام هذا الملك بإلغاء القبائل الثلاث القديمة وأحل محلها واحد وعشرين قبيلة منها أربع قبائل مدنية استمدت أسماءها من أسماء تلال روما . وبقية القبائل كانت قبائل الريف . كما أنه قسم المجتمع الرومانى إلى طبقات على أساس ما يملكه المواطن من ثروة ودخل فكان يتم تحديد طبقته العسكرية وأنه أدخل عملية الاحصاء السنوى التى كانت فى احتفال دينى وعلى أساسها كان يحدد أفراد الطبقات العسكرية كما أنه قد قسم كل طبقة إلى وحدات ميئينية (Centurae) وكل ميئين كان مكوناً من مائة مواطن نصفهم ممن كانت أعمارهم ما بين ٤٦ – ٦٠ سنة ويسمون (Seniores) ونصفهم الآخر ممن كانت أعمارهم ما بين ١٧ – ٤٥ سنة ويسمون (Tuniores) ونتيجة لهذا التقسيم فقد كان عدد الوحدات الميئينية ١٩٣ ميئينياً . أى أن عدد الجيش وفقاً لهذا الاصلاح ١٩,٣٠٠ جندى وينسب إليه بعض الباحثين أنه أحدث هذا التغيير نظراً لتحمل الأشراف مهما كانت ثروتهم صغيرة أو كبيرة عبء التجنيد بينما يرى البعض الآخر أنه أدخل هذا الاصلاح لتقوية ساعده برفع مكانة العامة فى صراعه مع الأشراف . ونوجز هذا الاصلاح للمجتمع الرومانى المنسوب إليه ثم بعد ذلك نناقش صحة هذا النسب . فوفقاً للروايات فقد أشرك فئات جديدة من غير الأشراف فى الخدمة العسكرية وجعل الاشتراك فى أسلحة الجيش حسب ما يملكه المواطن من ثروة ، ويأتى على رأسها :

١- طبقة الفرسان وكانت تتكون من الأشراف القدامى كريمـــي المحتـــد ومحدثـــي النعمة والثروة من طبقة العامة . وقد شكل من الأول ست ميئينيات ومن الأخـــر اثنى عشر ميئينياً .

٢- طبقة تملك ثروة ونصاباً مالياً ١٠٠,٠٠٠ آس (Asses) وكان عـــدد وحداتـــها ثمانين ميئينياً ونصفها من الشباب ونصفها من الشيوخ (٤٠ J + ٤٠S) ، وكـــان أفرادها يسلحون أنفسهم بخوذة ودرع من النحاس يقى الصدر ولوحين من الجلـــد يقيان الأرجل ودرع مستدير وسيف وحربة (Hasta) ومنـــــهم كـــانت تتكـــون الصفوف الأربعة الأولى من فرق المشاة .

٣-طبقـــة تملك نصـــيباً ماليـــاً قـــدره ٧٥,٠٠٠ آس وكان عدد وحداتها عشـــرين ميئينا (١٠ J + ١٠ S) ، وكان أفرادها يزودون أنفسهم بدرع طويل من الجلـــد بدلاً من الدرع المستدير ولوحة للصدر .

٤- طبقة تملك ثـــروة ونصاباً مالياً قدره ٥٠,٠٠٠ آس وكان عددهـــا ٢٠ ميئينـــا (١٠ J + ١٠ S) ، وكان ملبسها يماثل الفئة السابقة ولكن لم يكن لعم شيء يقـــي الرجلين .

٥- طبقة تملك نصاباً مالياً قدره ٢٥,٠٠٠ آس وعددها ٢٠ ميئينـــا (١٠ J + ١٠S) وكانوا يحملون نوعاً قديماً من الحراب ويقفون إمـــا فـــي مؤخـــرة الجيـــش أو يستخدمون في المناوشات في مقدمة الجيش ويضـــاف إليـــهم ثـــلاث ميئينـــات موسيقية .

٦- طبقة تملك نصاباً مالياً قدره ١١,٠٠٠ آس وعددها ٣٠ ميئينـــا(١٥ J +١٥ S) وليس لهم لبس معين أو سلاح بل كانوا يشتركون في الحرب بلباســـهم العـــادي ويستعملون المقلاع والطوب .

٧- طبقة تملك نصاباً أقل من ١١,٠٠٠ آس وكانوا يكونون ميئينـــا واحـــداً وغـــير مكلفين بالاشتراك فى الحرب .

وهذا باختصار الاصلاح العسكرى المنسوب إلى الملك سرفيوس توّلليـــوس والذى لا يمكننا قبول نسبه إليه ، ولا إسناد إجراء الإحصاء السكانى إليـــه ، وذلـــك للأسباب الآتية فالأحوال الاقتصادية والاجتماعية لم تكن تحتاج لمثل هذا الاصـــلاح كما أن عدد سكان روما سيكون كبيراً لتلك الحقبة إذا مـــا أضفنـــا إليـــه الأطفـــال والصبية حتى سن السادسة عشر ، والنساء والشـــيوخ فـــوق الســـتين ، إذ يقـــدر الباحثون المحدثون عدد سكان روما حوالى ٥٠٠ ق.م مـــا بيـــن عشـــرة آلاف أو خمسة عشر ألفاً ، ولا تظهر لنا قوانين الألواح الاثنى عشـــر أى ذكـــر لاحصـــاء الطبقات، ولعل أول احصاء وتقسيم اجتماعى قد تم ايجاده وادخاله، وفقاً للروايـات ، سنة ٤٤٣ ق.م فقد تم ايجاد وظيفة الرقيب "المشرف على التعداد" من خـــلال هـــذه السنة ، كما أن روما لم تعرف فى العصر الملكى نظام المشاة ثقيلى العـــدة وإنمـــا عرفته فى العصر الجمهورى فى النصف الثانى من القرن الخامس . كما أن هـــذا العدد الكبير للجيش فى العصر الملكى وفقاً لهذا الاصلاح ١٩٣ ميئينـــا ، لا يمكـــن قبوله ، وإنما ما يمكننا قبوله وقوله بثقة أن الجيش الرومانى قد زاد عدده ليس فـــى العصر الملكى وإنما فى العصر الجمهورى بشكل تدريجى وعلى مراحـــل وذلـــك لمواجهة الأخطار التى واجهتها روما فى هذا العصر . فقد زيد عدد الجيـــش مـــن المشاة ثقيلى العدة فى النصف الثانى من القرن الخامس إلى أربعين ميئينا وبســـبب الحرب مع مدينة فياى الاترورية قبيل آخر القرن الخامس زيد عدد الجيـــش إلـــى ٦٠٠٠ جندى مشاة من الشباب (Juncores) ممن تتراوح أعمارهم ما بيـــن ١٧ - ٤٥ سنة هذا فضلاً عن ٦٠٠ فارس و٦٠٠٠ جنـــدى مشـــاة آخـــر مـــن الشـــيوخ (Seniores) ممن تتراوح أعمارهم ما بين ٤٦ - ٦٠سنة ، وكان الجيش المقـــاتل

يتكون من ٦٦ ميئينا بينما اختص من تم تجنيده فوق سن ٤٦ سنة بأعمال الحراسة وكان عددهم ٦٠ ميئينا . . . الخ . وعموماً ما يمكننا قوله أن الملوك الاترورييـن قد أدخلوا فى الخدمة العسكرية الطبقات القادرة من العامة نظراً لأن الأشراف لم يكونوا قادرين على سد متطلبات الدولة الناهضة فى هذه المرحلة ، وعموماً فإن عدد الجيش فى نهاية العصر الملكى لم يزد عن ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثمائة من الفرسان . وأن هذا الجيش بعدده وعتاده كان كافياً لحرب الإغارات غير المنتظمة على الحدود وردع العدوان ، وكذلك القيام ببعض الفتوحات وهى نوعية الحرب التى كانت سائدة بين روما وجيرانها فى ذلك .

كان تسليح وعدة المشاة يتكون من خوذة وزرد ودرع وحربة وسيف قصير ، بينما كان الفرسان يتسلحون إما فى عربات وأما على صهوات خيولهم إلا أنه حين تبدأ الحرب كانوا عادة يترجلون ويحاربون على أقدامهم مثل المشاة ولا يستخدمون العربات والخيل إلا فى أعمال المطاردة .

وكان الملك يتولى زمام القيادة فى الجيش بحكم أنه يتمتع بسلطة الامبريوم المطلقة على الجيش وقواده ، أى سلطة الأمر والنهى ، الممنوحة له من قبل الشعب ، فقد كان الرومان يعتقدون أن قائد الجيش الذى يخرج خارج أسوار روما سيكون فى منأى عن رعاية آلهة المدينة وسيصبح تحت رحمة الهة أجنبية ، مما يستلزم اعطاءه سلطة مطلقة ، دون قيد من أحد ، هذا فضلاً عن قيامهم انطلاقاً من نفس الفكرة السابقة ، بطقوس دينية يقصد به حماية الجيش الرومانى وقواده من الأرواح الشريرة التى سيوجهونها وهم بعيدون عن بلدهم وآلهتهم . وكان الغرض من منح الملك سلطة الامبريوم المطلقة هو ضرورة كسب الوقت وعدم إضاعته فى مشاورات وموافقات ، تقلل من حرية حركة الملك كقائد عام للجيش .

وكما قلنا من قبل أن الحرب كانت عبارة عن اغارات متقطعة غير منتظمة، ومع ذلك فإن الروايات تذكر ، بشكل مبالغ فيه ، الكثير عما قام به الملوك من خوض غمار حروب كثيرة سبق أن عرضنا لها ، ونوجزها هنا فقد دمر تولوس هوستيلوس البالونجا ، استعمر انكوس ماركيوس أوستيا ، وسيطر تاركوينيوس العتيق على اتروريا بأجمعها ، وبسط تاركوينيوس المتعجرف سيطرته على شاطئ لاتيوم كله حتى شطوط بومنيتاى ، وهذه الأخبار عن الحروب لا يمكن قبولها جميعاً لأن أغلب هذه الحروب والانتصارات والفتوحات يعود تاريخها إلى العصر الجمهورى اللاحق ، ولعل ما يمكن أن نرجعه منها إلى العصر الملكى هى الفتوحات فى الإقليم الضيق الواقع شمال لاتيوم ، فقد استولت روما على مدينتها الأم البالونجا ودمرتها ، وما يبدو قابل للترجيح أيضاً هو أن الملوك الرومان قد ضموا إلى روما الجماعات اللاتينية الصغيرة سواء فى سهل لاتيوم فيما بين روما والبالونجا ، والجماعات فى وادى التيبر الأدنى ابتداء من مصبه حيث انشئت اوستيا فيما بعد حتى فيدناى (Fidenae) ونومينتوم (Nomentum) ، وعموما فإن هذه الأراضى التى ضمتها روما على الرغم من أن مساحتها كانت حوالى ٢٠٠ ميلاً مربعاً وليس أكثر ، فقد كانت فى غاية الأهمية لروما وذلك لخصب أرضها وكثافة سكانها ، وهو ما يمكن روما من أن يكون لديها مورد بشرى غنى للتعبئة العسكرية لم تكن تتمتع به أية مدينة لاتينية أخرى ، وهكذا فقد صارت روما أهم مدينة فى سهل لاتيوم عندما كانت على أعتاب مرحلة جديدة من تاريخها أى بعد تحولها إلى النظام الملكى .

الفصل الثالث

علاقة روما بالمدن والشعوب المجاورة
وتوسعها على حسابها
فى الفترة ما بين ٥٠٩ - ٢٨٠ ق.م

علاقة روما بالمدن والشعوب المجاورة وتوسعها على حساب هذه الشعوب

فى الفترة ما بين ٥٠٩ – ٢٨٠ ق.م

لقد كان إسقاط النظام الملكى بروما يمثل فترة اضطرابات حلت بها ، لقد انشغل الرومان فى تثبيت نظامهم الجمهورى الجديد ، كما سبق أن بينا ، فقد أبطلوا المؤامرات التى دبرها الملك فى الداخل وأفسدوا محاولاته للعودة بعون من الخارج مرتين بالاستعانة ببنى جلدته الاتروريين أو باللاتين ، وعموماً كانت روما محاطة بالأعداء ، ففى شمالها كان الاتروريون ، واللاتين جيران روما وحلفاؤها والذين انشقوا عليها ، وتحالفوا مع الملك المخلوع ، وفى الشرق والجنوب كانت هناك القبائل الجبلية من الايكوى (Aequi)والفولسكى (Volsci) ، الهمجية المغوارة والتى كانت تسكن جبال الابنين ، وتشكل خطراً على كل مدن السهل بما فيها روما ، والسمنيون من الجنوب والشرق ، وقد حبا الله روما بموقع وسط بين هذه المدن والشعوب ، وقد مكنها هذا الموقع من التوسع وبسطة الملك ، ولكنها كانت معرضة للغزو من جميع جهاتها فى آن واحد ، وكان سبب نجاتها أن أعداءها لم يتحدوا عليها ، وإلى استخدامها لأساليب عسكرية جديدة كلما اقتضت الأحوال منها ذلك ، كما أنها لجأت إلى أكثر من وسيلة وبدلت من سياستها تجاه جيرانها ، حتى تضمهم باللين حينا وبالحديد حيناً آخر ، ولجأت أيضاً إلى سلاح الحرب والدمار لأعدائها ، كما لجأت إلى سياسة بذر الشقاق والفرقة بين جيرانها حتى تضمن سيطرتها عليهم ، كما لجأت إلى سياسة الدمج والمحالفة كلما وجدت فرصة مع ترك الحلفاء يديرون أمورهم الداخلية دون تدخل منها ، وفى نفس الوقت كانت تدمر بعض مدن أعدائها لترهيب القريب منها أو البعيد عنها ، كما لجأت إلى بناء المستوطنات العسكرية فى الأراضى التى كانت تستولى عليها كنقاط دفاعية متقدمة

لها وفى نفس الوقت حلت من خلالها الأزمة السكانية عندها ، ولعل السبب فى تنوع الأساليب الرومانية هو أنها قد واجهت أكثر من خصم وعدو فى آن واحد ، وسنحاول أن نعرض لجهود روما وحروبها المضنية لتوحيد مناطق شبه الجزيرة الإيطالية فى الصفحات التالية باقتضاب .

أولاً : روما واللاتين :

نتيجة لأحداث الثورة الرومانية وانشغال روما للدفاع عن كيانها ومواجهتها للأخطار الداخلية الهادفة لإعادة الملكية إليها ، ونتيجة لانكسارها أمام الملك لارس بورسينا الاتروري ، فقد فقدت مكانتها العلية التى كانت تتمتع بها بين مدن سهل لاتيوم ، فكانت علاقاتها بهم علاقة استراتيجية إبان العصر الملكى ، وكان لروما مكان الصدارة فى الحلف اللاتينى ، الذى كانت نشأته الأولى لأغراض دينية ولعبادة الإله يوبيتر لاتياريس (Jupitar Latiares) على جبل البا ، وعندما ألغى النظام الملكى وما صاحبه من اضطرابات ، وجد اللاتين فرصتهم فى التخلص من الهيمنة الرومانية ، ولعل المسوغ لهم فى ذلك أنهم عقدوا الحلف مع روما تحت نظامها الملكى ومن ثم ، فعلى ما يبدو ، أعلنوا خروجهم على تحالفهم السابق مع روما ، وفى نفس الوقت كانوا قد أعلنوا ثورتهم على الاتروريين والحاق الهزيمة بهم سنة ٥٠٤ عند اريكا وطردهم من سهل اللاتين ، وقد شكلوا حلفاً سياسياً جديداً تطور عن رابطة الربة ديانا كان مركزه مدينة اريكيا (Aricia) هذا فضلاً عن سبع مدن أخرى هى أرديا (Ardea) ولانوفيوم (Lanuvium) وكورا (Cora) وبوميتيا (Pometia) وتيبور (Tibur) وتوسكولوم (Tusculum). ولعل سبب قيام هذا الحلف هو رغبة أعضائه فى التخلص من السيادة الاترورية ، وكذلك فى الدفاع عن استقلالهم من توسع روما فى لاتيوم . وقد وقف هذا الحلف خلف محاولة الملك

المخلوع لاسترداد عرشه المخلوع للعودة إلى روما واسترداد عرشه بالقوة فما كـان من الرومان أمام هذا الخطر وأمام شق عصا الطاعة من قبل تلـك المـدن ، إلا أن عينوا لأول مرة فى تاريخهم دكتاتوراً جعلوا له القيادة العليا فى الجيـش وخولـوه سلطات واسعة كما لو كان ملكاً ، وذلك لمدة ستة شهور ، وهـذا الدكتـاتور هـو أولوس بوستوموس ودارت الحرب الضروس بين الطرفين بـالقرب مـن بحـيرة رجيللوس (Regillus) بمنطقة توسكولوم فى سهل اللاتين فى عـام ٤٩٩ أو ٤٩٦ ق.م ، ووفقاً للرواية فقد قاتل الرومان ببسالة منقطعة النظير ، ولكن الغلبـة كـانت لاعدائهم اللاتين فى البداية ، وعندئذ تقدم بوستوموس أمام جنوده ونـذر أن يبنـى معبداً عظيماً للشقيقين التوأمين كاستـور (Castor) وبوللاكس (Pollux) ، لو هبـا لمساعدته ، وجعلا النصر لجيشه ، وما كاد ينهى ابتهاله وصلاتـه حتـى أبصـر الجميع مشدوهين ، وعلى غير انتظار ، شابين جسمهما أكبر من جسـم البشـر ، يلبسان مدرعتين لامعتين ، ويركبان جوادين أبيضى اللون ، تقـدم هـذا الفارسـان وترأسا جيش الرومان وسارا به من جديد ضد الأعداء اللاتيـن ، الذيـن ذعـروا لمرأى الفارسين العجيبين ، وذهلوا للهجوم الجديـد المفـاجئ ، فـأطلقوا العنـان لأقدامهم يسابقون الريح ، واندفع الرومان فى مطاردتهم حتـى بلغـوا معسـكرهم واندفعوا إلى داخله . . فكان النصر حليفاً للرومان بفضـل عـون الأخويـن . . . ورفض اللاتين بعد ذلك خوض غمار حرب أخرى مع الرومـان ، وتخلـوا عـن مساعدة تاركوينيوس المخلوع وعقدوا الصلح مع الرومان سنة ٤٩٣ ق.م ويبـدو أن صراعاً مريراً دار بين الطرفين قبل أن يعقدوا معاهدة التحالف وأن النصر لم يكـن حاسمـاً للرومان ومن ثم أمام هذا الوضع وأمـام الخطـر الداهـم للشـعوب المغوارة والمجاورة والذى هدد كل من روما وحلف اللاتين ، فقد رأيـا أن يعقـدا معاهدة تحالف فيما بينهما ، وأن يعود السلام بينهم ، ومن ثم فقـد عقـدوا معـاهدة

كندين متساويين وهذه المعاهدة هي معاهدة كاسيوس الشهيرة إلى القنصل سبوربوس كاسيوس الذى عقدت فى عهد قنصليته (Foedus Cassunum) ، والجدير بالذكر أن المصادر تشير إلى أن هذه المعاهدة قد تم نقشها على لوحات برونزية ووضعت فى السوق الرومانية ، وهذه اللوحات ظلت فى السوق حتى عهد شيشرون ، وقد دون لنا المؤرخ ديونيسيوس الهيلكرناسي ملخصاً لها ، على النحو الآتى : فلنقم دعائم السلام بين الرومان وجميع المدن اللاتينية طالما ظلت السماء والأرض قائمين فى مكانيهما وألا يشن أحدهما الحرب على الآخر ، أو يستدعى أعداء أجانب أو يتيح طريقاً آمناً لطرف ثالث لشن الحرب على أى منهما ، بل يجب أن يساعد كل منهما الآخر بكل ماله من قوة عند التعرض للهجوم وليتقاسما بالتساوى جميع الأسلاب والغنائم التى يستوليان عليها فى حروب مشتركة ، ويجب الفصل فى جميع القضايا بالعقود الفردية خلال عشرة أيام بين الأشخاص الذين بينهم تعاقد ، ولا يجوز أن يضاف أو يحذف أى شىء من هذه المعاهدة إلا بالاتفاق الجماعى بين الرومان وجميع المدن اللاتينية .

وفى ضوء نصوص تلك المعاهدة وما كتبه الكتّاب المتأخرون ، نخلص إلى ما يلى : فقد كون الطرفان حلفاً عسكرياً هجومياً ودفاعياً ، يسهمان فى تشكيل قواته وكذلك فى اقتسام الغنائم على قدم المساواة ، وأن يتولى الفريقان قيادة الحلف بالتناوب سنوياً كما أن الطرفين قد اتفقا على تبادل حقوق المواطنة الخاصة ، بمعنى أنه كان يحق لأى موطن رومانى أن يملك عقاراً وأن يعقد صفقات تجارية فى أية مدينة لاتينية من أعضاء التحالف وهو مطمئن إلى أن قانون هذه المدينة سيحمى ملكيته وصفقاته التجارية ، وهذا الحق أسماه الرومان حق الاتجار (Ius Commercium) ، ولكن كان يتضمن إلى جانب حق الاتجار حق الامتلاك الحر وحق التقاضى أمام المحاكم المحلية على قدم المساواة مع المواطنين

المحليين، وإذا تزوج مواطن رومانى سيدة لاتينية من مدن الحلف فإن هذا الـــزواج كان يعتبر فى روما زواجاً شرعياً صحيحاً ويحق للأبناء ثمرة هذا الزواج أن يرثـوا من الأبوين ويصبحون مواطنين رومان ، وهو الحق الذى أســـماه الرومـــان حـــق الزواج (Ius Conubium) ، وبالمثل فقد كان مواطنو مدن التحالف يتمتعون بنفـس الحقوق فى روما وفى مدن الحلف .

ونود أن ننوه أن الباحثين المحدثين قد اختلفوا حلو صحة هذه المعاهدة فقـــد شكك البعـــض فـــى صحتـــها ومنـــهم (A. Rosenberg, Pignianol, Suber, Bonfante, Kubler) ، وقبلها نفر آخر منهم (Tenny Frank, P. de Fraecesci, L. Homo)، ومع ذلك فإن أصحاب الرأى الأول يتفقون مع أصحاب الرأى الثـــانى بقولهم أن اتفاقية ما قد عقدت بين الطرفين المتنازعين أمنت مصالحهما بالتبـــادل ، ولكن فى ضوء التصرفات والبنود السالفة الذكر وفى ضوء تصرفات رومـــا تجـــاه مدن الحلف عندما شقت عصا الطاعة على روما لاحقاً ، نقول أننـــا نؤكـــد علـــى صحة هذه الأخبار الخاصة بها والبنود التى حوتها فى المصادر .

وعموماً فقد أفادت روما من معاضدة أعضاء الحلف لها فى حروبها والذيـــن اتفقت مصالحهم مع مصالح روما ، وصار إقليم لاتيوم حاجز بينها وبيـــن القبـــائل السابينية مثل الايكوى والفولسكى فى الجنوب الشرقى . . . الخ .

ويبدو أن المصالح المشتركة بين الحلف الرومـــانى اللاتينـــى وبيـــن قبـــائل وشعوب الهرنيكى الذين كانوا يقيمون علـــى وادى ســـاكو (Sacco) حيـــث يمـــر الطريق الموصلة بين روما وسهل كمبانيا (Campania) . والجديـــر بالتنويـــه أن الهرنيكى هم أقوام لاتينية وألفوا فيما بينـــهم حلفـــاً ، ومـــن أهـــم مدنـــه اناجنيـــا (Anagnia) وكابتولوم (Capitulum) واليتريوم (Aletrium) . . . الخ وعلى مـــا

يبدو أن التهديد من قبل الفولسكى والايكوى هو الذى ربط مصـــالح هــذا الحلــف بالحلف الرومانى اللاتينى . وإذا ما كانت روما قد أمدت جبهتها فى منطقة الحــدود الوسطى لسهل لاتيوم ، فإنها قد عقدت معاهدة تحالف مع مدينـــة كـــايرى (Care) الواقعة على بعد ٤٤ كم شمال روما على ساحل البحر ، وذلـــك بغــرض تــأمين جبهتها الشمالية ، وهكذا نجحت روما فى إقامة درع قوى للدفاع عن سهل لاتيـــوم طوال القرن الخامس ، فبفضل هذا التحالف فقد نجحت روما بحروبها الناجحة فـــى الحد من خطورة الشعوب المجاورة المغيرة بل قلمت أظافرها وحدت من قوتــــها ، وأجبرتها على عقد معاهدات تحالف معها . وسنحاول أن نعرض لتلك الحروب .

١- صراع روما والحلف ضد الفولسكى :

تحكى لنا المصادر روايات عديدة عـــن الحـــروب التـــى شـــنها الرومـــان وحلفاؤهم ضد الفولسكى الذين كانوا ينتشرون فى تلال ليبنى (Lepini) وفى منطقة سهل بومبتينوس (Pomptinus Ager) الواقعة فى سهل لاتيوم إلى الجنوب الشرقى من روما ، وتحت ضغط السمنيين ولتكاثر أعدادهم ، فقد انطلقـــوا مـــن منازلـــهم زاحفين نحو الغرب إلى أن وصلوا إلى الســـاحل واتخـــذوا مـــن مدينـــة انتيـــوم (Antium) مرفأ لهم بعد أن أنشأوا أسطولاً تجارياً فى البحر التـــيرانى ، وتشـــير المصادر إلى قيام صدام عسكرى بين الرومان والحلف مـــن جهـــة وبيـــن مدينـــة كوريولى (Coriole) الفولسكية ، ومن هذه الروايات رواية فحواها أن شاباً يدعـــى جايوس ماركيوس (Gaius Marcius) قد شارك فى معركة ريجيللوس ضد اللاتيـــن وتوج بإكليل الغار لبسالته ، وأنه كان محباً لأمه وزوجه وأولاده حباً جماً ، وأنه قـــد شارك أيضاً فى حصار مدينة كوريولى ، ونظراً لبسالته وشجاعته المنقطعة النظـــير فى تثبيت أقدام الرومان فى ساحة القتال ، وجعلهم يتحولون من الــــهرب والتقـــهقر

إلى الهجوم والالتحام مع الأعداء من جديد وللمساهمة فى اقتحام المدينة وأمام هـــذه البطولات الفذة قرر القنصل وقائد عام الجيش مكافأته على بسالته وأعماله البطوليـــة باهدائه عُشر الغنائم كما منحه القنصل من ماله الخاص جواداً أصيلاً مطهماً ، بيـــد أن جايوس ماركيوس رفض الحصول على أكثر من حقه فى الغنيمة ، وطلـــب أن يطلق سراح جندى فولسكى أكرم وفادته من قبل ، وأمام هـــذا قـــرر القنصـــل أن يمنحه لقب كوريولى تخليداً لفضله فى الانتصار فى المعركة ضد الكوريوليين .

وتشير الروايات إلى أنه بعد عودته إلى روما ، حاول ترشيح نفسه لمنصـــب القنصلية ، ولكن العامة لم ينتخبوه ، فحنق عليهم خاصة وأنه كان أرستقراطياً شـديد المحافظة ، وقد ظهر موقفه المعادى وحنقه عليهم عندما وصلت شحنة القمـــح مـــن إتروريا إلى روما التى كانت تعانى المجاعة ، فقد خاطب الســـناتو بـــألا يطمعـــوا العامة قبل أن يتخلوا عن الترابنة ، وأمام هذا الموقف دبر الترابنة له تهمة تعطيـــل القوانين المقدسة ، وتم نفيه ، فولى وجهه شطر أعداء رومـــا الفولســـكيين وطلـــب اللجوء عندهم وقبله الملك أتيوس توليوس (Attius Tulius) ملك كوريولى ، وقـــام جايوس ماركيوس بإعادة تنظيم جيش المدينة ، كما حـــرص علـــى قتـــال رومـــا وصاحبه فى سيره بجيشه هذا صوب روما ، واستولى هذا الجيش على المدن التـــى فى طريقه إلى روما واحدة بعد أخرى ثم عسكر على مسافة خمسة أميال من رومـــا وحاصروا المدينة ، وتقول الرواية أن الرومان المحاصرين بعد أن عضهم الجـــوع بعثوا رسولاً فى أثر رسول ليثنوه عن عزمه والارتداد والعـــدول عـــن حصـــارهم ولكن لم ينثن ، وأمام هذا الفشل فقد رأت إحدى السيدات اللواتـــى كـــن يتضرعـــن ليوبيتر لمساعدة المدينة ، أن يتم التوسل إلى أمه فوتوريـــا (Voturia) وزوجتـــه فولومنيا (Volumnia) كى تذهبا إليه وتؤثرا فيه ، لأنه لا يعقـــل أن يردهمـــا دون إجابة طلبهما ، ذهبت الأم وهى حزينة لموقف ابنها واصطحبت زوجته وأحفادهـــا

وزمرة من السيدات الرومانيات إلى معسكر الأعداء والتقت الأم والزوج والأحفاد بالابن والزوج والوالد ، جايوس ماركيوس ، ودار بينهم حديث مفعم بالعواطف الجياشة واللوم من أمه والترجي من زوجه وأطفاله ، وأمام هذا المشهد المؤثر اضطر إلى الانسحاب ومعه القائد الفولسكي وجيشه ، ونستخلص من هذه الروايات أن النساء كن يشاركن الرجال المسئولية عن انقاذ الوطن الذى يتهدده الخطر ، وفكرن فى كيفية انقاذه وعندما هداهن تفكيرهن إلى تلك الوسيلة لم يترددن فى تنفيذها واصطحبن أم جايوس ماركيوس وزوجته وأولاده إلى حيث يقيم ليحاولن اثناءه عما عزم عليه ورده عما قصد إليه ، وكل ذلك ينبئ بقوة فى الشخصية واستقلال فى التفكير وحرية فى العمل للمرأة الرومانية ومدى تأثيرها كأم وزوجة على أبنائها أو على زوجها . وتختلف الروايات حول نهايته فبعضها ترى أن الفولسكي قتلوه حنقاً عليه لتخليه عنهم ، وروايات أخرى ترى أنه عاش فى متعة حتى فتت فى عضده السنون .

ولم تنته الحروب بين الرومان وحلفائهم والفولسكي عند هذا الحد ، إذ تشير الروايات إلى تحقيق الرومان بعض الانتصارات عليهم سنة ٤٨٥ ، ولكن استمرت غارات الفولسكي على سهل لاتيوم طوال القرن الخامس إلى أن قامت القوات الرومانية وحليفاتها بهجوم كاسح على أراضيهم ، واستولت على مدينة انكور (Ancur) ، وعموماً فقد تحالف الفولسكي مع الايكوى فى حربهما ضد الرومان والحلفاء .

حروب روما وحليفاتها مع الايكوى:

يرى البعض أن جماعات الايكوى هم من الليجوريين ، بينما يراهم البعض الآخر أنهم من الأقوام الإيطالية الجبلية الذين امتزجوا باللجيوريين نتيجة الضغط

الاتروری والغال ، وكان هؤلاء القوم يقيمون فى المناطق الجبلية شـــمال شـرقى روما ، وتشير الروايات إلى أن روما وحلفاءها قد عقدوا مع الايكوى معاهدة فـــى عام ٤٥٩ ق.م ، بغرض منع إغارة الايكوى على تخوم وأراضى روما وحلفائـها ، بيد أن الروايات تشير إلى نقض الايكوى هذه المعاهدة وذلك بإغارتهم علـى مـدن سهل لاتيوم مثل لانوفيوم (Lanuvium) وتيبور (Tibure) وروما ، وتوسـكولوم ، واريكيا (Aricia) ، فقد قام الايكوى بقيادة زعيمـهم كـاوبليوس بمهاجمـة أرض الرومان وأعملوا فيها الحرق والتدمير ، وعسكروا عند جبل الجيدوس علـى ٤٥٨ ق.م واتخذوا من هذا الموقع مركزاً لإغاراتهم على الرومان ، فما كان من الرومـان إلا أن أرسلوا له سفراءهم يطلبون تعويضاً عما تم افساده ، ورفض قائد الايكـوى مطلبهم ، فعادوا إلى روما وأطلعوا الرومان على ما حدث فعبأت روما جيشاً بقيـادة كموبليوس القنصل ، ولكن أوقعه الايكوى فى فخ وكاد أن يلحقوا به هزيمة سـاحقة لولا نجاح خمسـة من فرسان الرومان فى الفرار إلى روما وإخبار الرومـان بمـا حدث ، فقام مجلس الشيوخ لمواجهة هذا الوضع المتأزم بتعيين عضوه كينكينـاتوس (Cencennatus) دكتاتوراً ، وتم تكليف وفداً لابلاغه بقرار المجلس وكان سـاعتها يفلح أرضه ، وعندما سمع الخبر من قبل تابعه ، رفض لقاء الوفد قبل أن يغتسـل ويرتدى عباءته ، وبعد ذلك التقى بالوفد واستمع منه إلى خبر تعيينه دكتاتوراً لانقـاذ وطنه ، فذهب مع الوفد إلى روما واتجه تواً إلى السوق وأمر بـإغلاق الحوانيـت وبإيقاف جميع الأعمال وجمع جيشاً من كل القادرين على حمل السلاح ، وأمر كـل مقاتل أن يحمل معه خمسة أوتاد ، ورحل بهذا الجيش قاصداً انقاذ الجيش الرومـانى المحاصر ، وقام بخدعة رائعة إذ قام بحفر خندق حول جيش الايكوى ثم أمر بـدق الاوتاد ، ونتيجة هذا العمل صار جيش الايكوى بين فكى كماشة الرومـان ، وأدرك قائد الايكوى أنه لا فكاك من هذا الحصار إلا بالاستسلام وبـالفعل استسـلم جيـش

الايكوى للدكتاتور الذى أمره بالسير تحت النير الرومانى ، واحتفظ ببعض قادة الايكوى أسرى ومنهم كوبليوس ، ثم قفل الدكتاتور عائداً بعد انقاذه للجيش الرومانى والحاق الهزيمة وفرض الاستسلام على الايكوى ، وابعاد خطرهم إلى حين وحقق كل هذا فى خلال ستة عشر يوماً من تعيينه ، وبعد أن تحقق الهدف من تعيينه قدم استقالته من منصبه ورجع إلى بيته ومزرعته وإلى حياته الهادئة حيث يحرث ويعزق ويبذر أرضه .

وتمكنت روما ، بعد أن زادت قوة جيشها فى النصف الثانى من القرن الخامس ، من طرد الايكوى من قلعة الجيدوس حوالى ٤٣٠ ق.م.

حروب روما وحليفاتها مع السابين

كانت العلاقات الرومانية السابينية علاقات ود وعداء فقد حكمها فى العصر الملكى بعض الملوك السابين ، وقد كان صدامهم مع اللاتين فى العصر الملكى له أثره فى التوسع الاترورى على حساب قوى سهل لاتيوم كلها ، ويبدو أن الصراع الرومانى السابينى خفت حدته لمجابهة الخطر الاترورى ، ولكن بعد زوال السيادة الملكية الاترورية على روما وبعد إقامة الحلف اللاتينى الرومانى تجدد الصدام بين السابين والرومان وكانت منازلهم ومنطقة ارتكازهم هى المنطقة الشمالية الشرقية لروما أى المنطقة الوسطى من جبال الابنين فقد أغاروا على أراضى روما وتقدم لنا الروايات أخباراً عن أن القنصل ماركوس فالاريوس قد حقق انتصارين عليهم ، وقتل منهم ثلاثة عشر ألفا ، وأجبرهم على الهدنة ، بيد أن روما توقعت هجوماً حديثاً منهم فقد كان بين السابين وطنى واسع الثراء هو ابيوس كلوديوس ، وكان نفوذه كبير على أمته وأراد منع الحرب ، فاتخذ حساده ذلك الأمر ذريعة لاتهامه بأنه يريد أن يسودهم ، فما كان منه إلا أن جمع عدداً من أصحابه وأتباعه وأثار

فتنة فعطل بذلك الحرب وهدد السابين ، وكان القنصل الرومانى مطلع بما يجرى ، ويزيد الخلاف ويوقع الفرقة بينهم ، فأرسل إلى أبيوس كلوديوس من يقول له أن القنصل يعرفك رجلاً لن تضمر الانتقام من مواطنيك مهما تكن أخطاؤهم نحوك وإذا أردت أن تنجو بحياتك وأن تخلص من موقف الأعداء ، فاجعل مقامك ليس بالقرب منهم ، إن روما والحكومة وكل وطنى يستقبلك بما يليق بفضلك وبالعظمة الرومانية ، ويقال أن كلوديوس أعمل الفكر فى هذا الاقتراح ولم ير وهو فى موقفه إلا خيراً له منه ، فكاشف أصحابه بالأمر فعملوا هم أيضاً على اكتساب الكثيرين غيرهم ، وهاجروا تحت قيادة كلوديوس ، وبلغ عدد المهاجرين السابين معه خمسة آلاف من رؤساء الأسر بنسائهم وأولادهم ، واتباعهم وخدمهم ، وقد استقبلتهم روما بكل حفاوة سنة ٥٠٥ ق.م ومُنح كلوديوس ٢٥ فداناً وجُعل فى عداد مجلس الشيوخ كما منح كل مهاجر قطعة أرض مساحتها فدانين .

بيد أن هجرة أبيوس كلوديوس لم تمنع الحزب المناصر للحرب من السابين من الإعداد لحرب روما ، فقامت بتجهيز جيش نحو مدينة فيدناى وعسكر بالقرب منها ، ولكن الرومان عاجلوا هذا الجيش بالهجوم مما أجبر أفراده على تولية الأدبار ولجأ البعض منه إلى مدينة فيدناى .

وتشير الروايات إلى استمرار الصدامات بينهم ففى ٤٦٠ ق.م دخل السابين روما أثر هجوم مفاجئ واستولوا على قلعة الكابيتول ، ولكن الرومان نجحوا فى طردهم بعد فترة وجيزة . واستمر الصراع بين الطرفين إلى أن نجحت روما فى إلحاق الهزيمة بالسابين ٤٤٩ ق.م بعدها تحسنت العلاقات بين السابين والرومان إذ رأى السابين أن الحرب لن تحسم صراعهما .

حروب روما وحلفها مع الاترورين :

خاضت روما وحلفاؤها قتالاً عنيفاً مع الاتروريين وخاصة كل من مدينة فياى (Veii) وحليفتها فيدناى الاترورية الواقعة على نهر التيبر ، وكانت مدينة فياى تقع شمالى روما على مسافة عشرين كيلومتراً ، وكانت تقع على نجد بين منخفضات (Formello) و (Due Fassi) ومن ثم فقد كانت مدينة منيعة التحصين يصعب اقتحامها حيث يستحيل الصعود إليها من جوانبها الثلاثة ، وكانت تسيطر على إقليم أكثر غنى واتساعاً من إقليم روما ، إذ تدل محتويات مقابرها على ثرائها العريض وعلاقاتها التجارية الخارجية الواسعة النطاق ، كما أن بقايا معابدها تدل على تأثيرات يونانية واضحة ، أما عن مدينة فيدناى فقد كانت المدينة الاترورية الوحيدة الباقية فى سهل لاتيوم ، ويرى البعض أن فياى قد احتفظت بحامية لها منذ أن استولت عليها فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، بينما يرى البعض الآخر أن مصالح كل من الطرفين ، أى فياى وفيدناى فى مواجهة العدو معاً قد جعلتهما تتحدان لمقاومة الاطماع الرومانية وحتى تؤمن فياى ملاحتها فى نهر التيبر للوصول إلى البحر .

وفى عام ٤٨٠ ق.م حاول الرومان وحدهم ، على ما يبدو ، الاستيلاء على فيدناى ولكنهم ردوا على أعقابهم خاسرين ونكبوا بهزيمة فادحة ، ولجأ الرومان إلى محاولة منع الاتصال بين المدينتين وذلك باحتلال طرق المواصلات التى تربط بين الطرفين ولكن رد فعل المدينتين الاترورتين هو الاغارة على روما وتخومها على مدى سنين ينهبون ضواحيها ويحرقون محاصيلها ويدمرون أملاكها لدرجة أن الرومان كان يستولى عليهم الذعر لمجرد أبسط إشاعة باقتراب أولئك فيهربون من بيوتهم مما كان يؤدى إلى تجدد القتال بينهما ، ولم يكن هناك سبيل للقضاء على هذه الاغارات المستمرة إلا تدمير روما لفياى ومن ثم فقد عقدت روما العزم على

تدمير خصمتها والقضاء على خطرها قضاءً تاماً فقامت الحـــروب بينـــهما ومـــن المعارك التى دارت بين الرومان وأهل فياى المعركة التى دارت رحاها فـــى عـــام ٤٣٧ ق.م فقد نجح القائد الرومانى كوسوس (C. Cussus) فى قتـــل تولومنيـــوس (Tolumnius) ملك فياى بعد وقوعه فى قبضته واجبرت روما فيـــاى علـــى عقـــد الهدنة لفترة من الوقت ، ولكن سياسة روما كانت تهدف فـــى المقـــام الأول إلـــى احتكار الملاحة على نهر التيبر فى مجراه الأسفل ، ومن ثـــم فقـــد انتـــهزت أول فرصة للقضاء التام على مدينة فياى وقد كان لها ما أرادت بعد معـــارك ضروســـة معها استمرت عشر سنوات (٤٠٥ – ٣٩٦ ق.م) وتقدم لنـــا الـــروايات معلومـــات وفيرة حول حصار روما للمدينة ، فقد قامت روما وحلفاؤها بحصارها الذى طـــال لعشر سنوات وذلك لمنعة حصونها ويخوتها ، ولتلقيها العون والمؤن من الفالســـكى من بعض المدن الاترورية ولعل عدم نهوض بقية الاتروريين لنجدتها هو تعرضـــهم لهجوم الغال . ووفقاً للروايات أنه أمـــام منعـــة المدينـــة أدرك القـــائد الرومـــانى كاميللوس أنـــه لن يستطيع الاستيلاء على هذا الحصن الحصين بالقتـــال إطلاقـــاً ، فلجأ إلى الحيلة ، فقد قام بحفر نفق تحت الأرض يصل بين معسكره وقلب المدينـــة فى سرية تامة ، واستطاع كاميللوس ونفر من اتباعه أن يصلوا مـــن خلالـــها إلـــى مركز المدينة حيث يكون المعبد ، وكان ملك فياى فى هذه اللحظـــة يقـــوم بتقديـــم الأضاحى متوسلاً إلى ربة المعبد أن تمنح بلاده النصر وصاح كاهن المعبد الواقـــف بجوار الملك وقال سيكتب النصر لمن يقدم الذبائح فـــوق المذبـــح ، وهنـــا أســـرع كاميللوس وصحبه بالخروج من النفق لاكمال الشعائر بتقديم الذبيحة ووضعها فـــوق المذبح ، وبعدها هاجم جنده أبواب المدينة واقتحموها ، ونـــهب الرومـــان المدينـــة وهدموها حجراً حجراً وقتلوا أهاليها وبيع من بقى منهم على قيد الحياة فـــى ســـوق النخاسة .

وكان من نتائج سقوط فياى وتدميرها سقوط عدة مـــدن اترورية جنوبية الواحدة تلو الأخرى فى يد روما واللاتين ، ولكن كـــان الرومـــان كرمـــاء معـــها فتركوها تتمتع باستقلالها المحلى فى إطار الدولة الرومانية ، كما حصلـــت رومـــا على نصيب الأسد بضمها إقليم فياى إليها وبذلك تضاعفت مساحة الإقليم الرومـــانى، وعموماً فقد صارت روما تسيطر بإحكام على وادى التيـــبر الأدنـــى ، واتروريـــا الجنوبية وسهل لاتيوم بأسره وجزء كبير من الأراضى الجبلية الواقعة إلى الشـــرق. كما كان من نتائج هذه الحروب على الرومان أن رومـــا أدخلـــت نظـــام مرتبـــات للمقاتلين فى أثناء حصارهم الطويل لفياى ، كما سمحت للأثرياء أصحـــاب الـــثروة المنقولة بالتطوع للخدمة فى الجيش على صهوات جيادهم الخاصة .

وقد ترتب على محاولة الفالسكى (Fallisci) ، وهم أقوام من ســـكان جبـــال الابنين نجده وتقديم العون لمدينة فياى أثناء حصارها اشتعال الحرب بينـــهم وبيـــن الرومان ، ووفقاً لبلوتارخ ، فقد تم انتخاب كاميللوس تربيونـــا عســـكرياً ، للجيـــش المتحرك لمحاصرة مدينة فاليرى الفالسكية القويـــة التحصيـــن ، وعندمـــا ضـــرب الرومان الحصار حولها لم يهتم الفاليرون بإقامة معسكر كاميللوس ، كما أنـــه لـــم يزعجهم أن يتولى كاميللوس قيادة الجيش الرومانى لأن مدينتهم حصينـــة وتمتنـــع على أقوى الجيوش وأكثرها عدداً ، واكتفوا بإقامة حراسة قوية على جدرانها ، ثـــم أخذوا يعملون ويلعبون كما يشتهون ، غير أنه كان هناك خائن بينهم وبخيانته حلـــت النكبة عليهم ، وكان الخائن معلماً ومربياً لابنائهم ، الذى غرر بالصبية وذهب بـــهم إلى معسكر الرومان ودار بينه وبين كاميللوس حواراً وقد خاطبه المعلم قائلاً : "لقـــد أحضرت لك أطفال الفاليريين ، وإن وجودهم فى قبضة يدك ليجعلك قـــادراً علـــى املاء الشروط التى تريدها نظير أن يضمنوا عودة أولادهم سالمين" ، بيد أن طبيعـــة كاميللوس النبيلة أبت عليه كسب النصر بهذه الطريقة الوضيعة وأمـــر ضباطـــه أن

يجردوا المدرس الخائن من ملابسه وأن يربطوا يديه خلف ظـــهره ، ثـم أعطـى الصبيان عصياً وأمرهم أن يضربوا أستاذهم ، وهم عـائدون بـه إلـى مدينتـهم ، وعندما شاهد آباؤهم هذا المشهد تعجبوا وعندما سألوا أولادهم حكوا لهم ما صنعـه كاميللوس ، فكان جوابهم هو إرسال مندوبين يعرضون عليه الصلـح وأن يسـلموا أنفسهم وأموالهم لأمره ، أرسل كاميللوس هؤلاء المندوبين إلى مجلس الشيوخ فـى روما ولما دخلوا إلى المجلس قالوا أن الرومان باثارتهم العدل على النصر علمونـا أن نؤثر الهزيمة على الحرية وهم يعلنون انتصار الرومان عليهم ولو أنـهم ليسـوا أقل منهم قدرة ، فردهم مجلس الشيوخ لعقد الصلح مع كاميللوس الذى لـم يطلـب منهم إلا مبلغاً بسيطاً من المال مع عقد محالفة حربية مع جميع الشعوب الفالسكية .

صراع روما وحلفائها مع الغال :

شهد شمال إيطاليا وشبه الجزيرة الإيطالية هجرة جديـدة أسـماها الرومـان بالهجرة الغالية ، وقد بدأت موجاتها تفد على شمال إيطاليا موجات تلو موجات مـن بلاد الغال "فرنسا" وكانوا قد بلغ عدد القبائل الغالية المهاجرة إلـى شـمال إيطاليـا ثمانى قبائل أهمها الأنسوبريس (Insubres) والكنومانى (Cenomanii) والبويـى (Boii) والسنونيس (Senones) .

كان الغال أحد الفروع الكلتية وكانوا طوال القامة حسـنى الوجـوه ، ولـم يكونوا شعباً مسالماً بل اشتهروا بحبهم للقتال ، فقد كانوا محاربين أشـداء يتسـمون بالشجاعة الخارقة إلى حد التهور ، ويحاربون وهم عراة الأجسـام إلا مـن تمـائم وسلاسل ذهبية ، كانوا ينقضون على خصومهم انقضاض الصاعقة مما كان يلقـى الرعب فى صفوف خصومهم ، ولكنهم كانوا يفتقرون إلى النظام ، وطـول النفـس

فى القتال ، وعدم الخبرة فى أساليب حصار المدن ، كما أن سيوفهم الطويلة ذات الحدين كانت مصنوعة من الحديد اللين السهل الثنى .

وكان لاستقرارهم فى شمال إيطاليا آثار بعيدة المدى على الإقليم وشبه الجزيرة الإيطالية ، فقد نتج عنه انحسار السيطرة الاترورية فى شمال إيطاليا وقصرها على سهل اتروريا ، كما اتخذ الغال من هذا الإقليم نقطة ارتكاز للوثوب والإغارة على سهل اتروريا واللاتيوم بغرض الحصول على الأسلاب والغنائم وعلى أراضى جديدة ، ويرى البعض أن سر توجه الغال إلى سهلى اتروريا واللاتيوم هو تذوقهم للنبيذ الإيطالى الذى سرهم مذاقه ، ومن ثم فقد اعتزموا أن يطلبوا الأرض التى تخرج تلك الفاكهة اللذيذة ، ولعل الرأى الأصدق من هذا أنهم أقبلوا على تلك البلاد طلباً للرعى وللاراضى الجديدة الخصيبة ، ويرجح هذا رواية بلوتارخ حول الحوار الذى دار بين ملك الغال برونوس محاصر مدينة كلوزيوم الاترورية وبين السفراء الرومان ، إذ بدأ السفراء حديثهم على النحو الآتى : "أى ذنب جناه الاتروريون ضدكم حتى جئتم تحاصرون مدينتهم وسخر من هذا القول الملك الغالى وأجاب أن ذنبهم فى نظرنا أنهم يريدون أن يمتلكوا وحدهم أراض شاسعة وهم لا يستطيعون سوى استغلال جانب صغير منها وأنهم يأبون اقتسامها معنا ونحن غرباء كثيرو العدد فقراء . . . الخ وقد بدأ الغال فى غزو أراضى الاتروريين حوالى عام ٤٠٠ ق.م ونهبها ، ولم تكن مقاومة الاتروريين للغال مقاومة شرسة لأنهم كانوا قد أرسلوا جنودهم إلى فياى ليصدوا الرومان عنها ، وعلى الرغم من انشغال الاتروريين فإن الغال لم يستطيعوا الاستيلاء على المدن الاترورية التى ردتهم أسوارها المنيعة ، ومع ذلك فقد استمروا فى شن غاراتهم على الأراضى الاترورية ، وقد وصلت إحدى غاراتهم إلى مدينة كلوزيوم الاتروريةومحاصرتها ، ومن ثم فقد طلبت النجدة من روما ، واستجاب مجلس

الشيوخ الرومانى عى الفور وأرسل الرومان سفراء يحملون تحذيـره إلـى الغـال الغزاة بأن المدينة حليفتهم ويجب عليهم الرحيل ، ولما رفض الملـك الغـالى هـذا التحذير حرض السفراء أهل كلوزيوم على القتال بل شاركوا فيه مما أثار حفيظـة الملك الغالى ، ففك حصاره على كلوزيوم ، وسار قاصداً الثأر والانتقام من رومـا ، دون أن يقوم بسلب المدن التى مر بها ، وكان الرومان قد استعدوا للقتـال والتقـى جيشهم بجيش الغال على بعد عدة أميال من روما على ضفاف نهر اليا أحد فـروع نهر التيبر ، ودارت الدائرة فى المعركة على الرومان وحلفائهم فى موقعـة اليـا ، واعتبر الرومان يوم وقوعها يوماً أسوداً فى التقويم الرومانى ، فقـد فـرق الغـال الجيش الرومانى واللاتينى شر مفرق ، فقتل منه من قتل وفر منه مـن فـر إلـى فيـاى ، وإلى روما ، والخطأ الذى وقع فيه الغال أنهم تمهلوا فـى تعقـب فلـول الجيش المهزوم إلى روما ودخولها على حين غرة ، فقد بقى الغال ثلاثة أيـام بعـد المعركة قبل دخول المدينة مما منح الرومان فى روما الفرصة لتدبـير أمورهـم ، ولإخلاء المدينة والاحتماء بقلعة الكابيتول عدا الشيوخ الذين آثروا البقاء فى المدينـة المفتوحة الأبواب ، وعندما دخلها الملك الغالى برونوس ووجـد أبوابـها مفتوحـة خالية تصور أن الأمر خدعة ، ولكنه اكتشف الحقيقة ، ودخلـها وجنـده وتجولـوا فيها، وكان أعضاء مجلس الشيوخ يجلسون فى حدائق وأبهاء بيوتهم ، وهـم فـى أبهة حللهم ، فبصرهم الغال آلهة ، وعندما حاول أن يعبث أحد الجنود الغال بلحيـة ماركوس بابيريوس فضربه ذلك الشيخ بعصاه العاجية وكان ذلك بمثابة الفتيل الـذى أشعل البارود ، فثارت ثائرة الغال وقتلوا الشيوخ عن آخرهم ، كما أنهم قاموا بقتـل كل من تقع عليه عيونهم ، وتقدر الرواية الرومانية عدد القتلى بثلاثمائـة وتسـعين بينما يقدرهم أرسطو بثلاثمائة وسبعة وثمانين وأخذوا يحرقون المنازل وينهبون مـا بها ، ثم حاصروا قلعة الكابيتول التى كان الرومان رابطى الجأش فيها إذ منعوهـم

من اقتحامها ، كما نجحوا فى فتح طريق يتلقون عبره الزاد والعتاد ، ونتيجة لطول فترة الحصار قسم الغال جيشهم قسمين احدهما لحصار روما والذى استمر قرابة سبعة شهور والآخر لنهب حقول وأراضى البلدات المجاورة ، وقد شجع كاميللوس أهل أرديا على الوقوف فى وجه الغال المخربين ، وكان فخوراً بها ، فقد انقض كاميللوس بجيش من الأردبيين وألحق بهم هزيمة مستخدماً الحيلة ومستغلاً حالة سكرهم الشديد ، ونتيجة لهذا النصر التحق به الرومان المحتمون بمدينة فياى ، وأما الحصار الغالى لقلعة الكابيتول قام مجلس الشيوخ بتعيين كاميللوس دكتاتوراً وذلك بغرض فك الحصار وانقاذ روما ، وقد حاول الغال مهاجمة القلعة عبر الطريق الذى سلكه الرسول لابلاغ كاميللوس بقرار الشيوخ ولكنهم ردوا على أعقابهم خاسرين ، فقد كشفت أصوات الأوز المقدس هجومهم مما أيقظ الحراس ونبههم إلى وجود المهاجمين فردوهم على أعقابهم خاسرين .

وتشير الروايات أن الرومان قد يأسوا من الحصار ، ودخلوا فى مفاوضات مع الغال الذين كانوا هم الآخرين قد حاق بهم المرض وحل بهم التعب ، واتفق الطرفان على أن تقدم روما فدية قدرها ألف رطل من الذهب لقاء رحيل وجلاء الغال ، لا يقبل المؤرخون المحدثون الروايات القديمة القائلة بأن الغال لجأوا إلى الغش فى الميزان واعتراض الرومان على ذلك ورد الملك الغالى على اعتراضهم بقوله : "الويل للمغلوب" ووصول كاميللوس بجيشه فى هذا الوقت ووقفه المفاوضات بوصفه دكتاتوراً لروما ، ورفضه تحرير روما بالفدية بقوله : "إن الرومان تعلموا من آبائهم أن يشتروا أوطانهم بالحديد لا بالذهب". وأنه طاردهم ، ويرى هؤلاء الباحثون أن هذه الروايات القديمة اخترعت اختراعاً اجابة لنعزفة الرومان الوطنية وكبريائهم . وأن الرومان فى الواقع قد دفعوا بالفعل الفدية حتى يرحل عنهم الغال ويفكوا حصارهم لمدينتهم .

لقد استفاد الرومان من هذا الدرس القاسى ، فقد أدركوا مدى حاجة مدينتهم إلى إقامة سور يصونها ويحميها من الغزاة ، ومن ثم فقد بنوا حولها سوراً حجرياً الاترورية ، كما أدخلوا تعديلات واسعة النطاق على نظام جيشهم فزادوا عدد مقاتليه من فرسان ومشاة كما أدخلوا تعديلات واسعة على طريقة تسليحه .

وإذا كان الغال قد غادروا أراضى الرومان والحلفاء إلا أنهم استمروا يمثلون خطر عليها باغاراتهم على أراضيها وأراضى حلفائها خلال الأربعين سنة التالية ، فقد أغاروا على أراضى روما فى عام ٣٦٧ ق.م ، ونهبوا وخربوا المدن التى مروا بها وأمام هذا الهجوم ، ومن ثم فقد قام مجلس الشيوخ بانتخاب كاميللوس دكتاتوراً ، وحتى يمكنه أن يواجه أساليب الغال القتالية ، فقد أمر بصنع خوذات مصقولة من الحديد حتى يتجنب سيوف الغال التى كانت تنهال بعنف على رؤوس الرومان واكتافهم ، وحتى ترتد السيوف فوق الحديد الأملس أو تتحطم ، كما أمر بتقوية الدروع المصنوعة من الخشب بأطواق من النحاس ، وكان الغال محملون بالاسلاب التى نهبوها وحطوا رحالهم بالقرب من نهر انيو ، والتقى كاميللوس وجيشه بالغال بالقرب من النهر ، واشتبك الطرفان فى قتال عنيف ، ودارت الدائرة على الغال بفضل التحسينات فى الأسلحة الرومانية ، واستولى كاميللوس على المعسكر الغالى ، وكان من ثمار هذا النصر كسر حاجز الخوف من الهجوم الغالى ، ووضع حداً لمخاوف الرومان منهم .

وتكشف لنا الروايات عن أن الغال قد أعادوا الكرة مرة أخرى سنة ٣٦١ ق.م فى اغارتهم وغزوهم لأراضى الرومان ، ونشبت بينهم وبين الرومان معركة عنيفة بالقرب من نهر انيو ، وكان الفضل فى النصر بمعركة فردية فتقدم من الرومان شاب مقدام اسمه تيتوس مانليوس (Titus Manlius) واشتبك فى مبارزة مع أحد العمالقة الغال ، ونجح البطل الرومانى فى التغلب عليه وأرداه قتيلا ،

بعدها انسحب الغال ، ولكنهم عادوا يزعجون الرومان مدة عام ونصف عام وفـــى ٣٥٨ ق.م نجح الرومان فى أن يهزموهم شر هزيمة لدرجة أنه من عاش منهم بعــد المعركة ، عد نفسه سعيداً لهروبه من قبضة الرومان .

ولكن ازاء الخطر الغالى على شبه الجزيرة بأجمعها فقـــد التفــت مصـــالح الرومان والسمنيين وعقدوا معاهدة تحالف ســـنة ٣٠٤ ق.م ولا يبعــد أن القــوات الرومانية وحليفاتها التى تصدت لإغارة الغال ٣٥٠ / ٣٤٩ ق.م كانت تضم قــوات من السمنيين وعلى ما يبدو فقد عاد الغال يخربون وينهبون أراضى رومـــا وتولـــى قيادة الجيش الرومانى نجل البطل كاميللوس والذى نجح فى تشتيت شـــمل الجيــش الغالى وبعد هذا الانتصار الرومانى ترك الغال روما دون ازعاج حتى آخر الحـوب السمنية الثانية سنة ٢٩٠ ق.م.

روما تسيطر على أواسط شبه الجزيرة :

تشير المصادر إلى أن الغال قد تركوا روما مخربة تخريباً مما حمل الكثـــير من الرومان أن يتمنوا لو استطاعوا أن يهجروها ويتخذوا مدينة فياى مقراً ومقامــاً لهم بدلاً منها ، ولكن البطل كـــاميللوس أثنـــاهم عـــن عزمـــهم ، وقدمــت الادارة الرومانية إلى الرومان ما يحتاجونه من المعونة لبناء منازلهم مرة أخـــرى ، وفـــى الوقت الذى كان الرومان يعيدون بناء مدينتهم ، كان عليهم مواجهة الأعـــداء مـــن حولهم ، فقد استغل الحلفاء والأعداء على حد سواء ظروفها فثـــار عليـــها الحلفـــاء ثورة فى إثر ثورة واستلزم اخضاع الحلفاء وقهر الأعـــداء خمســين عامـــاً مـــن الحروب المتقطعة التى خاضتها روما ضد أعدائـــها والثـــوار عليـــها متفرقيـــن أو مجتمعين ، ونجحت روما بعد جهد جهيد من أن تهزمهم جميعـــاً قـــوة وراء قـــوة

والقوى التى واجهتها روما وقاتلتــــها هــى : الاتروريــون واللاتيــن والايكــوى والهرنيكى والفولسكى .

أ- روما والاتروريون :

حاولت مدينتى فاليريي (Falerii) وتاركوينى (Tarquinii) استغلال النكبـــة التى حلت بروما ، وذلك بالاستيلاء على اقليم فياى الحليفة السابقة لـــهما ، والتـــى كان الرومان قد استولوا عليها ، ولكن روما الحقت بهما الهزيمة ودعمت ســيطرتها على المنطقة الجنوبية من سهل اتروريا وقام الرومان بتوزيع جزء مــــن أراضــــى هذه المنطقة على فقرائهم ، وكونت روما من هؤلاء أربع قبائل ريفية ، كما أنشــأت فى الجزء الباقى منها مستعمرتين هما سوتريوم (Sutrium) ، فى عـــام ٣٨٣ ق.م ونبتى (Nepete) بعد ذلك بعشر سنوات (٣٧٣ ق.م) ، ومع ذلك فإن الاتروريـيــــن لم يكفوا عن مناوشة الرومان فى المنطقة إلا فى عام ٣٥١ ق.م حيث أنهم هزمـــوا هزيمة فادحة ، فبعد احتلالهم مستعمرة سوتريوم ودخلوهــم لــها بعــد حصارهــا وطردهم سكانها بعد تجريدهم من ممتلكاتهم ، ولكن ما قـــام بــه الرومـــان بقيـــادة كاميللوس الذى كان قد فرغ من قتال الفولسكى والحاقه الهزيمة بهم ، من محاولـــة لفك حصار الاتروريين للمستعمرة فقد وجدوها قد ســقطت فـــى يــد الاتروريـيــن وطردوا أهلها منها ، فما كان من الرومان إلا أن هاجموا المستوطنة بغتة مســتغلين انشغال لاتروريين فى جمع الاسلاب والاحتفال بانتصارهم ، وكان من نتيجة هــــذا الهجوم استسلام الاتروريين للرومان واستعادة المستوطنة مــرة ثانيـــة ، وأجــبروا على عقد الصلح مع الرومان .

ب- روما وكل من الايكوى والفولسكى :

حاولت جماعات الايكوى شق عصا الطاعة مستغلة ظروف روما والاعتداء على أملاكها ، ولكن روما نجحت فى اخضاعهم ٣٨٠ ق.م ، كما نجحت فى وقف الهجمات التى كان يشنها الفولسكى لاسترداد جنوب لاتيوم والحفاظ على استقلالهم، وهم الآخرون كانوا قد استغلوا النكبة التى حلت بروما ، ولكن روما ردت على الهجمات الفولسكية بسلسلة من الهجمات والحملات المضادة انزلت خلالها الهزائم بهم ، وكان البطل كاميللوس بطلاً وقائداً للبعض منها ، فتروى المصادر أنه بينما كانت روما مشغولة فى إعادة بناء وترميم ما هدمه الغال ، عسكر الفولسكى على مسافة عشرين ميلاً من أبواب روما ، حتى يتسنى لهم مباغتة المدينة وهى غير مستعدة للقتال ، وردت روما على ذلك بتعبئة جيش فى الحال وسار لملاقاتهم ، بيد أن الفولسكى نجحوا فى محاصرته ولم يعد هذا الجيش قادراً على القتال أو التقهقر، ولما علم الرومان بذلك ، قام بانتخاب كاميللوس دكتاتوراً حتى يخلص الجيش من هذا المأزق ، وطلب كاميللوس من كل القادرين من الرومان على حمل السلاح أن يتبعوه ، وسار بالجيش إلى حيث يعسكر الجيشان ، وأمر باشعال النار حتى يعلم الجيش الرومانى المحاصر أن النجدة قريبة ، ثم قام بعد ذلك بإشعال النار فى المتاريس الخشبية لجيش الفولسكى ، هذا فضلاً عن أساليبه وخدعه العسكرية التى اتبعها وكان لها أثرها فى إجبار الفولسكى على الاستسلام .

وتشير الروايات إلى أن الفولسكى لم يكفوا عن التحرش بالرومان فقد هاجم الفولسكى والبرانيستنيس (Prienestines) أراضى الرومان ودارت بينهم وبين الرومان معركة على شواطئ نهر انيو (Anio) وكان على رأس الجيش تربيونان عسكريان أحدهما كاميللوس وكان قد بلغ من العمر عتياً وفى الجولة الأولى بين الجيشين كان كاميللوس مريضاً ودارت الدائرة فيه على الجيش الرومانى لتهور

لوكيوس فوريوس (Lucius Furius) ، بيد أن رباطة جأش كاميللوس واندفاعه فـي الوقت المناسب فى مطاردة الأعداء وتبعه من كان قد هرب من الجولــة الأولــى ، فأجبر الفولسكى وحلفاءهم على الفرار ، وفى اليوم التالى حمل كــاميللوس عليــهم حملة شعواء ولوا بعدها الأدبار إلى معسكرهم ، ولكن كاميللوس وجنده لحقوا بـــهم وانزلوا بهم هزيمة وعادوا بعدها إلى روما محملين بالغنائم .

وتشير المصادر إلى أن الرومان بعد هزيمتهم للفولسكى اقتطعوا جزءً كبـيراً من أراضيهم سنة ٣٥٨ ق.م ، وعمروه بمســتعمرتين رومــانيتين وكونــوا منــهم قبيلتين ريفيتين أخرتين ، بيد أن الروايات تشير إلى أن الفولسكى ظلوا على عدائــهم ورفضهم التحالف مع الرومان حتى سقطت مدينتهم الرئيسية انتيوم فى يد الرومــان فى عام ٣٣٨ ق.م

حـ- روما وحلفاؤها اللاتين :

بينما كانت روما مشتبكة فى حرب مع أعدائها الايكوى ، انتهز حلفاء رومــا السابقين الفرصة لتحدى روما والانشقاق عليها ، وفى عام ٣٨١ ق.م أعلنت مدينــة توسكولوم ، احدى مدن الحلف اللاتينى ، التمرد على روما فاختارت روما البطــل كاميللوس قائداً عاماً لجيشها لاخماد هذا التمرد وتخبرنا المصادر أنه سار بجيشـــه قاصداً تلك المدينة المتمردة ، وأن سكانها عندما علموا بأنه هو قائد الجيش أدركــوا أنه لا قبل لهم عليه وعلى قواته ، فندموا على ثورتهم وتمردهــم وألقــوا أســلحتهم وحتى لا يمنحوه الفرصة لقتالهم لجأوا إلى ممارسة حياتهم العادية فى زمن الســلم وكأن شيئاً لم يحدث ، وعندما وصل كاميللوس وجيشه للمدينة رحب أهلها وحكامــها بالرومان وأحسنوا استقبالهم ، عندئذ وعدهم كاميللوس أن يقف إلــى جانبــهم فــى

مجلس الشيوخ ، وكان المجلس فى غاية الرحمة فصفح عن المدينة وجعل سـكانها مواطنين رومان .

وتشير الروايات إلى أن أعضاء الحلف اللاتينى قد نقضوا تحالفهم مع رومـا مما أدى إلى اشتباكهم معها فى حرب ٣٧٦ ق.م انتهت بهزيمـة اللاتيـن هزيمـة منكرة ، واجبرتهم روما على التحالف معها مرة أخـرى ، ولكـن بعـض المـدن اللاتينية قامت بالخروج على الحلف والتمرد علـى رومـا بمـؤازرة الفولسـكى والهرنيكى مرة أخرى ، لكن روما تصدت لهم بثبات وعزم فهزمتهم وتمكنت فـى عام ٣٥٨ ق.م من أن ترغم هذه المدن وكذلك باقى المدن اللاتينيـة علـى تجديـد معاهدة كاسيوس ولكن انقصت روما امتيازات تلك المدن إذ لم يعد هناك تناوب فـى قيادة القوات المتحالفة، بل تقرر أن تكون القيادة للرومان دون غيرهم . ولكن هـذه المعاهدة لم توقف تذمر أعضاء الحلف وذلك لمسلك روما ، فقـد حـاول أعضـاء الحلف الخروج من الحلف والثورة على روما نتيجة لشـعورهم بضغطـها عليـهم واستغلالها لمواردهم دون أن يجنوا أى نفع من ذلك أو على الأقل كانت روما تفـوز بنصيب الأسد من كل انتصار تحرزه بمساعدة الحلف ، وخير مثال على ذلك أنـه بعد الحاق الهزيمة بالفولسكى سنة ٣٥٩ ق.م ضمت روما أغلب أراضيهم إليـها ، كما أن روما أخذت نتيجة للسيطرة التامة علـى علاقـات الحلـف مـع جيرانـه والتفاوض باسمـه ، فنجدها قد تحالفت مع السمنيين الذين كانوا ينزلون إلى الشـوق من إقليم لاتيوم بحجة أن هذا التحالف موجه ضد الغال ويروى لنا بوليبيـوس أنـه فى عام ٣٤٨ ق.م تفاوضت روما باسم الحلف مع قرطاجة أقوى دولة بحرية وقتئـذ فى غرب البحر المتوسط ووقعت معها معاهدة تعهدت فيها قرطاجـة ألا تتعـرض للمدن اللاتينية طالما بقيت على ولائها لروما ، بل تعهدت قرطاجة أكثر مـن ذلـك أن تعيد إلى سيطرة روما أى مدينة لاتينية تخرج عن طاعتها وذلك إذا سقطت فـى

يد قرطاجة ، وهكذا فإن هذه المعاهدة قد ضمنت للرومان السيطرة علـــى حلفائــها اللاتين ، وإلى جانب هذا ، اخذت روما توجه اهتمامها إلى الســيطرة علـــى اقليــم كمبانيا الذى كان يتمتع بعدة ميزات عسكرية هامة بالنسبة للرومان ، كما كان هـــذا الاقليم معروفاً بخصب أرضه وثرائه ، وبدأت بالفعل فى مد نفوذهـــا إليـــه عندمـــا طلبت كل من سيكينى وكابوا المدد والعون مما جعل روما تواجـــه ومعـــها مـــدن الحلف اللاتينى السمنيين وجهاً لوجه ، وتشتبك معهم فى حرب انتصرت فيها ، ثـــم تحالفت معهم ونزولها عن مدينة سيدكينى لهم مقابل ترك السمنيين كابوا للرومـــان ، وقد أدى اشتباك روما مع السمنيين ثم عقدها محالفة معهم بعد الحاق الهزيمة بـــهم خـــارج اقليم اللاتين إلى زيادة شعور اللاتين بأن روما تريـــد الســيطرة والهيمنـــة عليهم ، وذلك لأنهم لم يفهموا ماذا تريد روما ، كما أن مسلك روما لم ترض عنـــه المدن الكمبانية وذلك بتخليها عن سيدكينى .

وأمام كل هذه الملابسات والظروف فقد تذمرت المدن الأعضاء فى الحلـــف واخذت تطالب روما بمنحها الحقوق السياسية العامـــة (Jura Publica) والحقـــوق الخاصة (Jura Private) ، أى منحهم الحقوق الكاملة للمواطنيـــن الرومـــان، وأن يكون أحد القنصلين منهم ، وكذلك نصف أعضاء مجلس الشيوخ ، وأن يعتبر ســهل لاتيوم وروما جمهورية واحدة . ولم تقبل روما بهذه المطالب ورفضتـــها ممـــا أدى إلى إعلان راية العصيان والثورة على روما ، وتحالفت المدن اللاتينية مـــع مـــدن سهل كمبانيا الحليفة لروما ، وقامت الحرب بين الطرفيـــن فـــى عـــام ٣٤٠ ق.م ، والتى استمرت ثلاث سنوات ودارت بينهم عدة معارك فقـــد دارت بينـــهم معركـــة بالقرب من سهل كابوا بجنوب إيطاليا ، وكان النصر حليفـــاً لـــروم ، كمـــا دارت معركة أخرى بالقرب من جبل فيزوفيوس (Vesuvius) وكان النصر سجالاً ولـــكن الغلبة كانت لروما فى النهاية ، وعموماً فقد نجح الرومان فى إلحاق الهزيمة بـــالمدن

اللاتينية المتمردة فى عام ٣٣٨ ق.م ، وأجبرتها على الدخول معها كل منها على حدة بشروطها ، فقامت روما بدمج وضم خمساً من مدن الحلف دمجاً كلياً معها ، وصار مواطنو هذه المدن مواطنين رومان كاملى الأهلية ، كما أن روما دخلت مع باقى مدن الحلف المنحل فى معاهدات منفردة ، فحرمت على المدن ما كانت تتمتع به فيما بينها من قبل من حقوق خاصة "حق المصاهرة والمتاجرة" واتبعت معهم سياسة فرّق تسد ، وقصرت هذا الحق على مواطنى الرومان ومواطنى كل مدينة على حدة . وبعبارة أخرى فقد منحت روما مواطنى هذه المدن الحقوق الخاصة الرومانية ، كما أن روما اشترطت على هذه المدن ألا تؤلف حلفاً دينياً جديداً فيما بينها ، وقبلت المدن اللاتينية هذه الشروط الجديدة ، كما قبلت تقديم العون العسكرى لروما ، وفى الحقيقة فقد سيطرت روما وفقاً لهذا الشرط على كل الإمكانات العسكرية فى سهل لاتيوم وأصبح اللاتين يخدمون فى القوات المساعدة فى الجيش الرومانى وذلك بوصفهم حلفاء وإن كانوا يفعلون ذلك بوصفهم رعايا فى حقيقة الأمر ، أما عن مواطنى المدن الخمس الذين حصلوا على الحقوق الرومانية كاملة فقد خدموا فى الفرق الرومانية بوصفهم رومان . ولكى تضمن روما هذه الشروط فقد سعت إلى قطع اتصال سهل لاتيوم بالعالم الخارجى فقد أنشأت على شاطئ هذا الإقليم عدة مستوطنات لم يسمحوا بالإقامة فيها لأى مواطن من مواطنى المدن اللاتينية ومعنى ذلك أن سياسة الرومان تجاه اللاتين أصبح قوامها عزل المدن اللاتينية عن بعضها بعضاً ، وكذلك عن العالم الخارجى مع ربط كل مدينة من هذه المدن بروما نفسها . ولما كان خوف مدن كمبانيا من السمنيين الجبليين هو الذى دفعها للتحالف مع الحلف اللاتينى ، إلا أن روما سعت لإقناع تلك المدن بنقض التحالف المعقود مع الحلف اللاتينى ، والدخول فى حلف معها وتتولى روما بمقتضاه الدفاع عنها وبحيث تكون تلك المدن جزءاً من الدولة

الرومانية ومنح مواطنيها الحقوق الرومانيـــة المدنيـــة الخاصـــة (Civitas Sine Suffgio) ، وبالرغم من عدم منحهم الحقوق السياسية إلا أنهم كانوا مـــن الناحيـــة العسكرية مواطنين يخدمون فى الفرق الأساسية ، كما سمحت لهم رومـــا بالحفـــاظ على نظمهم المحلية ودساتيرهم إلا إذا رغبوا أن يستبدلوها وكان من بين تلك المـــدن مدينة كابوا وكوماى ، وفى أعقاب الحرب مع اللاتين دعم الرومان مواصلاتهم مـــع كمبانيا بطرد الفولسكى من وادى نهر ليريس وإنشاء مستعمرتى كـــاليس (Cales) وفرجيلاى (Fregellae) فى موقعين استراتيجيين أولاهمـــا فـــى عـــام ٣٢٤ ق.م وثانيتهما فى عام ٣٢٨ ق.م .

حروب روما وحلفائها مع السمنيين :

كان لانتصارات الرومان وحلفائهم على كل من الايكوى والفولسكى نتيجـــة مؤداها أن الرومان والسمنيين وقفوا وجهاً لوجه ، وكان السمنيون يقطنون المنطقـــة الوسطى من جبال الابنين ويعيشون حياة قبلية ويرعون قطعان الماشـــية والأغنـــام ويزرعون المساحات الضيقة من أراضـــى اقليمـــهم الجبلـــى ، وكـــانوا يتكلمـــون الاوسكانية (Oscan) ، وعرفوا بالسابين واســـماهم الكتّـــاب اليونـــان والرومـــان بالسمنيين (Samnites) وهى التسمية التى غطت على تسميتهم الأصلية .

وبعد أن تزايدت أعدادهم فقد كان عليهم الهجرة فى جماعات تلو جماعـات لا رابط بينها ولا تنظيم إلى السهول الغربية والشرقية فـــى جنـــوب شـــبه الجزيـــرة الإيطالية ، فقد استولوا على معظم المستوطنات الاترورية واليونانية فـــى الســـهول الغربية ، ففى حوالى ٤٣٨ ق.م استولت جماعات منهم على مدينة كـــابو وبعـــض المدن الصغرى المجاورة ، وفى حوالى عام ٤٢٨ ق.م استولت جماعـــات أخـــرى منهم على مناطق فى الجزء الجنوبى الشرقى واستولت على كثير من الأراضى فيـــه

ووصلت إلى الطرف الشمالى لرأس جرجانوس (Garganus) ولم يوقف زحف هجراتها إلا كل من مواطنى أبولبا وتارنتم ولم يواف القرن الرابع منتصفه حتى كان الجزء الأكبر من جنوب شبه الجزيرة قد وقع فى قبضة السمنيين ، وكما قلنا أن توسعهم قد آتى من خلال جماعات منفصلة ومن ثم لم تكن هجراتهم منظمة ، فكانت تنقطع صلة المهاجرين بمنازلهم الأصلية ، ومن ثم فإن هذا التوسع لم يؤد إلى قيام قوة كبيرة موحدة منهم وإنما قيام قوى صغيرة منفصلة عن بعضها البعض ولا رابط بينها من جهة ولا مواطنها الأصلية من جهة أخرى ، حيث ظلت عدة قبائل شديدة البأس والمراس أطلق عليها السمنيون ، ونلاحظ أن الجماعات السمنية التى هاجرت إلى السهول الغربية والشرقية وحلت بها قد تشربت الحضارتين الاترورية واليونانية ، وعاشت عيشة متحضرة بينما من بقى منهم فى منازلهم الأصلية على حياتهم الأصلية ظلوا الجبلية مع الأخذ ببعض أساليب الحضارة اليونانية ، وهكذا انقطعت صلة الجماعات المهاجرة بمواطنها الأم ، وأمام هذا الموقف فقد تصادمت الجماعات السمنية المتحضرة وغير المتحضرة فيما بينها وشكلت الجماعات الجبلية غير المتحضرة مصدر خطر داهم على الجماعات المتحضرة منهم وأما خطر هجمات الجماعات الأولى اتجهت الجماعات الثانية إلى طلب العون والمدد من روما لتى أصبحت بعد نهاية حروبها العديدة أقوى قوة عسكرية وسياسية منظمة فى إيطاليا .

وعلى الرغم من أن الرومان كانوا يدركون أن السمنيين كانوا السبب فى اشعال الحروب بينهم وبين الفولسكى وذلك بضغطهم عليهم ومحاولة اخراجهم من أراضيهم إلا أن الأمور توضح أن العلاقات بين الرومان والسمنيين كانت ودية فقد عقدوا معاهدة فى عام ٣٥٤ ق.م وربما كان السبب وراء عقدها هو الخطر الداهم على كلا الفريقين من الغال ، ويرجح البعض أنه وفقا لهذه المعاهدة فقد شاركت

وحدة عسكرية سمنية مع الجيش الرومانى فى محاربة الغال فى عـــام ٣٤٩ ق.م .
ولكن تكشف لنا الأحداث أنه بزوال وانحسار الخطر الغالى تصـــادمت وتضـــاربت مصالح الطرفين حول السيطرة على جنوب شبه الجزيـــرة الإيطاليـــة ، فقـد بـدأ الرومان يتنافسون مع السمنيين على ضم مدن سهل كمبانيا وذلك بغـــرض تـأمين سهل لاتيوم ، ومن ثم فقد نقضت روما معاهدة عام ٣٥٤ ق.م وحدث ذلك عندمـــا لبت روما طلب بعض مدن سهل كمبانيا النجدة والعون منها أمام تـــهديد الســـمنيين لهم ، وقد أدى هذا التدخل إلى إشعال سلسلة من الحروب المباشرة مع الســـمنيين ، ويختلف المؤرخون المحدثون فيما بينهم حول عدد الجولات الحربية بين الطرفيـن ، فيرى فريق منهم أنها جولتان حربيتان بينما يرى فريق آخر أنها ثـلاث جـولات .
ولعل السبب فى هذا الاختلاف هو المعلومات المضطربـــة الـــوارد ذكرهـا فـى المصادر القديمة ، فبينما يذكر ليفى أحداث الحرب السمنية الأولى قد بدأت فى عـام ٣٤٢ ق.م نجد أن ديودورس الصقلى يغفلها ويبدأ الحروب بالحرب الواقعـــة ٣٢٦ ق.م . وقد اعتمد أصحاب الرأى الأول على تبنى الأخبار الواردة عند ديـــودورس واعتبار التفاصيل التى يرويها ليفى تطابق تماماً الأحداث التى وقعت فى الحـــروب السمنية الثانية ، وأنه من غير المعقول أن يجازف الرومان بالاشتباك مع الســـمنيين فى الوقت الذى بدأت فيه نذر القلق والاضطراب بين اللاتيـــن ، ومـــن ثـم فإنـــهم يعتقدون أنه لم يحدث اشتباك مسلح بين الرومان والســـمنيين إلا منـــذ عشـــرينيات القرن الرابع ق.م ، والسبب فى ذلك أن السمنيين كانوا منهمكين فى حربـــهم ضـــد تارنتم ٣٣٤ - ٣٣١ ق.م ومن ثم لم يردوا على قبول روما التحالف فـــى ٣٣٨ ق.م مع مدن سهل كمبانيا التى شعرت بخطر السمنيين ، ويرون أن السمنيين لم يشـتبكوا مع روما فى حرب إلا بعد فراغهم من حربهم مع تارنتم التـــى كـــانت قـــد تلقـت النجدات من الاسكندر ملك ابيروس ، ويرى هذا الفريق أن السمنيين قـــد توجـــهوا

إلى مدن سهل كمبانيا بعد الفراغ من صراعهم مع تارنتم مما كان ينذر بالاشـــتباك مع الرومان الذين كانوا قد أثاروا نقمة السمنيين بثلاث تصرفات هى : أولاً ادمـــاج مدن كمبانيا فى دولتهم حوالى ٣٣٨ ق.م ، ثانياً : أن الرومان تحالفوا مـــع مدينـــة تارنتم ٣٣٤ ق.م حين كانت تحارب السمنيين على ألا تقدم روما مساعدة لحلفائـــها السمنيين فى حربهم معها ، ثالثاً : أنه كان من شـــأن المســتعمرتين اللتيـــن أقـــام الرومان أحدهما فى عام ٣٢٤ ق.م عند كالس على حدود كمبانيا ، وأقاموا الأخـــرى فى عام ٣٢٨ ق.م عند فرجيلاى فى وادى نهر ليريس أن تقفا حجر عثرة فى وجـــه زحف السمنيين على كمبانيا . ومن ثم فقد وقعت الجولة الأولى بينـــهما فـــى عـــام ٣٢٦ ق.م . بينما يرى الفريق الآخر أن رأى ليفى صحيح حول تـــاريخ الحـــرب السمنية الأولى ، ولكن يختلفون معه فى الفترة التـــى اســتغرقتها ، ويـــرون أنـــها اشتعلت فى الفترة ما بين ٣٤٣ - ٣٤١ ق.م ، ويـــرون أن ســـبب اشـــتعالها هـــو مهاجمة السمنيين لمدينة سيدكينى الواقعة جنوب مدينة كابوا وطلب الأخير النجـــدة من روما وأن روما بمساعدة حلفائها اللاتين قد نجحت فى هزيمة السمنيين وانقـــاذ كابوا منهم ، وأن الظروف قد ساعدت روما فى جعـــل الســـمنيين يعقـــدون معـــها معاهدة حيث أنهم كانوا مشتبكين فى حرب مع تارنتم ، واستعانة الأخـــيرة بـــالملك الاسبرطى اراخيداموس ٣٤٣ / ٣٤٢ ق.م والذى ظل يحارب فى إيطاليا حتى عـــام ٣٣٨ ق.م مما دفع السمنيين إلى عقد الصلح مع رومـــا علـــى أســـاس أن يحتـــل السمنيون منطقة سيدكينى ويتحالف الرومان مع كابوا وكان ذلك فى عـــام ٣٤١ق.م، وهكذا فإن الرومان قد خاضوا ثلاث جولات من الحرب مع السمنيين ، وأمام هـــذا الاختلاف حول عدد جولات الحرب ما هـــو الـــرأى الأقـــرب إلـــى الصـــواب ؟ باستعراض كلا الرأيين نميل إلى الأخذ بالرأى الثانى وذلك للأســـباب الآتيـــة : أن السمنيين لم يهددوا مدن الجنوب فحسب ابوليا وتارنتم بل من المؤكد أنـــهم هـــددوا

أيضاً مدن سهل كمبانيا مما دفع الأخيرة إلى طلب عون روما والتحالف معــها وأن الأخيرة قد وجدت فرصتها لمنع توسع السمنيين الجبليين ووصولهم إلــى حدودهــا الجنوبية مما قد يعنى اشتعال الحرب بينهما لا محالــة ، كمــا أن تحالفــها معــها سيمنحها عمقاً دفاعياً ويضيف إليها قوة جديدة فى صراعها المتوقــع والقــادم مــع السمنيين ، وكما ذكرنا سابقاً لقد عانت روما وحلفاؤها من جراء ضغــط الســمنيين على شعوب الفولسكى ودفعهم أمامهم كان يسبب الصــدام والحــرب مــع رومــا وحلفائها . كما أن القول بأن توسع السمنيين فى الجنوب واشــتباكهم فــى حــرب المدينة اليونانية تارنتم وطلبها النجدات من الخارج (بلاد اليونان الأم) قد دفع مــدن سهل كمبانيا إلى عقد تحالف مع روما ، وأن السمنيين لم يردوا على هذا التصــرف لانهماكهم فى حربهم مع تارنتم يمكن الرد عليه بأن السمنيين لم يضغطوا على مــدن الجنوب فحسب بل هددوا مدن سهل كمبانيا فى نفس الوقت ، وأن الروايــة القائلــة بتهديد مدينة سيدكينى وطلب كابوا النجدة من روما صحيحة ، وخير شــاهد علــى هذا ، ولعل ما دفع السمنيين إلى تأجيل وقف القتال فى هــذه الجبهــة مــع رومــا والحلف اللاتينى ومدن سهل كمبانيا هو أنهم رأوا أن لا قبل لهم على خوض غمــار حربين فى آن واحد مع قوتين كبيرتين لا قبل لهم علــى مواجهتــهما . فقصــارى القول أن تاريخ بدء الصراع والحرب أى الحرب الأولى مع السمنيين يعــود إلــى عام ٣٤٣ ق.م وليس إلى عشرينيات القرن الرابع ق.م ، وإن كنا لا نعــرف عنــها إلا النذر اليسير وكل ما نعرفه عنها أنها دامت ثلاث سنوات وأن الرومان انتصــروا فى ثلاث معارك .

الحرب السمنية الثانية (٣٦٧-٣٠٤ق.م) :

بعد أن نجحت روما فى أن تقتضى على التمرد بين مدن الحلـــف اللاتينـــى ودمجها لبعض مدنه وإعادة التحالف مع بقية مدنه الأخرى وفقاً لشروط جديدة عـــام ٣٣٨ ق.م وإعادة مدن سهل كمبانيا إلى التحالف معها تحت الضغط والخوف مـــن الخطر السمنى ، كما أن موقف روما وعقدها معاهدة مع تارنتم فى عـــام ٣٣٤ ق.م التى نصت على عدم تقديم العون العسكرى للسمنيين ، قد زاد مـــن نـــذر الحـــرب بينهم وبين السمنيين كما أن انشاء روما لمستعمرتين أولاها عند كـــالس عـــام ٣٢٨ ق.م وثانيتها عند فرجيلاى عام ٣٢٦ ق.م قد جعل السمنيين ينظرون بعيـــن الشـــك لنوايا الرومان. وعندما عقد السمنيون معاهدة صلح مع تارنتم وجهوا اهتمامهم إلـــى كمبانيا، وتشير الأحداث إلى أنهم حاولوا الاستفادة من الصراع الحزبى فى مدينـــة نيابوليس اليونانية سنة ٣٢٧ ق.م ، وسارعوا إلى نجدة أحد الحزبين المتنـــازعين ، ووضعوا حامية لهم فى المدينة ، وكان لهذا التدخل أثره إذ طلبت كابوا من رومـــا التدخل لطرد السمنيين منها ، ولبى الرومان طلـــب حليفتـــهم وحـــاصروا مدينـــة نيابوليس ونجحوا فى طرد السمنيين منها وأصبحت حليفة لروما ، كما قام الرومـــان بالاستيلاء على كل من روفويوم (Rufrium) واليفاى (Allifae) الواقعتيـــن علـــى حدود سامنيوم ، مما عجل بحدوث الصدام بين الرومان والســـمنيين ، وقـــد نجـــح للرومان فى السنين الأولى من الحرب فى احراز بعض الانتصارات ونجحوا فـــى تطويق السمنيين من الشمال بمحالفتهم لكل مـــن المارســـى (Mărse) والبـــايلجنى (Paeligni) ومن الجنوب الشرقى بمحالفة أبوليا ، ولكن حلت بهم نكبة فـــى عـــام ٣٢١ ق.م عندما انهزم جيشهم فـــى شـــعاب كايدينـــاى (Forculae Cudinae) ، الواقعة بين مدينتى كابوا وبينفيتوم حيث وقع فى كمين نصبه له الجيـــش الســـمنى بقيادة بونتيوس ترتب عليه حصاره وأرغم السمنيون الجيش الرومانى على التســـليم

ولم يفك أسره إلا بعد أن عقد القنصلان معاهدة صلح مع السمنيين يتعهدا فيها بالنزول لهم عن فرجيلاى وغيرها من المستعمرات فى إقليم كمبانيا وغيرها من الأراضى التى استولى عليها الرومان من السمنيين ، وعقد معاهدة يقر كل منهما باستقلال الآخر ، وأن يسلم الجنود الرومان أسلحتهم على أن يحتفظوا بملابسهم فقط وعلى أن يمروا أمام جيش السمنيين كأسرى وأقسم القنصلان على مراعاة المعاهدة ، ولكن عندما عادا إلى روما لم يوافق مجلس الشيوخ على شروط هذه المعاهدة ، فما كان من القنصلين إلا أن عادا إلى القائد السمنى وسلما نفسيهما إليه الذى مزقهما إرباً .

وتشير الروايات إلى أن القنصل بابيريوس كورسور (Paprius Cursor) قد سار إلى ابوليا واستولى على لوكيريا بعد معركة كبيرة مع السمنيين وأجبرهم على المرور تحت النير ، وكان حاكم المدينة هو القائد السمنى بونتيوس الذى كان قد ألحق من قبل الهزيمة بالجيش الرومانى ، ومع ذلك تشير الروايات إلى أن الحرب كانت سجالاً بين الطرفين ، ففى عام ٣١٥ ق.م دارت الحرب بين الفريقين ، واستولى السمنيون فيها على تاراكينا (Taracina) وعندما حاول الرومان استعادة المدينة لقوا هزيمة منكرة عند لاوتولاى (Lautulae) فى جنوب لاتيوم بالقرب من تاراكينا ، وقد ترتب على هذه الهزيمة أن هجرت مدن كمبانيا نفسها ، ومنها مدينة كابوا ، جانب الرومان وانضموا للسمنيين بيد أن الرومان تمكنوا فى السنة التالية ٣١٤ ق.م من طرد السمنيين من تاراكينا بعد أن ألحقوا بهم هزيمة منكرة مما جعل كابوا تستسلم للرومان ومن ثم أضحى سهل كمبانيا كله فى يد الرومان ، ولكى يحمى الرومان أملاكهم أرسلوا مستوطنين إلى (Ponza) وهى جزيرة تقع بقرب السواحل الكمبانية واللاتينية وفى العامين التاليين دعم الرومان مواقفهم فى وادى نهر ليريس بمواقع أمامية جديدة ، كما ثبتوا أقدامهم فى ابوليا بالاستيلاء على قلعة

سمينة تدعى لوكريا (Lucrria) وإقامة مستوطنة فى موقعها ، وفضلاً عـــن ذلــك أنشأوا شهر طرقهم العامة المعبدة وهو طريق أبيــوس كلوديــوس (Via Appia) الذى سهل سبل الاتصال فى كل فصول السنة فيما بين روما وتاراكينـــا وكـــابوا . كما قام الرومان فى هذه الفترة ببناء سفن حربية لحماية أراضيهم .

وأمام الانتصارات الرومانية السالفة لجأ الســـمنيون إلـــى الدهـــاء والحيلـــة لتخفيف الضغط الرومانى عليهم ومن ثم فقد حرضوا مدينتى فـــاليرى وتـــاركوينى الاتروريتين خاصة بعد انتهاء مدة معاهدة الصلح بينهما من جهة وبين رومـــا مـــن جهة أخرى سنة ٣١١ ق.م ، كما حرضوا أيضاً كل المدن الاترورية على مهاجمـــة الإقليم الرومانى فى جنوب اتروريا ، كما أنهم قاموا فى عام ٣١٠ ق.م بتحريـــض كل من الهرنيكى والايكوى والبايلجيى على نقض تحالفهم مع الرومان والانقضـــاض عليهم ، وأمام هذه الأحوال أجبر الرومان على تقسيم قواتهم وهكـــذا فقـــد نجحـــت خطة السمنيين ، فقد ركز الرومان خطتهم (٣١٠ – ٣٠٨ ق.م) على القضاء علـــى الخطر الاتروري ، ففى عام ٣١٠ ق.م توجـــه القنصـــلان فـــابيوس ومـــاركيوس بجيشين لانقاذ مدينة سوتريوم (Sutrium) التى كان الاتروريون يحاصرونها منـــذ عام ٣١١ ق.م ونجحا فى حصار الاتروريين المحاصرين للمدينة ولكـــن اضطـــر القنصل ماركيوس إلى التوجه لقتال السمنيين الذين كانوا يسلبون حلفاء رومـــا فـــى مدينة ابوليا ، وبقى فابيوس يحاصر الاتروريين والحق بهم الهزيمة ورفع الحصـــار عن المدينة واستولى على معسكرهم . وبعد ذلك فقـــد ركـــز الرومـــان ضرباتـــهم الخاطفة ضربة وراء ضربة للمدينتين الاتروريتين مدينة فى أثر مدينـــة ، وهكـــذا أجبرتهما روما على عقد الصلح ، كما أجبرت عصبة المدن الاترورية علـــى عقـــد هدنة تتجدد سنوياً لمدة عشرين عاماً . وفى نفس الوقت نجح الرومان فـــى إجبـــار الهرنيكى والايكوى والبايلجيى على التسليم لهم ، وقد عاقبت روما هـــذه الشـــعوب

بضم جزء من أراضيها إلى الدولة الرومانية ، وأقاموا على جانب منها مستعمرات عسكرية رومانية ووزعوا باقيها على المواطنين الرومان الراغبين في الاستقرار هناك حيث أنشأوا قبائل ريفية جديدة ، ولكنهم منحوا المدن الواقعة في الأجزاء التى ضموها الحقوق الرومانية الخاصة .

بعد ذلك تحول الرومان بجهودهم العسكرية وقوتهم الضاربة ضد السمنيين بقيادة الدكتاتور بابيريوس وألحقوا بهم عدة هزائم قلم بها الرومان أظافرهم واقتطعوا منهم بعض أقاليم الحدود وخاصة مناطق السهول والمراعى وحرمانهم منها وحصرهم فى الجبال ، فما وافى عام ٣٠٤ ق.م حتى اضطر السمنيون على طلب الصلح من الرومان وقد دعم الرومان انتصارتهم ومكاسبهم الاقليمية فى أبوليا ووسط شبه الجزيرة بثلاث وسائل : أولاها : بإقامة عدد من المستعمرات والاستحكامات العسكرية ، هذا فضلاً عن انشاء مستعمرة فنوسيا العسكرية القوية على الحدود بين سامنيوم ولوكانيا ، وثانيتها : عقد الرومان مخالفات عسكرية مع الشعوب المجاورة مثل المارسى والماروكانى (Marucani) والفرنتانى (Frentani) ... الخ وثالثتها :تعلم الرومان خلال حروبهم الطويلة مع السمنيين أساليب عسكرية جديدة لحرب الجبال اعانتهم على مواجهة السمنيين وهى التى ستعينهم فى حربهم الثالثة معهم .

الحرب السمنية الثالثة (٢٩٨ – ٢٩٠ ق.م) :

دخل الرومان هذه الحرب وهم أرجح كفة من السمنيين ، وقد بدأت هذه الحرب بعد ست سنوات من عقد الصلح السابق سنة ٣٠٤ ق.م . فقد نقض الرومان هذا الصلح بتدخلهم إلى جانب فريق من اللوكانى لطرد السمنيين من لوكانيا ، وقد حاول السمنيون ، بقيادة جيللوس ايجناتوس (Gelluis Egnatus)

وكان سياسياً حكيماً ، تكوين جبهة قوية من السابينى والسنونس الغال ومن بعض المدن الاترورية ، وقد نجح السمنيون وحلفاؤهم فى البداية فى تحقيق بعض الانتصارات ، بيد أن روما وحلفاءها قد الحقت بهم هزيمة قاسية سنة ٢٩٥ ق.م عند سنتيوم (Sentium) فى إقليم أومبريا ، وفقد الرومان قائدهم فى هذه المعركة ، وبعد هذه المعركة ركز الرومان ضغطهم على المدن الاترورية التى شقت عصا الطاعة عليها وارغمتها على عقد الصلح معها ، ثم تفرغوا بعدها لمحاربة السمنيين ففى سنة ٢٩٣ ق.م وقعت معركة اكويلونيا (Aquilonia) بينهما ، وكان السمنيون قد أقسموا على إما الانتصار أو الموت فيها وكان النصر حليفاً للرومان وحلفائهم وأجبروا السمنيين على طلب الصلح بعدها ، بيد أن حرباً جديدة قد نشبت بينهما فى عام ٢٩٠ ق.م وحاول السمنيون رشوة القنصل الرومانى دنيتاتوس بالذهب ، وكان رده أنه لا يعتبر اقتناء الذهب شيئاً عظيماً ، ولكنه لا يهتم إلا بأن يحكم أولئك الذين يملكون الذهب ، وحلت بالسمنيين هزيمة نكراء أجبروا بعدها على عقد صلح نهائى مع الرومان وكان من شروط الرومان أن ينزل السمنيون لهم عن جزء من إقليمهم ويصبحوا حلفاؤهم .

عندئذ وجه الرومان قوتهم العسكرية إلى السابينى وصفوا معهم حسابهم دون عناء وضموا اقليمهم إليهم ومنحوا مواطنيهم حقوق المواطنة الرومانية الخاصة . بقى بعد ذلك على روما أن تواجه خطر الغال ومحاولة القضاء عليه فقد شكل السنونس الغال خطراً ولبضع سنين على الرومان وحلفائهم ، فقد أغار الغال على اتروريا وحاصروا مدينة ارتيوم (Arretiun) فى عام ٢٨٤ ق.م ، وهبت روما لنجدتها بيد أن النجدة التى أرسلتها روما منيت بهزيمة قاسية نتج عنها أن بعض المدن الاترورية الحليفة لروما نقضت تحالفها مع روما ، بيد أن الرومان قد نجحوا فى الحاق الهزيمة بالسنونس فى عقر دارهم وخربوا أراضيهم وأنشأوا مستوطنة

سنا الغالية (Sena - Gallica) على الشريط الساحلى ، ولكن فرعاً آخر من الغال وهم البويبى قد أغار على اتروريا فى عام ٢٨٣ ق.م وجمعوا حولهم قوات اترورية وزحفوا على روما ، غير أن الرومان الحقوا بهم هزيمة قاسية على بعد ثمانية كيلومترات من روما ، بيد أن الغال البويبى قد عاودوا الهجوم والإغارة فى العام التالى ٢٨٢ ق.م ولكنهم لم يحققوا نجاحاً ، ومن ثم فقد طلبوا عقد الصلح مع الرومان واستجاب الرومان لهذا الطلب ولكن بشروط ليست قاسية ، وتشير الروايات إلى أن المدن الاترورية قد استمرت فى صراعها مع الرومان إلى أن اضطرتهم روما إلى التسليم ٢٨٠ ق.م ، ووافق الرومان على محالفتهم بشروط سخية ، وذلك لأنهم كانوا قد بدأوا الاشتباك فى الجبهة الجنوبية بشبه الجزيرة الإيطالية .

حرب روما والمدن اليونانية فى جنوب إيطاليا :

ما كادت روما تنتهى من حربها مع السمنيين حتى بدأت تنخرط فى الصراع الطويل بين الشعوب الإيطالية "المارسى والبيوكيتى واللوكانى والبروتيى) والمدن اليونانية فى الجنوب ، فقد حاولت المدن اليونانية رد عدوان تلك الشعوب وكانت تارنتم تتزعم تلك المدن والتى اضطرت إلى طلب النجدة من بنى جلدتهم اليونان فى أسبرطة وابيروس وسيراكوز بين الحين والآخر ، وتشير الروايات إلى أن الملك الاسبرطى ارخيداموس قد لبى نداء تارنتم واستغاثتها بطلب النجدة فى أثناء اشتباكها وحربها على كل من السمنيين واللوكانى وخر صريعاً فى قتاله مع اللوكانى فى عام ٣٣٨ ق.م ، كما أن تارنتم قد طلبت النجدة من الاسكندر ملك ابيروس فى حربها مع السمنيين واللوكانى ، وإذا كان الاسكندر قد نجح فى وقف الخطر السمنى عليها إلا أن اللوكانى قد قتلوه بعد أن تخلت عنه تارنتم بعد أن

تكشفت نواياه بإقامة امبراطورية له فى جنوب إيطاليا . وعندما اعتــدى اللوكــانى على المدن اليونانية وتارنتم فى عـــام ٣٠٣ ق.م اســتنجدت بــالملك الاســبرطى كليونوموس (Cleomymus) ، الذى هب لنجدتها ونجــح فــى الحــاق الهزيمــة باللوكانى بعد عدة عمليات حربية وأجبرهم على طلب الصلح ، والجدير بــالذكر أن الرومان كانوا فى هذه الفترة حلفاء للوكانى ولابد أنهم قد قبلوا شروط هذا الصلــح ، ثم استعانت تارنتم فى عام ٢٩٨ ق.م بطاغية سيراكوز أجاتوكليس فى حربها ضــد البروتيى ، وقد نجح فى عقد معاهدة مع المسابى والبيوكيتى .

وتشير المصادر إلى أن اللوكانى قد جددوا عدوانهم علـــى مدينــة ثوريــى (Thurii) اليونانية فى عام ٢٨٤ ق.م . ومن ثم وجه أهلها طلب النجدة والعون مــن روما والتحالف معها وقد أرسلت بالفعل نجدة برية وبحرية نجحــت فــى الحــاق الهزيمة باللوكانى وحلفائهم لبروتيى ، ووضع الرومان حامية لهم فى المدينة ، وفــى أعقاب ذلك فقد طلبت كل من رجيوم (Rhegium) ولوكرى (Locrii) محالفة روما وقبلت الأخيرة هذا الطلب وأرسلت إلى كل منهما حامية عسكرية ويرجح أن ذلــك قد حدث أيضاً بالنسبة لمدينة كروتون (Croton) .

ولم تنظر تارنتم بعين الرضا وشعرت بالقلق لتدخل الرومان لحماية المــدن اليونانية السالفة الذكر والتحالف معها لحمايتها من هجمات الشعوب الإيطاليــة وزاد قلقها عندما أنشأت روما مستوطنة فنوسيا على مسافة قريبة منها "تارنتم" فى عـــام ٢٨٢ ق.م واعتبرت كل هذه التصرفات تحدياً لها وتدخلان منطقة نفوذها ونقضــا للمعاهدة بينهما باعتبارها زعيمة للمدن اليونانية فى جنوب إيطاليا ومــن ثــم فقــد تحرشت باسطول رومانى مكون من عشرة سفن فى خليــج تــارنتم وذلــك لأنــها اعتبرت هذا التصرف خرقاً لبنود المعاهدة المعقودة بينهما فـــى عــام ٣٣٤ ق.م ، والتى نصت على عدم دخول قوات رومانية هذا الخليج . فقامت بإغراق أربع سـفن

وأسرت سفينة بينما فرت السفن الخمس الأخرى ، كما طردت القوة الرومانية من مدينة ثورى ، وعندما طلبت روما تعويضها عن تحطيم سفنها واستعادة أسرتها وإعادة حاميتها إلى ثورى فلم تكتف تارنتم برفض هذا الطلب بل أهانت سفراء روما ، وهنا أرسلت روما قوة بقيادة القنصل ايميليوس ، وعرض نفس الشروط السابقة على تارنتم ولكنها رفضت مرة أخرى ، فبدأ ايميليوس فى السلب والنهب فى أراضى تارنتم والواقع أن رفض تارنتم قد جاء نتيجة ضمانها وتأكدها من مساعدة ملك ابيروس بوروس (Pyrrhus) لها الذى كان تراوده الأحلام فى إقامة امبراطورية غربية عظيمة وتحقيق انتصارات تماثل انتصارات كل من اجاثوكليس وديونيسيوس ، هذا فضلاً عن ضمان تارنتم للمساندة من قبل المسابيى والسمنيين واللوكانى والبروتيى .

وإذا كان الجيش الرومانى قد اتجه لمعاقبة تارنتم إلا أن الظروف لم تكن مواتية له لتحقيق النصر ، فقد وصل بالفعل بوروس بجيش مدرب ومسلح وفقاً لأحدث أساليب العصر ، وكان جيشه يتكون من ٢٠,٠٠٠ مقاتل من المشاة ثقيلى العدة من المرتزقة هذا فضلاً عن ٣٠٠٠ فارس و٢٠٠٠ من رماة السهام إلى جانب عشرين فيلاً ولم يكن للرومان بها عهد من قبل ، والتقى الجيشان عند هيراكليا (Heraclia) الواقعة عند شاطئ خليج تارنتم فى سنة ٢٨٠ ق.م . وكان النصر حليفاً لبوروس ولكنه كان نصراً غالياً ، إذ يروى بلوتارخ مشهداً مؤثراً . وذلك أن بوروس وقف يرقب جثث قتلاه من أعلى تل مرتفع يطل على ميدان المعركة وقال وهو يتحسر "أن ثمة انتصار آخر مثل هذا سوف يؤدى به إلى الهزيمة" كما روى أن بوروس لاحظ أن كل قتلى الرومان البالغ عددهم سبعة آلاف تلقوا الطعنات فى صدورهم ، وتعجب من هذا قائلاً : "لو كان هؤلاء جنودى لهزمت العالم".

وبعد هذه المعركة وذيوع أنبائها فى مدن الجنوب سارع السمنيون وعدد من المدن اليونانية للانضمام إلى بوروس ، وتقدم بوروس بجيشه نحو روما ذاتها ، ولكنه لم يحاول احتلالها ، إذ توقف عند برانيستى الواقعة على بعد أربعين ميلاً منها ، وبعث إليها كينياس (Ceneas) عارضاً الصلح ولاثبات حسن نواياه أطلق سراح الألفى أسير الذين كانوا قد وقعوا فى قبضته بعد أن وعدوه بالعودة إليه إذا فضلت روما الحرب على السلام ، وكان شرط الصلح هو أن تتخلى روما عن جنوب ايطاليا بأجمعه ، ورفضت روما هذا العرض بتحريض من الرقيب ابيوس كلوديوس المعتزل إذ قال "أن السناتو والشعب الرومانى لا يتفاوضان مع غاز مادام موجوداً فوق الأرض الرومانية" ، ومن ثم أعاد مجلس الشيوخ إلى بوروس الأسرى الذين أطلق سراحهم وكان معنى هذا جولة جديدة من الحرب ، وكانت روما قد أرسلت سفارة فى عام ٢٧٩ ق.م بقيادة فابريكيوس لتبادل الأسرى وحاول بوروس رشوته فرفض فى إباء وشمم وقال "لو كنت وضيعاً لكنت غير أهل إلا للرشوة ولو كنت شريفاً ، فكيفما تتوقع منى قبول الرشوة ، فما أجمل الفقر مع الشرف ، إنه أثمن من كنوز الدنيا قاطبة" ، ولم تنجح حيل بوروس الأخرى معه ، ومن ثم كان لابد من الحرب ففى نفس العام التحم جيش بوروس وجيش رومانى بالقرب من أوسكولوم فى ابوليا ، وكان النصر حليفاً لبوروس ولكنه كان نصراً غالياً وعرض بوروس الصلح على روما مرة أخرى ولكنه فى هذه المرة لم يشترط إلا تأمين حرية المدن اليونانية ، ومن المحتمل اعطاء تعويضات للسمنيين والمسابيى واللوكانى والبرويتى أيضاً ، وبينما كانت مفاوضاته مع الرومان تسير فى طريقها المأمول وتلبى روما طلبه ، إذ بها تتوقف وذلك نتيجة لأن قرطاجة عرضت على روما تقديم العون سواء بالأموال أو بالسفن ، هذا فضلاً عن عقد معاهدة معها حتى لا يقبل عرض بوروس وتقطع مفاوضاتها معه ، وبالفعل عقدت

روما معاهدة مع قرطاجة نصت علـــى مــا يــأتى : ١- أن يتعــاون الأســطول القرطاجى فوراً مع الرومان . ٢- أنه لا يحق للقرطاجيين اتخاذ قواعد دائمة لـــهم فى إيطاليا . ٣- أنه فى حالة عقد أحد الطرفين معاهدة مع العدو المشترك يجـب أن يحتفظ لنفسه فى هذه المعاهدة بحق مساعدة الطرف الآخر إذا ما غزيت أرضيــه ".
وكان من نتيجة هذه المعاهدة أن رفض الرومان ما عرضه عليــهم بــوروس مــن شروط وفى نفس كان ينظر اليونان إليه بعين الشك بأنه يريد تكويــن امبراطوريــة فى الغرب على حسابهم وأمام كراهية أهالى تارنتم لنظامـــه ، ونكرانــهم لجميلــه وفشله فى تحقيق أحلامه فى هذه الجبهة مؤقتا والتى كان عليه ألا يتركـــها ولكنــه تركها مبحراً إلى صقلية حيث أن المدن اليونانية بها طلبـــت نجدتــه مــن خطــر القرطاجيين وهجماتهم وبقى بها فى الفترة ما بين ٢٧٨ - ٢٧٥ ق.م وقـــد نجــح ابابها نجاحاً كبيراً ضد القرطاجيين إذ نجح فى رفع حصارهم عن سيراكوز ، كمــا أجبرهم على التخلى عن كل ممتلكاتهم فى صقلية عـــدا ليلوبــايوم (Lilybaeum) وأخذ بعدها يستعد لنقل الصراع إلى قرطاجة نفسها ، ولكن الظروف لـــم تســاعده مرة أخرى فى هذه الجبهة إذ أن الأعباء الثقيلة التى ابهظ بها كاهل حلفائه اليونـــان وخوفهم من أن يفرض سيطرته عليهم جعلته يهجرون جانبه والثورة عليه واللجــوء إلى القرطاجيين وعقد الصلح معهم ، ونتيجة لهذا فقد اضطر إلى مغـــادرة صقليــة فى عام ٢٧٥ ق.م عائداً إلى حلفائه القدامى فى جنوب إيطاليا مـــن أهــل تــارنتم والسمنيين .

كان رحيل بوروس إلى صقلية فرصة لروما لتنظيم أحوالها وتمكنت خـــلال السنوات الثلاث التى غابها هناك من أن تجــبر اللوكــانى والـــبروتيى والمســابيى وجيرانهم على وقف القتال ، كما ضيقت الخناق على الســمنيين . وأصبــح زمــام المبادأة فى يد الرومان ، فعندما عاد بوروس إلى جنوب شبه الجزيـــرة الإيطاليــة

وعلى الرغم من تنظيمه لقواته إلا أنه قد انـــهزم أمـــام الرومـــان عنـــد بنفينتـــوم (Beneventum) هزيمة قاسية انسحب على أثرها إلى تارنتم ، وهنا فقد أدرك أنـــه لا يمكنه قهر الرومان ، كما أنه قد رأى أن الأحوال فى بلاد اليونان قد تتيـــح لـــه فرصة للاستيلاء على عرش مقدونيا ، ونتيجة لهذين العاملين فقد أبحر عائداً إلـــى وطنه تاركاً حامية فى تارنتم على أمل أن يعود إلى إيطاليـــا بعـــد فـــوزه بعـــرش مقدونيـــا ، ولكنه خر صريعاً فى ميدان القتال ببلاد اليونان فـــى عـــام ٢٧٢ ق.م. وقبل موته كان قد أرسل فى طلب حاميته المعسكرة فى تارنتم ولكى تؤمـــن هـــذه الحامية سلامة انسحابها اتفقت مع الرومان على تسليم مدينة تارنتم لهم ، فوضعـــوا فيها وفى بقية المدن الأخرى حاميات رومانية مستديمة .

وفى نفس العام ٢٧٢ ق.م تشير الروايات إلى أن الرومان قد نجحـــوا فـــى إخضاع اللوكانى والبروتيى والسمنيين وحلفائهم من القبائل السابلية واستولوا علـــى جانب كبير من أقاليمهم وأقاموا فيها عدداً من المستعمرات مـــن أهمـــها بايســـتوم (Paestum) على شاطئ لوكانيا وأيسرنيا (Aesernia) وبنفينتوم فى قلب ســـلمنيوم، وأريميتوم على الشاطئ الادرياتيكى فى الشمال ، ولم يواف عـــام ٢٦٥ ق.م حتـــى كانت شبه الجزيرة الإيطالية بأجمعها تعترف بسيادة الرومان وقـــد منـــح الرومـــان بعض هؤلاء حقوقاً رومانية .

والآن يـبن لنا التساؤلات الآتية : لماذا نجحت روما دون غيرها من القـــوى الأكثر تحضراً وقوة فى شبه الجزيرة الإيطالية فى تشكيل الاتحاد الإيطالى المكـــون ليس من شعوب شبه الجزيرة الإيطالية فحسب بل أيضاً من شعوب السهل الشـــمالى فى إيطاليا أيضاً ؟

لقد نجحت روما بعد ضمها للدول المدن اليونانية فى الجنوب فى أن تصبح سيدة على شبه الجزيرة الإيطالية بلا منازع ، وأصبحت تسيطر على الأراضى الممتدة من مصب نهر أرنو (Arno) غرباً ونهر ايسيس شرقاً ، أما الأراضى الواقعة شمالى النهرين فكانت موطناً لليجوريين والغال الكلت ونجاح روما يعود إلى عدة عوامل نذكرها على النحو الآتى :

١- موقع روما الاستراتيجى فى وسط شبه الجزيرة الإيطالية يسر لها أن تفرق بين خصومها وأن تهزمهم الواحد تلو الآخر .

٢- ما اتسم به الرومان من صفات سامية ، فقد اتصفوا بالصبر والصلابة والقدرة على تحمل المشاق وتقديم المصلحة العامة على المصالح الشخصية حين تهدد الوطن أزمة خارجية ، وكان ذلك على العكس ما اتصف به الأعداء والخصوم، الذين كانوا أكثر عدداً وجرأة من الغال والسمنيين والأتروريين واليونان من قلة النظام والتنظيم وافتقار الأول لطول النفس فى القتال ، كما أن الأعداء من العدى الأسمى حضارة منها مثل الأتروريين واليونان يفتقرون إلى الوحدة ونهباً للصراعات والمنازعات فيما بينهم والتى مزقتهم شر ممزق ، وبفضل ذلك كله تفوق الرومان على هؤلاء الأعداء عسكرياً وسياسياً .

٣- إن روما كانت من أكبر المدن فى إيطاليا وتولى زمام أمورها حكومة منظمة تنظيماً دقيقاً ومتطوراً وفقاً لمقتضيات الأحوال ، ويوجه سياستها الخارجية مجلس الشيوخ ، فلم تدخر روما ولا مجلس شيوخها فى تجنيد أكبر عدد من مواطنيها بعد أن أحدثت الوئام بين طبقات المجتمع الرومانى هذا * فضلاً عن أنها زادت قوة جيشها تدريجياً بالخدمة العسكرية التى فرضتها ليس على

* وسنتحدث عن التنظيم السياسى الرومانى والصراع الطبقى فى الفصل التالى .

مواطنيها فحسب بل على حلفائها أيضاً ، وكان الرومان يفرضون على جنودهم الالتزام والتدريب والنظام الصارم .

٤- قيام الرومان بدراسة مجريات ونتائج الحروب والصدامات التى خاضوها ومحاولتهم تطوير أساليبها وتقنياتها الحربية ، وذلك بالاستفادة من تجاريب وأساليب أعدائهم فى كل من حالة نصرهم وهزيمتهم .

٥- قامت روما بالمحافظة على مكاسبها السياسية والعسكرية:

ا- بإنشاء الطرق العسكرية مثل طريقى أبيوس كلوديوس (Via Appia) وطريق اللاتين (Via Latina) وذلك لتيسير انتقال قواتها المقاتلة إلى كمبانيا وحدود إقليم سامنيوم فى أى فصل من فصول السنة بسرعة وبدون إعاقة .

ب- بإنشاء المعسكرات والمعسكرات الحربية فى ميادين القتال ، وذلك قد أفادهم تكتيكياً من حيث أنه قد جعلهم أكثر أمناً وسلامة ، وخير أنموذج لذلك هو المعسكر الحصين الذى أقامه الرومان قبل معركة اوسكولوم الذى انقذ فلول الجيش الرومانى بعد المعركة من أن يمزقه جيش الملك بوروس شر ممزق .

حـ- انشاء المستعمرات العسكرية (Coloninae) ، فى المناطق التى فتحتها روما ، فى المواقع الاستراتيجية لحراسة معابر الأنهار مثل فرجيلاى على نهر ليريس وانترامنا (Interamna)على روافد التيبر الشمالية، أو فى منافذ الممرات الجبلية مثل البافوكنتيا (Alba Fucentia) واريمنيوم، أو فى مفارق ملتقى الطرق مثل انتيوم وتاركينا وسنا الغالية. وكان غرض الرومان من إنشاء هذه المستعمرات هو الحفاظ على المكاسب الإقليمية الواسعة التى احرزوها واستخدامها فى نفس الوقت

كقواعد انطلاق لتحقيق مكاسب أكبر ، وقد كشفت حروب الرومان مع كل من السمنيين والملك بوروس ومن تبعه من المدن اليونانية عن مدى أهمية تلك المستعمرات العسكرية بوصفها قواعد لصد هجمات الأعداء نقاط للانقضاض منها على الأعداء ، وكان بعض هذه المعسكرات رومانية وبعضها الآخر لاتينية وبعضها رومانية لاتينية . وإذا كانت هذه المستعمرات قد حققت الغرض من إقامتها من الناحية العسكرية فإنها قد لعبت دوراً فى حل مشكلة الحاجة للأرض سواء للرومان أو الحلفاء اللاتين على حد سواء ولحل مشكلة زيادة السكان سواء فى روما أو فى سهل اللاتيوم .

٦- لجأت روما إلى سياسة التحالف المتساوى الدرجة مع حلف اللاتين وتبادلت مع أعضاءه حقوق المصاهرة والمتاجرة ، كما كان لمواطنى المدن اللاتينية نفس الحقوق فيما بينها . وهذا قد ساعد على تحقيق خلق المصالح المشتركة وحد من الحروب فيما بين مدن الحلف ، حتى عندما ثارت مدن الحلف عليها وأخضعتها روما بالقوة لجأت إلى وسيلة جديدة وهى دمج وضم البعض منهم وصار مواطنو هذه المدن مواطنين رومان كاملى الأهلية مع السماح لهم بالاحتفاظ بنظمهم وشرعهم وشعائرهم الدينية ولغتهم ولم يقضوا على نظام المدينة الحرة الذى وجدوه فى بعض مناطق إيطاليا مثل بلاتيوم وكمبانيا فى جنوب إيطاليا ، فقد أبقوا المدينة الحرة كوحدة سياسية قائمة كما أبقوا نظام القبائل ، وهذا قد ساعد بالطبع على عدم ثورتهم على روما كما أنه ضم لروما رصيد بشرى كبير . أما عن المدن التى لم تضمها فقد عقدت معها تحالفات منفردة كل منها على حدة ومنحت مواطنى هذه المدن حق المتاجرة والمصاهرة مع الرومان ، كما أنها لضمان ولائهم لها قد لجأت إلى تحريم التعامل فيما بينهم سواء

بالمتاجرة أو المصاهرة ، وهذا يعنى أنها اتبعت معهم سياسة فرّق تسُد ، كما أنهم أسلموا لها زمام سياستهم الخارجية مع التزامهم بأن ينهضوا للدفاع عنها وعنهم على حد سواء ، وقد اتبعت روما هذه السياسة مع الشعوب والجماعات النازلة فى إيطاليا والتى فى الغالب الأعم قد قاتلتها أو طلبت عونها ولكن تحالفاتها مع تلك الجماعات لم يكن على نسق واحد بل كان متعدد الصور والدرجات ، فالبعض منهم تم معاملته معاملة اللاتيين والبعض الآخر منح معاملة الحلفاء المتساوين وهم من المدن والشعوب التى دخلت معها فى تحالف دون حرب ، وفى الواقع فإن هذه السياسة قد دفعت الحلفاء أجمعين إلى الحرص على الاخلاص فى تحالفهم مع روما على أمل أن يرفعوا من درجتهم ومعاملتهم معاملة الرومان .

٧- لجأت روما أيضاً لضمان سيطرتها وغلبتها على شبه الجزيرة الإيطالية إلى سياسة تفتيت وتفريق الجماعات والقوى القومية فى إيطاليا مثل الاتروريين مما مكن لها من السيطرة عليهم .

والجدير بالتنويه أن سيطرة روما وهيمنتها على إيطاليا لم تكن سيطرة وهيمنة مطلقة يخضع لها رعايا ، فقد كان الأمر من الناحية الشكلية على الأقل اتحاد عسكرى له صبغة فيدرالية تحت حماية روما وتوجيهها ولكن لم يكن لهذا الاتحاد مجلس فيدرالى يصرف شئونه بل يقوم على هذا الأمر مجلس الشيوخ فى روما ، كما كانت كل امكانات الاتحاد العسكرية موضوعة تحت تصرف روما ، وعموماً فقد نجح هذا الحلف فى توفير قدر من الترابط السياسى والاقتصادى والاجتماعى تحت سيطرة روما ورياستها ، فقد نتج عن حروبها العديدة مع القوى المختلفة فى شبه الجزيرة الإيطالية أن ضمت مناطق من أقاليمهم إليها وزعت جانباً منها على الرومان وأقامت مستعمرات على الجانب الآخر بينما أدمجت مدن فيها

وأصبح مواطنوها روماناً كاملى الأهلية لهم ما للرومان وعليهم ما على الرومـــان ، ولكن كى تضمن ولاءهم فقد تركت هذه المدن تدير شئونها وفقاً لنظمـــها السياســية والشرعية والدينية إدارة ذاتية ، كما أن المدن التى منحت مواطنيها حقوق المواطنـة الرومانية الخاصة حرصت على الولاء والوفاء لرومـــا وسياســاتها حتـــى ترتفـــع منزلتها ويعامل مواطنوها معاملة الرومان كاملى الأهلية . وهكذا فقد نجحت رومـــا وفقاً لهذه السياسة على أن تربط حلفاءها الأقربين والأبعدين برباط الولاء والتحـــالف معها مما جعلها تتغلب على كل المصاعب التى واجهتها فى حروبها المختلفة .

وفى ضوء ما سبق ذكره فقد تكون الاتحاد الإيطالى من المواطنين الرومـــان والحلفاء من غير الرومان ، وكان لكل من الفريقين أوضاع قانونيـــة متباينـــة فـــى داخل روما أولاً وفى نطاق الاتحاد ثانياً ، وسنحاول أن نعـــرض لـــهم الآن علـــى النحو الآتى :

أولاً : المواطنون الرومان (Civies Romani)

كانوا ينقسمون إلى قسمين أحدهما أسمى مرتبة من الآخـــر ، والقســـم الأول يشمل المواطنين الكاملى الأهلية (Civies Optimo Jure) وهم الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنـــة الرومانيـــة الكاملة : الخاصة منها والعامة * ، وكانوا يقطنـــون فى روما وفى المناطق الريفية أو الإقليم الرومانى ، وكـــان يتـــم تســـجيلهم تبعـــاً

* كانت هذه الحقوق تكتسب أصلاً بحق الوراثة ، كما كان يتم اكتسابها لمواطنين ليسوا رومـــان بحكم المولد ، كما كانت روما تقوم بتجزئتها ومنـــح جانب منـــها لحلفائها والحقـــوق العامـــة (Jura Publica) كانت تتألف من قسمين هما أ- حق الترشـــيح (Jus Suffragie) ب- وحـــق الترشح لشغل الوظائف العامة (Jus Honorum) أما عن الحقـــوق الخاصـــة (Jura Privata) فكانت تتألف من حق المتاجرة (Commercium) وحق المصاهرة (Conubium) وحق التقاضى (Legis Actio).

لمواطن استقرارهم أما فى القبائل الأربع الحضرية وأما فى القبائل الريفية التى زيد عددها تباعا حتى أصبحت احدى وثلاثين قبيلة ريفية . وكان المواطنون الرومان الكاملو الأهلية يتكون من ثلاث فئات ، أولاها : مواطنو روما ذاتها ، وثانيتها : وتنقسم إلى قسمين : أ- المواطنون الرومان الذين هاجروا من روما إلى الأقاليم التى ضمتها روما إليها من الجماعات والمدن الأخرى ، ومنحتهم روما اقطاعات تتفاوت فى المساحة ما بين ٣ - ٧ أفدنة من الأرض العامة (Ager Publicus) ب-المواطنون الذين نزلوا بالمستعمرات العسكرية وشكلوا حاميات عسكرية للدفاع عن المناطق التى أسست فيها المستعمرات وتبعاً لذلك فقد تم اعفاؤهم من الخدمة العسكرية فى الحروب، وكانوا قليلى العدد حوالى ٣٠٠ مستوطن فى كل مستعمرة، وفى البداية كانوا أقل درجة من سكان روما الأصليين ولكن تدريجيا أصبحوا متساوين مع الرومان فى الحقوق والواجبات . وكانت هذه المستعمرات قليلة العدد ولكن بمرور الزمن فقد زاد عددها ووصلت إلى سبع وعشرين مستعمرة ، وأخيراً فإن ثالث فئة من المواطنين الرومان الكاملى الأهلية كانت تتألف من بعض المدن اللاتينية مثل توسكولوم ولانوفيوم (Lanuvium) واريكيا التى ادمجتها وضمتها روما إليها بعد حل الحلف اللاتينى فى عام ٣٣٨ ق.م ، نظراً لقربهم من روما وللتراث المشترك معها ، فقد منحت روما مواطنى هذه المدن حقوق المواطنة الكاملة ، وقد عرفت هذه المدن باسم (Opida Cuium Romenorum) أى مدن الشعب وبعد ذلك أطلقت عليها روما لفظة بلديات (Municipia) ، وقد فرق الرومان قليلاً بين مواطنيهم القدماء وهذه الفئة الأخيرة فقد منحوا حق ممارسة الجنسية الرومانية كاملة عند تواجد مواطنيها داخل روما بل كانوا يسجلون ضمن سجلات خاصة للمواطنين ، أما مدنهم أو بلدياتهم فقد تمتعوا بنظمهم الإدارية والمالية مع حق الإشراف على القضاء من قبل براتيور روما(Praetor Urbanus)

إذ كان يبعث بنوابه (Praefecti) للتفتيش ولتطبيق العدالــة ثانيــها : المواطنــون الرومان ناقصوا الأهلية (Civies Sine Sufflagio) وهم المواطنون الذين ضمـت روما مدنهم إليها سواء فى إقليم سابينى أو بعض مدن اتروريا ولاتيوم وكمبانيــا ، وحملت هذه المدن اسم البلديات ، وكانت تتمتع بالحكم الذاتي واحتفظت إلــى حـد كبير بنظمها ودساتيرها السابقة على ضمها إلى رومــا ، وعلــى الرغـم مـن أن مواطنى هذه المدن كانوا يلتزمون بأداء كافة الواجبات التى يلتزم بــها المواطنــون الرومان الكاملو الأهلية إلا أنهم لم يتمتعوا بالحقوق الرومانية الكاملة بــل تمتعـوا بحقوق المواطنة الخاصة ، ونتيجة لذلك فقد حرموا من حقى الترشــيح والترشـح للوظائف العامة فى روما ، أما عن الحقوق الخاصة التى تمتعوا بــها فــهى حقـى المصاهرة (Conubium) والمتاجرة (Commercium) هــذا فضــلاً عــن حــق الاستئناف (Provocatio) فى روما ، ولكنهم لم يكونوا مسجلين فى سجلات القبـائل الرومانية الخمس والثلاثين المدنية منها والريفية وتبعا لذلك كانوا يعدون إلى حد مـا مثل سكان البلديات (municipia) فبجانب احتفاظهم بنظمهم ودساتيرهم ودياناتــهم ولغاتهم ، فقد احتفظوا بنظمهم القضائية المحلية ، فتسمع عن أسماء قضاة فى تلــك المدن مثل (Midex) فى كوماى والدكتاتور فى كــايرى (Caere) ولكــن كــانت تشرف عليهم روما من خلال البرايتور المدنى الذى كان يرسل نوابـه (Praefecti) إلى تلك المدن للإشراف على تطبيق العدالة مع عدم التدخل فى النظــام القضــائى المحلى ، كما أنها تركت لهم حرية العبادة ولكن تحــت إشــراف مجلـس الكهنـة الرومانى (Pontifices) ، والجدير بالذكر أن روما بدأت بشــكل تدريجــى تمنـح الحقوق الرومانية الكاملة من عام ٢٦٨ وحتى ١٥٠ ق.م لمواطنى هذه الجماعـات ، حتى صاروا مواطنين رومان كاملى الأهلية .

وعموما فقد كان المواطنون نـــاقصى الحقـــوق يتحملـــون عـــبء الخدمـــة العسكرية فى الفرق الأساسية (Legiones) بالرغم من أنهم لم يتمتعـــوا بـــالحقوق الرومانية الكاملة .

ثانيـا : الحلفاء (Socii) :

هم السكان والجماعات التى أقالت بإيطاليا من غير الرومان ، وتحالفوا مـــع روما وكانوا أعضاء فى حلفها العسكرى (Civitates Foederatae) وكـــانوا مـــن الناحية القانونية حلفاء أجانب (Peregrini et Socii) يرتبط كل منهم بالجمهوريـــة الرومانية محالفة خاصة (Foedus) ، وقد انقسموا إلى فئتين وهما :-

ا- الحلفاء اللاتين :

كان هؤلاء الحلفاء يعرفون بالحلفـــاء اللاتيـــن (Socii Latini) أو بالأمـــة اللاتينية ، وكانوا يقيمون فى سهل اللاتيوم ، وتبعا لذلك فقد كـــانوا أكـــثر شـــعوب إيطاليا صلة بروما ، إذ كانوا يقيمون فى المدن اللاتينيـــة القديمـــة أمثـــال تيبـــور (Tibure) وبراينستى (Praneste) وفى المستعمرات اللاتينيـــة التـــى أنشـــأتها المدن اللاتينية قبل وبعد عام ٢٣٨ ق.م فى شتى أنحاء شبـــه الجزيرة الإيطاليـــة أى فى الأراضى التى ضمتها روما للحلف لها من أراضـــى الأعـــداء ، والجديـــر بالتنويه أن عددها قد وصل إلى احدى وعشرين مستعمرة ، وكان أغلـــب النـــازلين بهـــا من فقراء الرومان واللاتين ومواطنى المـــدن الحليفـــة الأخـــرى ، وكـــل مستعمرة منها كانت تتمتع بكافة حقوق الحكم الذاتى ، فقد كان لكل منـــها دســـتور على نمط الدستور الرومانى وعدد من الحكام ، وكذلك بحق سك العملـــة واجـــراء وضبطه (Census) وكانت المدن والمســـتعمرات اللاتينيـــة تتمتـــع بالحقـــوق

اللاتينية (Ius Latii أو Ius Latinum) ، وهـــى عبـــارة عـــن حقـــى المتـــاجرة والمصاهرة مع المواطنين الرومان فى روما ، وكذلك حق الحصول على الحقـــوق الرومانية الكاملة إذا انتقل أحد مواطنى تلك المدن والمستعمرات للعيش الدائم فـــى روما بشرط التخلى عن وضعه اللاتينى (Exclium) ، ولكن بعد عـــام ٢٦٦ ق.م يبدو أن روما خافت من كثرة المهاجرين من تلك المستوطنات ومن ثم فقـــد ســـنت تشريعاً قصرت حق الهجرة إلى روما والحصول على حقوق المواطنة الكاملة لمـــن يريد الانتقال والعيش فى روما عيشاً دائمـــاً شـــريطة أن يـــتركوا وراءهـــم فـــى المستعمرة ابناً واحداً على الأقل وذلك بغرض الابقـــاء علـــى تلـــك المســـتوطنات ويرجح أن مستوطنى المستعمرات الاثنتى عشرة التى أنشأتها روما فيما بعـــد فـــى الفترة ما ين عام ٢٦٨ وعام ١٨١ ق.م اعفوا من هذا الشرط ، ولكن حدث فى عـــام ١٥٠ ق.م تقييد جديد على منح الحقوق الرومانية الكاملة لمستوطنى المســـتعمرات إذ تم قصر هذا الحق على من سبق لـــه تولـــى منـــاصب عامـــة فـــى المـــدن أو المستعمرات اللاتينية والجدير بالملاحظة أن عدد المســـتوطنين فـــى المســـتعمرات اللاتينية كان أكثر بكثير من المستوطنين الرومان فى المستعمرات الرومانية فعلـــى سبيل المثال حتى مطلع القرن الثانى قبل الميلاد كان متوســـط ســـكان المســـتعمرة الرومانية ثلاثمائة أسرة بينما وصل عدد سكان المستعمرة اللاتينية إلـــى مـــا بيـــن ٢٥٠٠ – ٣٠٠٠ أسرة وتشير ، الروايات إلى أن مســـتوطنى مســـتعمرة فينوســـيا (Vinusia) الواقعة على بعد ثلاثين ميلاً مـــن تـــارنتم ، بلغـــوا قرابـــة ٢٠,٠٠٠ مستوطن لاتينى ، ونلاحظ أن المستعمرات اللاتينية كـــانت مســـتعمرات عســـكرية الطابع فقد كانت تقام لأغراض عسكرية استراتيجية وكان الحلفاء اللاتين عمومـــاً لا يخدمون فى الفرق الرومانية الأساسية وإنما كانوا يخدمون فى الفرق المســـاعدة أو وحدات خاصة بهم من الفرسان والمشاة .

ب- الحلفاء الإيطاليون (Socii Italici) :

كان الحلفاء الإيطاليون يتألفون من بقية سكان إيطاليا من القبائل الإيطالية من سابين وسمنيين ولوكانى ومارسى وممارتينى ، ومن اليونان والالليريين والاترورين ، وكانت كل مدينة أو جماعة من الجماعات ، سواء أكانت حضرية أو ريفية أو قبلية مرتبطة بمعاهدة تحالف (Fodus) فردية مع روما حددت بنودها علاقاتها بروما تحديداً دقيقاً والتى جعلت مواطنيها الأجانب (Peregrini) حلفاء (Socii) للشعب الرومانى مقابل اعطائهم حقاً هو حق الأجنبى(Jus Peregrinium) وبعض هؤلاء منح تقديراً لاخلاصه درجة ترفعه إلى وضع اللاتين القانونى (Jus Latinum) أى وضع حلفاء روما القدامى من اللاتين قبل انهيار الحلف اللاتينى سنة ٢٣٨ ق.م.

وقد رضيت روما أن تترك مواطنى هذه المدن يتمتعون بالاستقلال والحكم الذاتى فكان لهم دساتيرهم ونظمهم وشرعهم وديانتهم ولغتهم . . . الخ وبمقتضى المعاهدة التى تعقدها كل مدينة أو جماعة كان يصير لها الحق فى المصاهرة والمتاجرة مع الرومان فقط دون حلفائهم الآخرين ولذلك فقد أطلقت روما على البعض منهم اسم البلديات الحرة (Civitates Liberae).

وتشير المصادر إلى أن المعاهدات التى عقدتها روما مع المدن والجماعات فى إيطاليا كانت متفاوتة الدرجة فكان هناك معاهدات متساوية (Foedera Aequa) وأخرى غير متساوية (Foedera Inaequa) أى التى كانت تلزم الطرف الثانى بالاذعان للشعب الرومانى ، وتسليمهم للرومان إدارة شئونهم السياسية الخارجية والدبلوماسية ، بيد أن هذه الجماعات لم تكن تدفع أية ضرائب للرومان ، ولكن كان عليهم أن يقدموا العون العسكرى عند طلبه من قبل الرومان ، وكانوا يؤلفون

كتائب منفصلة من المشاة (Cohortes) والفرسان (Alae) تحت وطأة امرة ضباطهم ولكن كانوا يسلمون قيادتها العليا للرومان ، ولكن تشير المصادر إلى أنه إذا شاركت وحدات أكثر من حلف واحد فى تكوين كتيبة من الكتائب فإنه فى هذه الحالة كانت هذه الكتيبة توضع تحت قيادة ضابط رومانى أيضاً . وكانت روما تتعهد بتمويلها بالسلاح والعتاد وإشراكها مع قواتها على قدم المساواة فى غنائم الحرب ، والجدير بالذكر أن المدن اليونانية فى جنوب إيطاليا قد تم اعفاؤها من الخدمة العسكرية البرية ولكنها التزمت بتقديم سفن وبحارة للأسطول الرومانى عند الضرورة ، وقد عرفوا باسم الحلفاء البحريين (Socii Navales) ، كما أن روما فى بعض الأحيان كانت تفرض إتاوة مالية على الحليف مقابل المساعدة العسكرية (Stipendarius) .

وبعد أن عرضنا لأوضاع الرومان وحلفائهم سواء من اللاتين أو الإيطاليين والشعوب الأخرى ، علينا أن ننتقل إلى الحديث عن الأوضاع الداخلية فى روما سواء أوضاعها ونظمها الاجتماعية والدستورية .

الأوضاع الداخلية فى روما فى الفترة ما بين ٥٠٩ و٢٦٥ ق.م

فى الوقت الذى كانت روما تناضل وتكافح فى حروب ضروس ضد القوى المختلفة فى إيطاليا كانت تشهد ، فى نفس الوقت ، صراعاً داخلياً بين طبقتى الأشراف والعامة ، وفى الواقع إن من يدرس الصراع الطبقى تواجهه مصاعب كثيرة وذلك لأن المصادر الرومانية المتأخرة التى أسهبت فى ذكر أحداثه وتفصيلاته فى هذه الفترة قد نسبت أحداثاً من فترة لاحقة أى فترة الصراع بين الديمقراطيين والجمهوريين فى القرن الأول الميلادى إليها ، واخترعت من التشريعات ما يؤيدها ويغلفها بطابع وهمى من الحقيقة ، وأمام ذلك الخلط فقد اختلف الباحثون المحدثون حولها ، وتبعاً لذلك لا يسعنا إلا أن نعرض للسمات الرئيسية لهذا الصرع ونتائجه فى ضوء ما نراه أراء صائبة ودقيقة .

لقد سبق أن ذكرنا أن جذور الصراع بين الأشراف والعامة تمتد بجذورها إلى العصر الملكى وإن بدايته لم تكن فى بواكير العصر الجمهورى ، وفى الحقيقة لم يكن الصراع داخل النظام الاجتماعى الرومانى صراعاً وتوتراً بين الأحرار والعبيد ، ولكن بين فئات المواطنين الرومان الأحرار ، وكان هذا الصراع صراعاً ذا جذور اقتصادية واجتماعية وسياسية ، وهى على النحو الآتى :

أ- العامل الاقتصادى :

كان السبب المباشر لهذا الصراع هو الاستغلال الاقتصادى من قبل الأشراف للأراضى المشاعية المملوكة للدولة وضمها إلى أملاكهم الخاصة هذا فضلاً عن استيلائهم على نصيب الأسد من الأراضى الزراعية التى ضمتها روما إلى إقليمها واستولى عليها الجيش الرومانى بقوة السلاح من الشعوب التى غزتها

وهزمتها كونوا منها ضياعاً واسعة (Latifundia) مستأجرة بـأجرة رمزيـة مـن الدولة مما أثار حفيظة العامة وجعلهم يطالبون بنصيبهم منها خاصـة وأنـهم قـد شاركوا فى تحقيق الانتصارات ووقع عليهم العبء الأكبر .

كما أن طبقة العامة فى غالبيتها وخاصة الفئة الدنيا والمتوسـطة منـها قـد عانت من مشاركتها فى الحروب المختلفة ، بتركها لأرضها وتغيبـها عنـها فـى أفضل المواسم الزراعية وتركها لمن هم أقل خبرة فى زراعتها قد عرضها للبـوار مما اضطر أصحابها للاستدانة من الأشراف والنبلاء كى يسددوا الضريبـة التـى فرضتها الدولة على أملاكهم (Tributum) والتى كانت تجبى لسد نفقات الحـروب ونتيجة لعدم القدرة على السداد وعدم وفاء قيمة أملاكهم لما عليهم من ديون ، فقـد تعرضت حريتهم لخطر الاسترقاق ، فقد كان العرف يبيح للدائـن حـق اسـترقاق مدينة (Addictus) إذا لم يستطع الوفاء بما عليه من ديون ، وكان من حق الدائـن أن يبيعه هو وعائلته فى سوق النخاسة ويسجنه أو يسجنهم فى فى سجنه الخـاص وأن يقتله أو يقتلهم إذا أراد ذلك ، وقد جاء فى القانون أن فى وسع الدائنين لشـخص ما مجتمعين أن يقطعوا جسد المدين العاجز عن الوفاء بالدين ويقسموه فيما بينـهم ، وقد سبب هذا سخطاً بين العامة وطالبت أن تلغى هذه القوانين وأن يخفـف عنـهما عبء ما تراكم عليهما من ديون وأن توزع الأرض التى تضم إلى الإقليم الرومـانى وتمتلكه الدولة على الفقراء منهم بدلاً من أن توهب للأغنياء أو تُباع بأثمان اسـمية وإذا كانت الغالبية العظمى من طبقة العامة غير راضية عن أحوالـها الاقتصاديـة فإن الفئة العليا القليلة العدد وخاصة صاحبة الثراء العريض منها ، وممـن عملـوا بالتجارة والصناعة ، لم تكن راضية عن أوضاعها الاجتماعية والسياسية ، فنظـراً لما كانت تتمتع به من ثروة لا تقل عن ثروة الأشراف بل تزيد عليها ، فقد رغبـت فى المساواة الكاملة فى الحقوق المدنية مع الأشراف ، وحقها فى شـغل الوظـائف

العامة مثلها مثل الأشراف ، بل سعت تلك الفئة إلى كسر انغلاق طبقـــة الأشـــراف وذلك بالمطالبة بإلغاء القانـــون المحرم للزواج بين الأشراف والعامة واعتباره غـير شرعي .

ب- العامل السياسي :

طالب العامة وخاصة الفئة العليا منهم بالمشاركة في حق الترشيح لكل مـــن الوظائف العامة والدينية ، كما سعت الفئات الدنيا منـــهم إلـــى المطالبـــة بحمايـــة أرواحها وحرياتها ، والمطالبة بحقوقهم السياسية كاملة مادامت تؤدي ما عليها مـــن التزامات من الأموال والأرواح ، ووقف استبداد الأشراف واحتكارهم للسلطة ففـــي الواقع شكل الأشراف طبقة منغلقة على نفسها وتتمتع باحتكـــار الوظـــائف العامـــة والدينية والسناتو وسيطرتها على جمعيتي الأحياء والميئنيات ، ومن ثم لـــم تتحقـــق مطالب العامة بسهولة ويسر فقد عارضتها طبقة الأشراف معارضة قويـــة ، ومـــع ذلك يمكننا القول أن طبقة الأشراف كانت أيضاً على قدر كاف مـــن بعـــد النظـــر بحيث أنها كانت تستجيب إلى مطالب العامة كلما أحست بأن رفضها قد يؤدي إلـــى حروب أهلية أو إلى تنفيذ العامة لتهديدهم بالانسحاب والهجرة من روما والامتنـــاع عن أداء الخدمة العسكرية عندما كان يتهدد روما خطر الأعداء ، ليس هذا فحســـب بل كانت الظروف كلها تعمل لصالح طبقة العامة ، فقد نمت ثروات بعضهم وبـــرز من بينهم زعماء أكفاء تولوا قيادة العامة وتنظيم صراعها السلمي مع الأشـــراف ، كما أن كثرة الحروب مجتمعة أو متتابعة والتي كانت تخوضها روما ، ومـــا كـــان يترتب عليها من زيادة الأعباء والتي لم يعد للأشراف وحدهم القدرة علـــى تحملـــها ومن ثم فلم يعد في إمكان الأشراف الاستمرار في عنادهم لحرمان العامة المســـاواة السياسية معهم دون تعريض مصالح روما العليا للمخاطر وتبعاً لذلك منحوا العامـــة

الحقــوق المدنية الكاملة وحق شغل المناصب ولكن بشكل تدريجى وليــــس دفعــة واحدة .

جـ- العامل الاجتماعى :

لما كانت الطبقة الارستقراطية قد انغلقت على نفسها ومنعت الـــزواج مـــن خارجها واعتبرته غير شرعى وباطل ، فقد سعى أهل اليسار من طبقة العامة إلـــى إلغاء هذا القانون والعرف وكسر انغلاق طبقة الأشــراف وذلــك بإباحــة الــزواج (Conubium) بين الأشراف والعامة ، وكان لهم ما أرادوا فى عام ٤٤٥ ق.م.

وعموماً فقد تميز الصراع بين الأشراف والعامة بأنه صراعـــا ســلمياً ولــم يتخذ شكل الثورات الدموية ، كما ان طبقة العامة قد خاضته دون الاستعانة بقيـــادة من خارج صفوفها كما حدث فى الصراع بين طبقتى الأشراف والعامة فـــى بـــلاد اليونان ، فقد اعتمد العامة على النضال والمطالبة السلمية الدائمة لتحقيق مطالبـــهم مستغلين دورهم ، الذى كان لا يمكن تجاهله من قبل الأشراف فـــى الدفـــاع عـــن رومـــا ، كقوة حربية كثيرة العدد والتى كان لا يمكن لروما بدونـــها رد العـــدوان عنها ، وكأيدى عاملة سواء فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة لسد مطـــالب روما . وفى نفس الوقت فقد استغل العامة التهديدات الخارجية وذلــك مـــن خـــلال اظهارهم وعزوفهم وعدم رغبتهم فى المشاركة فى الدفاع والقتـــال لحمايـــة رومـــا وذلك بإعلانهم الانسحاب (Secessio) والهجرة الجماعية من روما، بهدف الضغـــط على الأشراف . ونود أن ننوه أن دور الطبقة الثرية من العامة ، فى الواقع ، هـــو الذى وجه نضالها وجهة سلمية فقد كانت هذه الطبقة تتمنى الاتحاد مـــع الأشـــراف وهذا يفتح لها طريق المجد ومن ثم فقد حاولت قدر جهدها توجيــــه أفكـــار طبقـــة العامة بدلاً من الانفصال عن روما ، بأن تعترف بها طبقة الأشراف وهو ما حـــدث

وتنازلت لها فعلاً ، وعموماً فكانت تنازلات طبقة الأشراف تمثل نجاحـــات للطبقـــة العامة وهذه النجاحات على النحو الآتى : إن أول نجاح حققه العامة حسب روايـــة بلوتارخوس فى بداية النظام الجمهورى هو حصولهم على حـــق الاســـتئناف ضـــد تنفيذ الأحكام القاضية بالاعدام أو الغرامة الباهظة . فقد أصدر القنصـــل فلـــيربوس (Lex Valeria) قانون الاستئناف (Provocatio) وكان القـــانون يقضـــى بأنـــه لا يجوز للقنصل أن ينفذ حكماً بالإعدام أو بغرامة فادحة على أحد المواطنين إلا بعـــد موافقة الجمعية الشعبية عليه بعد استئناف أمامها ، وهكذا فقد كان هذا القانون مـــن الناحية النظرية الضمان للحرية العامة من أن تتهددها سلطة الابريوم العليـــا التـــى كان يتمتع بها القناصل ، وكان القنصل يهدف من من وراء هذا القانون هو كســـب ود وولاء ملاك الأراضى من العامة ، ولكن الأحداث تشير إلى أن هذا القانون لـــم يطبق إلا بعد مرور وقت طويل من صدوره . كما أصدر قانوناً آخـــر كـــان خـــير عون للفقراء وهو الذى يعفى المواطنين من كل ضريبة لتحقيـــق مطالبـــهم مطلبـــاً وراء مطلب .

لقد كان ثانى نجاح عظيم حققه العامة عندما اعتصبوا وتجمـــهروا احتجاجـــاً على عسف واستغلال الأشراف لهم ، إذ تذكـــر الروايـــات الشـــعبية أن الرومـــان استيقظوا ذات صباح ليجدوا رجلاً كهلاً حزيناً من العامة يجلس فى ساحة المدينـــة ، ولما سأله المارة عن سر حزنه ، أخبرهم أنه جندى قديم ، وكشف لهم عن ظـــهره حيث ظهرت الطعنات والجروح التى تلقاها وهو يدافع عن رومـــا وأن بيتـــه قـــد أحرقه الفولسكيون ، وعندما عاد من الحرب ، وجـــد جبـــاة الضرائـــب يطالبونـــه بمتأخراتها مما اضطره إلى الاستدانة بالربا الفاحش وتزايدت أعباء الديـــون عليـــه وعجز عن سدادها ، فتم بيع أرضه ولكن ثمنها لم يكف قيمة الدين ومن ثم فقد تـــم استرقاقه وفقد حريته وصار عبداً لدائنه الذى ألقى به فى سجنه الخـــاص وضربـــه

بالسوط ، ولما كان دائنه قد قرر قتله ، وعلم المدين بذلك فر من سجنه ، أثارت روايته مشاعر مستمعيه من العامة وحدث شغب وفتنة ، وحطم المسترقون في الدين سجون دائنيهم وخرجوا منها وانضموا إلى جموع العامة المعتصبة في ساحة المدينة وهتفوا بسقوط القنصلين وقرروا الانسحاب من مدينة روما في عام ٤٩٤ ق.م ، وكان هذا أول اعتصاب لهم طالبوا فيه برفع المظالم عنهم بتخفيف أعباء الديون والغاء القوانين الجائرة واشراكهم في الحكم وحماية أرواحهم وحرياتهم ، وإزاء هذا الشغب انقسم مجلس الشيوخ على نفسه إلى فريقين ففريق منهما رأى استخدام الشدة والقوة للقضاء على هذه الفتنة ، بينما رأى فريق آخر اللجوء إلى اللين، وكان رأى هذا الفريق هو الأصوب نظراً لحاجة المدينة الماسة لجهود العامة وخدماتهم العسكرية في الحروب المختلفة التي كانت روما تخوضها ، ومن ثم فقد تم ترجيح وجهة نظره خاصة وأن الظروف كانت في صالحه ، فقد تجمعت القوى المعادية لروما لمهاجمتها ، وأعرض العامة عن التطوع لصد تلك القوى عن روما ورأوا أن روما طالما هي وطن الأشراف فعلى الأشراف وحدهم الدفاع عنها . وإزاء ذلك اضطر السناتو إلى اصدار وعد بالتنازل عن بعض حقوقه وإجابة العامة لمطالبهم تحت تأثير الفئة المعتدلة ، وصدق العامة هذه الوعود وساروا إلى الحرب وحققوا النصر ، ورجعوا ليجدوا مجلس الشيوخ يتباطئ في تنفيذ وعوده ، فأضرب العامة مرة أخرى وأعلنوا عصيان القوانين ، وانسحبوا من المدينة كلها إلى تل الافنتين (Aventinus) وأعلنوا أنه مكان مقدس ، حيث معبد الربة كيريس، الذي أسس في عام ٤٩٣ ق.م ، وشكلوا جماعة مقدسة أو اتحاد قانوني وذلك لاسباغ الحماية الدينية عليه ، كما أن هذا التأسيس كان تقليداً متعمداً لانشاء معبد الإله يوبيتر على الكابيتول ، القلب الديني لدولة الأشراف ، وعموماً فإن انشاء العامة لمعبدهم كان تعبيراً ، وبشكل مختلف ، عن سيادة جماعة العامة المنفصلة ،

وأن ذلك لا يمثل صرخة بأن جماعة العامة تمثل دولة داخل الدولـــة فحسـب بـل أيضاً أنها هددت وأعلنت عن عزمها للانفصال وأنها لن تعمل أو تحارب من أجـل روما حتى تجاب مطالبها وفى نفس الوقت قررت أن يكون لها مجلســـها المقـابل لمجلس الشيوخ واختارت من بينها حاكمين يحمل كل منهما لقـــب نقيـب العامـة (Tribunus Plebis) ومنحوها حق الاعتراض (Intercessio) على أى إجـــراء أو تصرف لصدر عن موظف عام فى أثناء ممارســـته لسـلطته ، وبسـط حمايتـها ومساعدتهما (Auxilium) على كل من ينشدها من العامة تجاه الموظفين العموميين وتصرفاتهم فكانت أبواب بيوتهم مفتوحة ليل نهار حتى يتمكن العامـة مـن طلـب حمايتهم فى أية ساعة ، واستمد تريبونا العامة سلطتهما من اليميـن والقسـم الـذى أقسمه العامة على حماية كل منهما واعتبار شخصيهما مقدسـاً ومصونـاً لاتميـس (Sacrosanctus) بأذى لأن ذلك لو حدث بعد اعتداء على حدود الآلهة ، بـأذى لأن ذلك لو حدث يعد اعتداء على حدود الآلهة وعمل دنس وإثم خطير ، إذ عضد أحـد لقوانين هذه الصيانة وضمنها فنظل على أنه "ما من أحد يسـتطيع الاعتـداء علـى نقيب ولا أن يضربه ولا أن يقتله" وأضاف إن "من يسمح لنفسه بعمـل مـن هـذه الأعمال نحو النقيب يصير نحساً وتصادر أمواله لمنفعة معبد كيريس ويمكن قتلـه دون قصاص ، كما تشير المصادر أيضاً إلى أن النقيب صار له الحق على النحـو الآتى ، ليس لموظف من الموظفين العموميين ، ولا فرد ما أن يعمـل شـيئاً ضـد النقيب . وإن فعل ذلك فقد تعدى حدود القانون ، وأن كل من ارتكب اعتداء علـى النقيب يدنس أكبر تدنيس .

واختاروا إلى جانبهما موظفين يساعدانهما حمل كل منـهما اسـم الايديـل (Aedile) ، وذلك على غرار الموظفين اللذين كانا يعينان لمساعدة القنصلين وهـم الكوستوران (Quaestores).

أرغم مجلس الشيوخ على تنفيذ وعوده السالفة فعاد العامة من التلة المقدسة يهللون على انتصارهم ونيلهم لبعض الحقوق ، إذ لم يعترض الأشراف على الخطوات العامة . واستمر طبقة العامة فى المطالبة بحقها وحصصها فى الأراضى التى استولت عليها روما من أعدائها ، وقد حاول القنصل اسبيوروس كاسيوس (Spurius Cassius) فى عام ٤٨٦ ق.م توزيع تلك الأراضى على الفقراء فاتهمه الأشراف بأنه يتحبب إلى الشعب ليكون ملكاً على البلاد وقتلوه . ولم يتحقق هذا المطلب للعامة إلا بعد حين من الدهر .

وكان ثالث نجاح للعامة قد تحقق بعد اضرابهم واعتصابهم فى عام ٤٧١ ق.م وانسحابهم من روما ، وأجبروا الأشراف على تحقيق مطالبهم وهو تأليف مجلس للعامة (Concilium Plebis) ، وزيادة عدد الترابية إلى أربعة ويتم انتخابهم سنوياً من قبل مجلس العامة ، وقد كان مجلس العامة يتألف من طبقة العامة فى القبائل الأربع النازلة بمدينة روما ، وهذا ما نستخلصه من أن حق اعتراض الترابنة كان لا يمتد أكثر من ميل واحد خارج سياج روما المقدس ، كما أن زيادة عدد الترابنة إلى أربعة يشير إلى تمثيل القبائل الأربع فيه ، وعموما لما كان هذا المجلس المشكل من العامة لا يضم كل المواطنين الرومان ولا يحظى بالاعتراف الرسمى من الأشراف فإنه لم يعتبر فى عداد الجمعيات الشعبية الرسمية (Comitia) . ومن ثم كان ذلك الاسم المميز الذى عرف به ، وكان للترابنة الحق فى دعوة هذا المجلس واقناعه بإصدار المراسيم والقرارات الشعبية (Plebiscitia).

ومن الملاحظ أن النقيب حتى هذه المرحلة لم يكن له سلطة سياسية فلم يكن من الموظفين العموميين وليس له الحق فى دعوة جمعية الاحياء ولا جمعية الميئنيات للاجتماع ولم يكن من حقه بعد تقديم اقتراحات لمجلس الشيوخ ، ومع

ذلك فقد استمر العامة فى المطالبة بحقوقهم وتدوين القوانين ، ولم يتحقق لهم ذلـــك إلا عند منتصف القرن الخامس .

وكان رابع نجاح لهم فى حوالى منتصف القرن الخامس ، ويبـــدو أن ذلـك النجاح قد جاء بعد وقوع صراع داخلى اضطر الأشراف خلاله إلى الاستجابة فيـــه لبعض مطالب العامة وهى على النحو الآتى : أولاً المطالبـــة بتدويـــن القوانيـــن ، والاعتراف بسلطة الترابنة ، وانشاء جمعية القبائل ونبدأ حديثنا أولاً بالحديث عـــن تدوين القوانين .

١- تدوين القوانين "مجموعة الألواح الاثنى عشر" :

لما كانت عضوية الجمعيات الدينية حكراً على الأشراف فقد احتكروا بالتـالى الإحاطة بالقوانين وتفسيرها وتطبيقها ، ومن ثم كانت جماعة العامة يتعــذر عليـــها معرفة القوانين وفهمها وصحة تفسيرها وتطبيقها ، وإزاء هذه الحالـــة فقـد اتـــهم العامة الأشراف من خلال القناصل الذين كانوا منهم بأنهم بحكـــم هيمنتـــهم علـــى القضاء فقد قضوا وحكموا وفق هواهم ، وكانت أحكامـــهم ظالمـــة فقـد اســتحلوا واستحرموا ما استحلوه أو استحرموه تـــارة أخـــرى مادام ذلك كان يتفق ومصـــالح أفراد طبقتهم . وإزاء ذلك كان طبيعياً أن يجأر العامة بالشـــكوى وأن يكـــون فـــى مقدمة مطالبهم أن تدون قوانين واضحة جلية وأن تنشر كى يتسنى للجميع الاطـــلاع عليها وفهمها وإرغام الحكام على مراعاتها .

ففى عام ٤٦٢ ق.م قدم نقيب العامة تـــيرنيتيليوس هارســا (Terentilius Harsa) يعززه زملاؤه بالمطالبة بوضع قوانين ثابتة للبلاد حتى تعرف كـــل طبقـــة حدودها ، ويعرف الفرد بدوره حقوقه وواجباته فى المجتمع ، ووفقاً للروايـــة فقـــد

طالب هذا النقيب بأن تشكل لجنة من خمسة أعضاء لوضع التشريع الذى يضع حداً لعسف الأشراف ، بينما تقول رواية أخرى أن هذا النقيب قد طالب بتحرير وثيقة بمجموعة قانونية خاصة بالعامة ، وأن مجلس الشيوخ عارض بشدة هذه النزعة الانفصالية . وعموماً لم يجد هذا الطلب آذاناً صاغية من الأشراف وأعضاء مجلس الشيوخ المحافظ الغيورين على امتيازاتهم بل قاوموه مقاومة عنيفة وطويلة (٤٦٢ – ٤٥٤ق.م) لأن استجابتهم لهذا الطلب تعنى التخلى عن احتكارهم لمعرفة القانون الذى استخدموه كسلاح لمقاومة كل دعوة للاصلاح الاجتماعى، وفى المقابل استمر العامة ثمان سنوات لا يألون جهداً ولا يدخرون وسيلة فى الإصرار على مطالبهم ، وفى النهاية رأى الأشراف ، وقد أنهكتهم حروب ومناوشات كانت تتأجج حول روما ، أنه لا انتصار على العدو الخارجى قبل وضع حد للنزاع فى الداخل ، فوفقاً لرواية لم يتم الموافقة على تدوين القوانين إلا بعد صراع ضار ، حتى الضرب بالأيدى المسلحة بين أنصار تدوين القوانين وشريحة من الأشراف الراغبين فى الحفاظ على الحالة القائمة . وكانت الغلبة لروح التعقل بين الأشراف والموافقة على ضرورة تدوين القوانين حتى تخمد نار الفتنة ، وقرر الاتفاق مع العامة على ذلك كما اتفقوا معهم ، وفقاً لرأى البعض ، على ارسال بعثة من ثلاثة أعضاء دون الإشراف إلى أثينا لدراسة تشريعات صولون والتشريعات اليونانية ، وبعد غيبة دامت سنتين عادت البعثة إلى روما ، واوصت بانتخاب لجنة من عشرة الأخرى ، ولكن هذه الرواية لا يوجد عليها دليل ، ومن ثم يعتقد العلماء أن خبر هذه البعثة ليس إلا تفسيراً لتأثر القوانين التى دونت فى روما بالقوانين التى كانت مطبقة فى المدن اليونانية بايطاليا ، وكان الرومان على اتصال بها منذ أمد بعيد ، وإن كان البعض يرى أن بعض التأثير اليونانى قد انتقل إلى روما من خلال الاترورييين .

ويبدو أن نقباء العامة قد أرادوا فى البدء أن يكون تدوين القوانين على يدهـم، ولكن الأشراف اجابوهم أنه من الجلى أن النقباء يجهلون ما هو القانون فقـد قـالوا أنه لمن المستحيل استحالة تامة أن يصدر العامة قوانين ، وخاطبوهم "أنتم الذيـن لا استخارات لكم أنتم الذين لا يقومون بأعمال دينية بينكم وبين الأشياء المقدسة التـى يجب أن يُعد القانون من بينها" . وأمام هذا الخلاف اقترح النقباء حلاً وسطاً فقـالوا ما دمتم لا تريدون أن يكتب أحد العامة القانون فلنختر الشارعين من الطبقتين ومـن هنا اعتقدوا أنهم قد سمحوا بالكثير، ورد مجلس الشيوخ عليهم أنه لا يعترض مطلقاً على تدوين القوانين لكن لا يمكن أن يدونها إلا الأشراف ، وانتهوا بإيجـاد وسـيلة للتوفيق بين مصالح العامة وبين الضرورة الدينية التى كانت تطـالب بـها طبقـة الأشراف ، فقرروا أن يكون الشارعون جميعاً من الأشـراف علـى أن تعـرض قوانينهم قبل إقرارها وتنفيذها على المواطنين وتخضع للموافقة المبدئية من جميـع الفئات .

واتفق الأشراف والعامة على أن تشكل لجنة تحل محل القنصلين والنقيبيـن حتى يتم انجاز تدوين القانون وتشكلت لجنة عرفت بلجنة العشرة ، وكل الأعضـاء كانوا من الحكام السابقين ، وزودت اللجنة بسلطات مطلقة فـى أداء وإدارة شـئون البلاد الداخلية ، هذا فضلاً عن قيامه بمهمة تدوين القوانين التى انتخبت من أجلـها وعلى حد قول إحدى الروايات كان الفيلسوف اليونانى هـيرمودوروس مـن بلـدة افسوس وصديق هيراقليطوس كان يساعد هذه اللجنة .

وقد سار العشرة فى عملهم فى أثناء حكمهم بما يرضى الشعب كله وبخاصـة العامة ، ونهضوا بأمور القضاء بغير تجبر ، وأخذوا يناقشون كل مسألة قانونية فـى جلسة عامة فى ساحة المدينة ، ويتقبلون كل رأى صائب من المواطنين حتـى تـم إعداد عشرة ألواح عرضوها على جمعية المينئات التى قبلتـه وصـادقت عليـه ،

وبذلك أصبح القانون متفق عليه من الجميع ، وتشير الرواية إلى أن أعضاء اللجنـة قد أخذوا يتركون من يروج اشاعة أن عمل اللجنة لم يتم حتى نجحوا فـى إعـادة اختيار اللجنة فى ٤٥٠ ق.م لمدة عام آخر بينما ترى رواية عابرة أنه تـم اختيـار لجنة نصفها من الأشراف ونصفها الآخر من العامة ، وفى رواية ثالثة فإن غالبيتـها كان من الأشراف وأن ثلاثة من أعضائها فقط كانوا من العامة ، وأن رياستها قـد بقيت لابيوس كلوديوس ، ووفقاً للرواية فقد عملت هذه اللجنة علـى نحـو مغـاير مغايرة عجيبة لما التزمت اللجنة الأولى به من حكمة واعتدال وتقرب من الشـعب فأعدت لوحين آخرين ولم تناقش ما ضمنتهما مـن قوانيـن مـع المواطنيـن ولـم تعرضها على المجالس الشعبية ، وقد وصف شيشرون قوانيـن اللوحيـن بظلمـها الصارخ وعدم الإنسانية فى التفرقة بين الأشراف والعامة (Inhumanissima).

وتستمر الرواية فى القول بأن أعضاء هذه اللجنة سلكوا فى الحكـم مسـلك الاستبداد الجانح إلى الطغيان فراحوا ينفون من يريدون ، ويحكمـوا بـإعدام مـن يخالف لهم رأياً أو أو أمراً ويقتلون من يعاديهم ويغتصبون أموالهم ويضمونها إلـى انفسهم ، وأن رئيسها أبيوس كلوديوس أظهر ما ستره فى اللجنة الأولى من تجـبره ضد العامة وأبرزته الروايـة فى صـورة من جمحت به شهواته إلى غـير حـد حتى بلغ فى قصته مع فرجينيـا (Verginia) ابنـة لوكيـوس فرجينـوس (Lucius Vergenus) أحد العامة والمخطوبة إلى ايكيلوس ، وكـانت ذات جمـال آسر وأنه سدى ضاعت وسائله لاستمالتها إذ ركنـت إلـى العفـة فـى صمـود ، واعتصمت بالشرف فى إصرار ، وشط به الهوى الجامح فاداه إلى حيلـة شـيطانية بشعة فادعى أحد اتباعه ماركوس كلوديوس فرجينيا محبوبته إنمـا هـى أمـة لـه سرقت فى طفولتها ورفع دعوى يطلب إعادتها إليه (تمهيداً لوضعـها بعـد الحكـم بأنها أمة تحت تصرف سيده) ، ولما كان أبيوس كلوديوس هو المهيمن ، بوصفـه

رئيس لجنة العشرة، على السلطة القضائية، فإن الحكم فى الدعوى مرجعه إليه هو، وبرغم دفاع والد الفتاة فإن الحكم صدر بتقرير الرق ، وصحة ادعاء التابع ، وهنا اتجه والدها إليها بسكين فطعنها طعنة قاتلة وهو يقول أى بنية هذه وحدها هى الوسيلة لرد الحرية إليك ، ثم رفع خطيبها ايكيليوس جثتها وطلب من الجمهور المحتشد أن يرى ما فعله أبيوس كلوديوس الطاغية .

أدت هذه الحادثة إلى ثورة شعبية عاتية ، وفقاً للرواية ، بين جمهور الحاضرين وفر على أثرها الطاغية ، وذهب والد الفتاة إلى فرقته وحكى لرجالها ما دار فثارت ثائرتهم ، وكانت روما فى حالة حرب مع كل من السابين والايكوى، فعاد الجيش إلى روما وعزل الرجال العشرة ، خاصة أن مدتهم كانت قد انتهت . وكان الأشراف والعامة ساخطين عليهم لعدم تنازلهم عن السلطة ، وفى نفس الوقت كان مجلس الشيوخ قد قرر إقالتهم والقبض عليهم .

وعموماً يرى نفر من الباحثين أن هذه الرواية بعيدة عن الحقيقة وأن اللجنة الأولى هى التى أعيد انتخابها ، ولكن نتساءل لماذا غيرت هذه اللجنة من مسلكها من الاستشارة للشعب إلى الاستبداد والتجبر به ؟

لعل هذا يشير إلى وجود بعض بذور الحقيقة فى الرواية الثانية والقائلة بانتخاب لجنة ثانية شارك فى عضويتها نفر من العامة ، البعض رأى أنهم كانوا نصف أعضائها ، والبعض الآخر أنهم كانوا ثلاثة أعضاء فيها . ولعل مشاركة العامة لم يكن لهم تأثير بالنسبة لاتخاذ القرار خاصة لو أخذنا فى الاعتبار أن ثلاثة من العامة قد شاركوا فيها ، وهو الأقرب إلى الحقيقة ، ومن ثم لم يكن لهم تأثير نظراً لقلتهم فى اللجنة ، كما يفترض أن أعضاء جدد دخلوا فى عضوية اللجنة استغلوا ما تم منحه لهم من سلطات مطلقة سواء فى الإثراء أو فى التنكيل على

حساب الخصوم ، كما أن انقلاب أبيوس كلوديوس إلى الطغيان قد يمكن تفسيره أن أعضاء اللجنة الأولى كانوا ذوى عقول راجحة أوقفت ميوله الطغيانية ، وفى ضوء هذا يمكن القول إن لجنة ثانية تم انتخابها وأن سلوك وتصرفات هذه اللجنة أثارت حفيظة جمع كبير من الأشراف قبل العامة . وأن نتيجة الثورة هو العودة إلى النظام القديم بعد استرضاء العامة التى كانت قد اضربت ولجأت إلى الجبل المقدس ، وتم انتخاب القنصلين والنقيبين مرة أخرى ، وعرض القنصلان اللوحين على المجالس الشعبية لاقرارهما ، ونهضا أيضاً بنشر قانون الألواح الاثنى عشر كله بعد نقشه على ألواح برنزية .

وقد ضاعت هذه الألواح عند غزو الغال لروما ٣٩٠ ق.م ، وقد آثار هذا الحدث الكثير من القضايا بين الباحثين ، ومن ذلك كيف تم إعادة تلك القوانين وتجميعها ؟ وهل وجد بها تأثيرات أجنبية ؟ وحول تاريخ تدوينها يرى البعض أنه قد أمكن استجماع التشريع وفقا لأحداث الروايات، بالعثور على الألواح أو بعضها، بينما تقول رواية أخرى أنه تم استرجاعها بالاعتماد على ما وعته الذاكرة وما كان يتناقل بالحفظ ، إذ يشير شيشرون أنه حتى فى زمانه كان الأطفال يحفظون الألواح الاثنى عشر فى المدارس .

يقر الباحثون المحدثون أن مجموعة قوانين الألواح الاثنى عشر قد وصلتنا بطريقة غير مباشرة حيث أمكن الوصول إلى كثير من قوانينها وذلك بالرجوع إلى ما ورد فى مصادر مختلفة منها كتب فقهاء القانون الرومانى من أمثال جايوس ومن جمع لهم جستنيان فى موسوعته القانونية ، ومنها كتب الأدب اللاتينى مثل كتابات شيشرون وايليوس جيلليوس وديونيسيوس ، ومنها كتب التاريخ ومنها كتب النحاة الذين كانوا يستشهدون للغة القديمة بنصوص من الألواح ، مثل فيسيوس (Fesius) ، وفارون (Varon) . ولكن يختلف الباحثون المحدثون هل ما تم جمعه

هو القانون بعينه ؟ أم أنه قد حدث به تعديل وتبديل ؟ يرى العالم الإيطالى بونفنتى (Bonfante) أن ما جمع على هذا النحو من المصادر الآنفة الذكر يكاد يكون هو التشريع الأصلى ويستدل على ذلك بأن اكتشاف نظم جايوس فى عام ١٨١٦ لم يضف شيئاً يذكر على ما كان أمكن تجميعه منه .

ويعارضهم هذا الرأى نفر آخر من الباحثين، على الرغم من اتفاقهم معه فى ضياع تلك الألواح وأنه أعيد تكوينها من المصادر السابقة ، فقد رتب دى فرانشيسكى (Di Francisci) على إعادة تكوينها واستجماعها وتناقلها بالحفظ نتيجتين أولاها : حدوث تجديد فى مواضع كثيرة من النصوص فى الأسلوب، وفى بنية الجمل وتركيبها وفى النحو ، وثانيتها : أنه بدأ يُنسب إلى الألواح الاثنى عشر قواعد قانونية كانت فى عصر قديم ، ولكنها لم تكن بين نصوصها وبنودها القانونية وأحياناً قواعد ظهرت فى زمن تالى ، ويؤكد هذا الرأى العالم دف بقوله "مما يحيط به الريب هل نجت هذه القوانين من التدمير على يد الغال ٣٩٠ ق.م ولكن من المؤكد أن البقايا التى وجدت قد نالها تغيير كبير .

دار جدل بين الباحثين أيضاً حول مسألة وجود تأثيرات أجنبية وافدة عليها وانقسم الباحثون إلى مدرستين فكريتين أولاها : ويأتى على رأسها العالم فولترا إذ يرى أنه لا يوجد تأثيرات قط على القانون إذ يقول "أن الدراسة المتعمقة لقوانين الشعوب القديمة وبخاصة بالمقابلة بينها وبين المصادر القانونية الرومانية ، تكشف عن حقيقة تاريخية ثمينة باظهارها أن القانون الخاص الرومانى فى هيكله العام وفى نظرياته لا يتشابه مع أى من القوانين القديمة الأخرى المعروفة لنا بل أنه يبدو فى مواجهتها منفرداً مستقلاً .

وثانيتها : تقر بوجود تأثير أجنبى على القانون الرومـــانى ، ولكـــن اختلـــف علماء هذه المدرسة حول مصادر التأثير وانقسموا إلى ثلاث فرق . أولاها : وقـــد مثلها العالم ريفليو وقد نادى فى دراساته بأن قانون الألواح الاثنى عشر ما هـــو إلا نقل من القوانين المصرية وأن كل ما هو صحيح وعادل من قانون الرومان يعـــود للتأثير المصرى ، ولكن هذا الرأى قد رد عليه العلماء وفندوه ومنهم فولترا وليفـــى بريل وانتهوا إلى عدم وجود تأثير مصرى فيها ، وثانيتها : ويمثلها العـــالم شـــولتز (Schulz) الذى نادى بالنظرية القائلة أن قانون الألـــواح الاثنـــى عشـــر وقـــانون حمورابى والشريعة الموسوية هى صادرة عن أصل قديم مشترك ، وقد أنكر هـــذا الرأى عدد من الباحثين وفندوه ونفوا أية صلة بين قانون حمورابى وقانون الألـــواح الاثنى عشر . وثالثتها : يرى أن هناك تأثيراً يونانياً علـــى هـــذه القوانيـــن فيذكـــر البعض بوجود تأثير يونانى دون أن يحدد مصدره ، ومن هـــؤلاء اتـــورى بـــايس (Eitore Pais) الذى قال بأن قانون الألواح الاثنى عشر هو مزيج من قانون بدائـــى فظ (Rozza) هو قانون روما القديمة ، وقانون أكثر تحضراً وإنسانية هو القـــانون اليونانى بينما اختلف هؤلاء العلماء حول مسالك هذا التأثير ، فقد رأى فريق منـــهم أن التأثير قد جاء من بلاد اليونان مباشرة ويعتمدون فى ذلك على الروايـــة القائلـــة بارسال بعثة إلى أثينا وغيرها من بلاد اليونان لنقل تشريعات صولون ولتطلع علـــى نظم تلك البلاد وقوانينها ، بينما يرى البعض الآخر أن هذا التأثير قـــد جـــاء مـــن المدن اليونانية فى جنوب إيطاليا ، بينما يرى فريق ثالث أن هذا التأثير قـــد جـــاء بطريق غير مباشر من إقليم اتروريا إذ يقول ارانجو رويز "أن لجنة العشـــرة قـــد عملت بأفكار ونظم رومانية خالصة فى مجال الملكية وفى نظـــام العقوبـــة وفـــى أشكال الاجراءات والتصرفات القانونية إلا أنه عاد فـــأقر بـــالأثر الأجنبـــى علـــى التشريع بقوله أن هناك قواعد معينة مثل ما نص فيها على منع مظاهر الترف فـــى

الجنازات ، تبدو فى الحقيقة مما كان لتشريعات صولون ، ولكنها جاءت إلى روما بطريق غير مباشر من إقليم اتروريا وبغير أن يعرف المشرعون الرومان مصدرها البعيد ، ويذكر دف الرواية القائلة بأن لجنة العشرة الأولى كان يساعدها الفيلسوف هيرمودوروس من افسوس ، ويقول ولكن هذا النفوذ اليونانى المزعوم الذى أثر فى القانون الرومانى فى منتصف القرن الخامس كان محدوداً جداً لدرجة لا تسمح بالتأثير فى الطابع القومى لهذا التقنين .

ولا يسعنا إلا القول فى هذا المجال بأن هناك تأثيراً أجنبياً يونانياً على وجه الخصوص وقد يكون قد وصل إلى روما أما من خلال الاتروريين وإما من خلال المدن اليونانية فى جنوب ايطاليا وإما من بلاد اليونان الأم . كما أن قول القائلين بأصالة القانون الرومانى وعدم تأثره بالقوانين الأخرى فمردود عليه ، وذلك لوجود تطابق فى المادة السالفة الذكر الخاصة بالجنازات .

وترتب على ضياع قانون الألواح الاثنى عشر اثارة قضية بين الباحثين حول تاريخ تدوين هذه القوانين أيضاً ، وإذ كانت الروايات القديمة تشير إلى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد كتاريخ لتجميع وتدوين تلك القوانين ، فإن نفراً من الباحثين المحدثين قد شككوا فى هذه الروايات نذكر منهم اتورى بايس (Ettore Pais) القائل بأن قانون الألواح الاثنى عشر لم يكن عملاً تشريعياً صدر دفعة واحدة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وإنما هو ثمرة اعداد للأعراف القديمة لشعب روما القديمة تم على مراحل فى خلال القرن الرابع ، ثم فى نهايته جمع القانون فى نشرة ذات طابع رسمى وأنه فى مادته مزيج من قانون بدائى فظ هو قانون روما القديمة ، وقانون أكثر تحضراً وإنسانية هو القانون اليونانى وقد دعم بايس رأيه بأسانيد كثيرة بعضها يتعلق بالشكل وبعضها يتعلق بالموضوع ، كما أنه أنكر صحة تكوين لجنة من عشرة حكام ، وصحة كل ما اتصل بها من

روايات ، وأنه حدد تاريخاً لقانون الألواح الاثنى عشر ما بين عـــام ٣١٢ – ٣٠٤ ق.م) بدلاً من عام ٤٥٠ ق.م ، كما ينكر ادوارد لامبير (Edourd Lambert) أيـــة صفة رسمية لقانون الألواح الاثنى عشر ويقول أنها مجرد تجميع للمبادئ القانونيـــة الجارية مجرى الأمثال قام به فى نهاية القرن الثانى الفقيـــه الرومـــانى سكســـتوس اميليوس بيتوس (Sextus Aelius Paetus) ، ويرى عبارة الألواح الاثنى عشر لـــم تظهر إلا فى القرن الثانى قبل الميلاد ، والقنصل بيتوس هو أول من نســـب إليـــه شرح للألواح الاثنى عشر ، إنما هو جامعها من قواعد قانونية ترجع إلى عصـــور مختلفة تبدأ من العصر الفطرى وأنه صاغها صيغة شديدة التركيز علـــى طريقـــة الحكم والأمثال ، وأنه هو الذى أعطاها اسمها الأسطورى .

ويخالف هذا الرأى فريق آخر من الباحثين الـــذى نـــادى بصحـــة التشـــريع وتاريخه الباكر وهو منتصف القرن الرابع ، ودعم رأيـــه بأســـانيد شـــتى ، منـــها التاريخى الذى يؤكد وجود عشرة حكام فى سجلات الكاهن الأعظم فى الفترة التـــى تطابق رواية المؤرخين ، ومنها ما يتصل بفقه اللغة قبـــل وجـــود عبـــارات فـــى النصوص خفى معناها على رجالات الأدب فى العصر الجمهورى نفسه ، ومنها ما يتعلق بالقانون المقارن مثل إمكان التشريع على نحو ما جـــاء فـــى الألـــواح فـــى المستوى الحضارى الذى كانت عليه روما فى القرن الخامس قبل الميـــلاد ، وقـــد سار على هذا الرأى جمهرة العلماء المحدثين وإن تحفظوا فى صـــدد الكثـــير مـــن التفاصيل الأخرى مثل وجود أكثر من لجنة ومثلما نسب إلى أعضاء اللجنة الثانيـــة من استبداد وفساد ، ومثل رواية فرجينيا بوجه خاص ، عموماً لقـــد كـــان تدويـــن القوانين يمثل نقلة كبيرة بالنسبة للمجتمع الرومانى عامة وللعامة خاصـــة ، فعلـــى الرغم من أن هذه القوانين لم تأت بجديد ، إذ كان عمـــل اللجنتيـــن هـــو تصنيـــف القانون العام والخاص والقانون الجنائى واصداره فى صيغة قانونيـــة وفـــى شـــكل

قانونى بتقديمه إلى الجمعية الشعبية والحصول على تصديقها عليه . أما من حيث مضمونها فهى ليست إلا تسجيلاً لما تواضع عليه المجتمع آنذاك من بعض الأعراف فلم يكن تجميع قانون الألواح حاوياً لكل قواعد القانون الرومانى ، فقد كان عبارة عن نصوص خاصة بقواعد معينة أريد بالنص عليها نفى الشك فى وجودها أو منع الخلاف على تفسيرها أضراراً بالعامة ، وعموماً فقد كانت هذه القوانين أساساً للتشريع الرومانى حتى صدور مدونة جستنيان القانونية المشهورة ، وقد جعل تدوينها القانون يتحول من وحى للآلهة للملوك الذى أورثوه لآباء الأسر والكهنة ، إلى قانون من وضع الإنسان وبناء على رغبة المواطنين ، ومن ثم حلت الإرادة الشعبية محل الإرادة الإلهية وأصبح مبدأ القانون منذ ذلك الوقت هو مصلحة المواطن وأساسه موافقة العدد الأكبر من المواطنين ، وترتب على ذلك أن القانون صار عرضة للتغيير ، كما أن القانون لم يعد ميراثاً لآباء الأسر الشريفة والكهنة ولم يعد معرفته وقفاً عليهم وإنما أصبح مشتركاً بين جميع المواطنين حيث كانت تعرض فى السوق العامة لمن يريد قرأتها وأصبحت القوانين واضحة محددة ولم تعد سراً كما كان يحتفظ بها الكهنة ولا يطلع عليها غيرهم من المواطنين ، كما أن تدوينها حد من سلطة القناصل القضائية المطلقة .

وعلى الرغم من شدة نصوص القانون فمن الواضح أنها تمثل تيسيراً أو تطوراً بالنسبة لما سبقها من نظام أكثر قسوة وأشد تحكماً . وهو ما نلمسه فى البند الخاص بالمدين العاجز عن سداد دينه ، فقد نصت الألواح الثلاثة الأولى على أن يدعو الدائن مدينه للذهاب معه لمجلس القضاء ، وإن لم يستجب أشهد عليه ، فإن حاول الهرب كان له أن يعنف عليه ، فإن كان المدعى عليه مريضاً أو به ما يعجزه من عاهة أو شيخوخة قدم له مطية (وليس عليه تقديم عربة) ، وبعد ثبوت الحق يعطى المدين مهلة شهراً للوفاء فإن لم يف كان للدائن أن يطلب وضعه تحت

تصرفه (Manus Iniectio) ، ثم يغله بقيد لا يزيد عن خمسة عشر رطلاً ويجبره على الذهاب إلى منزله حيث يبقى ستين يوماً يأكل من ماله إن شاء وإلا وجب على الدائن أن يقدم إليه ما لا يقل عن رطل من الشعير ، ويعرض في خلال الستين يوماً في ثلاث أسواق فإن لم يقم أحد بالوفاء عنه كان للدائن حق تمزيق جسمه ارباً ، وعلى أن يتوزعه الدائنون إذا تعددوا ، كما أن للدائن حق بيعه فيما وراء نهر التيبر .

وهكذا نجد أن الشارعين نصوا في هذا البند على إعطاء مطية للعاجز ، وتحديد وزن القيد وعلى الحد الأدنى من الطعام ، ومن الواضح أن النص على هذه الأمور يشير إلى ما كان متبع قبل ذلك من قسوة سواء في جلبه واحضاره إلى المحكمة أو غله بالقيود الثقيلة أو تجويعه حتى الموت ، وهكذا فقد تم إلى حد ما التشريع القديم حول الديون .

كما أن بعض بنود القانون كانت تهدف للدفاع عن الملكية الفردية وصيانتها واضعاف سلطة الشيوخ .

وعلى الرغم من أن هذا القانون لم يزيل الفوارق الطبقية بين الأشراف والعامة إلا أنه كان ذا قيمة اجتماعية بوصفه إعلاناً للحقوق وتحديداً للجرائم ومصدراً لكل قانون عام أو خاص وفقاً لقول ليفي ، لكنه كان ذا قيمة تربوية عالية ، فقد كان يحفظ عن ظهر قلب حتى زمن شيشرون ، فكان له أثر قوي على الفكر والتعبير.

وبعد أربعة أعوام اعتصب العامة (٤٤٩ ق.م) فقد حققوا نجاحاً في مطالبهم بالمساواة الاجتماعية مع الأشراف إذ نجحوا في إبطال قانون منع الزواج بين الأشراف والعامة وجعل مثل هذا الزواج شرعياً ، وقد حدث هذا الأمر في عام

٤٤٥ ق.م عندما تقدم كـــايوس كـــانوليوس (Caius Canuleius) نقيـــب العامـــة بمشروع قانون يبيح الزواج بين الأشراف والعامة هذا فضلاً عن اختيـــار قنـــاصل من العامة ، وكانت الظروف مواتية لتحقيق المطلبين ، فعلى الرغم مـــن مقاومـــة الأشراف للزواج المختلط فقد اضطرتهم الظروف فى ذلك الوقت إلى التنازل عـــن هذا الامتياز من خلال موافقة مجلس الشيوخ على اقتراح النقيب كـــانوليوس ، فقـــد كانت روما مهددة من الأعداء الذين أرادوا أن يثأروا لأنفسهم منها، كما أن تنـــاقص عدد الأشراف بشكل مطرد جعلهم معرضين لفقد مكانتهم العلية ، ومن ثم فلم يجـــدوا غضاضة فى الموافقة على إباحة الزواج بين الأشراف والعامة واعتـــبروه شـــرعياً وذلك بإقرار مشروع قرار كانوليوس والذى تحول إلى قانون (Lex Caunleia) . والجدير بالذكر أن ثراة العامة هم الذين استفادوا من هذا القانون حيـــث تصـــاهروا مع الأشراف وسمت منزلتهم . بينما بقيت الحواجز بين جل الطبقة الدنيـــا وطبقـــة الأشراف ، فلم يسمح بهذا التزاوج إلا على نطاق ضيق .

وبهذا الإجراء فقد تمت المساواة الاجتماعية ولم تعد طبقة الأشـــراف طبقـــة منغلقة على نفسها وسيبدأ العامة النضال من أجل تحقيق مطالبهم السياسية والمدنيـــة كاملة .

ب- الاعتراف بسلطة ترابنة العامة :

لقد كان احتجاج العامة والأشراف على سلوك لجنة العشرة الثانيـــة برئاســـة "أبيوس كلوديوس" عارماً نظراً لما مارسته اللجنة من أعمال تعسفية ظالمـــة ضـــد المواطنين هذا فضلاً المسلك السيئ لرئيسها والذى سبق الحديث عنه والتى انتـــهى بقتل فرجينيا وما أثاره من شجون وثورة غضب فى نفوس الأهالى والجيش ونـــزول الجيش وعزل لجنة العشرة ، ثم انسحاب العامة إلى الجبل المقدس ، تاركة رومـــا

لاشرافها ، وانتخابهم عشرة ترابنة ، فى نفس الوقت عمل مجلس الشيوخ على اجبار لجنة العشرة على الاستقالة والقبض عليهم تنفيذاً لطلب العامة ، والتى طالبت بنفيهم من البلاد ، فتم نفيهم جميعاً عدا أبيوس كلوديوس الذى أرسل مكبلا إلى السجن ويقول البعض أنه انتحر بينما يؤكد البعض الآخر أن أعداءه أعدموه ، وفى نفس الوقت وعد مجلس الشيوخ العامة بتنفيذ مطالبهم الخاصة بإعادة ترابنتهم واعترف الأشراف بهم ممثلين للعامة ومن ثم فقد أصبحوا من عداد أرباب الوظائف العامة الذين يتمتعون بنفوذ (Potestas) دون أن يكون لهم سلطة تنفيذية (Imperium) ولم يعد فى وسع أحد أن يتحدى تدخلهم دفاعاً عن حياة العامة وممتلكاتهم ومصالحهم مستخدمين فى ذلك حق الاعتراض على أعمال وأفعال الموظفين العموميين وعلى أعمال أى زميل من ترابنة العامة وعلى الانتخابات والقوانين والقرارات الصادرة عن السناتو (Senatus Consulta) وعلى مشروعات القوانين المعروضة أمامه قبل أن تصبح قرارات ، وتنفيذ مشيئتهم بالقوة الجبرية إذا لزم الأمر ، ونتيجة لهذا فقد أصبح لهم حق حضور جلسات مجلس الشيوخ لمتابعة ما يدور فيها من مناقشات ، كما أن عددهم قد زاد وأصبح عشرة ترابنة ، ويتم انتخابهم من قبل جمعية القبائل (Comitia Tributa) التى حلت محل مجلس العامة .

والجدير بالذكر أن سلطات الترابنة قد زادت بعد ذلك ففى حوالى عام ٣٠٠ ق.م أصبح يحق لهم تقديم أى موظف عام سابق للمحاكمة أمام جمعية القبائل مما جعلهم الحراس على المصلحة العليا للدولة ، من حيث سوء استخدام الحكام سلطتهم فى أثناء توليهم الحكم ، ولم يأت عام ٢١٦ ق.م حتى أصبح لهم حق دعوة مجلس الشيوخ للانعقاد ، وصار من حق من شغل وظيفة التريبون ، فى القرن الثانى ، أن يصبح مؤهلاً لعضوية مجلس الشيوخ .

حـ- جمعية القبائل (Comitia Tributa) ٤٤٩ ق.م :

بعد صدور قوانين الألواح الاثنى عشر فـــى عـــام ٤٤٩ ق.م قـــام العامـــة بالاعتصاب والانسحاب من روما ، وهذا الاعتصاب أحل العامة مـــن فـــوق تـــل الاثنتين جمعية القبائل الرومانية جميعاً محل مجلس العامة وجعل قراراتها ملزمـــة للدولة كلها . وقد جمعت هذه الجمعية الأشراف والعامة على حد سواء ولمـــا كـــان العامة يمثلون الاغلبية العظمى من عدد أفراد القبائل ، فقد كـــان لـــهم الغلبـــة فـــى التصويت وفقاً للنظام المتبع حيث كانت كل قبيلة تمثل وحدة انتخابية مثلما كان فـــى مجلس العامة ، وهذه الجمعية كانت تقوم سنوياً بانتخاب نقباء العامة الذين اصبـــح عددهم عشرة والايدلين ومع ذلك يختلف الباحثون فيما بينهم إلى فريقيـــن إذ يـــرى فريق منهم أن هذه الفترة شهدت هيئتين لا هيئة واحدة ، وهما مجلس العامة القبلـــى (Concilium Plebis Tributum) ، ويرأس اجتماعاتها الترابنة وجمعيـــة القبـــائل (Comitia Tributa) ويرأس اجتماعاتها القناصل ، ويستند أصحاب هـــذا الـــرأى على فقرتين وردتا فى المصادر القديمة ، ولكن أغلب الظن أنهما تصوران تفســـيراً قانونياً متأخراً أكثر مما تصوران حقيقة واقعية ، ويرى الفريق الآخـــر أن جمعيـــة القبائل قد حلت محل المجلس القبلى الذى تم تأسيسه فى عام ٤٧١ ق.م ، ويرفـــض أن روما عرفت هيئتين فى ذلك الوقت ، ويقدمون من البراهين ما يعضـــد وجهـــة نظرهم بقولهم أن القبيلة كانت الوحدة الأساسية للتصويت فى جمعية القبائل واعتبـــار رأى غالبية كل قبيلة معبراً عن صوتها ، ولما كان عدد العامة فى كل قبيلـــة يمثـــل الغالبية العظمى فيها وتفوق عددهم على عدد الأشراف ، فقـــد كـــانت الغلبـــة فـــى التصويت للعامة ولم يستطع الأشراف التحكم فى الجمعية الشعبية من خلال اتباعـــهم كما فعلوا فى جمعية الأحياء ، ونتيجة لذلك شـــك كثـــير مـــن البـــاحثين فـــى أن الأشراف كانوا يشاركون فى أعمال هذه الجمعية ، ونتيجة لهذا فيرى هـــذا الفريـــق

أنه ليس هناك مبرر لقيام هيئتين بعد إنشاء جمعية شعبية رسمية للقبائل ، كما يرون أنه لا يوجد ما يبرر أن انعقاد جمعية القبائل برياسة الترابنة وانعقادها برياسة موظفين عموميين يتمتعون بسلطة الامبريوم بأن ذلك ينم عن وجود هيئتين مختلفتين ولكن يرى هذا الفريق أن الأمر يتعلق بهيئة واحدة .

وما يمكننا قوله هنا هو أن بقاء اصطلاح مجلس العامة مستعملاً مدة طويلة، يرجع إلى حقيقتين أولاها هى أن مجلس العامة ان الأصل الذى نمت منه جمعية القبائل ، وثانيتهما هى أن جمعية القبائل كانت أكبر نصير لمطالب العامة ومصدر أكثر القرارات التى حققت مكاسبهم ، على الرغم من عضوية الأشراف بها والتى لم يكن لها تأثير فى القرارات نظراً لقلة عدد أفرادها مقارنة بأعداد العامة فيها . وإذا ما أردنا تبرير رياسة الترابنة والقناصل لها نقول أنه فى الأصل كان الترابنة هم الذين يدعون هذه الجمعية إلى الاجتماع ويتولون رياسة اجتماعاتها ، لانتخاب ترابنة العامة والايدليس ، وكذلك للتعرف على وجهات نظر العامة فى القضايا التى تعنيهم وتصدر القرارات (Plebescita) بمعنى "ما أقره العامة" (Plebi Scitum) ، تمييزاً لها عن القوانين (Leges) التى تصدرها جمعية يرأس اجتماعاتها موظف عام مزود بسلطة الامبريوم ، وكانت قرارات العامة لا تكتسب قوة القانون إلا بعد مصادقة مجلس الشيوخ عليها بعد ذلك مثلها فى ذلك مثل قرارات جمعيتى الأحياء والميئينات حتى عام ٣٣٢ ق.م ، وبمقتضى قانون بوبليليوس (Lex Pubillia) الذى أصدرته جمعية الميئينات فى عام ٣٢٩ ق.م تقر تطبيق قرارات جمعية القبائل على كافة المواطنين إذا أقرها السناتو .

ومن الممارسة العملية ظهر للقناصل على ما يبدو ، أنه أيسر لهم اصدار التشريعات من جمعية القبائل منه فى جمعية الميئينات لأن الأولى يمكن عقدها داخل روما ذاتها ، بينما لا يمكن عقد جمعية الميئينات إلا خارج سياج روما

المقدس، كما أن نظام التصويت فى الأولى كان أقل تعقيداً من الثانية ، كما أنه ليس هناك ما يمنع القناصل من رياستها ودعوتها للانعقاد نظراً لأنها تضم العامة والأشراف على حد سواء ، ونتيجة هذه الميزات أخذ القناصل منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد يستخدمون جمعية القبائل لاصدار التشريعات ، وفى هذه الحالة كان القناصل هم الذين يدعونها للانعقاد ، ويرأسون جلساتها ، ويعرضون عليها مشروعات القوانين ، فإذا ما أقرتها الجمعية صارت قوانين ، ولكن لا تصير نافذة المفعول إلا بعد إقرار السناتو لها ، بيد أن هذا القيد ألغاه قانون الدكتاتور هورتنسيوس (Lex Hortensia) فى عام ٢٧٨ ق.م وبذلك صارت قرارات الجمعية القبلية قوانين سارية المفعول بمجرد صدورها ، ومن أهم الاختصاصات التى اكتسبتها تلك الجمعية أيضاً أنها كانت تقوم بدور محكمة عليا فى القضايا السياسية وتنتخب الكوايستورس وايديلس الأشراف فضلاً عن انتخابها لايديلس العامة وتراتبتهم .

جملة القول أن إنشاء هذه الجمعية قدم فرصة جيدة للعامة التى لم تعد صامتة ، وعموماً فإن أثر الاعتصاب الذى قامت على أثره الجمعية ، كان محدوداً ، ولكنه كان هاماً فقد صار من الممكن للعامة أن تختار فى الوظيفة الأشراف المعتدلين الذين هم على استعداد للوفاق والمواءمة .

وكان من نتائج اعتصاب ٤٤٩ ق.م الطيبة أيضاً هو موافقة الأشراف على حق العامة إلى الالتجاء إلى مجلس المائة لاستئناف ما كان يصدره كبار الموظفين أياً كانت منزلتهم من أحكام . وبذلك تم الحد من السلطات القضائية لكبار الموظفين المطلقة .

٢- تولى العامة الوظائف العامة :

فى الوقت الذى وافق فيه الأشراف على إباحة الزواج بين الأشراف والعامة، حاول الأشراف عدم التخلى عن امتيازاتهم السياسية ، ولكن على ما يبدو أن الضغوط الخارجية من القوى المجاورة والضغوط الداخلية من قبل العامة قد أجبرتهم على أن يغيروا فى هيكل الوظائف ، فقد أحلوا ، فى عام ٤٤٤ ق.م ، محل القنصلين قادة عسكريين يحملون السلطة القنصلية ، وكان عددهم يتراوح ما بين ٣ - ٦ ، ولعل زيادة العدد يعود إلى حالة الحرب والسلام بين روما وجيرانها ، فكانت تشتعل الحرب على أكثر من جبهتين أحياناً مما دفع الرومان لخلق هذه الوظيفة وسمحوا للعامة بتوليها نتيجة لهذه الظروف .

وأمام احلال الترابية العسكريين المزودين بالسلطة القنصلية محل القناصل ، ونتيجة لمشاركة العامة فى شغل وتولى هذه الوظائف الجديدة ولزيادة عدد السكان والمواطنين الرومان ولاتساع رقعة الإقليم الرومانى وفى نفس الوقت رغبة الأشراف فى الإقلال والحد من سلطة القنصل التى سمحوا للعامة بشغلها فقد ظهرت الحاجة إلى خلق وظيفة جديدة هى وظيفة الرقيب ٤٤٣ ق.م ، وقد كان شغلها قاصراً فى البداية على الأشراف دون العامة ، وعندما عاد الرومان إلى نظام القناصلين القديم وأحلوه محل الترابنة العسكريين المزودين بسلطة القناصل فقد سمحوا للعامة بشغل هذه الوظيفة ، وكان ذلك فى عام ٣٦٧ ق.م حيث قام النقيبان جايوس ليكينيوس (Gaius Licinius) ولوكيوس سكستيوس (Lucius Sextius) باستصدار قانون حصل العامة بمقتضاه على حق أن يكون أحد القنصلين كل عام من العامة وبدأ هذا الأمر فى عام ٣٦٦ ق.م وفى نفس العام حصل العامة على حق تولى وظيفة الايديل الكوريالى (Curule Aedile)على أن يتناوبوا مع الأشراف شغل هذه الوظيفة عاماً فعاماً .

وأخذ العامة يتقدمون تقدماً سريعاً فى سبيل المساواة السياسية بين الطبقتين فى الفترة ما بين ٣٥٦ – ٣٣٧ ق.م سمح للعامة بتولى الوظائف العليا الأخرى ، فقد حصل العامة فى عام ٣٥٦ ق.م على حق تولى الدكتاتورية حيث تولاها جايوس ماركيوس روتيلوس (Gaius Marcius Rutilus) ، وفى عام ٣٥١ ق.م حصلوا على حق تولى وظيفة الرقيب عندما انتخب جايوس ماركيوس روتيلوس ، وفى عام ٣٣٧ ق.م حصلوا على حق شغل وظيفة البريتورية حيث تم انتخاب كوينتوس بوبليلوس فيلو (Cuintus Pobblius Philo) وكان قد شغل من قبل وظيفة الدكتاتور فى عام ٣٣٩ ق.م ، وكان الأشراف قد أنشأوا هذه الوظيفة للحد من سلطة القناصل القضائية حيث تولى البريتور السلطة القضائية .

٣- تولى العامة عضوية مجلس الشيوخ:

حقق العامة انتصاراً آخر عندما سُمح لهم بدخول مجلس الشيوخ وقد جاء ذلك بطريقة تلقائية ، فما دامت النظم تقضى بأن من حق المواطنين العموميين السابقين أن يكونوا أعضاء فى مجلس الشيوخ ، ومادام العامة قد شغلوا تلك الوظائف فقد كان من الطبيعى أن يدخلوا المجلس وينالوا عضويته ، وتشير الروايات أنه ابتداء من عام ٤٠٠ ق.م بدأوا ينضمون لعضوية السناتو بشكل منتظم وتنامت أعدادهم بعد توليهم القنصلية ، إذ تشير الروايات أنه إبان الفترة ٣٦٦ – ٢٦٥ ق.م تولى القنصلية من العامة تسعون شخصاً وأصبحوا بعد عام حكمهم أعضاء فى السناتو ، وهناك عاملان قد ساعدا على زيادة أعضاء السناتو من العامة وهما : ١- حصول العامة على تولى الوظائف العامة الأخرى ، ٢- اصدار التربيون اوفينيوس (Ovinius) لقانون (Lex Ovinia) صار بمقتضاه من حق الرقيب اختيار أعضاء السناتو من بين أفضل الموظفين مهما تكن مرتبتهم

(Optimum quemque ex omni ordine) ، ويبدو أن السبب وراء اصدار هـــذا القانون هو الرغبة فى اختيار أعضاء السناتو من الموظفين العموميين السابقين ، مهما كانت أصولهم وذوى السلوك الطيب وليس قصر الاختيار من الأشراف وكـل من القناصل والرقباء السابقين ، ومن ثم فقد كان يحـق للبريتورين السابقين أن يحصلوا على عضوية مجلس الشيوخ ، ولكن أطلق على العامة الذين حصلوا علـى عضوية السناتو اسم خاص هو (Conscripti) تمييزا لهم عن أعضاء المجلس مـن الأشراف الذين كانوا يعرفون من القدم باسم (Patres) ، واحتفظ بهذه التفرقة فـى صيغة الخطب الرسمية التى تلقى فى المجلس وموجهـة إلـى أعضائـه ، فكـان المتحدث فى المجلس يخاطب اعضاءه بالعبارة التالية (Patres et Conscripti) ، وهذا يجرنا إلى ملاحظة أن اشتراك كل من الأشراف والعامة كأعضاء فى مجلـس الشيوخ قد خلق فئة جديدة من الأرستقراطية تتألف من شاغلى الوظائف العامة فـى الدولة ويمكن أن تسـميها أرستقراطية مجلس الشيوخ وقد عرفـت باسـم النبـلاء (Nobulites).

وتذكر الروايات أن الرقيب ابيوس كلوديوس فى عـام ٣١٢ ق.م قـد قـام باستخدام السلطة المخولة له ، فقام بمراجعة قوائم أعضاء مجلس الشـيوخ وأدخـل بها الكثير من العامة وبعض أبناء العبيد المعتقين ، وقد أثار هذا الاجراء اعـتراض من قنصلى ذلك العام ويقال أيضا أن القنصلين اغفلا القائمة التـى أعدهـا ابيـوس كلوديوس ولم يدعوا إلى اجتماع السناتو إلا الأعضاء الذين كـانوا مسـجلين فـى القائمة السابقة ، ثم أصدر تشريعا آخر إذ سمح بمقتضـاه للمقيميـن مـن الحلفـاء اللاتين والإيطاليين فى روما ولم يسبق تسجيلهم فى قبائل بـأن تـدرج اسـماؤهم وتسجل ممتلكاتهم فى أية قبيلة شاءوا ، ونتيجة لهذا المزج بين الأشـراف وأبـرز رجالات العامة أى من أهل اليسار منهم أن تكونت ارسـتقراطية جديـدة تختلـف

اختلافاً عن ارستقراطية الأشراف ، كما أدى إلى تغذية السناتو بعناصر ممتازة ومن ثم لم يؤد الصراع بين الأشراف والعامة إلى ضعف السناتو بل أدى إلى تقويته .

وفى ضوء المصادر فقد كان يقوم باقتراح عضوية مجلس الشيوخ سواء قبل عام ٤٤٤ ق.م وبعد عام ٣٦٧ ق.م القناصل والترابنة العسكريون المتمتعون بالسلطة القنصلية ، والذين حلوا محل القناصل ، فى الفترة ما بين ٤٤٤ و٣٦٧ ق.م ، والدكتاتور ونخبة العشرة فى الظروف الاستثنائية أو الرقباء ومجلس الشيوخ نفسه .

٤- العامة وعضوية الهيئات الدينية :

كانت عضوية الهيئات الدينية (Collegia) حكراً على الأشراف حتى عام ٣٦٨ ق.م ، وابتداء من هذا العام بدأ العامة فى شغل عضويتها هيئة وراء هيئة ، فقد ومشاركة الأشراف فى عضويتها ، ففى هذا العام فقد صار للعامة الحق فى عضوية الهيئة المختصة بجمع النبوءات المقدسة لوحى سيبلى والحفاظ عليها وتفسيرها بعد أن زاد عددها من اثنين (Duoviri Sacris Facivndis) إلى عشر ، (Decemviri, Sacris Facivndis) على أن يكون نصف هذا العدد من العامة ، وفى عام ٣٠٠ ق.م أصبح للعامة الحق فى عضوية هيئة كبار الكهنة والعرافين ، وذلك وفقاً لقانون و جولنيوس والذى قضى بزيادة عدد أعضاء هيئة كبار الكهنة من أربعة إلى ثمانية وعلى أن يكون نصفهم من العامة وزيادة عدد أعضاء هيئة العرافين من خمسة إلى عشرة وعلى أن يكون نصفهم من العامة . ونلاحظ أن نتيجة لدخول العامة فى عضوية الهيئات الدينية لم يعد بوسع الأشراف استغلال الدين فى تعطيل نشاط العامة السياسى .

٥- منح جمعية القبائل حق اصدار القوانين :

كانت جمعية القبائل تصدر القوانين ولا تصير نافذة المفعول إلا بعد مصادقة مجلس الشيوخ عليها ، وقد قام كوينتوس هوتنسيوس الدكتاتور ٢٨٧ ق.م بإصدار قانون صار لجمعية القبائل بمقتضاه الحق فى إصدار قرارات وقوانين سارية المفعول دون أن يسبقها أو يعقبها موافقة ومصادقة السناتو عليها ، وبهذا الاجراء زادت الممارسة الديموقراطية للعامة .

٦- حصول العامة على حق استئناف الأحكام الصادرة من قبل كبار الحكام :

تشير المصادر القديمة المتأخرة إلى اصدار القنصل البريتور فاليريوس فى عام ٥٠٩ ق.م قانون يبيح للمواطنين الرومان حق الاستئناف ضد الأحكام الصارمة والقاسية التى يصدرها القناصل فى روما ، أمام الجمعية الشعبية ولكن استثنى القانون الأحكام الصادرة من قبل الدكتاتور ويرى نفر من الباحثين المحدثين أنه لا يوجد سند تاريخى لهذه المعلومات ، ويرون أن أول صدور لحق الاستئناف قد جاء ضمن قانون الألواح الاثنى عشر ، فقد أيد حق المواطنين الرومان فى أن يستأنفوا (Provacare) إلى الجمعية الشعبية أى حكم يصدره أى حاكم أو أية محكمة ، وأنها جعلت الرأى النهائى فى الأحكام بالإعدام أو بالنفى من حق أعلى جمعية (Comitiatus maximus) تحت رياسة حاكم يتمتع بسلطة الامبريوم . ويرفض هذا النفر أيضاً اصدار قنصل آخر لقانون بنفس المعنى فى عام ٤٤٩ ق.م ويستطرد هذا النفر بالقول أن الوقائع تشير إلى عدم احترام الأشراف لتطبيق هذا القانون المدون فى قانون الألواح الاثنى عشر ، وتحاملهم عليه ، ولكن لا يوجد لدينا ما يؤيد هذا الرأى ، فقد يكون صدور قانون فاليريوس ٥٠٩ ق.م حقيقى

وتغافل الأشراف عن تطبيقه ، ومن ثم فقد أعيد التأكيد عليه فـــى قــانون الألـــواح الاثنى عشر وهو قانون تضمن جمع بعض السنن والأعراف القانونيـــة الرومانيـــة السابقة ، قبل تدوينها فقد يكون من بين هذه السنن هذا القانون ، ويبدو أن الظـروف الداخلية فى روما قد دفعت قنصل عام ٤٤٩ ق.م فاليريوس فى التأكيد على مـا ورد فى قانون الالواح الاثنى عشر حتى يضمن الهدوء واخماد القلاقل فى ذلك الوقـت ، ويرى هذا النفر من الباحثين أيضاً أن الأشراف قد حصنوا القناصلين علـى تعييـن دكتاتور مكانهما لتعطيل حق الاستئناف فى قانون الألواح الاثنى عشـر ، ويمكننـا قبول هذا الرأى بالنسبة لفترات الأزمات والأخطار الخارجية والداخلية والتى كـانت تهدد روما وحتى تستطيع مواجهتها ، وليس للتهرب من تنفيذ قـانون الاســتئناف ، ويؤيد ذلك أيضاً أن العامة كان لهم الحق ابتداء من ٣٥١ ق.م فـى شـغل وظيفـة الدكتاتور ، وفى رأينا ، على ما يبدو ، أن صدور قانون القنصل فاليريوس فى عـام ٣٠٠ ق.م كان يهدف لاستكمال تحديد السلطة المطلقة لكبـــار الموظفيــن جميعـاً المتمتعين بسلطة الامبريوم بما فيهم الدكتاتور كما منـــع هــذا القــانون أى حــاكم رومانى من انزال عقوبة الجلد أو عقوبة الإعدام ضد أى مواطن قدم اســتئنافاً مــن الحكم الصادر ضده .

ونلاحظ أن ممارسة حق الاستئناف كانت مقصورة على الأحكام الصــــادرة فى المنطقة الواقعة داخل سياج روما المقدس ومن المحتمل أيضاً أن مســافة ميــل واحد خارج هذا الســياج ، وذلك قياساً على المنطقة التى كان يحــق للـتربيون أن يعترض فيها على الأحكام والتدخل لحماية أرواح وأملاك المواطنين ، إمــا خــارج هذه المنطقة فقد كانت سلطة الحكام التنفيذية مطلقة ولا يجــوز اســتئناف الأحكــام الصادرة عنهم .

وبتطبيق حق الاستئناف عموماً فقد نجح العامة فى ضمان حقوقهم القانونيـــة وفى نفس الوقت فقد استفاد من هذا القانون الأشراف أيضاً فليس كل من كان يُحكــم أو تصدر عليهم أحكام من العامة .

٧- العامة وتحقيق جانب من مطالبهم الاقتصادية :

إذا كان العامة قد حققوا النجاح تلو النجــاح فـــى مجــال الحقــوق المدنيــة والسياسية والقانونية فإنهم قد حققوا بعض النجاح فى المجـــال الاقتصـــادى ، فقــد جاهدوا من أجل إعادة توزيع الأراضى العامة التى وضع الأشراف ايديـــهم عليـــها والتخفيف من عبء الديون وفوائدها العالية التى أثقلت كواهلهم ، وكانت اســتدانتهم بسبب غيابهم عن أرضهم للقتال من أجل روما وقد تسبب ذلك فى إهمـــال الأرض وعدم قدرتها الإنتاجية الكاملة على الوفاء بالديون مما كان يتسبب فى نزع ملكيتـــها ولم يرحم الدائنون مدينيهم .

وإذا كانت بعض المحاولات قد فشلت لإعادة توزيع الأرض والتخفـف مــن أعباء الديون ، فقد نجح العامة من خلال قانون نقيبى العامة ليكينيوس وسيكســتوس والذى صادق عليه الدكتاتور كاميللوس ومجلس الشيوخ فى عام ٣٦٧ ق.م وقضــى هذا القانون بتخفيض أصل الديون بمقدار ما وفى به من فوائدها وأن يؤدى البــاقى بعدئذ فى خلال ثلاثة أعوام ، وألا يحق لإنسان فيما بعــد أن يحــوز أكــثر مــن خمسمائة فدان رومانى (٣٠٠ فدان) من الأرض العامة ، وألا يتجاوز العبيد الذيــن يعملون فيها بنسبة معينة من العمال الأحرار وألا يزيد عدد رؤوس الماشـــية عــن خمسمائة رأس ، وما زاد عن ذلك يوزع على الفقراء ، وقد خلد كاميللوس زعيــم الأشراف هذا الاتفاق بين الطبقات بإنشاء هيكل وفاق فخم فى السوق العامــة ومــع ذلك لم يحقق هذا القانون العلاج الدائم للحد من سعر الفائدة المرتفع ، ومن ثم فقــد

جاهد العامة لمدة عشر سنوات لتحقيق ذلك ، فقد صدر فى عـام ٣٥٧ ق.م قـانون يحدد سعر الفائدة بنسبة ٨,٥ % ، وإذا صح ما يقوله المـؤرخ تـاكيتوس مـن أن قوانين الألواح الاثنى عشر كان يتضمن مثل هذا القانون ، فـإن جشـع المرابيـن واغفالهم مراعاة أحكام هذا القانون قد أديا إلى احيائه . ثم تحقق تخفيف آخر لعـبء الديون والحد من جشع المرابين عندما قرر القنصلان فى عـام ٣٥٢ ق.م تكويـن هيئة خماسية لتقديم القروض من الأموال العامة لقاء رهونات مناسبة وتسوية ديـون المعسرين بإشهار إفلاسهم ، ثم تقرر فى عـام ٣٤٧ ق.م تخفيض سعر الفائدة إلـى ٥ % وأمهل المدينون ثلاثة أعوام لتسديد ديـونهم ، ويقال أنه فى عـام ٣٤٢ ق.م قد تـم حظر إعطـاء قروض بفائدة ولكن فيما يبـدو لم يعمل بهذا الحظر طويـلا، وحدث تطور آخر لصالح المدين عندما صدر قانون بوتيليـوس (Lex Poetelia) فى عام ٣٢٦ أو ٣١٢ ق.م الذى نص على ضرورة قبـول أيـة أمـلاك يقدمـها المديـن وفاء لدينه وبعدم جواز الاستيلاء على شخص المدين إلا بحكم صادر مـن محكمـة قضائيـة ترتب على ذلك القضاء على عـادة رهـن شـخص المديـن واستعباد المواطنين .

ومع كل هذه الإجراءات فقد استمرت مشكلة الديون وذلك لكـثرة الحـروب التى خاضتها روما من جهة ومن جهة أخرى نتيجة لاستخدام العملة فى المعـاملات واحلالها محل نظام المقايضة وتبعا لهذا فقد زادت وطأة الديـون بالنسـبة للطبقـة الدنيا ، مما جعل أفرادها يجأرون بالشكوى ويطالبون ، بعد الحـروب السـمنية ، مجلس الشيوخ باعفائهم من بعض التزاماتهم لأصحاب الديون، لكن المجلس، بحكـم تكوينه، كان يميل لمصلحة هؤلاء الدائنين ، رفض طلب العامة ، فاعتصب جنـود العامة وهددوا بالانسحاب من المدينة فاضطر المجلس إلى تعييـن هورتنسـيوس ،

وهو من العامة ، دكتاتوراً فى عام ٢٨٧ ق.م لوضع حد لـــهذه القضيـــة ، ونجـــح هورتنسيوس فى رفع الكثير من المظالم عن كاهل العامة .

جملة القول أن العامة قد حققوا بعض النجاح فى تحقيق مطالبهم الاقتصاديـــة، وعلينا الآن الانتقال للحديث عن تطور الدستور الرومانى فى ضوء كل من صـــراع الأشراف والعامة وفى ضوء حروب وعلاقات روما الخارجية .

الدستور الرومانى وتطوره :

كان الأشراف القليلو العدد (٧ % أو ٨ % من الرومان) يـــهيمنون هيمنـــة تامة على أزمة السلطة التنفيذية والتشريعية فى بواكير العصر الجمهورى ، فكـــانت مناصب الحكام وعضوية الهيئات الدينية وعضوية السناتو حكراً عليـــهم ، وتبعـــاً لذلك فقد مارسوا السلطة العليا فى روما ووجهوا سياســـتها الداخليـــة والخارجيـــة وهيمنوا على تصريف العدالة بما يتفق مع صوالحهم وتحكموا فى قرارات جمعيـــة الأحياء والجمعيات الأخرى فى التصديق على هذه القرارات أو نقضها وإبطالها .

وقد عرفنا فى الفصل السابق تخلى الأشراف رويداً رويداً عـــن احتكـــارهم للسلطة التنفيذية والتشريعية ، وذلك باشراكهم للعامة فى شغل المنـــاصب التنفيذيـــة ودخولهم فى عضوية مجلس الشيوخ والهيئات الدينية ، ولم يكن موافقتـــهم منحـــة وإنما أتت تحت ضغط الظروف والتهديدات الخارجية والتى استغلها العامة أحســـن استغلال لتحقيق مطالبهم مطلباً وراء مطلب وبشكل سلمى فى الغالب الأعم ، بحيث أنه عند نهاية الفترة محل الدراسة نجد أن الدستور الرومانى قـــد أصبـــح دســـتوراً مختلطاً، وسنحاول أن نعرض لكل من السلطة التنفيذية والتشريعية فى الصفحـــات التالية .

أولاً: السلطة التنفيذية :

منذ قيام الجمهورية فى روما نجدها قد انشغلت برد عدوان أعدائها وبالفتوحات سواء فى سهل اللاتين أو فى خارجه فى شبه الجزيرة الإيطالية ، وتبعاً لذلك فقد انشغل البريتورس القناصل فى المهام العسكرية خارج روما ولم يعد فى استطاعتهم إدارة شئون روما المدنية ، ومن ثم فقد كان من الضرورى إيجاد وظائف يشغلها موظفون يقومون بالمهام المتعلقة بالسلطات المدنية والقضائية فى الدولة ، فقد ظهرت وظائف الكويستور والبريتور والترابنة العسكريين المزودين بالسلطة التنفيذية ، والايديل والكنسور ، وكان هؤلاء الموظفون يتدرجون فى السلك الوظيفى والذى كان أدناه الكويستورية ثم يليها الايدلية ثم يليها البريتورية وعلى رأس هذا السلك كان القنصل ، فى أغلب الفترات ، وفى الفترات الاستثنائية الدكتاتور ، لجنة العشرة ، والترابنة العسكريون ذوو السلطة القنصلية . وسنحاول أن نعرض لسلك الوظائف حسب ترتيبها وتدرجها الوظيفى وليس حسب تاريخ ظهورها وإن كنا سننوه لذلك فى الحديث عن كل واحدة منها .

ونود أن ننوه إلى أن الخدمة العسكرية كانت شرطاً أساسياً وتقليدياً قبل الدخول فى سلك الوظائف ، حيث كان الشباب الرومانى يقضون عادة الفترة ما بين سن السادسة أو السبعة عشر حتى سن السابعة والعشرين ويصل بعدها الشباب إلى منصب نقيب فرقة (Tribunus Legionus) أو قائد فصيلة خيالة فى القوات المساعدة (Praefectus) ، وبعد تسريحه من الخدمة يلتحق الشاب بأول وظيفة مدنية حيث يصبح عضواً فى مجلس العشرين (Viginti Viri) ، وكانت سلطات هذا المحبس محدودة ، وبعدها يبدأ الشاب فى التطلع للترشيح لأولى وأدنى وظائف السلك الوظيفى وهى وظيفة الكويستورية .

١- الكويستور Quaestor :

نشأت هذه الوظيفة فى بداية الحكم الجمهورى وكانت ذات طبيعة قضائيـــة ، وكان عدد الكويستورس فى البداية اثنين . وكـــان القنصـــلان يقومـــان بتعيينـــهما لمساعدتهما فى إدارة شئون العدالة وقد أنابهما القنصلان فى النظر فى قضايا القتـل دون مبرر (Quaestores Parricidii) ولما كان القنصلان همـــا اللـــذان يقومـــان بتعيينهما فلم يعدا من الموظفين العموميين ، ولكن ابتداء من عام ٤٤٩ ق.م اعتـــبر شاغل وظيفة الكويستورية موظفاً عاماً ، وكان ذلك عندما تقرر أن تنتخب جمعيـــة القبائل (Comitia Tributa) فى كل عام كويستورين من الأشراف أى أنها كـــانت فى البداية قاصرة على الأشراف ولكن سمح للعامة بعضويتها والترشح لشغلها فـــى عام ٤٢١ ق.م وتم زيادة عدد أعضائها من اثنين إلى أربعة ، وأصبح اثنان منـــهم يشرفان على الخزانة العامـــة فـــى معبـد الإلـــه ســـاتورنوس ، وأطلـــق عليـــهم (Quaestores Aerarii) ، (Quaestores Urbani) ويراقبـــان جمـــع الضرائـــب والمكوس والغرامات وحفظ الوثائق السياسية الهامة . بينما يقوم الآخران بمســـاعدة القنصلين ومرافقتهما إلى ميدان الحرب وذلك للأشـــراف علـــى تدبـــير متطلبـــات واحتياجات الجنود من المؤن والرواتب ، وعموماً فقد كان أمينا الخزانة العامة أهـــم الكويستورس جميعاً .

وقد فقدت الكويستورية كل اختصاص قضائى لها منذ ظهور وظيفة البريتور فى عام ٣٦٧ ق.م ، وأصبح اختصاص الكويستورس قاصراً على الشئون المالية .

وتقرر زيادة عدد الكويستورس مرة أخرى فى حوالى عـــام ٢٦٧ ق.م إلـــى ثمانية نظراً لتزايد احتياجات الدولة فى مجال الاشراف على شـــئون حلفائـــها مـــن

الإيطاليين ، وزاد عددهم إلى عشرين فى عهد سولا وفى عهد يوليوس قيصر زاد عددهم إلى أربعين ولكن أغسطس أنقص العدد إلى عشرين مرة أخرى .

وعموماً فقد كانت هذه الوظيفة تعد أدنى الوظائف فى سلك الوظائف العامة، بيد أن توليها كان يعد تجربة مفيدة وتدريب وإعداد ضروريان لمن كان يتطلع إلى شغل الوظائف التى تسموها . وكان إما أنه يشغل وظيفة الأيدلية أو التربيونية بعدها ، وإما أنه يتولى وظيفة البريتور مباشرة دون توليه الأيدلية أو التربيونية .

تربيون العامة :

سبق لنا الحديث عن تطور سلطة الترابنة والاعتراف بهم من قبل الأشراف والسناتو ، وبعد الحصول على الكويستورية كان يجوز للشاب من العامة الترشح لمنصب التربيونية .

الايديل Aedile :

حصل نقباء العامة على حق تعيين مساعدين لهم فى إدارة صوالح طبقة العامة ومساعدتهم فى مهام وظيفتهم ، وكان يشغل الوظيفة شخصان أطلق عليهما ايدليس العامة (Aedeles Plebies) واشتقت لفظة الايديل من لفظة (Aedes) وتعنى معبد ربة القمح كيريس (Ceres) على تل الافنتين والتى كان العامة يولونها عناية خاصة وأقاموا لها معبداً . واتخذ الايديلان من معبد كيريس مقراً للقيام بما أنيط لهما من أعمال ، وقد زادت سلطاتهما واختصاصاتهما ، فقد أشرفا على إدارة السجن وتنفيذ الأحكام التى يصدرها نقباء العامة خاصة الإعدام ، والقاء القبض على الذين يخالفون أوامر وقرارات العامة ، كما أشرفا على سجلات العامة

المحفوظة فى معبد الربة كيريس ، وحفظ قــرارات نقبــاء العامــة (Plebiscita) وقرارات مجلس الشيوخ (Senatus Consulta).

ولم تعتبر وظيفة الايدلية وظيفة رسمية إلا فى عام ٣٦٧ ق.م عندما تقــــرر أن تنتخب الجمعية القبلية اثنين من طبقة الأشراف ليشغلا هذه الوظيفة ، وأصبحــا يعرفان بالايديليس الكوريايس (Aediles Curules) ، إلى جانب اثنين من العامــة وصارا يعرفان باسم ايدليس العامــة (Aedeles Pebeli) وكــان للايدليــن مــن الأشراف مرتبة أسمى من ايديلى العامة ، فقد كان يحق للأولين استخدام الكرســـى المحمول (Sella Curules) كما كانا يتقدمان على ايدلى العامة وفقــاً للــبروتوكول الرومانى لأن الأولين كانا يملكان حق التحكيم المدنى فى الأســواق أمــا الآخريــن فكان لا يحق لهم سوى حق فرض الغرامة على مرتكبى المخالفات ، أما فيما عــدا ذلك فكانت مهامهم تكاد تكون واحدة ، وهـــى مراقبـــة الموازيـــن والمكـــاييل والأسعار وضبط حالات الغش ، كما أشرفوا على العنايـــة بالمبـــانى والمرافــق العامة والمعابد (Cura Urbis) ونظافة الشوارع وحراستها وتعبيدهـــا والإشــراف على نظافة الحمامات والينابيع والقنوات ومجارى الميـــاه والخمـــارات والمســاكن والإشراف الأخلاقى والمعنوى على العادات والتقاليد ومحاربة البذخ والبدع الدينيــة الشرقية أو الأجنبية ، والإشراف أيضاً على إقامة المهرجانات والألعاب الرياضيــة (Cura Ludorus Solleminum) والصرف عليها من معونة الدولة أو مــن دخــل الغرامات أو من أموالهم الخاص ، وحفظ الأمن والنظام فى الاحتفـــالات الدينيــة ، وإمداد روما بالحبوب وتوزيعها (Cura Annuna) ، وعمومــاً فقــد كــانت هــذه الوظيفة تماثل وظيفة مشرفى الأسواق فى بلاد اليونان والمحتسب فى الإسلام.

وتبعاً لهذه المهام السالفة الذكر فقد أصبحت الوظيفة باهظـــة التكــاليف ولا يقبل عليها سوى أهل اليسار والراغبين فى التبرع بأموالهم ، ونتيجة لذلك فقد تطلــع الطموحون من الساسة لشغلها بغرض كسب ود المواطنين الرومان .

ولم يكن تولى الايدلية شرطاً لتولى وظيفة البريتورية التى كنت تسموها فـــى المرتبة .

البرايتور Praetor :

كانت وظيفة البرايتور فى بداية العصر الجمهورى هـــى أســمى الوظـــائف الزومانية مرتبة وكان صاحبها يتمتع بالسلطة التنفيذية المدنية والعسكرية على حـــد سواء ، ولكن نتيجة للتغييرات التى أدخلها الرومان فى سلكهم الوظيفى ، فـــى ٤٤٤ ق.م تم إلغاء البريتورية وحل محلها الترابنة العسكريون ذوو الســـلطة القنصليـــة ، وظل هذا النظام معمولاً به حتى عام ٣٦٧ ق.م ، حيث عدل الرومان عنه وأحلـــوا محله حكمين حملا لقب قنصل ، وتقرر فى العام ذاته أن تنتخب جمعيتا الميئينـــات موظف جديد يدعى برايتور لمساعدة القنصلين فى أداء مهامـــهما القضائيـــة حتـــى يتفرغا للاعباء الملقاة على عاتقيهما خاصة قيادة الجيش ، وكانت تلك الوظيفة فـــى البداية حكراً على الأشراف حتى عام ٢٣٧ ق.م ولكن بدأ العامة فى شغلها بعد ذلــك التاريخ ومشاركة ومزاملة الأشراف فيها .

وكان اختصاص البريتور قضائياً فى المقام الأول وخاصة فى مجال القضـــاء المدنى ، ولكنه كان يتمتع بسلطة الامبريوم المدنى والعسكرى ، ومن ثم فقـــد كـــان يحق له قيادة أحد الجيوش عند الضرورة ، ودعـــوة مجلـــس الشـــيوخ أو إحـــدى الجمعيات الشعبية للانعقاد .

وفى المجال القضائى فقد كان دوره يقتصر على سماع المرافعات المبدئية ثم يصدر تعليماته إلى قاض (Judex) أو إلى هيئة تتألف من ثلاثة أو خمسة محلفين (Recuperatores) لدراسة القرائن والأدلة واصدار الحكم ، وكان من أهم واجبات البرايتور أن يصدر ، بمجرد توليه منصبه ، قرارا يبين فيه القواعد والفتاوى ، التى سيفصل بمقتضاها فى القضايا المنطوية على نقاط لا تعطى فيها القوانين العامة أو العرف السائد أحكاماً قاطعة ، وتبعاً لذلك فقد كان لقرارات وفتاوى (Edicta) البرايتورس المتعاقبين دور كبير فى تطور القانون الرومانى .

وابتداء من عام ٢٤٢ ق.م تقرر انتخاب برايتور ثانى للفصل فى القضايا التى يكون أحد طرفيها أو كلاهما من الأجانب وأصبح البرايتور القديم يحمل اسم برايتور المدينة (Praetor Urbanus) والآخر برايتور الأجانب (Praetor Peregrenas) .

وكان البرايتور يعين نواباً عنه لإدارة شئون القضاء فى لأقاليم الإيطالية ، وكان ينوب عن القنصلين فى حالة غيابهم عن روما ، كما كان من حق البريتور أن يصاحب أحد القناصل إلى ميدان الحرب .

وكان شاغل هذه الوظيفة بعد انصرافه وتسريحه منها كان مؤهلاً لشغل وظيفة القنصل وهى أسمى وظائف السلك الوظيفى الرومانى .

القنصلان Consul :

سبق أن تحدثنا عن أن الرومان قد أحلوا النظام الجمهورى محل النظام الملكى ، وأحلوا محل الملك حاكمين حمل كل منهما فى البداية ، لقب برايتور قنصل (Praetor Consul) ولكن هذا اللقب قد تغير وتبدل ابتداء من عام ٤٤٤ ـ

٣٦٧ ق.م وحمل الحكام إبان هذه الفترة لقب ترابنة عسكريين ذوى سلطة قنصلية وذلك نظراً للظروف الداخلية والخارجية ، فقد شغل الوظيفة أكثر من حاكمين حتى يتولوا قيادة الجيوش فى عدة جبهات ، وقد تباينت أعدادهم تبعاً لتعدد جبهات القتال ، فنجدهم ثلاثة أحياناً وأربعة أحياناً أخرى وستة فى أحيان ثالثة ، ولكن روما عدلت عن هذا النظام وعادت إلى نظام الحكم الثنائى وحمل الحاكمان لقب قنصل وأصبح الترابنة الآن ضباط وحدات فى الجيش تحت إمرة القائد العام .

عموماً وابتداء من عام ٣٦٦ ق.م فقد حمل الحاكمان لقب قنصل وكان يتم انتخابهم سنوياً من قبل جمعية الميئينات ثم تمنحهما جمعية الأحياء سلطة الامبريوم ، وتمتعا بسلطة متساوية ولكن كان يحق لكل منهما حق الاعتراض (Intercessio) على تصرفات وأعمال زميله خاصة وأنهما تمتعا بسلطة الامبريوم المدنية والعسكرية ، ومن ثم فإن ثنائية الحكم القنصلى كانت مقصودة ليحول الرومان دون استئثار شخص واحد بالسلطة ، وبهذا كان يستطيع أحدهما شل قرارات الآخر ، وانتقلت إليهما سلطة الملك وشاراته ، فكانا يجلسان على الكرسى العاجى (Sella Curulis) ، ويحيط بكل منهما أينما وجد أتباع ، يحملون شارات (Fasces) السلطة العليا رمزاً لحقهما فى انزال عقوبتى الجلد والإعدام ، ورعاية الأمن والنظام فى الدولة مع السماح للمواطنين داخل روما (Domi) باستئناف (Provocade) الأحكام الشديدة الصادرة عنهم أمام جمعية الأحياء ولكنهما تمتعا بسلطات انزال العقوبة بدون محاكمة أو استئناف خارج مدينة روما فكان يحق لهم إعدام أى مواطن أو جندى مخالف دون محاكمة مهما علت مرتبته .

وكان القناصل ينيبون عنهم محلفين (Arbitri) للفصل فى المنازعات وهيئتين قضائيتين تفصل أولاها فى قضايا الحياة (Duoviri Perduellionis) ، وثانيتهما فى قضايا القتل دون مبرر (Quaesteres Parricidii) .

وكان القنصلان يتوليا بنفسيهما قيادة الجيوش الرومانية ، وكانا يتوليان القيادة بالتعاقب يوماً فيوماً ، وكانا يتعاونا فى سبيل ذلك مع مجلس الشيوخ وبعد أن تكون المجالس ذات الصلاحية قد وافقت على إعلان حالة الحرب ، ويشرف القنصلان على اختيار المواطنين الذين ستتكون منهم الفرق العسكرية ، وينظمان فى الوقت ذاته لوائح بالضرائب المقررة على المواطنين لتغطية نفقات الحرب، ورث القناصل أيضاً من اختصاصات الملك الدينية حق استطلاع رغبات الآلهة (Auspicia) لمعرفة رضائها أو سخطها قبل الإقدام على عمل عام كما كانا مسئولين عن سلام الآلهة (Pax Darum) وإن كانا قد عهدا بممارسة الطقوس الدينية للكاهن الأعظم وجماعة العرافين (Augures) ، وعموماً فقد كان القنصلان وسطاء بين المدينة والآلهة ويتوليان تقديم القرابين العامة ويدشنان المعابد الجديدة وينظمان ويشرفان على الأعياد واحتفالاتها وكان من حقهما فى البداية تعيين موظفين لمساعدتهما فى الأمور القضائية وقد حملا اسم الكوايستورس والتى سبق لنا الحديث عنها ، وكانا يقومان بدعوة مجالس الشيوخ والميئينات والقبلية للانعقاد ويرأسان اجتماعاتها ، وكان يحق لهما أن يقترحا مشاريع قوانين على مجالس الميئينات والقبلية .

وكان المسئولون عن الشئون المالية يتشاورون معهما ويتلقون التعليمات منهما ، وكان من سلطتهما أيضاً مراقبة الأجانب والقضاء على الاضطرابات الداخلية .

وكان يتم تسلمهما لمهام عملهما فى الخامس عشر من شهر مارس ، وكان لا يحق عزلهما طوال مدة توليهما الوظيفة ولا يحاكما أثناء ولايتهما الوظيفة .

وفى البداية كان يشغل الوظيفة الأشراف إلى أن سمح للعامة بشغلها فى عـــام ٣٦٧ ق.م وفقاً لقانون ليكينيوس ، وإن كان العامة قد شاركوا الأشراف فـــى شـــغل الوظيفة التى حلت محلها فى الفترة الممتدة من عام ٤٤٤ ق.م إلى عـــام ٣٦٧ ق.م وهى وظيفة التربيون العسكرى المتمتع بالسلطة القنصلية .

ونلاحظ أن الرومان قد عطلوا العمل بنظام القنصلين فى الفـــترات الحرجـــة من تاريخهم ، فقد كان يحل محلهما الدكتاتور ، وعلى الرغم من حصـــول العامـــة على حق تولى وشغل وظيفة القنصلية إلا أننا نلاحظ أن عدد القناصل منـــهم كـــان قليلاً ، إذ تشير الاحصاءات إلى تول خمسة عشر قنصلاً من العامـــة فـــى الفـــترة الممتدة من منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الأول .

الدكتاتور Dictater :

فى البداية حمل هذا الحاكم لقب حاكم الشعب (Magester Populi) ثم تبـدل اللقب وصار (Dictater).

كانت هذه الوظيفة الدكتاتورية وظيفة استثنائية ووظيفة وطوارئ لجـــأ إليـــها الرومان أوقات الأخطار والأزمات الخارجية والداخلية كى يحلوا أية أزمة قد تنتـــج عن تداخل وتناقض السلطات وحق الاعتراض للقناصل ، ومن ثم فقد أعلن الســـناتو الدكتاتورية مراراً إبان القرنين الخامس والرابع عندما كانت الأخطار تحدق برومـــا، ولكن اعتباراً من مطلع القرن الثالث لم تعلن حالة الدكتاتورية إلا نادراً ومثل ذلـــك عندما هدد العامة بالانسحاب من روما ٢٨٧ ق.م نتيجة لأزمة الديون وأيضاً حـــدث عندما اجتاحت القوات القرطاجية إيطاليا وهددت روما فـــى عقـــر دارهـــا وكـــان القنصلان بعد استشارة مجلس الشيوخ يعينان حاكماً مطلق السلطة ولا يتم انتخابـــه

وتبعاً لذلك فلا سلطة عليه من قبل أى جمعية انتخابية ومن ثم ليكون له منفرداً كل سلطات القنصلين لمدة أقصاها ستة أشهر يتعين عليه بعدها ترك منصبه فوراً ، ورغم أن القنصلين هما اللذان كانا يختاران الدكتاتور وتعيينه وأن هذا الحاكم لا يستمد سلطة الامبريوم من القنصلين اللذين عيناه بل من الإله يوبيتر ، وبذلك كان يتمتع بسلطة غير محدودة ، وفى الحقيقة عندما كان يتم تعيين الدكتاتور يتوقف جميع الحكام عن ممارسة صلاحياتهم ولا يستثنى من ذلك سوى نقباء العامة ورغم ممارستهم لسلطاتهم ، فإنهم يفقدون حق الاعتراض النهائى (Veto) على أى اجراء يقوم به الدكتاتور إبان فترة دكتاتورية فكان الدكتاتور يتولى مختلف السلطات العسكرية والمدنية والقضائية ويمكنه أن يتصرف بحياة المواطنين (حق الحياة ، الموت) ويهيئ قوى الدولة وكان من حقه تعيين مساعد له يحمل اسم قائد الفرسان (Magester Equitum) وقد يعتزل الدكتاتور منصبه قبل انتهاء مدته إذا ما زال الخطر الذى استدعى تعيينه ولنا أنموذج طيب فى حالة كينكناتوس الذى تحدثنا عنه من قبل .

وتخبرنا الروايات أن الرومان قد اوجدوا هذه الوظيفة منذ بدايات القرن الخامس قبل الميلاد على الأرجح ، وذلك عندما عين الرومان ، وفقاً للرواية ، بوستوميوس (Postumius) دكتاتوراً لمدة ستة أشهر فى حربهم ضد الحلف اللاتينى فى عام ٤٩٦ ق.م ، ومع ذلك يرى بعض الباحثين أن الأدلة تشير إلى أنه قد تم تعيينهم فى أواخر القرن الخامس .

وفى البداية كانت هذه الوظيفة حكراً على الأشراف ولكن سرعان ما شغلها العامة ٣٥٦ ق.م وشاركوا الأشراف شرف توليها .

الرقيب (Censor) :

كان لاتساع اقليم الجمهورية الرومانية ولزيادة عبء الترابنة العسكريين المتمتعين بالسلطة القنصلية أنه لم يكن ميسوراً لهم مباشرة عملية احصاء المواطنين وأملاكهم إلى جانب الاضطلاع بمهامهم الأخرى فقد أصبح من الضرورى إيجاد وظيفة تشرف على ضبط عملية إحصاء المواطنين الرومان وحصر أملاكهم عندما أصبحت الثروة هى أساس الانخراط فى الخدمة العسكرية ، وكانت عملية الاحصاء تجرى كل خمس سنوات فى وقت الربيع ، وقد ظهرت الوظيفة لأول مرة فى عام ٤٤٣ ق.م عندما اسندت إلى موظفين تنتخبهما جمعية المبئينات ، ويتوليان منصبهما لمدة ثمانية عشر شهراً . وكانت هذه الوظيفة خارج سلك الوظائف الرومانية العامة لأنها لم تكن تشغل إلا فى بداية كل دورة احصائية أى كل خمس سنوات وعلى الرغم من أن شاغلها لم يتمتع بسلطة الاسبريوم إلا أنه كان يتمتع بمنزلة سامية نظراً لما كان يتمتع به من اختصاصات ونظراً لأهمية هذه الوظيفة فكان يراعى ألا ينتخب لها إلا من سبق له تولى وظيفة القنصلية ويتمتع بخلق كريم ، وقد ظل الأشراف يحتكرون شغل الوظيفة حتى عام ٣٥١ ق.م حين فتح المجال لشغلها أمام العامة ، وفى عام ٣٣٩ ق.م تقرر أنه لابد من أن يكون أحد الرقيبين من العامة إلا أنه لم يشغل هذه الوظيفة اثنان من العامة فى وقت واحد قبل عام ١٣١ ق.م.

وكانت المهام المنوط بهما انجازها هى على النحو الآتى :

١- تسجيل كل المواطنين الرومان وأملاكهم تبعاً لقبائلهم وتوزيعهم على الفئات والمبئينات المختلفة ، وكان يجب عليهم الانتهاء من إعداد قوائم الاحصاء خلال فترة تتراوح بين اثنى عشر شهراً وخمسة عشر شهراً من توليهما منصبيهما .

٢- فحص قوائم الاحصاء ومعاقبة الذين أعطوا بيانات خاطئة افضت إلى تسجيلهم فى فئة أدنى من الفئة التى تؤهلهم لها ثروتهم ، أو تأخروا عن تسجيل أنفسهم وأملاكهم ، بفرض غرامات عليهم .

٣- كانوا يعاقبون من اتسموا بالجبن فى ميدان القتال أو بددوا الأموال العامة أو أساءوا السلوك فى حياتهم الخاصة بالحكم عليهم بسوء السمعة (Infames) وبتسجيلهم فى فئة أدنى من الفئة التى تؤهلهم لها ثروتهم ، وبالرغم من أن مثل هذا الحكم كان يفتقر إلى صبغة القانونية الشكلية ، فإن احترام الرأى العام كان يكسبه قوة الحكم الصادر من هيئة قضائية ، بيد أنه كان فى وسع أى رقيب يأتى بعد ذلك إعادة النظر فيمن سبق ادانتهم ورد اعتبارهم باعادتهم إلى فئتهم السابقة وظل الرقباء يمارسون الرقابة الخلقية بدقة وعناية طالما تمسك الرومان بوجه عام وكذلك الرقباء بمستوى خلقى رفيع .

ومع خواتيم القرن الرابع اتسع نطاق سلطتهم ليشمل سلوك أعضاء مجلس الشيوخ فى الشئون العامة والخاصة ، وأصبح من حق الرقباء فى أثناء فحص قوائم الاحصاء مراجعة قائمة أعضاء مجلس الشيوخ لاستبعاد المجرحين من هؤلاء بوضع قرين اسم كل منهم العلامة الدالة على عدم الصلاحية لعضويته .

٤- تقدير ضريبة الملكية (Tributum) التى كانت تحصل فى زمن الحرب.

٥- كان من اختصاصهم أيضاً التعاقد باسم الدولة على استثمار ممتلكاتها وإقامة منشآتها العامة .

هكذا كان سلك الوظائف الرومانية الذى طوره الرومان وفقاً لأحوالهم واحتياجاتهم ، ونلاحظ عليه الملاحظات التالية :

١- حرص الرومان على التدرج فى شغل الوظائف من الأدنى مرتبة إلى الأعلى مرتبة فلا يحق لشخص تولى الوظيفة القنصلية إلا إذا كان قد تولى وظيفة البرايتورية (بعد إيجادها) ، وكان سلك الوظائف العامة يضم فى البداية ثلاث وظائف فقط مرتبة تصاعدياً على النحو الآتى : الكويستورية والبريتورية والقنصلية ، ولكن بمرور الزمن أدخلت وظائف جديدة مثل الأيدلية والتريبيونية وأصبح السلك مرتباً تصاعدياً كما يلى : الكويستورية ، التريبيونية ، الأيدلية ، البرايتورية ، القنصلية ، أما الدكتاتورية والكنسورية فلم تكونا فى سلك الوظائف ، وكانت الأولى وظيفة استثنائية وكانت الثانية تشغل على فترات للقيام بمهمة الإحصاء للأنفس والممتلكات .

٢- إن كل وظيفة من هذه الوظائف كانت بالانتخاب عدا وظيفة الدكتاتور الذى كان يعين بناء على اقتراح القنصلين وبعد موافقة مجلس الشيوخ .

٣- حرص الرومان على ألا يشغل الوظيفة شخص واحد وإنما يشغلها أكثر من شخص يتقاسمون السلطة والاستثناء من ذلك هى وظيفة الدكتاتور الذى كان ينفرد بمنصبه لمدة أقصاها ستة أشهر ، ولعل الرومان قد أخذوا مبدأ اشتراك أكثر من حاكم من الشعوب الإيطالية ، ولكن فكرة إعطاء قدر متساو من السلطة للزميلين أو الزملاء فى الوظيفة الواحدة فهو ابتكار رومانى ، ولعل الرومان أرادوا به أن يكون كل من الزميلين رقيباً على الآخر وحتى لا ينفرد بالسلطة ويحق له الاعتراض على قرارات الآخر .

٤- كانت مدة شغل الوظائف عاماً واحداً ، أما الدكتاتورية فكانت مدتها ستة أشهر بينما الكنسورية مدتها ثمانية عشر شهراً ، ولكن لجأ الرومان إلى نظام مد مدة الخدمة للموظف العامة إذا اقتضت الضرورة ذلك فمثلاً إذا كان القنصل على رأس الجيش ويقود معركة وانتهت مدة قنصليته فإن من حق مجلس الشيوخ

تمديد فترة حكمه حتى نهاية المعركة ، ولكن بشرط ألا يستمر حاملاً لقب قنصل وإنما يحمل لقب بروقنصل (Pro Consul) "قنصل سابق".

٥- إن انتخاب الموظفين العموميين جميعاً لم يتم فى جمعية انتخابية واحدة بل كان يجرى انتخاب القناصل والبرايتورس والكنسورس فى جمعية الميئينات وانتخاب نقباء العامة والايديل الشعبى فى الجمعية القبلية كما كان يتم انتخاب الايديل الكوريالى فى نفس الجمعية .

٦- تباينت سلطات الموظفين فقد تمتع كل من القنصل والبرايتور بسلطة الامبريوم ولكن سلطة البرايتور كانت أدنى من سلطة القنصل ، وكذلك تمتع الدكتاتور بسلطة كانت تفوق سلطة القنصل . أما بقية الوظائف فكان شاغلوها يتمتعون بسلطة أدنى من الامبريوم عرفها الرومان باسم (Potestas) ونلاحظ التداخل والتطابق بين سلطات الموظفين .

٧- نلاحظ أن سلك الوظائف الرومانية لم يكن جامداً بل كان متطوراً وفقاً لظروف الرومان الداخلية وعلاقاتهم الخارجية ، فقد أنشأ الرومان وظائف جديدة مثل البرايتور القضائى والكنسور ، ومثل الترابنة العسكريين المزودين بالسلطة القنصلية ولجنتى العشرة اللتين انجزتا قوانين الألواح الاثنى عشر .

٨- كانت الوظائف جميعها وظائف شرفية لا يتقاضى شاغلها أجراً ، وحتى تسير الأمور بدقة ومنعاً لاستغلال المنصب فقد وضع المشرع المواصفات والشروط اللازمة لكل وظيفة والحد الأدنى لسن المرشحين وشرط انقضاء مدة معينة بين آخر وظيفة كان يشغله المرشح قبل شغل المنصب الجديد ، فقد وجد قانون صدر ٣٣٠ ق.م يحظر تولى الفرد القنصلية أكثر من مرة قبل مرور عشر سنوات على آخر مرة تولى فيها هذا المنصب ، ولكن هذا القانون أغفله الرومان فى أوقات الأزمات ، مما يدل على عدم جمود النظام الرومانى .

٩- كان لسماح الأشراف للعامة بشغل وتولى الوظائف العامة المختلفة وظيفة وراء وظيفة أثره فى إثراء النظام الإدارى وذلك بتطعيمه بدماء جديدة ومواهب جديدة من العامة إلى جانب مواهب وتجاريب الأشراف .

وبعد أن عرضنا لسلك الوظائف الرومانية وتقييمنا له ننتقل الآن للحديث عن المجالس التشريعية التى كان لها دور فعال فى إدارة وتوجيه سياسة روما الداخلية والخارجية .

ثانياً : السلطة التشريعية :

شهدت الفترة محل الدراسة مولد مجالس وجمعيات تشريعية جديدة وزادت سلطاتها على حساب المجالس التشريعية السابقة عليها فى الوجود فى العصر الملكى وبقيت فى العصر الجمهورى ، فقد ورث هذا العصر من العصر الملكى مجلس الشيوخ وجمعية الأحياء، بينما ظهر فى العصر الجمهورى جمعية الميئينات ومجلس العامة ثم اختفى بعد ظهور جمعية القبائل ، وقد سبق لنا الحديث عن بعضها عند الحديث عن الصراع بين الأشراف والعامة مثل مجلس العامة وجمعية القبائل ، ومن ثم سنقصر حديثنا على المجالس والجمعيات الأخرى وهى على النحو الآتى :

مجلس الشيوخ:

كان هذا المجلس يقوم بسلطة المراقبة والإشراف ، وكان يمثل أقوى مجالس روما التشريعية ، وقد مثل الظاهر الأرستقراطى فى روما ، فقد كان الأشراف يحتكرون عضويته وشغل كراسيه ، وكان عدد أعضائه فى العصر الجمهورى

٣٠٠ عضو وسبق لنا الحديث عن دخول العامة لعضوية هذا المجلس عند الحديث عن مكاسب العامة فى صراعها مع الأشراف ، وكانت العضوية لهذا المجلس مدى الحياة لا تنتهى إلا بموت صاحبها أو لارتكابه عملاً مخلاً بالأخلاق وثبت عليه ذلك سواء من قبل مجلس الشيوخ أو الرقيب .

وكان للحكام أصحاب السلطة التنفيذية العليا "الامبريوم" (البرايتورس ، القناصل ، الدكتاتور ، القناصل ، الرقباء) الحق فى اختيار أعضائه من الحكام السابقين بناء على قانون أوفينيوس (Lex Ovinia).

وكان هذا المجلس ينعقد بناء على دعوة أحد الحكام أصحاب السلطة التنفيذية العليا ، وكانت جلساته تعقد فى قاعة هوستوليوس (Curia Hostilia) وقد يعقد جلساته داخل معبد (Concorda) أو معبد يوبيتر ، وأثناء الاجتماع وعقد الجلسات كانت لا تغلق الأبواب ، وكان من العادات اللطيفة أن يأتى الأعضاء معهم بأبنائهم ليحضروا الاجتماع وهم صامتون ، ليتعلموا السياسة والمناقشة عن قرب ، وكان يحق لكل عضو من أعضائه الإبداء بآرائه وكان الاقتراع فردياً .

تحول المجلس من مجلس استشارى أى إعطاء الاستشارات (Senatus Consulta) إبان العصر الملكى إلى مجلس له سلطات واسعة وقد أدى ذلك إلى أن الحكام المتمتعين بالسلطة التنفيذية العليا كانوا يشغلون مناصبهم لمدة عام واحد ، بينما كان السناتو مجلساً مستديماً وعضويته أبدية ، ومن ثم فهو يمثل بيتاً للخبرة لما يضمه من خبرات كبيرة ، فقد كان أعضاؤه من كبار الموظفين السابقين ، وتبعاً لذلك فقد مارس السناتو نفوذاً كبيراً على القناصل أكبر مما كان يمارسه على الملوك ، فكان الحكام يعملون بتوصياته فى جميع الحالات ، واكتسب المجلس حقاً هاماً وهو المصادقة على قرارات الجمعيات الشعبية المختلفة بحيث أصبحت هذه

المصادقة (Patreum Auctorites) شرطاً ضرورياً لتصبح سارية ونافذة المفعول، وتبعاً لذلك تحول السناتو تدريجياً من مجلس استشارى إلى مجلس له سلطة رقابية عليا ، كما حصل المجلس على حق الإشراف على العلاقات الخارجية فكان يستقبل سفراء ومندوبى الدول ويجيبهم على أسئلتهم ويعين السفراء الرومان ويزودهم بالتعليمات ، وعقد المعاهدات والمحالفات مع أصدقاء وإعلان الحرب على أعداء روما وحكم المستعمرات وإدارة الأراضى العامة وتوزيعها على المواطنين ، والإشراف على أموال الخزانة العامة وانفاقها ، كما كان له سلطة الفصل فى الجرائم الكبرى كجريمة الخيانة العظمى والتآمر ، وكان فى وسعه إذا حدثت أزمة من الأزمات أن يصدر أعظم القرارات وأقواها وهى (Senatus Consultum Ultimatum) وهو أن من واجب القنصلين أن يعملا على ألا تصاب الدولة بأذى وهو قرار فرض الأحكام العرفية ويمنح القنصلية سلطة مطلقة على جميع الأفراد والأملاك ، كما كانت موافقة السناتو على تعيين الدكتاتور أساسية بعد تقديم الاقتراح من قبل قنصل أو القنصلين دون العودة إلى الجمعيات الأخرى ، وكان يسهر على القيام بالاحتفالات والطقوس الدينية ويوم الأعياد ويحدد ميزانيتها ويجيز عبادة الآلهة الجدد ويصدر حكمه عليهم ، وعموماً لم يكن هناك اعتراض على سلطاته إلا من قبل ترابنة العامة وفى فترات الدكتاتورية .

قصارى القول أن مجلس الشيوخ قد زادت سلطاته مع تعدد ميادين القتال واتسع إقليم الدولة الرومانية .

جمعية الأحياء (Comitia Curiata) :

سبق لنا الحديث عن هذه الجمعية فى العصر الملكى وقد استمرت هذه الجمعية فى العصر الجمهورى ، وكان من مهامها القيام بانتخاب القنصلين سنوياً

ومنحهما السلطة التنفيذية العليا ، بمقتضى قانون يصدره فى كل حالة (Lex Curiata de Impero) ، وكان هذا الاجراء استمراراً لما كانت تسبغه على الملوك من سلطة الامبريوم .

وكان دور هذه الجمعية هو الموافقة أو رفض الاقتراحات كما هى دون تعديل والتى يعرضها عليها الحكام أصحاب السلطة التنفيذية العليا ، ولكن هذا الرفض أو القبول لا يصبح مصدق عليه ونافذ المفعول إلا بعد مصادقة مجلس الشيوخ .

وقد ظلت جمعية الأحياء فترة طويلة تقوم بدور محكمة الاستئناف ضد الأحكام الصادرة من قبل القناصل سواء بالنفى أو بالجلد أو بدفع غرامة ثقيلة ، وإلى جانب ذلك احتفظت هذه الجمعية حتى نهاية عصر الجمهورية بحق الاشهاد على الوصايا وحالات التبنى وبحق الفصل فى شرعية البنوة .

وقد فقدت هذه الجمعية الكثير من اختصاصاتها ومهامها وحلت جمعية الميئينات محلها وأصبحت الجمعية الرئيسية ، بيد أنها فقدت أهميتها هى الأخرى أمام تزايد الأهمية التشريعية لجمعية القبائل منذ أواخر القرن السابع وعموماً فقد آل إليها حق الموافقة على إعلان الحرب بحكم تكوينها ، وأصبحت هذه الجمعية هى التى تنتخب كبار الحكام جميعاً ، وتُعرض عليها كل التشريعات ومشروعات القوانين التى تقدم ويقترحها كبار الحكام لإقرارها أو رفضها . وقبل عام ٣٥٠ ق.م انتقل إليها حق الاستئناف ضد أحكام القناصل من جمعية الأحياء ، وأصبحت هى الهيئة المخولة بالنظر فى التظلمات من الأحكام ، ولم يعد لجمعية الأحياء إلا المصادقة على انتخاب القناصل والبرايتورس ومنحها إياهم سلطة الامبريوم ،

ولكن هذا الاجراء هو الآخر صار شكلياً بعد قانون أصدره الدكتاتور فى عـام ٢٨٧ ق.م وفى نهاية العصر الجمهورى تحولت اجتماعاتها اجتماعات صورية .

وكانت عملية التصويت فى هذه الجمعية تجرى علناً اما شفاهة وإمـا برفـع اليد ، ولم يكن لكل حى إلا صوت واحد وهو صوت يعبر عن غالبيـة أعضائـها بالموافقة أو بالرفض ، وكان الأشراف يسيطرون على هذه الجمعيـة فـى البدايـة وكان لهم تأثيرهم الكبير عليها لما يحظون به من تأثير على أتباعـهم فيـها وتبعـاً لذلك فقد كانت لهم الهيمنة والسيطرة عليها .

جمعية المئينات (Comitia Centuriata) :

يرى بعض المؤرخين ، وفقاً للروايات القديمة ، أن الرومان كانوا يجتمعـون فى الوحدات المبئينية التى أوجدها الملك سرفيوس توليوس فى ميدان مارس للقتـال (Compus Martins) خارج أسوار روما ، ويطلق علـى هـذا الاجتمـاع كلمـة (Exercilus) ، وكان للملك الحق فى دعوتها بماله من سلطة الامبريوم، وقد تشـكل من الجماعات الميئينية جمعية الميئينات وعرفت باسـم (Comitia Centuriata) واكتسبت أهمية سياسية ونفوذاً منذ بداية تكوينها مادامت الثروة هى أساس قيامـها ، ويرى هذا النفر أن هذه الجمعية كانت من أهم الجمعيات السياسية عند طرد الملـك تاركوينيوس المتغطرس ، بيد أن نفراً آخر من الباحثين لا يقبل هذا الـرأى ويـرى أنه لا يعقل أن نشأتها تعود إلى زمن الملك سرفيوس توليوس وأنـها كـانت أهـم جمعية سياسية عند طرد الملك السالف الذكر ، ويدلل هذا الفريق على رفضه بـأن روما لم تكن بحاجة إلى جيش كبير ، وأنه من الأرجح أن هذه الجمعية لم تنشـأ إلا فى خلال القرن الخامس ، وذلك نتيجة لاتساع نطاق حروب روما وما ترتب علـى ذلك من زيادة للأعباء العسكرية المطلقة على عاتق المواطنين الرومـان ، وتبعـاً

لذلك ما اقتضته زيادة هذه الأعباء عن ضرورة اعطاء هؤلاء المواطنين حقوقاً سياسية تقابل أعباءهم ، ويقول هذا النفر أن جمعية الميئينات قد نمت وتطورت بشكل تدريجى منذ القرن الخامس حتى استكملت شكلها فى القرن الرابع وأصبحت أهم جمعية سياسية أكثر منها تنظيما عسكرياً .

كان الأشراف والفئة الثرية يسيطر على القرارات الصادرة عنها نظراً لترجيح كفتهم ، فقد شكلوا ٩٨ ميئيناً من ١٩٣ ميئيناً وبدأت هذه الجمعية تأخذ اختصاصات جمعية الأحياء وتحل محلها فى الكثير من الاختصاصات والتى سبق ذكرها عند الحديث عن جمعية الأحياء ، ولكن كانت مثل جمعية الأحياء توافق على مشروعات القوانين أو ترفضها دون أن تعدل أو تبدل أو تحذف فيها ، ولكن من الملاحظ أن هذه الجمعية بدأت تفقد الكثير من أهميتها لحساب الجمعية القبلية والتى سبق أن تحدثنا عنها من قبل عند الحديث عن الصراع بين الأشراف والعامة .

الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى النصف الأول من العصر الجمهورى

الزراعة والرعى:

كانت الزراعة هى الحرفة الرئيسية للغالبية العظمى من الرومان ، وقد بلغ من شأن الزراعة عندهم أن بعض الأسر الشريفة اشتقت اسماؤها من الخضر التى تعنى بزراعتها مثل (Caepiones) ، و(Fabii) و(Lentull) ، وهى مشتقة من ألفاظ معناها العدس والبصل والفول أو الحمص ، وكان الرومان يعتبرون أن مزاولة حرفة الزراعة هى أشرف الحرف وأنها تعدهم لتحمل الحروب وعنائها .

وتباينت مساحة الأراضى التى تزرعها الأسر الرومانية وفقاً لامكاناتها وقدراتها فقد كان هناك كبار الملاك ومتوسطيهم وصغارهم وتراوحت أملاك صغار الملاك ما بين فدانين وثلاثة أفدنة ، ونجح الرومان فى حل مشكلة نقص الأرض من خلال الفتوحات وإقامة الإقليم الرومانى من الأراضى المقتطعة من المدن التى حاربتها روما وهادنتها ، وعرف هذا الإقليم بأرض الرومان (Ager Romanus) وقد استغلت روما هذا الاقليم فى إقامة المستعمرات الرومانية واللاتينية المدنية والعسكرية فى المناطق الاستراتيجية منه مع تخصيص مساحات من أرض هذا الإقليم لكل مستوطنة لاستغلالها وجعل ملكية تلك الأراضى ملكية رقبة للمستوطنين. وكانت روما تهدف من وراء انشاء تلك المستوطنات بما يأتى:

١- تثبت دعائم حكمها وإحكام سيطرتها على الإقليم .

٢- خلق مصالح مشتركة بين المستوطنين المتعددى الجنسية وربطهم بروما .

٣- تخفيف عبء الأزمة السكانية سواء فى روما أو فى المدن الحليفة معـــها ممـــا قلل من تأثير العناصر المناوئة لها فى السلطة .

أما عن باقى أراضى هذا الإقليم سواء أكانت زراعية أو رعوية أو غابـــات فقد كان أرضاً عامة (Ager Publicus) ، وكانت الدولة تطرحه للإيجار .

ونلاحظ أن زيادة تركيز الأراضى الزراعية فى أيدى الأشراف إبـــان هـــذه الفترة كان بسبب ترك الكثير من صغار الزراع لأراضيهم تلبيـــة لنـــداء الواجـــب والقتال وغيابهم الطويل مما جعلهم يتركون الأرض فى رعاية من هم أدنـــى منـــهم كفاية وخبرة ، وهذا قد أدى بدوره إلى نقص غلة الأرض وهذا قد دفع هؤلاء إلـــى الاستدانة ، ونتيجة لعدم قدرتهم على سداد الديون فقد نزلوا عن ملكيـــة أراضيـــهم لصالح دائنيهم أو باعوها لتسديد ديونهم للأشراف ، فجمعوا تلك الأراضى وكونـــوا منها ضياعاً واسعة (Latifundia) واستبدلوا بزراعة الحبوب فـــى هـــذه الضيـــاع مراعى للأغنام والماعز والماشية وبساتين وحشدوا فيها عبيداً فى أغلب الأحيـــان ، وكان هؤلاء الملاك متغيبين ويأتون بين الحين والحين لزيارتها وتفقد مزروعاتـــها ، وقد بدأ هذا الاتجاه فى القرن الرابع ونمى وتزايد إبان القرنين الثالث والثانى قبـــل الميلاد ، فلم يكتف هؤلاء الأشراف على الاستيلاء على أمـــلاك صغـــار المـــلاك المعوزين بل وضعوا أيديهم على أراضى الدولة وحصلوا منها على نصيب الأســـد وأصبحت حيازتهم لها أقرب إلى الملكية الخاصة يتوارث حيازتـــها الخلـــف عـــن السلف منهم ، وهذا قد دفع عامة الرومان ومصلحيهم إلى المطالبة بالحد مـــن تلـــك الظاهرة وذلك بتحديد حيازة الحائز (Possessor) بما لا يزيد عن ٥٠٠ فدان وبـــألا يمتلك أكثر من ١٠٠ رأس من الماشية و٥٠٠ رأس من الأغنام .

واتبع الرومان الدورة الزراعية ، فكانوا يزرعـــون الأرض بـــالحبوب ثـــم يتركون الأرض من حين لآخر لتكون مراعى حتى لا تنـــهك تربتـــها ، واســـتقدم الرومان نوعاً جديداً من القمح (Frumentum) وحل محـــل النـــوع القديـــم (Far) واقبلوا على زراعته لوفرة انتاجه ولملاءمته لصناعة الخبز ، واستمر الرومان فـــى زراعة البقول والخضراوات مثل العدس والفاصوليا والبازلاء والبصل والثوم الـــذى كان من أحب المشهيات ، كما كانت الفاكهة موفرة عندهم وقد طغت زراعة التيـــن والزيتون والكروم شيئاً فشيئاً على زراعة الحبوب والخضر .

عنى الرومان أيضاً بحرفة الرعى وقد ساعد اتساع الإقليم الرومـــانى علـــى زيادة المناطق الرعوية ، وهذا قد أدى إلى زيادة تربية القطعان وزيادة أعدادهـــا ، فقد قاموا بتربية الأغنام وذلك للاستفادة من لحومها وأصوافها فى الأساس لنســـجها، فكانوا يفضلون المنسوجات الصوفية على غيرها من المنسوجات، كما ربوا الثـيران والحمير بغرض استخدامها فى الأعمال الزراعية أى الحرث والنقل ، كمـــا ربـــوا الأبقار لألبانها ولحومها وبغرض الإكثار منها ، كما عنوا بتربية الخنـــازير وذلـــك لكثرة مواليدها وتوالدها فقد احتلت عندهم مكانة طيبة ، كما ربى الرومان الدجـــاج والأوز، واستخدموا روث هذه الحيوانات والطيور كسماد لتجديد خصوبة التربة .

وعمل الرومان على الإكثار من تربية النحل مـــع زيـــادة مســـاحة إقليمـــهم الزراعى بغرض تحقيق الاكتفاء الذاتى فى انتاج العسل والحد من اســـتيراده مـــن الخارج .

ب-الحرف والصناعات:

سبق لنا القول بأن جل الرومان فضلوا العمل فى فلاحـــة الأرض ، فكـــانوا يعتبرون أن العمل بالحرف والتجارة أدنى شرفاً وأقل منزلة من ممارسة الزراعـــة ،

ومن ثم فقد قام نفر قليل منهم بالعمل فى الحرف والتجارة ، وكان هذا النفر يتكـون من الطبقة الدنيا من طبقة العامة فى روما ، كما عمل بهما اللاتيـن والاتروريين والإيطاليين واليونان المحررين والعبيد ، وكما سبق أن ذكرنـا أن أهميـة رومـا ومكانتها هى التى جذبت هذه العناصر إليها منذ زمن العصـر الملكـى ، بيـد أن المصادر تشير إلى أن عدداً كبيراً من الحرفيين قد غادر روما بعـد زوال النفـوذ الاتروري ، وتبعاً لذلك تراجع المستوى الفنى للمنتجات الصناعيـة ، ولـم يـهتم الرومان فى البداية وطوال القرن الخامس ومطلـع القـرن الرابـع إلا بـالحرف والصناعات المتعلقة بالنواحى العسكرية وأهملوا الحرف والصناعات المنتجة لمـود الاستهلاك والاستعمال اليومى ، وتشير اللقى الأثرية فى روما وسهل اللاتيوم علـى تقهقر ملحوظ فى مختلف الصناعات المعدنية والفخارية ، كما نستخلص من الآثـار توقف حركة بناء المعابد وأن المدينة لم تستطع إعادة بناء سورها الذى تهدم أثنـاء الصراع مع الأتروريين ، وتشير المصادر إلى تعرض روما للمجاعات بين الحيـن والحين طوال القرن الخامس .

كان الصناع يمارسون أعمالهم وحرفهم فـى ورشـهم الخاصـة وينتجـون للسـوق ، وقد أدى التنافس بين العمال الأحرار والعبيد الذين دخلوا سـوق العمـل إلى خفض أجور الأول ، وتبعاً لهذا فقد انحط مستواهم إلى درجة البؤس .

وكان الحرفيون الأحرار ينتظمون فى روابط أو اتحادات أو تجاوزاً نقابـات (Collegia) مثل اتحادات الزمارين والصاغة والنحاسين والحداديـن والإسـكافية والفاخورية والقصارين والنجارين والموسيقيين والطهاة ودابغى الجلود ، والبنـائين وصناع البرنز وصانعى الحبال والنساجين ، ولم تكن هذه الاتحادات تـهتم وتعنـى بمسائل الأجور أو ساعات العمل أو ظروفه وإنما كان أهـم أهدافـها هـو إدخـال البهجة والسرور على أعضائها والتخفيف عنهم فى حالات الوفـاة فكـانت تتكفـل

نفقات دفن الموتى ، وكانت روما تشرف على هذه الاتحادات كما كـــانت تشــرف على استغلال المناجم .

وإذا كانت روما قد عانت إبان القرن الخامس وبداية القرن الرابع فإن ضمــها للمدن في شمالها وجنوبها قد نتج عنه رخاء اقتصادى لها وضمـــن لـــها مـــورداً لا ينقطع عن تزويدها بما يزيد من سلع ومنتجات فكانت كـــابوا مركـــزاً للصناعـــات البرنزية وازدهرت صناعة الفخار فى كمبانيا وابوليا إبـــان القـــرن الرابـــع فكـــان الفاخورية بهما يقلدون الآنية الأثينية ، كما كان للمدن الاترورية شهرتها وبراعتـــها فى صناعتى المعادن والفخار ، وكانت منتجاتها تلقى رواجاً وطلباً فى روما ، كمـــا ازدهرت صياغة الذهب والفضة وانتاج أدوات منهما فى مدينة برانيستى فى ســـهل لاتيوم .

جـ- التجارة الداخلية والخارجية :

ا- التجارة الداخلية :

كانت هناك معوقات للتجارة الداخلية بين شبه الجزيرة الإيطالية وروما منـــها رداءة الطرق والقناطر غير المأمونة والعربات التى تجرها الثيران كـــانت بطيئـــة والاستراحات نادرة ، وكان اللصوص كثيرين ، ومن ثم انتقلت حركة النقـــل إلـــى الأنهار والبحر فكانت المدن الساحلية تستورد حاجاتها من البضـــائع بحـــراً ومـــن المدن الواقعة خلفها براً ، وكان لانشاء الطرق أثره البالغ فى تسهيل وتيسير حركـــة التجارة بين أقاليم إيطاليا المختلفة وأقدم طريق هو طريق لاتينيوس (Via Latina) ٣٧٠ ق.م على أن هذه الطرق لم تسهم فى الدفع بغلية القوم الرومان فـــى الفـــترة الأولى للعمل بالتجارة ، فقد كان رجال الطبقة العليا ينظرون بعين الاحتقـــار إلـــى

الشراء بأثمان بخسة والبيع بأثمان مرتفعة ، ولذلك تركوا التجارة الداخلية لنفر من طبقة العامة ولليونان والمحررين ، وكان الرومان عموماً يعتبرون العاملين فى هذا المجال أدنى مرتبة ، ومن ثم فلم يستدع الحرفيون والتجار للخدمة العسكرية إلا فى أوقات الضرورة الملحة ، وذلك لرخاوتهم وطراوتهم مقارنة بالفلاحين ، هذا فضلاً عن التجار فى المدن الحليفة ، وكان سكان الريف يتبادلون منتجاتهم الفائضة بمنتجات تنقصهم فى أسواق اليوم التاسع فى المدن وفى الأعياد التى تقام من حين إلى حين .

وكانت روما والرومان فى الفترة الباكرة من العصر الجمهورى تعتمد فى تجارتها على نظام المقايضة وظلت روما تقدر قيم وأثمان السلع برءوس الماشية وذلك لما لها من قيمة عند الناس ، ولأنها كان يسهل نقلها من مكان إلى مكان ، فلما اتسع نطاق التجارة استخدمت قطع من النحاس خشنة الصنع غير مهذبة تسمى (Aes) واسطة للتعامل ٣٣٠ ق.م لتثمين السلع وكان الآس (As) يزن رطلاً من النحاس وقد تزامن استخدام هذا النظام مع نظام (Pecunia) السابق عليه وهى عملة نحاسية كانت تطبع عليها فى الغالب صور ثور ، أو شاه أو خنزير ، ومن ثم سميت (Pecunia) من بيكون (Pecus) أى قطيع ماشية . ونجد أن عدم ازدهار تجارة روما لعدم سكها العملة الخاصة بها ، ولكن عرفت روما الجماعات الأخرى صاحبة الحق فى المتاجرة والمصاهرة مع الرومان وتقوم بالتجارة داخل روما وكان لها عملتها ، ومن المؤكد أن الرومان قد استخدموا الأموال التى باعوا بها سلعهم فى شراء أشياء أخرى ، وهذا يعنى أن الرومان قد أقروا استخدام هذه العملات وتداولها .

ب- التجارة الخارجية :

لم تزدهر التجارة الخارجية للأسباب الآتية :

١- كشفت لنا اللقى الأثرية التى عثر عليها فى المقابر الرومانية عن حياتهم المتقشفة والتى فرضتها أعباء الحرب واقتضت قصر الواردات على السلع الضرورية .

٢- نظر الرومان للتجارة الداخلية نظرة احتقار مما جعل الرومان لا يهتمون بالتجارة الخارجية والداخلية وتركوا الأمر لحلفائهم .

٣- لم تبلغ التجارة الرومانية فى المرحلة الباكرة من العصر الجمهورى شأناً عظيماً لأن النقل البحرى كان معرضاً للأخطار ، فقد كانت السفن صغيرة الحجم ولا تزيد سرعتها عن ستة أميال فى الساعة سواء أكانت تسير بالشراع أو بالمجاديف ، ولم تكن تبعد عن الشاطئ ولا يجرؤ معظمها على الخروج من الموانئ من شهر نوفمبر إلى شهر مارس.

٤- كان نهر التيبر دائب العمل على طمر مصبه وسد مدخل ميناء اوستيا ، هذا فضلاً عن تيار مياهه الجارفة الذى كان يجعل سير السفن صاعدة فيه إلى روما عملاً لا يوازى ما يتطلبه من مشقة وما يتطلبه من مال .

٥- كان لصوص البحر يقفون حجر عثرة أما التجار فى البحر التيرانى ، فكانوا ينقضون من مكانهم من حين إلى حين على التجار .

٦- كانت قرطاجة تسيطر على تجارة غرب البحر المتوسط على الرغم من مزاحمة اليونان فى جنوب إيطاليا والاترورريين لهم .

ونتيجة لكل ما سبق فلم يبال الرومان بالتجارة الخارجية فى النصف الأول من عهد الجمهورية ، وخير برهان على ذلك المعاهدتان اللتان عقدهما الرومان مع

قرطاجة ، وبمقتضاها أمن الرومان سلامة سهل لاتيوم من الاحتلال الأجنبي واعترفوا بمقتضاها لقرطاجة باحتكار التجارة في الحوض الغربي من البحر المتوسط ، فقد نصت المعاهدة الأولى ٥٠٩ ق.م * على البنود الآتية :

١- يحظر على القرطاجيين الاضرار بمواطني لاتيوم والاستيلاء على أي جزء من هذا الإقليم وإقامة حصون فيه .

٢- يباح للقرطاجيين دخول إقليم روما وأقاليم حلفائها اللاتين دون قيد أو شرط ، ولم تعط حقوق مماثلة للتجار الرومان وحلفائهم في أراضي امبراطورية قرطاجية إلا الموانئ القرطاجية في صقلية ، فقد كانت هي الوحيدة التي ابيح دخولها للرومان وحلفائهم وغيرهم من التجار .

٣- يحظر على الرومان وحلفائهم الإبحار غرباً وراء نقطة معينة إلا إذا اضطرتهم إلى ذلك ظروف الطقس أو الحرب ، وفي هذه الأحوال كان يتعين عليهم ألا

---

* يختلف الكتاب القدامى حول تاريخ عقد المعاهدتين فيرى بوليبوس أن المعاهدة الأولى عقدت عام ٥٠٩ ق.م . والمعاهدة الثانية ٣٤٨ ق.مبينما يرى كل من ليفي وديودورس أن المعاهدة الأولى عقدت بين روما وقرطاجة ٣٤٨ ق.م والثانية في عام ٢٤٣ ق.م ، ونتيجة لهذا الاختلاف بين الكتاب القدامى فقد انقسم الباحثون المحدثون إلى فريقين أحدهما يشايع بوليبيوس والآخر يشايع ليفي وديودورس ودار بينهما جدل ساخن ، ولكن نقول في ضوء دراسة بنود المعاهدتين أن المعاهدة الثانية في بنودها ما هي إلا تجديد لبنود المعاهدة الأولى ذات اللغة العتيقة مع إدخال تعديلات بسيطة على بنودها ، وهذا يشير إلى أنه ليس من المعقول اجراء المعاهدة الثانية بعد خمس سنوات من الأولى ، والأصح أن التجديد كان لمعاهدة يرجع عقدها حوالي قرن ونصف ويؤيد هذا الرأي الآخر أن لغة المعاهدة الأولى التي صيغت بها كانت عتيقة مما يستبعد عقدها في بداية النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد ، كما أن الحكومة الرومانية في الفترة الباكرة كانت من الأشراف أصحاب الأراضي والذين كانوا يزورون التجارة ويرون أنها تقلب الموازين الاقتصادية والاجتماعية وهو ما حدث عندما حقق بعض العامة ثراءً عريضاً ، كما أن الرومان لم يرغبوا في الصدام مع القرطاجيين وهذا قد دفعهم إلى قبول شروط المعاهدتين على هذا النحو .

يبيعوا أو يشتروا شيئاً إلا ما هو ضرورى لإصلاح سفنهم وأداء شعائرهم الدينية ، وألا تطول مدة إقامتهم أكثر من خمسة أيام ، وكان يحظر عليهم ممارسة نشاطهم التجارى حظراً تاماً فى ليبيا وسردينيا إلا تحت رقابة القرطاجيين .

وقد جدد الطرفان هذه المعاهدة سنة ٣٤٨ ق.م وبمقتضى شروطها احتفظت قرطاجة بامتيازاتها التجارية فى روما وفى لاتيوم ، وروما بأحكام المعاهدة السابقة فيما يخص سلامة سهل لاتيوم وكذلك بحرية التجارة مع صقلية ، ولكنها فقدت حق الاتجار كلية مع سردينيا وقبلت القيود المفروضة على حرية تجارتهم مع ليبيا .

وقد قبلت الحكومة الرومانية المعاهدة الأولى وذلك لأنها كانت حكومة الأشراف ملاك الأراضى والذين كانوا يعتبرون أن ممارسة التجارة أدنى مرتبة من ممارسة الزراعة والرعى ، ولعل عدم اهتمام الرومان بالتجارة يشير إليه عدم اهتمامهم باصدار عملة إلا فى عام ٢٨٩ ق.م ولم تصدر روما نقوداً حقيقية إلا فى عام ٢٦٨ ق.م وإن كان الرومان على ما يبدو قد استخدموا فى الفترة ما بين ٣٠٠ - ٢٧٠ ق.م النقود الفضية والبرنزية التى كانت مدن كمبانيا تسكنها ، وذلك من أجل سداد أثمان مشترواتهم الخارجية وكذلك لدفع رواتب الجنود النازلين فى جهات يسود فيها استخدم النقود .

ولو ألقينا نظرة سريعة على أداة التعامل الرومانية وهى العملة نقول أن الرومان الأول لم يكن لهم أى نوع من العملة ، ولكن كان لديهم نظام عملة (Pecunia) كما استخدم الرومان كتل من البرنز (Aes Uide) غير مسكوكة وزن كل منها رطل أو اثنا عشر أوقية ، ولما كانت هذه الكتل لا تحمل طابع الدولة فقد كان يتم وزنها عند التعامل بها .

وإزاء عدم وفرة هذه العملة لدى الناس جميعاً فإنه تيسيراً للمعاملات ودفع الغرامات للدولة صدر فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد قانون تقور بمقتضاه اعتبار قيمة الثور أو عشر أغنام معادلة لعشرة أرطال (A seses) من البرنز .

وفى عام ٢٨٩ قرر الرومان ضرورة استخدام العملة فى التعامل وقاموا بتعيين لجنة مكونة من ثلاثين للإشراف على دار سك العملة ، وكانت أول مهمة لها هى اصدار سبائك يزيد كل منها حوالى ستة أرطال ، وإذا كانت هذه السبائك تعتبر عملة فإنه لا يمكن اعتبارها نقوداً بمعنى القيمة ، ولم تسك روما نقوداً حقيقية إلا فى عام ٢٦٨ ق.م عندما اصدرت نوعين من النقود ، أحدهما من الفضة على النسق اليونانى وكان من فئة الدراخمتين والأخرى من فئة الدراخمة الواحدة ، وكان النوع من البرنز ويسمى (As) ويتألف من فئات متعددة هى فئات الرطل واضعافه واجزائه ، وكانت قطعة النقد الفضية من فئة الدراخمة الواحدة تساوى خمس قطع من النقود البرنزية من فئة الرطل الواحد ، واستمر الرومان فى تطوير نظامهم النقدى وهو ما سنعرض له فيما بعد .

ثانياً الحياة الاجتماعية :

١- التركيبة الاجتماعية :

تحدثنا من قبل عن أحوال الأسرة إبان العصر الملكى ونلاحظ هنا أن أحوالها قد بقيت واستمرت فى العصر الجمهورى كما كانت عليه الأحوال فى العصر الملكى ، فقد استمر التباين فى وضع الأسر تبعاً لمكانتها الاجتماعية وتبعاً لذلك فقد تباين وضع الأفراد تبعاً لوضع الأسر المنتمين إليها ، ففى البداية كانت

مكانة رب الأسرة الشريفة تختلف عن مكانة رب الأسرة من العامة إلى أن تمت المساواة بالتدريج فى الحقوق والواجبات بين الأشراف والعامة .

ونلاحظ أيضاً أن نظام التبعية (Clientela) والذى سبق الحديث عنه قد نما فى العصر الجمهورى ، فقد كان الاتباع يتألفون من عتقاء الأسرة ومستأجرى أراضيها وغيرهم ممن التمسوا حماية رب الأسرة فأصبح تبعاً لذلك راعيهم ، وقد تباين عدد الأتباع لكل أسرة تبعاً لثرائها ومكانتها الاجتماعية ونفوذها .

وكما سبق أن ذكرنا فقد أباحت القوانين زواج الأشراف والعامة ابتداء من عام ٤٤٥ ق.م ولكن لم يحدث هذا التصاهر فى الغالب الأعم إلا بين علية أو صفوة العامة والأشراف .

وكان الزواج فى الغالب يتم قبل سن العشرين وكان الحد الأدنى لسن الزواج للذكور هو الرابعة عشر وللإناث الثانية عشرة ، وكان أرباب الأسر هم الذين يزوجون أنفسهم أو ابناءهم وبناتهم ، وكانت عقود الزواج تعقد أحياناً على الأبناء فى طفولتهم وكان رضا أبوى الزوج والزوجة ضرورياً لاتمام عقد الزواج ، وتشير الروايات إلى أن من كان يرغب فى الزواج كان يفاتح أقاربه واصدقاءه برغبته هذه فيقوم هؤلاء بمعاونته بجمع المعلومات وتقصى الأخبار وموافاته بها ، فإذا ما تجمعت لديه عناصر كافية واستقر رأيه على فتاة معينة توجه إلى دار أبيها لمحادثته أو كلف أحداً القيام بذلك نيابة عنه ، فإذا أبدى الأب استعداداً اتفق على موعد الخطبة ، وفى اليوم المحدد وهو من أيام السعد ، يذهب الراغب فى الزواج محوطاً بأقاربه وأصدقائه إلى بيت أب الفتاة ، وفى هذا الجمع من الأسرتين يعلن الراغب فى الزواج ثانية ، إلى أب الفتاة ، رغبته فى الزواج من ابنته فيجيبه الأب أعطيك ابنتى العزيزة ، راجياً أن يكون فى ذلك سعادة لى ولك ولها . وهكذا

تصحب الخطبة مراسم وتقاليد معينة ، تعد رابطة قانونية بين الزوجيـــن ، وبعدهـــا كان أقرباء الزوجين يجتمعون فى وليمة ليشهدوا عقد الزواج وكــــانت (S lepula) تكسر بين أهل العروسين علامة على اتفاقهما ، وكانت شروط الزواج وبخاصة مـــا يتصل منها بالمهر تسجل كتابة ، وكان الزوج يضع خاتماً من حديد أو من الذهـــب أو الفضة فى الإصبع الرابعة من أصابع اليد اليسرى للزوجة لاعتقادهم أن عصبـــاً يسير من تلك الإصبع إلى القلب ، وكان العرس يتم فى أيام السعد وكـــانت المـــرأة ترتدى ثوب الزفاف وهو ثوب أبيض اللون خال من الثنيـــات ، وتضمـــن لنفســـها البقاء فى مجتمع تسوده المعارك والحروب ، وهكذا فقد صار الزواج واجباً قوميـــاً على كل رومانى تفرضه المدينة ، كما أن الزواج كان ضرورة تقتضيــــها الديانـــة الرومانية السائدة القائمة على عبادة الاسلاف ، كما أن الـــزواج كـــان ضـــرورة اجتماعية للمرأة فالمرأة لم يكن فى وسعها الحصول على المتعة الجنســـية إلا عـــن طريقه ، فهو السبيل الوحيد أمامها للحصول على هـــذه المتعـــة بصـــورة يقرهـــا الشـــرف ، فكان العرف يطلب من الفتيات فى جميع الطبقات الحـــرة أن يحـــافظن على بكارتهن .

وكان العرف والقانون الرومانى يجعلون الزواج اجبارياً ، ولكن هذا القـــانون قد أغفل ولم يتم تطبيقه قبل عام ٤١٣ ق.م حين فرض الرقيب كميللـــوس ضريبـــة على العزاب وكان حث روما مواطنيها على الزواج بغرض توفير العدد الكافى مـــن الشباب والرجال كى ترد عنها نفسها الهجمات ، وكان يصحب العرس كثـــير مـــن الحفلات والأغانى الشعبية وكانت أسرة العروسين تطعما فى بيت العـــروس ، ثـــم يسير أفرادهما فى موكب بهيج إلى بيت والد العريس على أنغام المزامير والأناشـــيد والمزاح الماجن ، فإذا وصلوا إلى بابه المفتوح بالأزهار تقدم العريس إلى العـــروس وسألها من أنت ، فتجيبه بعبارة بسيطة تشعر بوفائها ومساواتها وانضمامــــها لـــه ،

وهى قولها "حيث تكون كيرس أكون أنا كايا (Caia) ثم يرفعها فوق عتبــة بيتــه ، ويقدم لها مفاتيحه ، ويضع عنقها وعنقه تحت نير إشارة إلى الرابطة المشتركة بينــه وبينها ومن ثم سمى الزواج (Coneugium) أى الاشتراك فى النير ، ثــم تشــترك الفتاة فى الصلاة لآلهة البيت دلالة على أنها قد انضمت إلى الأسرة الجديدة .

وتكشف لنا المصادر عن وجود ثلاثة أنواع من الزواج ، وكان يتم الاتفـــاق فى النوعين الأولين (Cum Manu Confareatio) على انتقال الزوجة وما تملـــك من عصمة وليها – وصيها – سواء أكان أباها الحقيقى أم أخاها أم أقرب أقاربــها ، إلى عصمة زوجها (Convento in Manus) إذا كان هو أب أسرته أو إلى عصمـة أب أسرة الزوج إذا كان لا يزال على قيد الحياة .

وكان النوع الأول من الزواج يمثل الزواج الدينى ، واستمر هذا النوع مـــن الزواج فى العصر الملكى ، وكان أكثر شيوعا بين الأشراف ، ولاتمام هذا الــزواج كان يتم إقامة حفل دينى بحضور عشرة شهود وكاهن لمباركـــة الــزواج بتلاوتــه عبارات مقدسة (Sollemnia Verba) ، ولما كان فئة الأشراف تميل إلى المحافظـة على الاعراف والتقاليد فقد حافظت على هذا النـــوع مـــن الــزواج ، فــالأعراف والتقاليد كانت تشير إلى أن الابن ثمرة هذا الزواج هو الذى يصلح لأداء مهام دينيـة معينة فقط ، وهذا يفسر لنا احتكار الأشراف للأمور الدينية .

والنوع الثانى من الزواج هو "زواج البيع الصـــورى" ، وهــذا النـــوع مـــن الزواج وجد فى العصر الملكى واستمر الرومان يمارسونه فى العصر الجمـــهورى، وكان الزوج فى هذا النوع يكتسب سلطته الزوجية على زوجته وفقـا لصفــة بيـــع صورية (Comptio) ، وكان أكثر شيوعاً بين العامة وإن مارسه بعض الأشـــراف ولا يتطلب إلا حضور خمسة شهود لإتمامه وإقراره .

والنوع الثالث كانت ممارسته قاصرة على العامة وهو أبسط أنواع الـــزواج الثلاثة فكان لا يتطلب إلا موافقة الزوجين على معاشرة بعضهما بعضـــاً معاشـــرة الأزواج مع تمتع كل منهما بسلطة متساوية ، ولكن إذا قبلت الزوجة أن يعاشـــرها زوجها بشكل متصل لمدة عام ، يصبح له الحق فى اكتساب السلطة عليـــها أو رب الأسرة إن كان على قيد الحياة ، ووفقاً لقانون الألواح الاثنى عشر كانت المعاشـــرة لا تعتبر متصلة إذ قضت الزوجة فى العام الواحد ثلاث ليال خارج بيت الزوجيـــة ، وقد أخذ هذا النوع فى الانتشار بين الرومان لما كان يمنحـــه للمـــرأة مـــن حقـــوق متساوية خاصة وأن قانون الألواح الاثنى عشر كان يمنح المـــرأة الرومانيـــة حـــق الملكية .

وتشير الروايات إلى أن الرومان أقروا مبدأ الزوجة الواحدة فكان الرومـــان يعتبرونه شركة لمدى الحياة بين الرجل والمرأة سواء فيما يتعلق بالأمور الدنيويـــة أو الدينيـــة ، وتشـــير المصادر أيضاً على أن الطلاق كان مباحاً ويسهل الحصـــول عليه إلا أنه كان نادر الحدوث وعسيراً فى هذه الفترة ولا سيما فى الأسر الكبـــيرة التى تعقد زيجاتها وفقاً للزواج الدينى حيث كان الحرص شديداً على الحفاظ علـــى كيان الأسرة ، ولكن بمكن فصم عرى الزواج فى زواج البيع الصورى ، أمـــا زواج (Sen Manu) فكان الطلاق مباحاً دون الرجوع للدولة ، وقد سُجل أول طلاق عـــام ٢٦٨ ق.م وتقول إحدى الروايات المشكوك فى صحتها أنه لم يحدث قبل هذا طـــلاق قط منذ أن تأسست روما ، وكان الطلاق يتم إما للخيانة الزوجية من قبل المـــرأة أو طلاق المرأة العقيم ، وإذا كان القانون والعرف والتقاليد يلومون المرأة علـــى عـــدم عفتها ، فإن الرجال لم يلاموا على عدم التزامهم بالعفة سواء قبل أو بعد الزواج *

* لم تكن العاهرات كثيرات فى روما فى أيامها الأولى ، وكان يحرم عليهن ميزر الأمهات وهـــو شعار المرة المحترمة ولم يكن قد نشأ فى روما وقتئذ طائفة المحظيات .

وتكشف المصادر لنا عن زيجات سعيدة كثيرة وناجحة ، فشـــواهد القبـــور تنطق بالكثير من عبارات الحب والإخلاص ، وخير أنموذج على ذلك النقش التـــالى والذى يقول "لقد كنت يا استاليليا (Stalilia) بارعة الجمال إلى أبعـــد حـــد وفيـــه لأزواجك ! ولو أن من جاء إليك قد استطاع أن يقاوم الأقدار ، إليك هذا الحجر أمـــا أنا الذى نعمت بقلبك الطاهر هذه السنين الست عشرة فقد فقدتك آلا ما أشـــد أســـفى عليك !.

ونجد كثير من المراثى تكشف عن وفاء المرأة والرجل لبعضهما البعـــض ، ولدينا نقش آخر يكشف عن قيام المرأة بدورها فى البيت خير قيـــام وعـــن وفائـــها لزوجها إذ يقول : "قصيرة مقالتى أيها المتجول ، قف واقرأها حتى النهايـــة ، هـــذا الحجر المتواضع يغطى امرأة جميلة سماها والدها كلوديا أحبت زوجـــها بوقـــار ، حملت ابنين ، تركت احدهما وراءها على الأرض والآخر وارته التراب ، كـــانت تتحدث بلطف وتمشى فى نبل ، وتعنى بمنزلها وغزلها ، لقـــد انتـــهيت ، اذهـــب". ويقول نقش آخر "لقد كانت الروح الحارسة لمنزلى لقد كانت أملى وحبى الوحيـــد ، ما كنت أرغبه كانت ترغبه هى أيضاً ، ما كنت أعرض عنه كانت تعرض عنـــه ، لم يكن يخفى على أبعد أفكارها غوراً ، ولم يكن ينقصها المواظبـــة علـــى غـــزل الصوف ، كانت مقتصرة ، ولكنها كانت كريمة فى حبها لزوجها ، لم تكـــن تـــذوق الطعام ولا الشراب بدونى ، حسنة كانت مشورتها ، حاضرة كانت بديهتها ، نبيلـــة كانت سمعتها ، ويقول نقش ثالث "هنا ترقد أميمون زوجة ماركوس ، كانت طيبـــة ولطيفة ومجتهدة ، ربة بيت ، حريصة ، مقتصدة ، ووفية أيضاً ، عفة ، شـــريفة ، ورعة ، رشيدة .

وعموماً فقد كان مستوى العفة والوفاء مرتفعاً بين الزوجات فى ذلك العصـــر إذ يؤكد على ذلك تاكيتوس بقوله فى الأيام السالفة كان كل ولد يولـــد مـــن أم عفـــة

ويربى – ليس فى غرفة مرضعة مؤجرة ، وإنما بين ذراعى أمه وعلى صدرهـــا ، كان أعظم الشرف بالنسبة لها أن تعنى بتدبير منزل وأن تعيش من أجل أولادها .

وفى ضوء ما سبق لا يمكن لنا الحكم على مكانة المرأة مـــن القيـــود التـــى يفرضها عليها القانون ، فقد كان يحرم عليها أن تظهر فى المحاكم حتى ولو كـــانت شاهدة ، وإذا ما مات زوجها لم يكن لها أن تطالب بأى حق لها فى ماله ، وكان لـــه إذا شاء أن يحرمها من أن ترث شيئاً من هذا المال ، وكانت فى كل أدوار حياتـــها تحت وصاية رجل ، أبيها أو أخيها أو زوجـــها أو ابنـــها أو وصـــى عليـــها ، ولا تستطيع أن تتزوج أو تتصرف فى مالها بغير رضاه ، لكنها كان من حقها أن تـــرث وإن حدد هذا الميراث بما لا يزيد عن مائة الف سستركيس (Sesterces) أما حـــق التملك فلم يكن مقيداً بحد أقصى .

ومهما يكن هذا الوضع القانـــونى لـــها ، فإنـــها وبخاصـــة أم الأســـرة (Mater Familias) أو (Matrona) كانت تتمتع بمكانة علية فـــى حيـــاة الأســـرة وتشارك زوجها مكانته الاجتماعية ، ولم تكن حياة الرومانيات على غـــراز الحيـــاة المنعزلة التى كانت تحياها المرأة فى أثينا أو غيرها من المـــدن ، فكـــانت المـــرأة تشارك فى الحفلات الدينية فى المعابد وتقديم القرابين وفى المـــآرب التـــى يقيمـــها زوجها لأصدقائه ومعارفه ولم يكن لها جناح منعزل فـــى البيـــت فكـــانت تحتـــل الحجرات الأدنى القريبة من المدخل وتستقبل ضيوف زوجـــها وتتجـــاذب معـــهم أطراف الحديث وتفرض وجودها على الحاضرين أدباً فى الحديـــث وتحفظـــاً فـــى السلوك وكانت تتزاور مع قريباتها وصديقاتها . ومـــع ذلـــك فقـــد كـــانت المـــرأة الرومانية عموماً أميل إلى القرار فى بيتها والعيش داخلياً ، فلم يكـــن خروجـــها إلا قليلاً فقد كانت تحب بيتها وتعشق المكث وتصرف أموره وتدبر شئونه ، ومن ثـــم فقد كانت السيدة الرومانية هى المنظمة للمنزل والمشرفة على شئونه مـــن قاعتـــه

الرئيسية (Atrium) حيث كانت تغزل الصوف اللازم لنسج ملابس الأسرة وتربـى أطفالها ، كما كان لها فى شئون الدين شأن غير قليل فكان لها أن تكـون كاهنـة ، وكان من الواجبات المفروضة على كل كاهن أن يكون له زوجة ، فإذا ماتت حـرم من منصبه .

وعموماً نستخلص من الروايات أن المرأة الرومانية كـانت تتمتـع بحريـة الخروج وعدم بقائها فى المنزل ، وأن لها دوراً مباشر وغـير مباشـر فـى إدارة شئون الدولة منذ العصر الملكى فلدينا رواية خطف النساء السابينيات اللواتى أتيـن مع آبائهن لمشاهدة الألعاب وحضور الاحتفالات ، كما أن موقفهن ودورهـن فـى وقف الحرب والذى سبق لنا الحديث عنه ينم عن أن النساء كانت كلمتهن مسـموعة سواء عند السابين أو الرومان .

وإذا كانت المرأة الرومانية مثلها مثل غيرها من النساء اليونانيات لم تسـاهم بطريقة مباشرة فى تسيير دفة السياسة فى روما فلم يكن للمرأة الحق فى الاشـتراك فى نشاط المجالس التشريعية أو المساهمة فـى انتخـاب الحكـام أو حـق تولـى المناصب العامة ، والسبب فى ذلك هو أن هذا الحق كان مرتبطـاً ارتباطـاً وثيقـاً بالقدرة على أداء الخدمة العسكرية ، فإن الروايات تشير إلى دور بعض النساء فـى إنهاء ما لم يستطع الرجال القيام به ، وهذا نستخلصه من رواية جايوس مـاركيوس والتى سبق الحديث عنها ، وكيف لم ينجح رسل الرومان فى اقناعه بـالعدول عـن مهاجمة روما ثم ما تفتق عنه ذهن امرأة رومانية بأن تجعل أمه وزوجه وبنيه بـأن يحاولوا اقناعه بالعدول عن غزو روما إذ يقول بلوتارخ أن النساء كن وقتئذ يذهبـن إلى جميع الآلهة يقدسن الصلوات والدعوات ، وكان الفريق الأكبر منهن والأعـرق محتداً يوجد دائماً حول مذبح يوبيتر ، وكانت بينهن فاليريا أخت بوبليكـولا الـذى أسدى للرومان خدمات كثيرة فى السلم والحرب ، وكانت موضع احـترام وتكريـم

وفجأة خطرت بذهنها فكرة حسنة فقامت وقامت معها السيدات الأخريـــات وذهبـــن مباشرة نحو منزل فولومينا أم جايوس ماركيوس حيث دخلت فوجدتها مـــع زوجـــة ابنها جالسة وفى حجرها أطفالها الصغـــار ، وبعـــد أن أحـــاطت بـــهما الســـيدات الأخريات ، وخاطبتهما فاليريا قائلة : أتينا صوبكما يا فولومينا ويـــا فرجيليـــا دون قرار من مجلس الشيوخ ودون أمر من أى حاكم ، ولكن بوحى على ما أعتقد مـــن أحد الآلهة الذى بعد أن نظر بعين العطف إلى دعوتنا جميعاً على أن نأتى نحوكمـــا لنسألكما أن تفعلا شيئاً يكون خيراً لنا ولكل المواطنين الآخرين فى هـــذه المدينـــة ، ولكنه سيحمل إليكما إذا أردتما تصديقى مجداً أعظم وأجل من ذلك الـــذى اكتســـبه بنات السابين فى الزمن القديم عندما وضعن – محل حرب مدمرة – الســـلام بيـــن آبائهن وأزواجهن ، فأتيا معنا لنذهب جميعاً صوب جيوش ماركيوس نتوسل إليـــه أن تأخذه الرأفة بنا ، ولكى تؤديا له شهادة أنتما مدينتان بها نحو مواطنيكم بأنهم علـــى الرغم من كثرة ما قاسوه من شرور وأضرار بسببه ، فأنهم لم يحـــاولوا أن يحلـــوا بكم شيئاً منها ، ولم يفكروا فى أن يحلوا بكم شيئاً منها على سبيل المثال الانتقـــام – الذى أسوأ علاج – بل يضعونكما بين يديه سليمتين معافتين . . . الخ. فردت عليـــها فولومينا قائلة أيتها السيدات أن لنا نصيب مثلكم فى التعاسة العامة وفى نكبات بلدنـــا وفضلاً عن ذلك فإننا مثقلتان بذلك الشقاء الخاص من أننا فقدنا مجد كوريولانـــوس وفضيلته وممن نرى الآن شخصه محوطاً بأسلحة أعدائنا للاطمئنان منه أكثر منـــه للمحافظة عليه ، ولكن أكثر تعاستنا إيلاماً أن نرى بلدنا ينتهى به الأمـــر إلـــى أن يصبح كل أمله مستقراً فينا ومعقوداً بنا ، ولا أدرى ما سيكون لديه من اعتبار لنـــا حيث أنه لم يكن لديه أى اعتبار نحو المصلحة العامة ونحو بلده الذى كـــان دائمـــاً أعز عليه من امه وزوجته وبنيه ، ومع ذلك استجد منا فى كل ما تبغين وقدنا إليـــه

لأنه إذا لم يكن في وسعنا عمل شيء فعلى الأقل سيكون فى وسعنا الموت وإسلام الروح ونحن نتوسل إليه من أجل صالح بلدنا .

وقد نجحت الأم وزوجته فى إقناع ابنها بالعدول عن حصار روما ، كما تكشف لنا رواية فرجينيا – والتى سبق الحديث عنها – عن وفاء بعض النساء ، وأثر الاعتداء عليها ومحاولة الاستئثار بها فى تغيير نظام الحكم . وإجبار الحاكم على ترك زمام الحكم .

وهكذا فقد ساهمت النساء الرومانيات بطريق غير مباشر فى تقرير مصير الأمة الرومانية ، وكان للنساء مكانة عالية وسامية نظراً لعفتها ووفائها.

٢-الحياة اليومية والتربية والتعليم :

كانت الحياة اليومية للرومانى بسيطة من حيث المأكل والملبس والمسكن ، فكان مأكله قوامه اللبن وسليقة القمح أو الخبز مع بعض البقول والخضر وبعض الفاكهة ، ولم تكن اللحوم عنصراً أساسياً فى الغذاء اليومى ، فكان لا يأكلها إلا فى الأعياد وعند تقديم القرابين ، وكان شرابه اليومى النبيذ الممزوج بالماء ، وكان الرومانى الثرى يقيم المآدب وتنشد فيها أغان تشيد بالأعمال الجليلة التى قام بها أسلافه العظام . وكان الرومانى الميسور الحال يحاول أن يحقق الاكتفاء الذاتى من انتاج أرضه ومن حيواناته ، ومع ذلك فكان لا يستطيع أن يسد كل حاجاته ، ومن ثم كان يبادل ما يفيض من انتاجه الزراعى والحيوانى بما ينقصه مع رومانى آخر فى السوق التى كانت تقام كل ثمانية أيام .

وكان ملبسه الرئيسى من الصوف ، وكانت زوجته وبناتها وإمائها يقمن بغزل ونسج الصوف وصنع الملابس منه ، وبعضهن كن لا يحتجن إلا إلى

الشرائط الحمراء أو الأهداب الأرجوانية التى كانت توضع علـــى حـــواف عبـــاءة الفتيان والفتيات والحكام (Toga) ، والعباءة هى الرداء الخارجى الــذى يســتخدمه الرجال والنساء على حد سواء ، وإن كان قد أخذ يخلف العباءة فـــى هــذه الفـــترة بالنسبة للنساء رداء طويل (Stola) يصل إلى القدمين وتربطه بمنطقة تحت الثدييــن فإذا خرجن من بيوتهم لبس فوقه (Palla) أو عباءة ، وكان الملبس الخارجى للنساء والرجال قميصاً من الصوف (Tunica) فإذا خرج الرجال أضافوا إليــه رداء مــن الصوف (Tegcre) "جبة" ويتكون من قطعة واحدة يبلغ عرضها ضعفـــى عــرض لابسها ، وطولها بثلاثة أضعاف طوله ، وكانت تلف حول الجسم ويلتقـــى مــا زاد منها على الكتف اليسرى ، ثم تلف من تحت إبط اليد اليمنى وتعــود مــرة أخــرى فتلقى فوق الكتف اليسرى وتستخدم ثناياها كجيوب ، وتترك ذراع لابسها اليســـرى حرة الحركة، ولما كانت العباءة هى الرداء الصحيح الواجب ارتـــداؤه علـــى كــل مواطن رومانى خارج المنزل فقد شاع استخدام هذا الرداء بين كل حلفـــاء رومـــا الإيطاليين .

وكان الرجال والنساء يرتدون نعلاً من الجلد ، ولم يتزين الرجـــل عـــادة إلا بخاتم من الحديد ، ولكنه إذا أوفد إلى الخارج فى مهمة رسمية كان يتخذ خاتمه مــن الذهب ، وأما النساء فإنهن كن يملن إلى استخدام حلـــى ذهبيـــة ، وكـــان الرجـــال يطلقون لحاهم وشعور رءوسهم وظلوا على هذه العادة حتى عـــام ٣٠٠ ق.م حيــن بدأ الحلاقون يمارسون مهنتهم فى روما .

وفى هذه الفترة تشير القرائن الأثرية والأدبية إلى أن بعض الرومان كـــانوا يحرقون موتاهم بينما كان البعض الآخر يقوم بدفن موتاه ، وتشير قوانين الألـــواح الاثنى عشر إلى منع حرق ودفن الجثث فى روما ، وكان الرومـــان يعتقـــدون أن أرواح موتاهم تنزل عالم الآلهة السفلى (Di Enferni) ثم تعود لزيارة الأرض فـــى

أوقات معينة من السنة والتى كانت تعتبر مناسبات لإقامة حفـــلات جنازيـــة إبقـــاءً لذكرى الراحلين وكسب لودهم ودفعاً لأى أذى يمكـــن أن يلحقـــوه بالأحيـــاء مـــن سلالتهم إذ هم أهملوا شأنهم ، وتبعاً لذلك فقد كانت مقابر كبـــار الأســـرة موضـــع التكريم المبالغ فيه مادام لهم أبناء أو أحفاد على قيد الحياة ، كما أن الرومـــــان قـــد غالوا وأسرفوا فى مظاهر وترتيبات الجنازة والتى صارت لا تقل فخامة وتعظيمـــاً عن مواكب الأفراح ، فكان يسير فى طليعتها جماعة من النادبات المأجورات فلمـــا تغالين فى عويلهن وهو سن قُيد هذا الأمر بنص فى قانون الألواح الاثنى عشـــــر ، والذى يحرم عليهم اقتلاع شعرهن ويتلو هؤلاء النسوة الزمارون وقد حدد القـــــانون عددهم باثنى عشر ، ثم الراقصون على الميت واحد منهم ، ويـــــأتى بعـــد هـــؤلاء عرض عجيب لجماعة من الممثلين يلبسون أقنعة الموتى من الأسرة أو وجوهاً مـــن الشمع فى صورة أسلاف وآباء الميت الذين شغلوا مناصب ذات شأن فى الدولـــــة ، ثم يتلو هؤلاء جميعاً جثة الميت محوطة بمظاهر تبلغ من الفخامة ما يبلغه موكـــــب القائد المنتصر ، وعليها كامل اللباس المخصص لأعظم المنــــاصب الـــذى شـــغله صاحبها فى حياته ، وموضوعة فى نعش بسطت عليه أغطيـــة مطـــرزة بـــاللونين الأرجوانى والذهبى، ومن حولها الأسلحة والدروع التى غنمها ممن قاتلهم وقتلـــــهم من الأعداء، ويسير خلف النعش أبناء المتوفى وعليهم أثـــواب وأقنعـــة ســـوداء ، وبناته سافرات ، وأقاربه وأبناء عشيرته وأصدقاؤه وأتباعه وعبيده ، وإذا وصلـــت الجنازة إلى ساحة المدينة العامة وقفت ، ورثى الميت أحد أبنائه أو أقاربـــه ، لقـــد كانت الحياة فى تلك الأيام خليقة أن يحياها الإنسان ولو لم ينل منها إلا هذا التكريـــم بعد الوفاة .

وفى عام ٢٦٤ ق.م أقام يونيوس بروتس ، وهـــو مـــن العامـــة ، مبـــاراة للمجالدين فى جنازة والده ثم سار على نهجه وقلده الرومان ، وأصبحت عادة بيـــن

الرومان والجدير بالذكر أن تلك العادة كانت شائعة لدى الأترورييـــن ، ومــن ثــم انتقلت إلى الرومان .

كان التعليم يعد شأناً أسرى فلم تكن هناك مــدارس لتعليــم أولاد الرومــان وبناتهم حتى عام ٢٥٠ ق.م ، فكانت الأم تربى أولادها وتعلم بناتها الغزل والنســج وإدارة شئون المنزل ، وما أن يكبر الأبناء من الذكــور حتــى كــان الأب يتولــى تعليمهم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والألعاب الرياضية ، كالجرى والســباحة والملاكمة والمصارعة واستخدام السلاح ، ويلقنهم مبادئ النظافــة وآداب الســلوك وأساطير الأبطال وتاريخ وطنهم روما ، وبالتدريج كان الأب يصحــب أولاده فــى ذهابه إلى أرضه لتدريبهم وتعريفهم بأساليب الزراعة وطرقها ويصحبهم معه فــى أماكن ذهاب العامة فالبعض منهم كان يصحبهم إلى مجلــس الشــيوخ ، والبعــض الآخر كان يصحبهم إلى اجتماعات الجمعيات الشعبية ومشاهدة ســير العمــل بــها فيتعلمون مما يشاهدون ، ويكونوا تجارتهم العملية ، فما أن يبلغــوا ســن دخولــهم الحياة العامة حتى يكونوا قد اكتسبوا من المعرفة ما يؤهلــهم للاضطــلاع بمــهام المواطنين الصالحين لممارسة واجباتهم وحقوقهم الدستورية ، وكان ذلك يبــدأ مــع بداية بلوغهم سن الثامنة عشر من عمرهم ، ويصبحوا مؤهلين وصالحين للعضويــة فى الجمعيات الشعبية ، وكذلك للخدمة العسكرية حيث كانوا يقضون فيــها عشــر سنوات قبل أن يتطلعوا إلى الحصول على أدنى الوظائف فى سلك الوظائف العامــة "الكويستورية".

وكان هدف الرومان من هذه التربية هو خلق وتكوين النشء كــى يكونــوا مواطنين صالحين يتسمون بالرجولة والجد والبساطة والصلابة والطاعــة والــدأب على العمل والحفاظ على سنن الآباء والأجداد وأداء الواجب نحو الآلهــة والوطــن وذوى القربى .

وبفضل ما تعود عليه الرومان فى البيت ، وبعد ذلك فى الجيش من طاعـــة النظام واحترام الأوامر ، وكذلك بفضل ما انطوى عليه تصورهم للعلاقة بين الآلهـة والبشر من احساس بالفضل على نحو كان يستتبع التزام الدقة فى إقامـــة الشـــعائر الدينية غرست فيهم صفات حميدة كثيرة وبوجه خاص صفات الجـــد (Gravitas) والميل إلى الحفاظ على سنن الآباء (Mos Miorum) والشعور بالواجب (Pietas).

ولكن نظام التربية هذا كان لابد من تطويره حيث أنه لم يعد كافيــا لتكويـن رجال لديهم من الخبرة والقدرة على معالجة المشاكل والقضايا بعد توســـع رومـــا خارج شبه الجزيرة الإيطالية وحكمها حكماً سليماً .

٣-الديــانة:

زادت التأثيرات الأترورية واليونانية فى الديانة الرومانية الرسمية فقد أقـــام الرومان المعابد والهياكل والتماثيل للآلهة بدلاً من المذابح أو الأضرحـــة ، ودخـل فى العائلة الإلهية الرومانية آلهة يونانية جديدة ، فقد دخلت عبـــادة الربـــة ديميـــتر وساووها بالربة كيريس (Ceres) وديونيسيوس وساووه بالإله ليبر (Leber) فـــى عام ٤٩٦ ق.م ، كما أدخلوا عبادة التوأمين كاستور وبولوكس "الديوســـكورى" فـــى عام ٤٨٤ ق.م وصارا حاميى روما وقد سبق الحديث عن ذلك عند الحديـــث عـــن موقعة ريجيلوس بين روما والعصبة اللاتينية ، وشيد الرومان فى عـــام ٤٣١ ق.م هيكل للإله أبوللو الشافى لعله يخفف من وباء طاعون فشا فى روما وقتئـــذ ، كمـــا أدخل الرومان أيضا عبادة إله الشفاء اليونـــانى اســـكلبيوس (Ascelepius) مـــن ابيدوس ودعاه الرومان (Aesculapius) ، وقد صور فى صورة أفعـــوان ضخـــم وشيد له الرومان معبداً على جزيرة فى نهر التيبر فى صورة مشفى وذلك تكريمـــاً له وجىء بكرونس (Cronus) اليونانى وقيل أنه لا يختلف شيء عن زحل "مـارس"

ومزجوا بوسيدون بنبتــون وارتميــس بديانـــا وهيفايســتوس بفلكـــانوس وهرقــل (Heracles) بــهرقوليس (Hercules) وهـــاديس (Hades) ببلوتــون وهرمـــس (Hermes) بعطارد (Mercury) ثم زيوس الذى مزجوه بالإله يوبيتر .

كما تشير المصادر إلى زيادة اهتمام الرومان بالعرافة الأترورية ، فكــان الرومان يوفدون أبناءهم لتعلم العرافة فى المدن الأترورية ، كما استعان الرومـــان بعُراف من الاترووريين ، وأصبح لهم جماعة فى روما زادت أهميتـــها علـــى مــر السنين، وصارت منافساً شديداً لجماعة العراف الرومان ابتداء من حروب هانيبال.

الفصل الرابع

التوسع خارج إيطاليا وفى شمال إيطاليا

١- الحروب الفينيقية الأولى

٢- الحرب مع الغال والقضاء على الخطر الالليرى

٣- الحروب الفينيقية الثانية

الحروب الفينيقية والسيطرة على غرب البحر المتوسط

٢٦٤-١٣٣ ق.م

لاحظنا من قبل أن روما نجحت باستخدام القوة حيناً واللين والدبلوماسية حيناً آخر فى تكوين اتحاد جمع قوى شبه الجزيرة الإيطالية ، كما أنها حلت صراعها الداخلى بين أشرافها وعامتها وطورت من دستورها بما يتلاءم مع علاقاتها الخارجية وأحوالها الداخلية ، وخرجت فى نهاية الأمر زعيمة لا تنافس للاتحاد الإيطالى المكون من شعوب وأعراق شتى ، ولها اهتمامات شتى . كما لاحظنا أيضاً أن توسع روما وانتصاراتها فى شبه الجزيرة الإيطالية شمالاً وجنوباً، كان يصحبه أن روما تقف وجهاً لوجه مع قوى جديدة ولم يكن لها خيار إلا ان تصارع تلك القوى أو مهادنتها أو تحالفها أو يلجأ إليها بعض تلك القوى طالبة عونها ضد هيمنة وتهديدات القوى المحلية ، وتبعاً لذلك فليس بغريب بالنسبة لنا أن روما بعد أن حققت الوحدة الإيطالية أن تحتك عسكرياً بقوى خارجية أخرى لها تاريخ تليد جنوباً وغرباً وشرقاً على حد سواء ونجحت فى تحقيق التوسع على حسابها .

كانت أولى خطوات التوسع خارج شبه الجزيرة الإيطالية فى صقلية وغرب البحر المتوسط ، ولعل القول المنسوب إلى برهوس عند مغادرته جزيرة صقلية وابتعدت سفينته عنها "يا لها من ميدان قتال مدهش نتركه للقرطاجيين وللرومان" خير شاهد على سياسة روما ولعل برهوس لم يتفوه بهذا القول ولكن جاءت الأحداث فحققتها على الرغم من العلاقات الودية والصداقة والتحالف بينهما فعلى الرغم من أن علاقات روما وقرطاجة لم تكن عدائية بل كانت ودية ، فقد كان

سلوك البلدين تجاه بعضهما البعض هو الحذر الذى كان يبديه كـــل طـــرف تجـــاه الآخر وكان البلدان يشعران بالحاجة إلى وسائل الدبلوماسية وخصوصاً فى أوقـــات الأزمات لوجود عدو مشترك يتمثل فى شخص اليونان والأتروريين لإعادة التـــأكيد على أنهم حلفاء ، وكان تحالف كل طرف منهما يسعى لمطالبـــة صديقـــه برعايـــة مصالحه وبامتيازات أوسع ، كما ساعد على استمرار العلاقات الودية بين روما مـــع قرطاجة سيطرة طبقة الأشراف من ملاك الأراضى على مقاليد الأمور فـــى رومـــا والذين لم يكن لهم اهتمامات فى مجالات التجارة الخارجيـــة ، وتبعـــا لذلـــك فقـــد استمرت العلاقات الودية بين الفريقين لأكثر من قرنين ، وعقد الطرفـــان خلالـــهما سلسلة من المعاهدات عزز القرطاجيون ، من خلالـــها ، هيمنتـــهم علـــى البحـــر المتوسط إذ تحصنوا ، عبر بنود صارمة ، باحتياطات دقيقة كى لا يتعرضوا لأيـــة مخاطر من جانب حليف كانوا يدركون طموحاته خاصة بعد أن انتـــهى الصـــراع الاجتماعى الداخلى فى روما بين الأشراف والعامة وامتزاج سراة العامة من التجـار والصناع فى طبقة الأشراف بالمصاهرة وبشغل المناصب العليا وعضوية مجلـــس الشيوخ وأصبحت الأرستقراطية الجديدة توجه الدولة من خـــلال سـيطرتها علـــى مجلس الشيوخ للاندفاع فى مشاريع تخدم مصالحهم التجارية والصناعية الخاصـــة ، وكانت هذه المصالح تشمل ، ليس فقط كل إيطاليا الجنوبية حتى مدينة تارنتم ، بـــل صقلية أيضاً ، كما ان سيطرة روما على الجنوب كان يقود حتماً إلى الصـــدام مـــع قرطاجة ، ويقول تيتوس ليفى "بعد الحرب غير الحاسمة مع السمنيين أصبح لرومـــا عدو جديد هو هو برهوس وبعد برهوس أصبحت قرطاجة ، وهـــذا حـــق فحيـــن سيطرت روما على ريجيون (Rhegion) ، أخذت ترنو إلـــى محـــاصيل صقليـــة الوفيرة وتربتها الخصبة ، هذا فضلاً عن أنها قوة متوسطية تسيطر علـــى ســـاحل يقارب طوله الألف كيلومتر ، ولم يعد بمقدورها أن تقبل احتكار حليفتـــها القديمـــة

المطلق للحوض الغربى من البحر المتوسط ، هذا فضلاً عن الأدلة تشير إلى أن الرومان كان يخامرهم الشك فى أن يحاول القرطاجيون السيطرة على سواحل إيطاليا على نحو ما سيطروا على شواطئ أسبانيا وصقلية فنجدهم فى كل معاهداتهم مع القرطاجيين ينصون على ألا يتخذ القرطاجيون مواقع دائمة لهم على الشواطئ الإيطالية فنجدهم يرسلون فى عام ٣١١ ق.م أسطولاً صغيراً للقيام بدوريات لحراسة الساحل الإيطالى كما أن الرومان لم يشعروا بالاطمئنان والأمن مادامت هناك قوتان هما اليونان والقرطاجيين بجزيرة صقلية ، خاصة وأنها لا تبعد عن ساحل إيطاليا إلا بميل واحد ، هذا فضلاً عن غناها بحبوبها والتى كانت روما بحاجة إليها ، وإذا ما استولت روما على صقلية سقطت سردينيا وكورسيكا فى يدها من تلقاء نفسهما .

وعموماً فقد كانت الأمور تسير إلى اتجاه الصدام والصراع العسكرى بين القوتين أولاً لتمدد النفوذ الرومانى إلى جنوب شبه الجزيرة الإيطالية ، وأيضاً لنظر رجال الأعمال من الرومان والمدن اليونانية والأترورية الحليفة بعدم الرضا ، وكما أن التجار الإيطاليين كانوا ينظرون إلى موانئ صقلية والحركة التجارية الجارية فيها ، فتنقبض نفوسهم بسبب حظر الاتجار عليهم فيه ، وإلى بنود معاهدات روما مع قرطاجة والتى تمنع وتحظر عليهم الاتجار فى موانيها وتجعل تجارة غرب البحر المتوسط حكراً على القرطاجيين ، فقد حرصت قرطاجة على التمسك بسياستها الاحتكارية للتجارة البحرية فى غرب البحر المتوسط ، ومنع التجار الرومان من الاتجار فى موانيها ما يشير إلى عدم الثقة فيهم ، وأمام هذه الأمور كان لابد من حدوث الصدام بين القوتين وكان لابد من حدوث سبباً مباشراً يشعل شرارة الحرب ، وكان لمحاولة قرطاجة السيطرة على ميسانا الواقعة على الطرف الشمالى لصقلية والمواجه لجنوب إيطاليا ولا يفصلها عنها إلا ميلاً واحداً أن شعر

الرومان بالخطر وتهديد أمنهم وأمن حلفائهم وأن القرطـــاجيين ســيقطعون طــرق المواصلات بين روما وحلفائها وموانيهم فى جانب ايطاليا الادرياتيكى ، فلكى تبلــغ روما إلى تلك الموانئ كانت مضطرة أن تمر فــى بوغــاز ميســانا بيــن ايطاليــا وصقليـــة ، وهكذا فقد كان التجار الرومان والإيطاليون ينظـــرون إلــى الجنــوب والرعب مالئ قلوبهم لأنهم كانوا يتوقعون قدوم اليوم الــذى فيــه تمنــع مراكــب قرطاجة فى ميناء ميسانا حركة التجــار بيــن ســاحل ايطاليــا الغربــى والبحــر الادرياتيكى ، وكان مجلس الشيوخ بلا ريب يوجس خيفة مــن الأمــر الــذى روع قلوب التجار الرومان والايطاليين ، وهكذا بدأ الصراع بين حليفى الأمـــس والــذى امتد أمده بين الفريقين .

ميسانا وبداية الصراع بين القرطاجيين والرومان:

عقب موت أجاثوكليس طاغيـــة ســيراكوز تــرك المرتزقــة الممــارتينى (Mamerteni) الإيطاليين خدمة سيراكوز فى حوالى ٢٨٨ ق.م ، واستولوا علـــى ميسانا (Messana) وذبحوا سكانها من اليونـــانيين أو أخرجوهــم مــن ديــارهم ، واقتسموا فيما بينهم نساءهم وأبناءهم وأملاكهم ، وجعلوا من المدينة قاعدة للإغــارة على المدن اليونانية القريبة منهم ، فما كان مــن هــيرون الثــانى (Hero) ملــك سيراكوز إلا أن فرض حصاره الشديد عليهم فى عام ٢٦٤ ق.م ، ويــرى البعــض من الباحثين أن الممارتينى قد رأوا سقوط ميسانا فى يده قد أصبح أمر شبه مؤكـد ، وتبعاً لذلك فقد رأى البعض منهم طلب العون من قرطاجة التى كانت حريصة علـى منع توسع سيراكوز ، فأرسلت أسطولاً يبدو أنه كان قريباً من مســرح الأحــداث ، ونجح فى رفع الحصار عن ميسانا ولكنه لم ينسحب منها فخشـــى الممـــارتينى أن تفرض قرطاجة سيطرتها عليهم ، ولذلك رأوا أن لا مخرج لهم من هذه الورطــة إلا

بأن يطلبوا إلى روما ادخالهم فى زمرة رعاياها ، ولكن البعض الآخر من البــاحثين يرى أن الممارتينى قد طلبوا النجدة من كل من قرطاجة وروما فى نفس الوقـــت ، حيث أنهم كانوا ينقسمون إلى فريقين أولهما سارع إلى الاتصال بالرومـــان وأعلـــن خضوعه لهم ملتمساً معونتهم ، ومال ثانيهما إلى طلب النجدة مـــن قرطاجـــة وأن قرطاجة قد ســـارعت إلى تلبية نداء الممارتينى وأرسلت أسطولها إلى المدينة لصـد قوات هيرون ، أما روما فكان من المتوقع أن تترك المرتزقة الممارتينى لمصـــيرهم كمغامرين خاصة وقد كان يربطها بملك سيراكوز علاقات صداقة ، غير أن رومـــا خشيت أن تستولى قرطاجة على ميسانا وتبقى فيها وبهذا يصبح الخطر القرطـــاجى على جنوب إيطاليا وعلى سفنها وسفن حلفائها المارة بمضيق ميسانا ، وقـــد تـــردد مجلس الشيوخ الرومانى طويلاً فى قبول نداء الممارتينى ومعاونتهم لما كان يعرفـــه من قوة وثراء قرطاجة ولأنه كان قانعاً بالسيطرة علـــى إيطاليـــا ولا يميـــل إلـــى تعريض جيوش الرومان لأهوال الحرب ، ولكن أهل اليسار من أصحاب الأعمـــال كان لهم رأى آخر ، ونظراً لعدم قدرة مجلس الشيوخ على حسم الأمر ، فقد أحـــال المسألة إلى الجمعية الشعبية "الميئينات" للنظر فى الأمر وهنا نجـــح الأثريـــاء مـــن الأشراف والعامة الذين كانوا يسيطرون عليها فى قبـــول طلـــب النجـــدة ومخالفـــة الممارتينى وتبعاً لذلك فقد قر قرار الرومان عل إخراج القرطاجيين مـــن ميســـانا ، وهكذا فقد نجح القنصل اليوس كلوديوس كاوديكس ابن الأسرة صاحبة النفوذ وســـيد التجار والصناع ، فى التدخل فى قضية ميسانا وجعلها حالة حرب وقد بادر ببـــدء العمليات العسكرية مستفيداً من الدعم الشعبى له ، مع أن الشـــعب كـــان لا يـــزال محتفظاً بذكريات مريرة عن الحروب السابقة ، ففى عام ٢٦٤ ق.م أرسل الرومـــان نجدة عبرت البحر إلى صقلية واتجهت إلى ميسانا ، فأسرع قائد الحامية القرطاجيـــة فيها بالجلاء عنها ولعله فوجئ بما لم يكن فى حسبانه من تدخل روما ، ولـــم يكـــن

لهذا العمل فى نظر القرطاجيين إلا معنى واحد وهو أن الحرب قد نشبت بين روما وقرطاجة على أرض صقلية ، وأن روما قد خرقت شروط المعاهدة الأخيرة بينهما ، وتم صلب القائد القرطاجى نتيجة لانسحابه من المدينة ، وهكذا فقد كانت حادثة ميسانا هى الشرارة التى أطلقت الحرب البونيقية الأولى والتى امتدت ثلاثة وعشرين عاماً من عام ٢٦٣ – ٢٤١ ق.م وحتى يسهل علينا دراستها نقسمها إلى ثلاث مراحل وهى على النحو الآتى : –

المرحلة الأولى ٢٦٣–٢٥٦ ق.م :

أرسلت قرطاجة حملة عسكرية لاستعادة ميسانا ، وفى نفس الوقت حرضت هيرون على الانضمام إلى جانبها لطرد الرومان الدخلاء من صقلية ، والذى انضم إليها بالفعل وقام الفريقان بمحاصرة ميسانا بيد أن حصارهما باء بالفشل وذلك لأن الرومان كانوا قد أرسلوا فرقتين لفك الحصار ونجح أبيوس كلوديوس فى إلحاق الهزيمة بكل من القرطاجيين والسيراكوزيين ، وفك الحصار عن ميسانا ، وكان على الرومان لترسيخ أقدامهم فى الجزيرة أن يقوموا بمعاقبة سيراكوز وذلك بإرسال قوة عسكرية عددها ٤٠ ألف جندى بقيادة القنصل مانيوس فاليريوس (Amnius Valerius) نجحت فى محاصرة سيراكوز ، وعرض القنصل الصلح على هيرون إذا ما قبل دفع غرامة قدرها مائة تالنت والاحتفاظ بإقليم خصيب ضيق حول المدينة وعقد معاهدة تحالف على قدم المساواة مع روما لمدة خمسة عشر عاماً ، ولم يتردد هيرون فى قبول هذه الشروط وذلك لعلمه اليقينى أن لا طاقة له بمقاتلة الرومان وبذلك هجر جانب قرطاجة ، وعموماً فقد ضمنت روما حليفاً قوياً لها ورسخت من أقدامها فى الجزيرة ، بيد أن قرطاجة أبت قبول الهزيمة فى ميسانا للمرة الثانية وبادرت إلى ارسال جيش من المرتزقة الليجوريين

والغاليين والامـــبريين ، تعـداده ٥٠ ألـف جنـدى ، إلـى مدينـة أجريجنتـوم (Agrigentum) حليفة قرطاجة ، وعندما علم الرومـــان بذلـك وبتحريـض مــن سيراكوز زحف جيشهم نحو تلك المدينة فى عام ٢٦٢ ق.م وحاصرها لمـدة سـتة أشهر وفى النهاية نجح فى اقتحامها بعد معركة عنيفة وتدميرها وتم بيع أهلها فـــى سوق النخاسة .

كانت هذه المعركة نقطة تحول فى سياسة روما الخارجيـــة مــن منـاصرة الممارتينى إلى طرد القرطاجيين كلية من صقلية ، ومن أجل تحقيق هذه السياســـة كان على الرومان التفكير فى بنـــاء أسطول حربى لتحقيق هذا الغرض وللقضــــاء على سيطرة وهيمنة القرطاجيين البحرية فى غرب البحر المتوسط ووقف تـهديدهم للسواحل الإيطالية ، ولتحقيق ذلك فقد سعوا لبناء أسطول حربـــى ، ويـروى لنـا بوليبيوس أن الرومان قد اتخذوا نموذجاً من السفن القرطاجية الحربية ذات الخمســة صفوف من المجدفين وهى قصة خيالية فى رأينا وأما ما صنعه الرومان فعلاً لبنـاء أسطولهم الحربى هو أنهم كانوا يقومون بزيارة الموانئ الرئيسية الحليفة فى إيطاليـا والتى كانت تملك سفناً حربية مثل تارنتم ونابولى وبيزا ، وللاتروريين لما لهم مــن ماض فى فن الملاحة وكانت هذه الموانئ تحمل لقب حلفاء السفن هذا فضـــلاً عــن أسطول السيراكوزيين الفائقى المهارة فى الملاحة ، وعموماً فإنه فى غضون عـــام واحد بنى الرومان مائة سفينة حربية ثقيلة من ذات الخمسة صفوف من المجدفيـــن وعشرين سفينة استكشافية صغيرة من ذات الثلاثة صفوف من المجدفيـــن وقـاموا بتدريب طواقمها على استعمال المجاديف ومن الواضح التدريب على القتال .

دارت معركة بحرية بين قوة بحرية رومانية مؤلفة من سبع عشـــرة سـفينة بقيادة القنصل كورنيليوس ســـيبيون (Cornelius Seipion) عنـد مينـاء ليبــارا (Lipara) ، ودارت الدائرة على هذه القوة وتم أسر القنصل وبسبب هـذه الهزيمـة

قام الرومان بتجهيز أسطول حربى ذى تقنية عالية أدت إلـــى قلــب كـــل مفـــاهيم المعارك البحرية بينهم وبين القرطاجيين ، وذلك باستخدام وسيلة كانت شائعة بيـــن اليونان ، على الرغم من أن الروايات الشعبية الرومانية تقـــول وتنسـب إلـــى أن الرومان هم الذين ابتكروها ، وعموماً فإن تطبيق الرومان لهذه الحيلـــة كـــان مـــن نتيجته أن جعلوا معاركهم البحرية عبارة عن اشتباكات على ظـــهر الســـفن تمـــاثل الاشتباكات البرية ، والحيلة هى أنهم أضافوا حافة على جانبى الســـفينة وخطـــاف كبير يتدلى من الصارية ويمكن التحكم فيه إذا ما هاجم الرومان سفينة معادية تندفـــع السفينة الرومانية إليها وينقض الرومان على أعدائهم ، وكانت كل سفينة رومانيـــة تحمل ٤٠ جندياً بحرياً ووحدات عسكرية من ثمانين جندياً من ببين القوات البريـــة بالإضافة إلى طاقم المجدفين المكون من مائتين وخمسين مجدفاً .

وفى ربيع عام ٢٦٠ ق.م تمكن الرومان بسفنهم هذه من احراز أول نصـــر بحرى فى تاريخهم ، بقيادة جايوس دوبليوس عند مدينة مـــولاى (Mylae) علـــى الشاطئ الشمالى لصقلية ، على الرغم من مهارة البحارة القرطـــاجيين فقـــد فقـــدوا خمساً وأربعين سفينة ، وقد سجل لنا جايوس دوبليوس انتصاره على نقـــش ذكـــر فيـــه : كان أول من أهدى الشعب الرومانى أسلاب معركة بحرية ، وأول من ســـلق أمامه فى موكب نصره قرطاجيين أحراراً ، ويقال أن دوبليوس ظـــل حتـــى آخـــر حياته لا يسير إلا فى ركابه رامى وحامل مشعل ، وعندما يعـــود مـــن الولائـــم ، تخليداً لذكرى النصر المجيد .

وقد شجعت نتيجة هذه المعركـــة الرومـــان علـــى مهاجمـــة المســـتعمرات القرطاجية فى سردينيا فى عام ٢٥٩ ق.م وكورسيكا ٢٥٨ ق.م ولكنهم لم يحققـــوا نصراً حاسماً ، وفى نفس الوقت تابع الرومان جهودهم فى فتح مدن صقلية التابعـــة للقرطاجيين واستولوا على المدن فى وسط صقلية ، ومع ذلك فقد ظلـــت قرطاجـــة

تحافظ على مراكزها الرئيسية الواقعة غرب الجزيرة وهـــى ثرمـــاى (Thermae) وبـــانورموس (Panormus) ودربانـــا (Drepana) وليلوبـــــايوم (Lelybaeum) وسلينوس (Selenus) وهرقليا مينوا (Heraclea Minoa) .

وفى هذه الأثناء أدرك الرومان ، بعد أن وطدوا أقدامهم ونقودهم فى صقليـة، أنه لن يحسم الصراع إلا إذا كالوا لقرطاجة ضربة مدمرة ، فى عقر دارها ، وذلـك على غرار ما قام به اجا ثوكليس بنقل الحرب بين السيراكوزيين وقرطاجـــة إلـــى أفريقيا ، وشرع الروما فى تنفيذ برنامج ضخم لتوسيع الأسطول الحربـــى وتقويتـــه حتى أصبح يتكون من مائتين وخمسين سفينة حربية فضلاً عن ثمانين سفينة للنقـل، وذلك بغرض غزو قرطاجة وكانت قرطاجة تتحسب لذلك الأمـــر فبنـــت أســـطولا يرجح أنه كان أصغر قليلاً من الأسطول الرومانى .

المرحلة الثانية ونقل الصراع إلى عقر دار قرطاجة

٢٥٦-٢٥٥ق.م

بعد أن أتم الرومان استعداداتهم الحربية أبحر القنصلان لوكيوس مـــانيليوس فولسو ، وماركوس ابيليوس ريجولوس على رأس أســـطول بحـــرى قوامـــه ٣٣٠ سفينة بحرية ومعاونة ويحمل على متنه مائة وأربعين ألفاً من جنود وبحارة ، لغـزو قرطاجة وفى مقابل ذلك كان القرطاجيون يتوقعون هذا الأمر ، ومن ثم فقد عملـــوا على ابطاله ، وذلك بتوجيه أسطولهم الضخم المكون من ثلاثمائة وخمســـين ســـفينة ويحمل على متنه أكثر من مائة وخمسين ألف رجل إلى عـــرض البحـــر لتحطيـــم الأسطول الرومانى ، وتشير الأنباء إلى التقاء واشتباك الأسطولين فـــى ميـــاه رأس

اكنوموس (Economus) الواقعة على الساحل الجنوبى لصقلية وكانت هذه المعركة من أكبر المعارك البحرية فى العصور القديمة ، وكان على رأس الأسطول القرطاجى كل من القائدين هاملكار وهانو ، وكانت الدلائل توحى برجحان كفة القرطاجيين ، بيد أن القائدين الرومانيين قد أعادا ترتيب أوضاع أسطولهم مما قلب الأوضاع لصالحهما ، فكان من نتائج هذا الاشتباك أن فقد القرطاجيون أكثر من ثلاثين سفينة وأربع وسبعين سفينة وقعت فى أسر الرومان ، ولم يخسر الرومان فى هذه المعركة البحرية إلا أربعاً وعشرين سفينة ولم يقع فى الأسر أية سفينة رومانية . وانتهت المعركة بانسحاب بقية الأسطول القرطاجى ، وبذلك صار الطريق مفتوحاً على مصراعيه للنزول فى أفريقيا ودون مقاومة ، وبالفعل نجحوا فى النزول بقواتهم لأول مرة ، فاجتاحوا فى البداية كلوبيا (Clupea قليبية) والتى كان اجاثوكليس السيراكوزى قد نزل فيها فيما مضى ، وأنشأوا فيها معسكراً لمراقبة المنطقة ، ثم شرعت القوات الرومانية بنهب وسلب المدن والمزارع الغنية فى الريف المحيط بالمعسكر وحققوا بعض الانتصارات ، واستغل النوميديون الموقف الحرج للقرطاجيين فشرعوا بالقيام بعمليات تخريب حقيقية ضد القرطاجيين ، وبدأت المجاعة تضرب العاصمة قرطاجة التى لجأ إليها الآلاف من القرويين ، وفى أثناء ذلك اقتضت الظروف استدعاء القنصل مانيلوس إلى روما ومعه القسم الأكبر من الأسطول والجيش ، تاركاً زميله فى أفريقيا مع أربعين سفينة وخمسة عشر ألفاً من المشاة وخمسمائة فارس .

ومن بداية عام ٢٥٥ ق.م انطلق ريجولوس ورجاله إلى الريف واجتاح عدة قرى وانزال الهزائم المتتالية بالقرطاجيين وعسكر على مسيرة يوم واحد من قرطاجة ، ويقال أن الرومان أسروا خلال معاركهم مع القرطاجيين عشرين ألفاً وباعوهم فى سوق النخاسة ، وأمام هذا كله اضطر مجلس الشيوخ القرطاجى إلى

طلب الصلح من ريجولوس الذى لم يبد أى ذكاء سياسى وذلك بإهماله منذ البداية الاهتمام بتذمر النوميديين من سلوك القرطاجيين مما أفقده دعم السكان الأصليين له إضافة إلى استقباله للسفراء القرطاجيين بعدم الاكتراث وأمل عليهم شروطاً قاسية مهينة لا يمكن قبولها والتى من بينها الشروط التالية : أن القرطاجيين لا يعقدون تحالفاً أو يعلنون حرباً إلا بإذن من روما ، وألا يرسلوا لتحقيق مطالبهم أكثر من سفينة حربية واحدة ، وإذا طلبت روما المساعدة منهم فعليهم أن يزودوها بأسطول يتألف من خمسين سفينة ، كما أنه على القرطاجيين أن يتحملوا نفقات الحرب الدائرة ، ويدفعوا جزية سنوية لروما ، أمام هذه الشروط القاسية رفضها السفراء القرطاجيون فطردهم ريجولوس وقال "إن الرجال عديمى النفع يجب أن ينتصروا أو يخضعوا لمن هم أفضل منهم" وعندما ابلغ السفراء مجلس الشيوخ القرطاجى بما دار رفض بالاجماع تلك الشروط المهينة مما يعنى معاودة القتال ، وبدأ العمل على قدم وساق فى إعادة ترتيب وتنظيم الجيش القرطاجى وذلك بشراء خدمات جنود مرتزقة من اليونان ومن بين هؤلاء قائد أسبرطى محترف يدعى كسانثيبوس (Xanthippus) الذى قام هو وصحبه بتدريب الجيش القرطاجى على أفضل أساليب القتال اليونانية ، ونتيجة لهذه الجهود والاستعدادات أن نجح القرطاجيون فى استعادة الثقة فى أنفسهم وفى قتالهم ونضالهم ضد الرومان ونجحوا بفضل جهود القائد الاسبرطى فى إلحاق هزيمة قاسية فى معركة تمزق فيها الجيش الرومانى شر ممزق وداست الفيلة القرطاجية الكثير من الجنود الرومان ولم يبق منهم إلا ألفين ، وهرب ريجولوس من ساحة المعركة ولكن تم أسره فى النهاية ، وإذا كان الرومان قد خسروا فى الحرب البرية إلا أنهم قد نجحوا فى إلحاق هزيمة بحرية قاسية بالقرطاجيين وأسروا حوالى مائة سفينة قرطاجية ، فقد نجح الأسطول الرومانى فى إلحاق الهزيمة بالأسطول القرطاجى الذى كان قوامه ٢٠٠ سفينة

والذى كان قد حاول منع الأسطول الرومانى من مؤازرة ريجولوس ، ولكـن هـذا الأسطول وصل إلى قرطاجة بعد أن أسر ريجولوس ولم يفعل شيئاً إلا إنقاذ فلـول الجيش الرومانى ، ولكن الأسطول الرومانى تعرض لنكبة فى أثناء رحلـة العـودة إلى روما إذ هبت عليه عاصفة هوجاء عند ساحل كامارينا بجنوب صقلية حطمـت أكثر من ٢٥٠ سفينة من بينها حوالى ١٠٠ سفينة قرطاجية كان قد غنمها الأسـطول الرومانى فى المعركة السابقة إلا حوالى ٨٠ سفينة وغرق ٨٠ ألف رومـانى مـن رجاله على حد قول بوليبوس الآتى "أيضاً لم يحك لنا التاريخ مثيلاً لـهذه الكارثـة التى قضت بضربة واحدة على أسطول كامل" .

المرحلة الثالثة وتمتد فى الفترة ما بين ٢٥٤ – ٢٤١ ق.م

على الرغم من هذه الكوارث والنكبات التى حلت بالرومان إلا أنها لم تفـل فى عزيمتهم ، فقاموا ببذل الجهد والمال لإعادة بناء أسطولهم وجيشهم ، فقد نجحـوا فى غضون ثلاثة أشهر فى بناء مائتى سفينة جديـدة ذات خمسـة صفـوف مـن المجدفين ، ودربوا لها ثمانين ألف بحار ، وعموماً فقد كانت هـذه الفـترة مليئـة بالهزائم وخيبات الأمل ، على الرغم من الانتصارات البحرية الرومانية ، فلم يكـن لقناصل وضباطهم البحريين أية خبرة حقيقية فى شئون المعارك البحرية ، وكـانوا يجهلون فن الملاحة معتقدين ان بمقدورهم فرض ارادتهم فى هذا المجـال ، دون أن يقيموا وزناً لنصائح أو انتقادات طواقمهم المختصين ، فتزايدت الأخطار وأدت إلـى تلك النتيجة المحزنة ، وخير أنموذج على ذلك أن ورش بناء السفن الرومانية كـانت قد بنيت مائتين وعشرين سفينة وجهتها روما باتجاه السـاحل الشـرقى للأراضـى القرطاجية فى أفريقيا لتقوم بالإغارة والنهب فيها ، وكانت نتيجة هذه العملية تقـترب إلى حد الكارثة إذ جنحت بعض السفن فى المياه الضحلة لخليج سيرتة الصغـير ،

قرب جزيرة لوتوفاجيس (Lotophages) "جربة" ثم حلت الكارثة ببقية هذا الأسطول نتيجة للعواصف إذ فقد أكثر من مائة وخمسين سفينة ونتيجة لهذه الكارثة فقد تخلى مجلس الشيوخ عقب هذه العملية عن أية محاولة لإنشاء أسطول جديد ، وهذا قد منح الفرصة للقرطاجيين لاسترداد ثقتهم في أنفسهم وارتفاع روحهم المعنوية وتفاؤلهم بأن بلادهم لن تهدد ، فبفضل أسطولهم بسطوا سيطرتهم على البحر دون منازع ، وذلك لانسحاب الرومان من الساحة القريبة منهم ، كما كان القرطاجيون يعلقون آمالاً كبيرة على جيوشهم البرية ، ولم يكن تفاؤلهم هذا دون مبرر على حد قول بوليبويس .

ولكن إذا كان الرومان قد تخلوا عن كل أمل في هذه المرحلة بضرب قرطاجة فى عقر دارها ، إلا أنهم لم يتخلوا عما قرروه من طرد القرطاجيين من جزيرة صقلية وذلك بعملهم على تدمير قواعد القرطاجيين هناك الواحدة تلو الأخرى ، وكان تنفيذهم لخطتهم سهلاً فى البداية وذلك بسبب الظروف المحلية فى الجزيرة والظروف التى واجهتها قرطاجة نتيجة لتهديد جيش ريجولوس لها ولأملاكها فى أفريقيا ، وفى ضوء هذه الظروف لم تتمكن قرطاجة من تعزيز مواقعها فى الجزيرة ، كما لم يكن لديها الوقت الكافى لإعدادها للدفاع ، ففى عام ٢٥٤ ق.م سقطت بانورموس المدينة الرئيسية فى صقلية بعد حصار بحرى بأيدى الجنود الرومان ، كما قامت مدن أخرى مثل سولونتى (Solunte) بطرد حاميتها القرطاجية الضعيفة وانضمت إلى جانب الرومان حسب قول ديودوروس ، ومن ثم فقد قرر القرطاجيون أن يجمعوا قواتهم فى معقل محصن يقع فى الجزء الغربى من الجزيرة بدلاً من بعثرتها فى أماكن يصعب الدفاع عنها ، فقد كانت توجد بيديهم هناك عدة قلاع قوية مثل ليلوبايوم ودربان (Derpan) أدرك القادة الرومان أن قوة هذه المواقع أنها ستكون عصية عليهم إن لم يتمكنوا من فرض الحصار

البحرى عليها بغرض أن يمنعوا وصول المساعدات عنها وبذلك يضمنوا أن تحل بها المجاعة ، وفى ضوء ذلك قرر مجلس الشيوخ الرومانى عام ٢٥٠ ق.م أن يجهز أسطولاً جديداً لتطبيق هذه الخطة ، بينما كان القرطاجيون يحاولون فى هذه الأثناء أن يسترجعوا مدينة بانورموس ، فقد قام جيش بقيادة هزدروبعل بشن هجوم على الحامية الرومانية بالمدينة بيد أن الفشل كان من نصيب على الرغم من استخدامه الفيلة فى عملياته الحربية وبعد ذلك تم محاكمة هذا القائد وتم صلبه ، بينما كان هذا النصر حافزاً للرومان على استئناف نشاطهم فى العام التالى (٢٤٩ق.م) وذلك بإرسال قوة حربية زحفت على ليلوبايوم ومحاصرتها حصاراً برياً وبحرياً وكان يقود القوات الرومانية القنصل بـ كلوديوس بلوشر (P.Claudius Plucher) ، وكانت الحامية القرطاجية تتكون من عشرة آلاف جندى مرتزقة بقيادة هيمكلون ، وفى أثناء الحصار قام نفر من الضباط بالحامية القرطاجية بالانضمام للرومان ، ومع ذلك فشل الرومان فى الدخول إلى المدينة كما فشلوا فى منع التعزيزات القرطاجية وتعزيز دفاعات المدينة ، واستمر الحصار لبضعة شهور دون نتيجة مما دفع الرومان إلى اتخاذ قرار بمهاجمة دريبان حيث كن يرسو الأسطول القرطاجى ولكن فشل هذا الهجوم فشلاً ذريعاً وأسر القرطاجيون ثلاث وثلاثين سفينة رومانية مع بحارتها ، وبينما تمكن القنصل ريجولوس من الفرار ومعه ثلاثون سفينة وفى تلك الأثناء كان القنصل الآخر ل. جونيوس بولوس يحاول على رأس أسطول آخر الوصول إلى ليلوبايوم حاملاً تجهيزات للفرق الرومانية التى كانت تحاصر المدينة ، بيد أن القائد القرطاجى كارتالون أجبره عى التقهقر والانسحاب ثم اكتملت الكارثة بالنسبة له بتعرض أسطوله لعاصفة هوجاء أغرقت سفنه أمام شواطئ كامارينا ، ونتيجة لهذه الكوارث البحرية فقد تمكن القرطاجيون من استعادة سيادتهم البحرية فى حين ساد الذعر

أرجاء روما ، فوجدت العائلات المحبة للسلام الفرصة مناسبة لاستعادة سيطرتها على مجلس الشيوخ فشكلت ثلاث حكومات قناصل متعاقبة ، غير أن الشعب الرومانى وخصوصاً الفئات التى كانت راغبة فى السيطرة على صقلية لم تجد مبرراً لتلك الهزائم التى لم تحاول قرطاجة استثمارها كعادتها وذلك بتعزيز قواعدها فى الجزيرة ومحاولتها طرد الرومان منها .

وفى عام ٢٤٧ ق.م تولى قائد محنك هو هاملكار برقا قيادة العمليات العسكرية القرطاجية فى صقلية ، وكان من أفضل القادة من حيث ذكاؤه وجرأته على حسب قول بوليبوس ، ولكن لم يكن مقدراً له النجاح وذلك لأن قرطاجة كانت منشغلة بحروبها وتوسعها فى أفريقيا ولا تمده إلا بالقدر اليسير من الوسائل الضرورية لإعطاء العمليات الحربية دفعة قوية حاسمة ، ولكن قيادته للقوات القرطاجية كانت تسبب المتاعب والقلق للرومان ، فقد سار على رأس قوة بحرية صغيرة نحو الشواطئ الإيطالية بغرض الإغارة عليها والنزول فيها وتوجيه ضربات تدميرية طالت مدينة كوميس (Cumes) ، وفى نفس الوقت كان يناوش دون توقف القوات الرومانية فى صقلية فقد هاجم هيركتى (Hercte) واستعاد بعد معارك ضاربة ايروكس (Eryx) المبنية على منحدرات جبل يحمل نفس الاسم دون أن يتمكن من تحطيم القوة الرومانية المعسكرة فى قمة حيث كان يقام معبد أفروديتى الايروكسينية الشهير ، وهكذا تمكن هاملكار من انشاء نقاط ارتكاز قوية فى قلب المناطق المعادية بغرض حماية دريبان الكبيرة ، والتى كانت لا تزال محاصرة مثلها مثل ليليبايوم ومهاجمة القوات الرومانية المحاصرة لهما .

وتشير الروايات إلى جهود هاملكار الضخمة إبان السنوات الست التى قضاها فى صقلية ، على الرغم من تقاعس قرطاجة عن تزويده بما كان يلزمه من

الفرق حتى يتمكن من خوض معركة برية فاصلة فى صقلية أو تحويـــل إغاراتــه الخاطفة على شواطئ إيطاليا إلى غزو أفعل أثراً .

وازداد الأمر سوءاً أن قرطاجة قد نزعت السلاح من قسم كبير من أسـطولها البحرى ، ومع كل هذا فقد ساعدت الظروف هاملكار فى تحقيق بعض أهدافه ، فلـم يرسل الرومان نجدات أخرى إلى صقلية وذلك لأن خزانتهم كانت خاويـــة وكـان الفلاحون الرومان قد أعياهم التعب من كثرة الحروب ، فى الوقت الذى لم يتوقــف فيه القائد البرقى عن ضرب الفرق الرومانية الموجودة فى جميع أنحاء الجزيرة فقـد امتدت حروبه إلى أرجاء واسعة منها ولكن لم تساعده الظروف على طرد الرومـان إذ نجح الحزب الرومانى فى روما المناصر والمؤيد للحرب وهو مكون من التجـار والحرفيين بغرض السيطرة على الجزيرة ، فى تدبير الأمــوال اللازمــة والتغلـب على العجز بالاقتراض من العائلات الثرية وذلك لبناء أسطول جديـد مكـون مـن مائتى سفينة حربية سريعة من ذات الخمسة صفوف من المجدفيــن ، وعليــها ٦٠ ألف جندى ، وفى نفس الوقت الذى عملت فيه قرطاجة على الاقتصاد فى النفقــات بسحب الجانب الأكبر من أسطولها وتسريح رجاله ونتيجة لهذه الظروف فقد نجــح الرومان بعد بنائهم لأسطولهم الجديد فى تضييق الخناق على كــل مــن ليلوبــايوم ودريبان وحصارهما بحريــاً وذلـك بقيــادة القنصــل ك. لاتيــاتيوس كــاتولوس (C.Laetatius Catulus) سنة ٢٤٢ ق.م ، وعندما حاولت قرطاجة تدارك الموقـف كان ذلك بعد فوات الأوان ، فقد فوجئت بالمبادرة والمبــادأة الرومانيــة الجديــدة ، ولمواجهة الموقف عملت قرطاجة على تسليح بعض سفنها التى كانت محملة بـالقمح ويقودها بحــارة مبتدئون ، وأقلعت هذه السفن فى عام ٢٤١ ق.م بهدف الوصــول إلى قواعد هاملكار غير أن تلك القوة البحرية المشحونة بالحبوب هاجمتــها سـفن الأسطول الرومانى الفارغة والتى كان يقودها بحارة مدربون ، ونجــح الأسـطول

الروماني في سحق تلك القوة قبالة دريبان في ربيع ٢٤١ ق.م وفقـد القرطـاجيون مائة وعشرين سفينة أسر منها سبعون مع عشرة آلاف رجل ، وعلى الرغـم مـن هذا فقد ظلت الحاميات القرطاجية المعسكرة في ليلوبايوم ودريبان وأريوكس ، فـي مقاومتها غير أن قرطاجة شعرت بالخطر وذلك لأن الطريق صار مفتوحـاً أمـام الرومان ليغزوا أراضيها في أفريقيا ، ومن ثم فقد أصدرت الأوامر لقائدها هاملكـار بالدخول في مفاوضات هدنة فسارع القنصل الروماني كاتولوس بـالترحيب بـهذا العرض ووضع شروطه الهادفة إلى إقامة علاقات صداقة بين الطرفيـن ، بيـد أن شروطاً جديدة مشددة وصلت إليه من قبل لجنة تابعة للسناتو وقبل هاملكـار هـذه الشروط بإلحاح من قرطاجة وهي على النحو الآتي :

١- أن يُخلي القرطاجيون صقلية ، وجميع الجزر الواقعة بين صقلية وإيطاليا جـزر ليباري .
٢- أن يعيدوا إلى روما جميع أسراها دون مقابل .
٣- أن لا يحاربوا السيركوزيين وحلفاءهم .
٤- أن يدفعوا في غضون عشر سنوات غرامة حربية قدرها ثلاثـة آلاف ومـائتي تالنت أي بمعدل ٤٤٠ تالنت سنوياً.

وأضيفت شروط أخرى ثانوية فيما يخص حلفاء الجانبين ومنها منع تجنيـد المرتزقة ، وإلغاء كل ما كان مفروضاً على التجارة الرومانية من قيود .

قبل القرطاجيون هذه الشروط الشديدة والتي كان لها نتائج بعيدة المدى علـى الطرفين ، فقد كان على قرطاجة دفع الغرامة الباهظة وفقدهـا صقليـة والجـزر المجاورة ، هذا فضلاً عن فقدها للسيادة البحرية على منطقة غرب البحر المتوسـط وأيلولتها للرومان ، كما كانت مغانمها للرومان على النحو الآتي :

١- هيمنت بضمها لصقلية والجزر المجاورة على أول ممتلكات لها خارج إيطاليا.

٢- كشفت الحرب عن صلابة الاتحاد الإيطالى وموقفه خلف روما فقد فقدت روما ٧٠٠ سفينة و ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل كما أن خسائر قرطاجة كانت فادحة فى السفن والرجال .

٣- اضطرت روما إلى تخفيض نقدها بنحو ٨٣ % .

ولكن يعن لنا تساؤل حول الأسباب التى جعلت قرطاجة تطلب الصلح وقبول الشروط القاسية التى فرضها الرومان ؟ إذا ما دققنا فى أحوال قرطاجة أدركنا أن قرطاجة وأراضيها الأفريقية هى التى تحملت العبء الحربى كله ، على العكس من روما التى تلقت الدعم من حلفائها الإيطاليين ومن سيراكوز ، فقد وضعت ورش صناعة السفن فى لوكريس وتارنتم وبقية حلفاء الرومان تحت تصرف روما . كما أن فئة متنفذة من القرطاجيين رأوا أن المجال الحيوى التوسعى لهم هو أفريقيا وليس صقلية ، ومن ثم فقد عملت هذه الفئة على وقف الحرب مع روما ، وهذه الفئة كانت مكونة من العائلات من أصحاب الاقطاعات والضياع بقيادة هانو الكبير فى أفريقيا ، ونجحت هذه الفئة فى النهاية فى تغليب وجهة نظرها على وجهة نظر التوسع والاستمساك بالمستعمرات خارج أفريقيا فى صقلية والجزر المجاورة ، وكان على قرطاجة أن تدبر أمورها وأن تحاول الوفاء بالتزاماتها مع الرومان ، ودفع الغرامة فى مواعيدها المحددة ، هذا فضلاً عن دفع الف تالنت فى التو ، ونظراً للعجز المالى لديها فقد حاولت الاقتراض من الملك بطلميوس الثانى فيلادلفوس الفى تالنت غير أن هذا الملك رفض اقراضها وذلك لأنه كان لا يريد أن يقف فى صف أى من الفريقين المجاورين ، وأمام هذا الرفض كان على قرطاجة أن تدفع الألف تالنت من الغرامة المقررة الدفع وذلك على حساب تأخيرها فى دفع الرواتب والمكافآت المستحقة للمرتزقة مما تسبب فى ثورة عنيفة عليها ، والجدير

بالذكر أن روما أظهرت عطفاً شديداً على قرطاجـــة ، فقـد قدمـت لـها العـون والامدادات التى كان حلفاؤها قد أرادوا بيعها للثوار ، والذين لم تخمـد ثورتـهم إلا فى عام ٢٣٨ ق.م فى أفريقيا ، بل أن روما رفضت ما عرضته عليها الحامية مـن الجنود المرتزقة فى سردينيا والتى ثارت على قرطاجة فـى عـام ٢٣٩ بتسـليمها الجزيرة ، ولكن نلاحظ أن روما إبان حرب قرطاجة مع الثوار كانت ترقب فقـدان حزب هانو الكبير نفوذه فى قرطاجة مقابل صعود نجم آل برقة بقيادة هاملكار الـذى حقق النصر على الثوار وقضى علـى الاضطرابـات الداخليـة ، ونتيجـة لـهذه التطورات الداخلية فى قرطاجة وسيطرة حزب آل برقة والداعى للتوسع فى خـارج أفريقيا والمحافظة على النشاط التجارى فى غرب البحر المتوسط مما كان يصطـدم ويهدد أطماع الحزب المتطلع من أعضاء مجلس الشيوخ للتوسع خارج إيطاليا ومـن ثم فلا غرابة أن غير الرومان موقفهم الرافض لضم الجزيرة ، ففى عـام ٢٣٨ ق.م عندما عرض المرتزقة ضم سردينيا ثانية إلى روما قبل السناتو ، تحت تأثير هـذا الحزب ، هذا العرض وأرسل قوة احتلت المراكز القرطاجية الواقعة فـى جنـوب غرب سردينيا ، وعندما احتجت قرطاجة على هذه العملية وشرعت فى إعداد حملـة ضد المرتزقة الثائرين عليها ، وهنا فقد تظاهر السـناتو بالاعتقـاد بـأن موقـف قرطاجة واجراءاتها من الأعمال العدائية موجهة للرومان ، ومن ثم فقد اتخذوا منـها ذريعة لإعلان الحرب على قرطاجة إلا إذا آثرت السلم بشرط أن تـنزل للرومـان عن سردينيا وكورسيكا ، ولعل روما فى هذا الموقف الذى اتخذته كـإجراء وقـائى لها ضد الظروف المحتملة، ولكن يمكن استخلاص أن سياسة رومـا الاسـتعمارية أصبحت واضحة جلية ولم تعد تتستر وراء شعار توخيها العدل والانصـاف فـى معاملاتها مع الدول الأخرى ، وأن تدفع تعويضاً اضافياً قدره ١٣٠٠ تالنت ، ولمـا لم يكن فى وسع قرطاجة الحرب ثانية مع روما نظراً لأنها خرجـت منهكـة مـن

الحربين السابقتين ، اضطرت للاذعان لشروط مجلس الشـيوخ واضطـروا إلـى الانسحاب من سردينيا ودفع الغرامة السالفة الذكر ، وقد انعكـس موقـف مجلـس الشيوخ هذا وأدى إلى نتيجة عكسية فبدلاً من محاولة المجلـس اضعـاف شـعبية هاملكار وتوجيه ضربة إلى جماعته التى كـانت تتمتـع بـالنفوذ فـى الحكومـة القرطاجية تعززت هيبته كما أن تصرف الرومان السالف الذكر قد جعل الطريـق ممهداً لتحقيق طموحات آل برقة الذين استشاطوا غضباً بقيادة هاملكـار مـن تلـك المعاملة السيئة لبلاده واستغل الموقف وعرض على حكومته أن تمده بالجند والمـال ليعيد قوة قرطاجة فى أسبانيا وليستعين بها على مهاجمة إيطاليا وقد عارض حـزب هانو هذه الخطة لأنه يخشى مغبة الحرب ، بيد أن طبقة التجار التى كـانت تتطلـع لاستعادة ما فقدته من الأسواق والثغور الأجنبية نجحت فى تعضيد خطته وتحويلـها إلى حقيقة .

وفى عام ٢٢٧ ق.م حددت روما وضع الممتلكات التى كسبها خارج إيطاليـا بتحويلها إلى ولايتين ولاها : تشمل صقلية كلها عدا سيراكوز وثانيـهما : تشـمل جزيرتى سردينيا وكورسيكا ، ولهذا السبب زيد عدد البراتيورس إلى أربعة ليتولـى اثنان منهم حكم هاتين الولايتين ، واستغل أرستقراطية مجلس الشيوخ مـن التجـار وعتقائهم وأتباعهم ولاية سردينيا وكورسيكا فقد اسـتخدم السـادة الجـدد الكـلاب البوليسية لاصطياد الناس ومطاردة أبناء الجزر الذين بيعوا فيما بعد كعبيد .

وبعد أن عرضنا لتطورات الحرب ونتائجها على كلا الطرفين علينـا الآن أن نعرض لأسباب النجاح للرومان والفشل للقرطاجيين ، فقـد كـان النصـر حليفـاً للرومان للأسباب الآتية :

١- كما قلنا من قبل أن قوة وصلابة نظام التحالف مع القوى فى الأرض الإيطالية كانت الضامن لامدادات لا تنقطع من البشر والسلاح لروما ، فقد مكن هذا النظام الرومان من إرسال قوة قوامها ٣٠٠ ألف مقاتل وبهذا كان الجيش الرومانى أكبر جيش وطنى فى البحر المتوسط من الرومان وحلفائهم وعموماً فقد كان الجيش الرومانى جيشاً وطنياً .

٢- قدرة الرومان على تغيير أساليبهم وتقنياتهم وفقاً لمقتضيات الأحوال فكانوا يتعلمون وينقلون عن غيرهم أدواتهم وأسلحتهم وأضافوا إليها خبراتهم وابتكاراتهم ،

أما إذا ما عرضنا لأسباب الفشل والهزيمة لقرطاجة فهى على النحو الآتى :

١- نظامها السياسى والعسكرى والنظرة الضيقة فى علاقاتهما وقياسها بالربح والخسارة ، فقد اتبع القرطاجيون سياسة تحديد الحروب وحصرها فى نطاق ضيق ، وإعداد الأساطيل الحربية عند الحاجة إليها فقط ، وكذلك كانت تنتهى الحرب بمجرد تحقيق أى هدف لها ، وقد علق أحد الباحثين المحدثين على هذا بقوله بأن جيش قرطاجة كان يخدم سياسة لدولة أما فى روما فكانت سياسة الدولة هى التى تخدم الجيش .

٢- فرضت قرطاجة أعباء مالية كبيرة على حلفائها ورعاياها الليبيين والشعوب الخاضعة لها ، ومن ثم فقد كان من السهل على عدو غاز أن يشعل لهيب الثورة بين الليبيين أو الليبيين الفينيقيين .

٣- كانت قرطاجة ابتداء من القرن الثالث تعتمد على جيش ليس وطنياً فكان هذا الجيش يتكون من حلفائها ورعاياها ومن الجنود المرتزقة التى كانت تشترى خدماتهم من الشعوب المحبة للقتال مثل الغال والأسبان والليبيين واليونان ، وتبعاً لذلك فقد شعر الحلفاء والرعايا بأهميتهم خاصة بين النوميديين ، وعلى الرغم مما

اتصف به المرتزقة من شجاعة ومهـارة فى النزال فـإن شـأنهم شـأن الجنـود المرتزقة كانوا عرضة لخوار العزيمة إذا ما توالـت عليـه الـهزائم أو تـأخرت أجورهم أو لم تكن الأسلاب كافية لسد نهمهم ، وإزاء ذلـك كلـه تكـون الجيـش القرطاجى من عناصر متباينة تفتقر إلى الوازع الوطنى فكانت أفئدتهم خالية مـن الحماسة والمحبة الوطنية وتميل إلى الخروج على النظام ، ومن ثم فقد كان الجيـش القرطاجى دائماً مصدر خطر كبير على قرطاجـة ولكن فى نفـس الوقـت كـان يتولى قيادته ضباط قرطاجيون محترفون احترفوا الخدمة العسكرية وبذلك توفر لـهم ما لم يتوفر للقناصل الرومان وهم عادة يتغيرون كل عام .

الحرب مع الغال والقضاء على الخطر الالليرى

بعد أن حقق الرومـان وحلفاؤهم السيطرة على البحـر الترهـانى وجعلـه بحيـرة رومانيـة بعد استيلائهم على كل من سـردينيا وكورسيكا ، ولـت رومـا وحلفـاؤها سياستهم شرقاً صوب البحر الادرياتيكى وشمالاً صوب الغال ، فتذكـر الرواية أن روما غنمت بعض الأراضى مـن الغـال وأن جـايوس فلامينيـوس (Gaius Flamunius) أحد نقباء العامة قد نجح فى عام ٢٣٢ ق.م بإقناع الجمعيـة بتوزيع تلك الأرضى على فقراء المواطنين الرومان ، وذلك بالرغم من معارضـة مجلس الشيوخ لذلك .

وفى عام ٢٣٠ بدأت روما فى تطهير البحر الادريـاتيكى مـن القراصنـة الاليريين ، وفى وضع أقدامها على الساحل الغربى لإقليم البلقـان ، فقـد نجحـت مملكة الليريا بقيادة ملكها أجرون بعد تحالفها مع مقدونيـا ضـد مملكـة ابـيروس وكارنانيا وحلفى ايتوليا وآخايا ونجحت تلك المملكة فى التوسع فى بـلاد اليونـان على حساب مملكة ابيروس وضم عدد من المدن اليونانية ، وقد ترتب علـى هـذا

التوسع امتداد نفوذها إلى البحر الايونى وانتشر قراصنتها فـــى كـل مـــن البحـــر الادرياتيكى والايونى وهاجموا السفن اليونانية ، ولم تكن هذه الأحداث تـــهم رومـــا بيد أنه عندما اعتدى القراصنة الالليريون فى عهد الملكة تيوتا (Tyta) على التجار الإيطاليين وسطوا على السواحل الإيطالية الجنوبية ، أرسل السناتو وفـــداً سياســـياً للاحتجاج على أعمال القرصنة ضد الحلفـــاء الإيطـــاليين ، ومطالبـــا بـــالتعويض المناسب بيد أن الالليريين لم يعاملوا هذا الوفد معاملة حسنة فى الليريا فحسب بـــل اعتدى عليه القراصنة الاليريون فى طريق عودته وقتلوا أحد أعضائـــه ، ونتيجـــة لتلك الأعمال العدائية والاستفزازية لم يكن أمام روما وحلفائها إلا إعداد العدة للقتـــال ومن ثم فقد جهزت روما حلفاؤها اسطولاً وجيشاً كبيرين توجها لقتال الألليريين فـــى عام ٢٢٩ ق.م ، ودارت الحرب بينهما واضطر الالليريون فى النهاية إلـــى طلـــب الصلح فى ٢٢٨ ق.م وقبول شروط الرومان وبيانها على النحو الآتى :

١- تخلى مملكة الليريا عن الأراضى التى ضمتها إليها مؤخراً من مملكة ابـــيروس واكارنانيا وكذلك المدن اليونانية الواقعة علـــى ســـواحل كـــل مـــن البحريـــن الأدرياتيكى والأيونى .

٢- ألا تتخطى السفن الحربية الالليرية ميناء ليسوس (Lissus) .

٣- دفع تعويض عن الحرب .

٤- قبول الالليريين النزول عن جانب من أراضيهم وهو الإقليم الســـاحلى والـــذى ولت عليه مغامراً روما يونانياً هو ديمتريوس الفاروسى والذى كان فى خدمـــة الملكة الالليرية تيوتا ولكنه انقلب عليها وانضم للرومان إبان حربهم معها .

وهكذا أمن الرومان والحلفاء الجبهة الشرقية لبلادهم من أخطار القراصنـــة ، كما أن روما قد عقدت سلسلة من المعاهدات مع عدد من المـــدن اليونانيـــة ترتـــب عليها بسط روما حمايتها عليها وكذلك على إقليم ساحلى بجوارها ، واحتفظت هـــذه

المدن باستقلالها الذاتى بينما تولت روما أمر الدفاع عنها وسيطرت سيطرة تامة على علاقاتها الخارجية مع جيرانها ومع ذلك لم تدخل روما هذه المدن رسمياً فى عداد حليفاتها أو تفرض عليها الجزية ، وقد عادت تلك المحالفات على روما بما كانت تصبو إليه وهو تأمين سيطرتها التامة على مضيق أوترانتو وهو الممر الرئيسى للمواصلات بين شبه الجزيرة الإيطالية وبلاد اليونان ولكن هذا النجاح الذى حققه الرومان فى البحر الأدرياتيكى وفى غرب اليونان أدى إلى إثارة عداء مملكة مقدونيا فقد كانت حليفة لمملكة الليريا وتعتبر نفسها صاحبة حق ليس على يونان البلقان فحسب بل على شبه جزيرة البلقان بأجمعها ، ومن ثم فإن تحالف الرومان مع المدن اليونانية كان يهدد مصالحها ونفوذها ، كما زاد حنقها أن الرومان تجاهلوها تجاهلاً تاماً بإنشاء علاقات دبلوماسية مع أعدائها وحلفائها على السواء ، حلفى ايتوليا وآخيا ومدينتى كورينثة وأثينا ، فقد رأت فى هذا نذيراً بانحياز الرومان إلى جانب خصومها فى صراعها الناشب معهم . ولكن نظراً لظروفها الداخلية التى صاحبت وفاة مليكها ديميتريوس الثانى ٢٢٩ ق.م لم تستطع مقدونيا التدخل فى الحرب التى دارت بين روما ومملكة الليريا .

وسعت مقدونيا ، بعد أن تولى عرشها الملك انتيجونس دوسن (Antigonus Dosin) فى استعادة سيطرتها على اليونان مستغلة المنازعات فيما بينهم ، فقد نجحت فى تقريب الحلف الأيتولى إليها وتحالفت مع الحلف الآخى وانتصارها على أسبرطة ٢٢٢ ق.م كما نجحت فى جعل ديميتريوس الفاروسى المغامر اليونانى المتقلب الولاء يعلن ولاءه لها وينقلب على روما ، وقد ظن هذا المغامر أن القرصنة متاحة إليه لممارسة أعمال القرصنة فقام بالاعتداء على بعض سفن المدن الحليفة مع الرومان والتى كانت تحميها وردت روما على هذه الأعمال بعنف بمهاجمته مما اضطره إلى الفرار والنجاة بحياته ، واستولت روما على أهم

منطقتين حصينتين هما جزيرة فاروس وديميللوس (Demillus) ولم تتدخل مقدونيا في الصراع نتيجة لموت مليكها في نفس العام، وخلفه على العرش فيليب الخامس، واستغل الحلف الايتولى تلك الظروف وحاول السيطرة على بلاد اليونان ، ولكن الملك المقدونى الجديد أثبت من القوة والعزيمة فى الحرب ما أفشل محاولة الحلف الايتولى بل إجباره على توقيع الصلح ٢١٧ ق.م ، وما أن فرغ هذا الملك من حربه هذه حتى بدأ يعد العدة لطرد الرومان من الليريا كى يستريح من هؤلاء الدخلاء .

حرب الرومان مع الغال فى شمال إيطاليا ٢٢٥ – ٢٢٢ ق.م

نجحت روما فى الحد من أخطار الغال بعد غزوتهم الكبرى ٣٩٠ ق.م وانصرف الغال بعدها إلى الزراعة والرعى فى سهل البو ، ولم يستغلوا صراع الرومان مع كل من بيروس و قرطاجة ، بيد أنه ما كادت الحرب القرطاجية الأولى على الانتهاء حتى بدت بوادر محاولات الغال التوسع على حساب الرومان وحلفائهم فى شمال شبه الجزيرة الإيطالية ، فقد حاولت قبائل البويى (Boii) الغالية فى عام ٢٣٦ ق.م الاستيلاء على اريمينوم بيد أن محاولتها أصابها الفشل ، وهدأت الأمور بعدها لبضع سنين ولكن على ما يبدو أن سياسة روما التوسعية قد جعلت الغال يقتنعون بأن الحرب واقعة بينهم وبين الرومان لا محالة ، ومن ثم فقد حاولوا إنزال ضربة قاصمة بروما قبل أن تضربهم وتنزل بهم الهزيمة ، ووحدوا صفوفهم فى شكل حلف لمواجهة هذا الموقف ، وهذا الحلف كان مكون من أربع قبائل بزعامة أقوى قبيلتين وهما الانسوبرس والبويى وضم الحلف إليه عدداً كبيراً من المغامرين المقيمين فى بلاد الغال عبر اللب (Gallia Transalpina) . وزحفت قوات هذا الحلف واغارت على شمال شبه الجزيرة الإيطالية ، وقدرت هذه القوات

بحوالى ٧٠ ألف مقاتل ، ٥٠ ألف مقاتل من المشاة وعشرين ألف مـن الفرسـان ، وترك الحلف جانب من قواته لمراقبة الفنتى (Venti) الالليريين ، وكذلك الكنومانى الغال المتحالفين مع الرومان ، وعندما وصلت أنباء هذا الزحف إلى روما ارتـاع الرومان لدى سماعهم تلك الأنباء وهبوا لمواجهة الموقـف ، فنجدهـم قـد قدمـوا أضاحى بشرية ودفنوا اثنين من الغال مرضاة للآلهة ، وعملوا على حشـد جيـش عرمرم بلغ عدده ١٣٠ ألف مقاتل من الرومان والحلفاء ، وكـان الجيـش الغـالى الغازى قد وصل إلى سهل اتروريا وأعمل فيه السلب والنـهب ، بيـد أن الجيـش الرومانى أجبره على الانسحاب صوب الشاطئ ، ولم تلبث أن وصلت قوة رومانيـة من جزيرة سردينيا ونزلت شمال الغزاة وبذلك تم قطع طريق العودة عليهم ، وعنـد تلامون (Telamon) دارت معركة طاحنة دارت فيها الدائرة على الجيـش الغـالى وخسر فيها أكثر أفراده ، فقد قتل منه أكثر من اربعين الفـاً وتـم أسـر عشـرات الآلاف منه كان من بينهم أحد الملوك الغال بينما انتحر الملـك الآخـر ، واسـتعاد الرومان الاسلاب والغنائم التى كان الغال قد سلبوها مـن شـمال شـبه الجزيـرة الإيطالية . ولعل هذا الهجوم الغالى على شمال شبه الجزيرة الإيطالية ودحـده قـد كان محركاً للرومان فى القضاء على الخطر الغالى فى عقر داره والوصـول إلـى جبال الألب وجعلها الحدود الطبيعية لهم ، وقد يكون الذى دفع الرومـان وحركـهم للاستيلاء على شمال ايطاليا هو ما كان يجرى فى أسبانيا من أحداث كـانت كلـها لصالح قرطاجة ، وعموماً فمن المرجح أن روما أرادت الخلاص إلى غير رجعـة من الخطر الغالى وذلك باخضاعهم هذا من جهة وأيضاً فإن التوسع القرطاجى فـى أسبانيا لم يكن غائباً عن روما بل كانت تتابعه من جهة أخرى ، وعموماً فمن أجـل ذلك فقد جند الرومان جيشاً عرمرم نجح فى إنزال ضربات ساحقة متتاليـة بالغـال وكان الغرض منها هو إخضاع الغال فى شمال إيطاليا للرومان وضم هـذا الإقليـم

الغنى إلى إيطاليا ، فقد نجح هذا الجيش فى إرغام قبيلة البويى على الاستسلام فـــى عام ٢٢٤ ق.م مما نتج عنه بسط سيطرة الرومان على المنطقة الواقعة جنوب نـــهر البو باستثناء ليجوريا التى لم تعاد الرومان ومن ثم فقد تركوها إلى حين، كما نجـــح الرومان بقيادة جايوس فلامينيوس (Gaius Flaminius) فى إلحاق الهزيمة بقبيلـــة الانسوبرس فى عام ٢٢٣ ق.م ، وفى العام التالى ٢٢٢ ق.م نجح القائد الرومـــانى كلوديوس ماركيلوس (C.Marcellus) فى إرغامها على الاستسلام بعد أن تحـــدى زعيمها فى مبارزة فردية وقتله فيها ، وكان ثمـــرة هـــذه الانتصـــارات أن بســط الرومان هيمنتهم فى الفترة ما بين عامى ٢٢١ - ٢١٩ ق.م ، على المنطقة الواقعة شمالى نهر البو وهى المعروفة باسم غاليـــا ترانـــس بادانـــا "بـــلاد الغـــال عـــبر البو"باستثناء أعلى نهر البو ، وتبع هذا النجاح أن عمـــل الرومـــان علـــى تـــأمين فتوحاتهم فى هذه المنطقة وذلك باتخاذهم الخطوات الآتية :

١- إنشاء طريق فلامينوس (Via Flaminia) المعبد ويمتد من أريمينوم إلى روما.
٢- إنشاء مستوطنتى بلاكنتيا (Placentia) وموديناً كرمينا (Modena Cremena) فى الأراضى التى انتزعوها من الانسوبرس .
٣- قام الرومان بتعبيد طريق آخر فى نفس الوقت تقريباً ويمتد مـــن رومـــا مـــاراً بساحل إتروريا إلى بيزاى (Pesae).
٤- إقامة قاعدتين بحريتين أولاها عند لونا وثانيتهما عند جنوا .

ولكن هل نجح الرومان فى تأمين شمال إيطاليا فعلاً ؟ لقد فـــرض الرومـــان هيمنتهم بقوة السلاح على منطقة شمالى إيطاليا وعلى سكانها الغال المحبين للقتـــال الآنفين الخضوع لغيرهم ، والذين شعروا أيضاً بمـــرارة الهزيمـــة وذل الانكســـار والخضوع للرومان ، وهو ما سيدفعهم ويحفزهم على الثورة ومحاولة الانتقام بـــل والانضمام للخصوم الرومان .

وإذا كانت روما قد آمنت ظهرها فى البحر الأدرياتيكى وكسبت موضع قـدم فى بلاد اليونان وذلك بتحالفها مع بعض المدن اليونانية فإنـها قـد كسـبت عـداء مقدونيا التى نظرت بعين الريبة والشك لسياسة الرومان ، وإذا كان الرومـان قـد ضموا إليهم منطقة شمال إيطاليا وهى تقارب مساحتها شبه الجزيرة الإيطالية فإننـا نجد أن توسع قرطاجة فى أسبانيا كان أكثر إثارة للدهشة وسـيكون توسـعها فـى أسبانيا سبباً مباشراً لقيام الحرب الضروس مرة أخرى بين الرومان والقرطاجيين .

الحرب البونيـة الثانيـة

سبق أن تحدثنا عن الصراع الداخلى بإيجاز بين حزب المـلاك الزراعيين وحزب التجار واختلاف رؤية كل منهما فقد كان الأول يسعى إلى اعتبار المجـال الإفريقى هو المجال الحيوى والامتداد الطبيعى لقرطاجة ومن ثم فقـد تـم اسـقاط التوسع خارج افريقيا من حساباته ، بينما كان الحزب التجارى يـرى أن التوسـع البحرى فى منطقة أسبانيا والتجارة البحرية هما هدفـه ومحـط آمالـه وتمخـض الصراع عن ترجيح كفة حزب التجار على كفة كبار الملاك الزراعيين ، وتسـلمه السلطة فى قرطاجة مما كان له أبلغ الأثر على سير الأحداث ، فقد كان هذا الحـزب يسعى إلى تحقيق هدفين من سياسته أولهما تعويض قرطاجة عن خسارتها بفقدهـا لأملاكها فى صقلية وسردينيا وكورسيكا ولسد الغرامة للرومان وثانيهما : هو خلـق قوة عسكرية قادرة على الوقوف فى وجه الرومان ومصارعتهم فى الحـرب ، إذا ما اقتضت الضرورة ذلك والتى كانت واقعة لا محالة .

ويختلف المؤرخون المحدثون فيما بينهم حول على من تقع مسئولية الحـرب وذلك فى ضوء ما خلفه لنا المؤرخون والكتـاب اليونان والرومان القدامـى فقـد كانت مسألة على من تقع مسئولية الحـرب قابلـة للجـدل ، وكـانت موضوعـاً

للمناظرات التعليمية فى المدارس بين التلاميذ ، فكان التلاميذ الرومان يدخلون في مناظرات حول قضايا هذه الحرب مثل هل كان ينبغى أم لا ينبغى على هانيبال أن يعبر جبال الألب ؟ وهل كان من الخطأ أم من الصواب ألا يسير هانيبال إلى روما بعد هزيمته للرومان فى موقعة كاناى ؟

ولم يكن الجدل بين تلامذة المدارس فحسب بل أيضاً بين أساتذة البلاغة والجدل ، كما أن كتابات ودراسات هواة التاريخ العسكرى الرومانى ونظمه وتكتيكاته قد أثرت هذا الجدل ، كما أن كتابات الكتّاب الهادفة لتبيان الاختيار الحقيقى لمعدن الرومان وقوة وصلابة الجمهورية الرومانية والصمود وعدم التزعزع فى وجه المخاطر التى تعرضت لها روما ، هذا فضلاً عن كتابات الكتّاب القدامى والتى حاولت تبرير سلوك روما من الناحية القانونية فى هذه الحرب التى خاضتها أو جعلها حرب عادلة (Bellum Luotum) وذلك بإلقاء المسئولية على عاتق أسرة آل برقا وهانيبال لأنهم كانوا يكنون حقداً دفيناً على روما ويتحرقون شوقاً للانتقام منها بسبب هزيمتهم فى الحرب البونيكية الأولى وفقدانهم لصقلية وسردينيا وكورسيكا إذ يقول ليفى أن روح هاملكار القوية لم يكن بمقدورها أن تتعزى عن ضياع صقلية وسردينيا ، فقد كان يرى أن اليأس هو الذى أدى إلى تسليم صقلية ، أما سردينيا فقد استغل الرومان الاضطرابات التى كانت تهز افريقيا كى ينتزعوها بحركة غادرة ويفرضوا عليه غرامة ، ويذكر ليفى أيضاً أن هاملكار قبل مغادرته إلى اسبانيا رجاه ابنه هانيبال أن يصحبه معه إلى اسبانيا بيد أن الأب اصطحبه إلى معبد الإله بعل مولوخ (Baal Moloch) وأمام محراب هذا الرب أخذ الأب على ابنه وعداً بأن يكره الرومان حتى الموت وبأن يقاتلهم حتى آخر رمق ، وبالفعل اصطحب هذا الابن إلى اسبانيا ، ويعضد بوليبيوس فكرة مسئولية قرطاجة عن الحرب وأنها كانت حرب انتقامية من قبل القرطاجيين ، إذ

يرى شروع هاملكار ببناء إمبراطورية له فى أسبانيا كان بدافع من حقده الشخصى تجاه الرومان ، إذ توجهت ضده نقمة مواطنيه إثر قضية سردينيا ، فانطلق فى غزو اسبانيا معتقداً أن هذه البلاد قد تقدم له المصادر الضرورية التى تجعله قادراً على شن الحرب على روما ، وبعبارة أخرى ، فقد كان لهذه الحرب ثلاثة أسباب حقيقية هى :

١- حقد هاملكار على روما منذ أرغمته على تسليم صقلية ، فكرس حياته للانتقام من روما وأورث هذا الحقد لمن أتوا بعد .
٢- غضب قرطاجة على روما لسطوها على سردينيا وتجديد التهديد بالحرب .
٣- اشباع روح المغامرة لإحداث التوازن فى البحر المتوسط وما حققه القرطاجيون من نجاح فى أسبانيا .

وهكذا فقد حاول الكتّاب القدامى تبرير وجهة النظر الرومانية وإلقاء مسئولية الحرب على عاتق القرطاجيين وأسرة آل برقا لرغبتهم فى الانتقام من روما وأن روما حاولت منع هانيبال من التعدى على مدينة ساجونتوم حليفتها ، بيد أن هانيبال قام بالهجوم عليها وحصارها واحتلالها فى نوفمبر ٢١٩ ق.م ، وأن روما بالرغم من هذا لم تتعجل الحرب بل أرسلت إلى قرطاجة وفداً برياسة فابيوس فى شهر مارس من عام ٢١٨ ق.م يطلب عقاب هانيبال وتسليمه إلى الرومان جزاء عدوانه على ساجونتوم ، وخيرت روما القرطاجيين بين أمرين أولهما الحرب أو الاذعان (Repetitio Rerum).

وقبل بعض المؤرخين المحدثين وجهة النظر هذه واعتبار أن قرطاجة هى المسئولة عن إشعال نار الحرب البونيكية الثانية ، والسبب فيها هو المرارة التى كان يحس بها القرطاجيون بعد فقدان صقلية وسردينيا وكورسيكا مصدر ثرائهم

وبعد فرض غرامة باهظة عليهم من جانب الرومان مقدارها ٤٦٠٠ تالنت ومن ثـم كان الحقد الدفين لدى آل برقا ورغبتهم فى الانتقام من الرومان ، وأن ذهابهم إلــى أسبانيا لم يكن بهدف الحصول على مكاسب تعوضـــهم عــن خســارتهم صقليــة وسردينيا وكورسيكا بل الرغبة فى تجنيد جيش قوى من الأســبان توطئــة لــهجوم انتقالى على روما وأن هاملكار هو واضع معالم سياسة الانتقام من الرومان وأعــد قرطاجة للحرب وأورث ابنه كراهية الرومان والرغبة فــى الانتقــام منــهم ، وان أسرة آل برقا سلكت طريق العدوان مستقلة عن رأى مجلس الشيوخ القرطـــاجى ، وأن الاشتباك بين ساجونتوم وقبيلة الثور بوليبان كان اشتباكاً صغـــيراً لا يســتحق التدخل العسكرى بالمستوى الكبير ولدرجة محاصرة واحتـــلال ســاجونتوم ، وأن روما حذرته من أن مثل هذا العمل سوف يعتبر حالة حرب (Casus Belli) بيد أنه رفض الاذعان للرومان ولولا أنه كان يضمر العدوان لمــا حــول هــذا الاشــتباك الصغير إلى حرب كبيرة لا تُعرف عواقبها ، وأن احتلال هانيبال لســاجونتوم هــو الذى أشعل الحرب ، وحاول هذا الفريق من الباحثين إنكار أن سياسة روما كـــانت سياسة استعمارية توسعية ، وأنها لم ترغب فى إقامة إمبراطورية واسعة فى غــرب البحر المتوسط ، ومن ثم فأنها لم تسع إلى تصفية الوجود القرطاجى فى أســـبانيا ، وأن روما لم تفكر أبداً فى التوسع والاستعمار عندما أعلنت الحرب على قرطاجـــة لأنها لم تكن تسير على نهج إمبراطوريات الشرق القديم مثل بابل ومصر وفـــارس لأن توسع هذه الإمبراطوريات كان نتيجة لوجود الحاكم القوى المتسلط الذى يريـــد أن يفرض نفوذه على الأمة التى يحكمها على البلاد المجاورة لمركز قوته ، كمــا أن ظروف روما كانت تختلف عن تلك الإمبراطوريات التى كانت تتكون من شـــعوب مختلفة الأعراق والثقافة ولا تلتقى إلا فى خضوعها لسلطان الحاكم المتسلط ، بينمــا كانت روما دولة ذات شعب متجانس لغة وثقافـــة وعنصـــراً ، ورفضــت الحـــاكم

المتسلط حيث لم يسمح نظامها بقيامه ، وأن الرومانى كان قانعاً بالبقاء داخل حدود إيطاليا ولم يسع للتوسع وبرر هذا النصر توسع روما بقوله أن الظروف والأزمات التى كان على روما مواجهتها هى التى دفعتها إلى طريق التوسع الاستعمارى فسارت فيها وهى مُسيرة إلى أن وجدت نفسها سيدة على البحر المتوسط ، وأن روما لم تكن تقصد شن حرب على قرطاجة بل مجرد تهديدها باستخدام القوة بهدف إرهابها ، وهى نفس السياسة التى استولت بها روما على سردينيا خاصة أنها كانت مشغولة فى صراع مع مقدونيا ولم تنته منه بعد ، كما أن روما كانت تشهد صراعاً داخلياً بين حزب ملاك الأراضى وكان فلامينيوس هو لسان حاله وكان ينادى بعدم التورط فى حروب توسعية خارج إيطاليا ، وبين حزب التجار وأصحاب رؤوس الأموال والذى كان يدعو للتوسع وفتح آفاق جديدة أمام رؤوس الأموال الرومانية ومن ثم دعى أن تكون سياسة روما سياسة عالمية ، ولكن عندما اشتد الصراع فإن الحزب الأخير لم يكن يدعو علناً للحرب التوسعية ، ومما يجدر ذكره أيضاً أن مجلس الشيوخ الرومانى لم يكن لديه مخطط توسعى ينفذه بل كان جهازاً عملياً يتعامل مع الأزمة الطارئة فى ضوء واقعها وظروفها ، فاحتلال سردينيا لم يكن سلسلة من سلسلة التوسع بل مجرد عمل إرهابى موجه لإنذار قرطاجة مستقبلاً ، وكذلك فإن حروب روما ضد الغال كانت حروب دفاعية بالرغم من أنها لفتت نظرها إلى وجوب حماية حدودها الشمالية من التوسع والعدوان ، كما أن حروبها فى الليريا لم تكن سوى عمل بوليسى لتأمين البحار وتطهيرها من القراصنة ، ولذلك فإن تدخلها فى أسبانيا لم يكن سوى إظهار التضامن مع حلفائها وليس كجزء من مخطط استعمارى للتوسع فى الغرب ، وهكذا فقد كان الرومان فى مرحلة دفاعية ولم يكونوا يدركون نتائج تدخلهم لأنهم كانوا يتعاملون مع كل

موقف حسب لحظته وحسب ما ينبغى عليهم أن يفعلوا فــى ضــوء ظروفــه وأن هانيبال تحداهم فتحدوه .

ويخالف هذا الرأى فريق آخر من الباحثين بأن رومــا هـى التـى دفعـت قرطاجة دفعاً إلى الحرب ويرى أصحاب هذا الرأى أنه ربما من الجائز أن رومـــا لم تكن تتبع سياسة توسعية استعمارية فى تلك الفترة ولكنها كانت فى طريقــها لأن تفعل ذلك إذ أنها كانت أمة متسلطة مغرورة أنانية حريصة على النفوذ والـثراء وأن هذه الدوافع هى التى تدفع الأمم دائماً سواء فى الشرق أو فى الغرب إلــى سـلوك طريق التوسع والاستعمار ، ويرى هــذا الفريــق أيضــاً أن المؤرخيــن القدامـى التبريريين أخفوا الوسائل التى اتبعها الرومان فــى التوســع وبســط النفــوذ مثــل الاستيلاء على سردينيا وتدخلهم فى أسبانيا بطريقة دفعــت قرطاجــة إلــى فقــدان هدوئها ، كما أخفى الكتــّاب الرومان الدافع الحقيقــى للعــدوان الرومــانى وهــو التحريض الدائم من جانب مستوطنة ماسيليا المدينة اليونانيــة الصديقــة والحليفــة لروما ووقفت معها فى السراء والضراء وكانت فى منافسة تجاريــة شــديدة مــع القرطاجيين فى أسبانيا ، ووقف الرومان بجانبها وأن الرومان من خــلال ماسـيليا عقدوا معاهدة تحالف مع ساجونتوم ٢٢١ ق.م مما ناقض اتفاقات روما السابقة مــع قرطاجة وأن روما استخدمت مسألة ساجونتوم كمخلب قط لوقف التوسع القرطـاجى فى أسبانيا وحرمانها من الثراء الذى تدره عليها تلك المنطقة ، فقد سعت روما إلــى التدخل فى السياسة الداخلية لساجونتوم وذلك باســقاطها الحــزب المتعــاطف مــع القرطاجيين وتأييدها الحزب المعادى لهم فى تسلمه للسلطة ، ومن ثم فقد قــام هــذا الحزب بالتحرش والعدوان على قبيلة التوروبوليتــاى (Toroboletae) الاســبانية المتحالفة مع القرطاجيين ، وأن هجوم هانيبال على ساجونتوم بعد عدوانــها علــى تلك القبيلة كان فى داخل نصوص الالتزام التعاهدى بين روما وقرطاجة وبالتالى لـم

تكن عملية من الأعمال العدوانية ، ويرد هذا الفريق على الرأى القائل بأن أسـوة آل برقا سلكت مسلكاً مستقلاً عن مجلس شيوخهم فى قرطاجة بقولهم بأن الأسـرة لـم تسلك طريقاً مستقلاً عن رأى قادتها فى قرطاجة فقد اعتبرها هاملكار وصهره مـن بعده وهانيبال أنهم قادة عسكريون للأمة القرطاجية فى أسبانيا ، وأنهم لـم يكونـوا وحدهم فى أسبانيا فكان يصاحبهم مستشارون سياسيون وعلى اتصال دائم بـالوطن الأم ، وتبعاً لذلك لا يمكن اعتبار كراهية آل برقا ورغبتهم للانتقام من رومـا همـا الدافع الأول للحرب ، وأن فكرة الطموح والرغبة فى الانتقـام إنمـا هـى دعايـة رومانية نشأت عندما رفض هانيبال تهديدات وفد السـناتو ٢٢٠ – ٢١٩ ق.م وأن المؤرخ فابيوس بكتور روج لذلك بقصد التشهير بهانيبال وآل برقا ومن أجل تـبرير عدوان روما ولإثبات أن هانيبال كان وحده هو المسئول وليـس السياسـيون فـى قرطاجة ، لقد كان آل برقا من الذكاء بإدراكهم أن قيـادة قرطاجـة فـى أيـدى الشـيوخ الأرستقراط من ملاك الأراضى والمتعاطفين مع الرومان أو على الأقـل كانوا يحرصون على ما معهم ولا يجازفون فى الدخول فى حرب قد تفقدهـم مـا معهم ومن ثم فقد كانت قرطاجة تتحاشى منافسة روما فى البحر المتوسـط ، بـل على العكس فقد كان هؤلاء الأرستقراط يعلمون أن عليهم دفـع أقسـاط الغرامـة الباهظة التى يدفعونها لروما ، وأن أسبانيا هى الأمل الوحيد الذى يسـاعدهم علـى تسديد هذه الغرامة الباهظة ، وأنه مهما كانت مشاعر الحزب الحاكم فى قرطاجـة فقد كان على استعداد للدخول فى حرب مع روما من أجل المحافظة على ثروتـه ، ولكنهم لم يخاطروا بالحرب لذات الحرب وإلا لأعلنوها من قبل فى مناسبة أفضـل عندما كانت روما مشغولة فى حروب أعدائها ، ويلقى هذا الفريق باللوم على رومـا وأنها أجبرت قرطاجة على الحرب وأن القرار الذى حمله فابيوس ٢١٨ ق.م إلـى قرطاجة كان قراراً تخيرياً بين الحرب أو التسليم لهانيبال ومسـاعديه لمحاكمتـهم

ورد مجلس الشيوخ القرطاجى بأن تدخل روما فى المسألة ليس قانونياً طبقاً لاتفـاق نهر الابرو ، ويخلص هذا الفريق إلى أن هدف المؤرخين الرومان ومن تبعهم مـن الباحثين المحدثين هو تبرير سلوك روما من الناحية القانونية لدرجة أن بعضهم نقـل مكان ساجونتوم من جنوب نهر الابيرو إلى شماله .

ويرى فريق ثالث أن كلا الطرفين لم يكن له نية للحرب ، بيد أن الأزمـات التى قامت مع وجود الرواسب القديمة هى التى وضعتهما فى موضع القتـال ، أى أن الحرب كانت حتمية الوقوع بينهما، وأنهما لم يكونا يفكران فى خوض غمارهـا، فمثلاً دخلت روما الحرب من أجل ساجونتوم وهى مدينة صغيرة ليست بذات أهمية استراتيجية وبعيدة عن روما ، وليس هناك ما يلزم قرطاجة بتركـها تعبـث بيـن حلفائها ، خاصة مع وجود اتفاق نهر الابـيرو الـذى ينظـم العلاقـة الرومانيـة القرطاجية فى هذه المنطقة وكان الموقف فى روما على النحو الآتى : فقد عـارض نفر من رجالات السناتو الرومانى دخول روما فى حرب مع قرطاجـة مـن أجـل مدينة صغيرة غير هامة فى نفس الوقت الذى كانت الظروف تنذر بنشوب حـرب محتملة مع فيليب الخامس ملك مقدونيا ، بيد أن نفر آخر من رجالات السناتو وكـان له الغلبة فى الرأى جادل فى أن السكوت على سقوط ساجونتوم يلحق العار بالهيبـة الرومانية ويصغر من شأن روما أمام حلفائها مما قد يأتى بأوخم العواقب والتبعـات ومن ثم كان عليها أن تتدخل وإلا لفقدت ثقة حلفائها فيها وخرجوا على طاعتـها ، كما أن هذا سيكون فى صالح قرطاجة ويكسبها مركزاً سياسياً على حساب رومـا ، ومن ثم فإن الدافع الرومانى لدخول الحرب ليس التوسـع أو الاسـتعمار ، ولكـن الحفاظ على المهابة خاصة أن ماسيليا صديقة وحليفة الرومان كانت تنتظـر عمـلاً حاسماً ضد قرطاجة من قبل روما وتحرضها على ذلك .

أما عن قرطاجة صحيح أنها لم تنس مرارة الهزيمة السابقة وأنها على الرغم من كراهية هاملكار وخلفائه للرومان ، لم تكن تسعى لمهاجمة روما ، بل على العكس فقد كان الحزب الأرستقراطى من ملاك الأراضى والحاكم فى قرطاجة يدعو للتسايس مع الرومان ، كما أن نجاح هاملكار فى أسبانيا لم يكن الهدف إلا تعويض ما خسرته قرطاجة فى حربها مع روما ، ولم يكن لأغراض عدوانية ، وأن عدوان ساجونتوم على حلفاء قرطاجة الاسبان هو الذى دفع هانيبال للاستيلاء عليها ، وهذا بدوره هو الذى أدى إلى قيام الحرب بين روما وقرطاجة ، وقد حاولت روما أن تقنع مواطنيها بأنها كانت على حق فى إعلان الحرب على قرطاجة وأن هذه الحرب حرب عادلة (Bellum Iudum) وعموماً فقد كان من الممكن للطرفين أن يتعايشا سلمياً فى غرب البحر المتوسط لو احترم كل طرف حدود الطرف الآخر ومنطقة نفوذه وكان يمكن لاتفاقية لوتاتيوس ٢٤١ ق.م أن تلعب دوراً فى حل الأزمة سلمياً ووضع أساس التعايش السلمى بينهما مثلما حدث بين الممالك الهلينستية ، وأن السلام كان يهم قرطاجة كم كان يهم روما ، لأنها كانت تبحث عن التجارة والاستغلال التجارى ولا تهدف إلى التوسع العسكرى ، كما أن روما كانت على استعداد لأن تترك لها التجارة فى جنوب أسبانيا بعد أن انتزعت منها صقلية وسردينيا ومن ثم فإن كل منهما كان فى حالة دفاع عن النفس وإن كان الميزان يميل قليلاً نحو العدوان بالنسبة لروما . وقبل أن نرجح رأى على رأى من الآراء السابقة علينا أن نعرض للأحداث التى أدت إلى قيام الحرب الثانية بين قرطاجة وبين روما .

نجح هاملكار فى التوسع فى أسبانيا ووضع لبنات امبراطورية قرطاجية فيها ، وكان ذلك بفضل سياسته وحنكته ، فقد استخدم سياسة تأليب القبائل الأسبانية ضد بعضها البعض وكانت هذه القبائل تعيش متفرقة ، ونجح هاملكار فى

استخدام الأساليب السلمية أكثر من استخدامه للأساليب العسكرية فى إخضاعـــها ، ونتيجة للتوسع والنجاح القرطاجى أن خشيت مدينة ماساليا على مستعمرتيها رودى (Rode) وامبورياى (Emporeae) الواقعتين على ساحل أسبانيا الشمالى الشـرقى ، ومن ثم فقد لفتت نظر الرومان لهذا النشاط بحكم ما كان بينهما من صلات قديمـة وثيقة ، وبناء على ذلك أرسل السناتو حوالى ٢٣٠ ق.م وفداً لمحاولة الوقوف علـى نوايا هاملكار بيد أن هذا الوفد صدق تفسيراته بأنه ليس له هدف إلا الحصول علـى موارد جديدة تستطيع بلاده من خلالها دفع تعويضات الحرب لروما وحصل الوفـد منه أيضاً على وعد بعدم الاعتداء على ساجونتوم وكانت تربطها بمســاليا روابـط تجارية وسياسية ، وبعد أن خر هاملكار صريعــاً تولـى زمـام القيـادة صـهره هاسيدروبال ٢٢٨ ق.م وكان يمتلئ حيوية ونشاطاً ، فقد وسع من رقعة الأراضـى التابعة له فى أسبانيا وأنشأ مدينة قرطاجة الجديدة (Nova Carthaga) . وفى عـام ٢٢٦ ق.م أرسلت روما وفداً من قبل السناتو عقد معاهدة مع هاســدروبال واتفقـا فيها على ألا يتخطى هاسدروبال نهر الابيرو شمالاً ، وفى نفس الوقت اطلقت يـد هاسدروبال فى كل المنطق الواقعة جنوب هذا لنهر ، كما أن شرط المعاهدة الأولـى يشير إلى اعترافه بالنفوذ الرومانى شمال نهر الابيرو .

ويرى بعض الباحثين أن شروط هذه المعاهدة توحى بأن روما لم تكن قلقـة من جراء قيام قرطاجة بدعم مركزها فى اسبانيا ، ولكن فى رأينا أن الأقرب إلـى الصحة هو أن هذه المعاهدة تكشف عن أن روما لم تكن غافلة عمـا يحـدث فـى أسبانيا ولا غير مهتمة بالأمر ، ودليلنا على ذلك أن روما اتخذت خطوتين أولاهـا عقد الاتفاق السابق وثانيتها عقد محالفة مع مدينة ساجونتوم الواقعة جنـوب نـهر الابيرو ، ويرى بعض الباحثين أن هذه المعاهدة قد عقدت فى عـام ٢٢١ ق.م وأن مجلس الشيوخ الرومانى قد استغل مقتل هاسدروبال وفسخ المعاهدة التـى عقدهـا

معه وأخذ تحت حمايته مدينة ساجونتوم ، بينما يرى فريق آخر من الباحثين أنـــه لا يعرف على وجه اليقين إذا ما كانت المحالفة عقدت قبل أو بعـــد المعـــاهدة التـــى عقدتها روما مع هاسدروبال ولكن عدم احتجاج قرطاجة على عقد المحالفة بوصـــف كونها خرقاً لمعاهدة ٢٢٦ ق.م يوحى بأن تاريخ المحالفة كان سابقاً لـــهذا العـــام ، وفقاً لقول ليفى فلعل روما قد استندت فى معاهدة ٢٢٦ ق.م فى عدم ذكـــر مســـألة ساجونتوم على تعهد هاملكار للوفد الرومانى ٢٣٠ ق.م بعدم الاعتداء عليها وأمنـــت صراحة استقلالها ومن ثم اعتبرت الأمر مسألة منتهيـــة ولا داعـــى لذكرهـــا فـــى المعاهدة الجديدة وهنا يمكننا تفسير قول بوليبيوس بأن المعاهدة لم تحـــدد تفصيـــلاً الأوضاع فى أسبانيا ، بيد أن نفر من الباحثين يرى أن الرومان تعمدوا اغفال ذكـــر ساجونتوم فى المعاهدة لكى يثبتوا على وجه اليقين حقيقة نوايا قرطاجة ويتخذوا مـــن الاعتداء على ساجونتوم ذريعة للتدخل وكبح جماح توسع قرطاجة فى أسبانيا وفـــى رأينا أن هذا جائز وهو ما سنوضحه فى الصفحات التالية .

وبعد خمس سنوات من هـــذه المعـــاهدة أى فـــى عـــام ٢٢١ ق.م اغتيـــل هسدروبال على يد خادم كلتى ، وعقب هذا اجتمع ضباط الجيش وانتخبوا هانيبـــال قائداً لهم إذ رأوا فيه صورة أبيه هاملكار وكأنه قد عاد ، كان هانيبال فـــى عنفـــوان شبابه أى فى الخامسة أو السادسة والعشرين ، ونجح فـــى كســـب ولاء الضبـــاط والجنود وقيل عنه أنه ورث عن أبيه ضرورة تصفية الحساب مع روما دفاعاً عـــن كيان وطنه ، وقد بدأت شرارة الحرب مع الرومان عندما قـــام الحـــزب المواليـــ لروما بتولى السلطة فى ساجونتوم وقام بطرد الحزب المنـــاوئ لـــه مـــن المدينـــة ولجوء هذا الحزب إلى احدى القبائل الموالية لقرطاجـــة ، وقيـــام حكـــام المدينـــة الموالين للرومان بالاعتداء على هذه القبيلة ، وكـــان رد هانيبـــال هـــو الاســـتعداد لحصار المدينة وفى تلك الأثناء أى فى ربيع ٢١٩ وفد إليه وفد رومانى مكون مـــن

رجلين طلب منه أن يلتزم بمعاهدة هاسدروبال فلا يعبر نـــهر الابـيرو وكذلـك لا يقترب من ساجونتوم التى أصبحت حليفة للشعب الرومانى ، ورد هانيبـــال علـى الوفد بقوله لم يكن للرومان ، كنص المعاهدة ، أى سلطان جنوبـــى الابـيرو وأنــه بخصوص أهل ساجونتوم فقد ظلموا التربوليتاى ولابد أن يحاسبوا على هذا ، ذلـك لأن من عادات قرطاجة الموروثة أن يخفوا لنجدة أى شـــعب مـهيض الجـانب ، والجدير بالذكر على حد قول هارولد لامب أن ليفى قدم لنا روايـــة مغلوطـــة هنـا فذكر أن هانيبال لم يلق الوفد وأنه أرسل رجالاً لاقوه وأنه فى تلـــك الآونـــة كـان يحاصر ساجونتوم بالفعل ، وأنه من الخطر التوجه إليه وأنه ليس لديه من الوقـــت الكافى للانصات إليه وأن هانيبال توقع ذهاب الوفد لقرطاجة وأنه كتب إلى مجلـــس الشيوخ ألا يعطى أية ترضية للرومان ، ويستطرد ليفى فى قولـــه ومزاعمـــه بـأن الوفد ذهب إلى قرطاجة وأن هانو دافع عن الوفد وعن مطالب روما ، ويقول لامـب هنا أيضاً هذه الرواية خرافة مزعومة تبدأ بتصور هانيبال وقد تطـــاول إلـــى حـد معاداة روما ، كما لو كان رجلاً راح ينشد السلطان الأعلى باقحـــام قرطاجـــة فـــى الحرب ضد رغبة أحكم زعمائها ويقول أن هانيبال هاجم فى صيـــف نفـــس العـــام ساجونتوم أى عام ٢١٩ ق.م وأن هانيبال حاصر المدينة لمدة ثمانية أشهر ســـقطت بعدها المدينة فى يده وأن روما لم تقدم لها العون ، بيد أن ســـقوط المدينـــة جعـل الحزب الداعى للحرب ضد قرطاجة ينجح فى اقناع مجلس الشيوخ الرومانى فـــى إرسال وفد مكون من خمسة أعضاء لقرطاجة فى ســـنة ٢١٨ ق.م ينكـــر عليـــها تصرفات هانيبال ، وكان أمل هذا الوفد فى الوصول إلى ما يريده مثلما كان يحـدث خلال العشرين عاماً الماضية حيث كان يكفى التلويح بالحرب للحصول بلا مقـــابل على ما يريده وطالب هذا الوفد برياسة فابيوس أكبر الأعضاء سناً بتسليم هانيبـــال ومستشاريه لروما إذ قال فابيوس فى مجلس الشيوخ القرطاجى "تسـلم جمهوريـــة

قرطاجـــة الآن هانيبال بن هاملكار للسلطات الرومانية " فكـــان رد المجلس لا

حينئذ سأل فابيوس من خلال مترجمه ، ما إذا كانت جمهورية قرطاجة قد صـــادقت

رسمياً على تصرفات قائدها هانيبـــال ؟ ورد المجلس بسلسلة من الأسئلة القانونيـــة

مثل : أيؤثر مجلس الشيوخ الرومانى أن يستمسك بتحالفه مع ســـاجونتوم علـــى أن

يحرص على اتفاقه القديم مع قرطاجة ؟ ومنذ متى أصبحت ساجونتوم حليفة لرومـــا

؟ فإن كان هذا التحالف قد تم قبل معاهدة هاسدروبال فقد جبت هذه المعـــاهدة كـــل

حق لأهل ساجونتوم لوجودهم جنوبى نهر الابيرو أما إذا كان هذا التحالف قـــد تـــم

بعد ...

خلاصة الأمر أن قرطاجة لم توقع على أية تعهدات تخص مدينة ســـاجونتوم

وهنا كان رد فابيوس "بأن هذه الأسئلة تستنفذ صبره" وضم كلتا راحتيه فوق صـــدر

عباءته وراح يقول "أنى احتفظ فى هذه الثنية مـــن عبـــاءتى بـــالحرب أو الســـلام

فاختاروا أيها القرطاجيون أيهما تشاءون ، وبعد أن تشـــاور القرطـــاجيون كـــانت

اجابتهم من خلال رئيس مجلس شيوخهم تخير أنت نفسك فأجاب فـــابيوس "لتكـــن

الحرب إذن" فعلت أصوات القرطاجيين "نحن نقبلها !" وقد طار نبأ إعلان الحـــرب

الثانية من قبل روما إلى هانيبال فى الحال بواسطة عدائين راحوا يقطعون ســـاحل

افريقيا على بساط الريح إلى معبر الماء عند مضيق جبل طـــارق ، وعندمـــا عـــاد

الوفد الرومانى إلى روما قدم تقريره إلى مجلس الشيوخ الرومانى ، وتم فتح أبـــواب

معبد يانوس حتى يعرف الرومان أنهم قد باتوا فى حالة حرب .

وهكذا على ما يبدو فإن استيلاء هانيبال على ساجونتوم قـــد عجـــل بوقـــوع

صدام لم يكن منه مفر بعد ازدياد قوة روما وانتعاش قوة قرطاجة ذلـــك أنـــه مـــن

الجائز قيام نوع من توازن القوى بين كل من روما وقرطاجة فترة من الزمن فإنـــه

كان من المحال أن يدوم ذلك طويلاً بسبب تعارض المصالح ، وعلى أية حال فقـــد

اندلعت الحرب التى دارت على جبهات متعددة فى نفس الوقت والتى استمرت سبع عشرة سنة .

ويبدو أن كلا الفريقين كان يحسب ويعد لها ، فقد كانت خطة مجلس الشيوخ الرومانى تحقيق نصر سريع وحاسم على القرطاجيين مستغلا تفوق الرومان البحرى بعد إهمال قرطاجة لأسطولها وذلك من خلال خطة جريئة تسعى لتحطيم هجمات القرطاجيين فور حدوثها ، والمبادرة بتوجيه ضربات إلى عدوهم القرطاجي بهدف شله فى كل من افريقيا واسبانيا فى نفس الوقت ، فقد كلف القنصل تيبريوس سمبرونيوس لونجوس بقيادة الحملة الكبرى وذلك بحشد قواته فى ليلوبايوم بصقلية لنقلها بعد ذلك إلى افريقيا بغرض مهاجمة قرطاجة العاصمة بينما كلف القنصل الآخر كورينلوس سكيبيو بالانطلاق على رأس جيش يبحر نحو أسبانيا بغرض الاستيلاء على خط دفاع جبال البرانس وكان الغرض من هذه الخطة أن يتم عزل وحصر الجيش القرطاجي فى ساحة حرب واحدة داخل اسبانيا وواضح أن هذه الخطة ستجعل الجيش القرطاجى كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فإما أن يعود إلى افريقيا لمساندة قرطاجة وإما أن يصبح بمعزل عنها وفى المقابل كان القرطاجيون يعملون بنفس السرعة فلم يتركوا للرومان فرصة لاتمام وتنفيذ خطتهم ، فقد عمل هانيبال على افشال المخطط الرومانى وظهر كرجل دولة ومخطط عسكرى لا يبارى ، فقد وضع خطته على أن يهاجم الرومان فى عقر دارهم قبل أن يهاجموه ، كما حرص على ألا يهمل استغلال إثارة الفرقة والانقسام وتمزيق الاتحاد الإيطالى فقد رأى أنه لابد من الاستفادة من الغال المتحرقين شوقا للانتقام من الرومان فأرسل مبعوثيه إلى زعماء هذه الشعوب الغاضبة ليطلب منهم التحالف معه فى صراعه المرتقب مع عدوهم المشترك ، وأرسل الغال من جهتهم وفداً يضم عدداً من وجهائهم إلى قرطاجة يحمل وعداً بتقديم المساعدات الحربية

لهانيبال ، كما قدم الغال بعض المعلومات الدقيقة للقرطاجيين عن السبل المؤدية إلى معابر جبال الألب ، وكذلك معلومات عن المشاعر العدائية التى تكنها الشعوب القاطنة فى سهل البو للحكومة الرومانية .

أما عن خطته الحربية التى وضعها بدقة والتى خيبت آمال الرومان والتى كان يهدف من ورائها غزو إيطاليا فكانت على النحو الآتى : وهى الزحف البرى عبر جبال البرانس وجبال الألب والدخول إلى شمال إيطاليا حيث يقطن الغال المتحرقين شوقاً للانتقام من الرومان ، ثم التقدم إلى ابوليا فى الجنوب ليقطع بذلك خطوط المواصلات الرومانية ، ويضم إليه حلفاء روما الناقمين عليها ، ويتمكن من الاتصال بقرطاجة بحراً عن طريق إحدى الموانئ اليونانية فى الجنوب، ، وقد دفعه إلى تنفيذ هذه الخطة عدة اعتبارات هى :

١- إهمال قرطاجة لأسطولها الحربى جعل من غير اليسير عليه نقل قواته وخيوله وفيلته بحراً .

٢- رأى أنه لو تحقق له ذلك كان سيواجه روما مباشرة أما إذا غزاها من الشمال فإنه سيلقى العون من الغال الكارهين للرومان .

٣- وصلته الأخبار بأن حلفاء روما الإيطاليين ناقمون عليها وتبعاً لذلك فقد رأى أنه لو أحرز نصراً سريعاً وحاسماً فى الشمال استطاع أن يشجعهم على الانضمام إلى جانبه بغرض أن يستردوا استقلالهم وأن يقوضوا دعائم السلطان الرومانى .

ولكن هذه الخطة لم تقدر ما يأتى :

١- الصعاب الجمة والظروف المهلكة التى ستواجه قواته فى أثناء اجتيازها جبال البرانس ونهر الرون وجبال الألب ، فقد هلكت فيلته كلها تقريباً وهلك نصف

جنوده الأوفياء المدربين تدريباً ممتازاً وأنه لن يعوضهم كما فـات عليـه أنـه بابتعاده عن الشمال سيتعذر عليه الاعتماد على الغال .

٢- فات عليه أيضاً أن وسط إيطاليا كان وفياً لروما وأنه سيقف بجانبها يشـد مـن أزرها مادياً ومعنوياً .

٣- أن خطته اعتمدت على ثورة الحلفاء الإيطاليين فى الجنوب وهذا قـد يضعـف روما ولكنه لن يمكنه من الاستيلاء عليها لأن ذلك كان يتطلب معدات لم تتوافـر لديه .

٤- أن سيادة روما البحرية ستمكنها فى الغالب من قطع اتصالاته بقرطاجة ومنـع وصول الإمدادات إليه .

٥- أنه لم يقدر أن روما قوية العزيمة صلبة الإرادة إلى حد سيمكنها من الصمـود أمامه وتحويل الصراع معه إلى حرب استنزاف طويلة الأمد

وقبل أن يبدأ هانيبال بتنفيذ خطته واتخاذ زمام المبادرة عـهد إلـى شـقيقه هاسدروبال بحكم أسبانيا وتاركاً له بتعليماته عن كيفيـة التصـرف فـى وظيفتـه والوسائل التى عليه اتباعها فى حالة حدوث هجوم رومانى على اسبانيا ، بعد ذلـك بدأ مسيرته من عاصمته قرطاجة نحو إيطاليا براً فى ربيـع ٢١٨ ق.م علـى رأس جيش عرمرم عبر نهر الابيرو وباشر شق طريقـه باخضـاع القبـائل الايبريـة المنتشرة بين مجرى النهر وجبال البرانس بعد معارك عنيفة وخسائر ثقيلة وتـرك فى هذه المنطقة قسماً من وحداته بقيادة هانو أحد ضباطه ، وكان الجيش القرطـاجى على حد قول بوليبيوس يبلغ عدده ٥٠ ألف من المشاة وتسعة عسر ألفاً من الفرسـان وفرقة تضم ٣٧ فيلاً .

وحينما علم كورنيليوس اسكيبيو بتقدم هانيبال على رأس الجيش حاول وقفـه وذلك بإنزال قواته فى ماسيليا ، بيد أن هانيبال تمكن من شـق طريقـه ، بسـرعة

كبيرة تارة بالقوة وتارة ببذل المال ، ووصل إلى نهر الرون (Rhun) وتمكن من الحصول على عدد كبير من الزوارق وبنى قسماً آخر منها ، ثم قام بمناورة ذكية استهدفت تطويق وضرب القبائل الغالية الحليفة المعادية لماسيليا التى كانت تراقب الضفة اليسرى وتمكن بفضل الزوارق الكثيرة التى أصبحت لديه والتى استأجرها من الأهالى فى المنطقة من نقل جيشه كله بما فيه الخيول التى كانت تسبح مقطورة خلف الزوارق كم نقل الفيلة بواسطة جسور متحركة مصنوعة من طوافات غطيت بالحشائش – وعموماً فقد نجح هانيبال أن يتحاشى الصدام بالجيس الرومانى بقيادة سكيبيو ، فلم تحدث أية معركة أثناء تلك الفترة باستثناء اشتباك بين فرقة استطلاع من الفرسان النوميديين وقوة رومانية ، وفى تلك الأثناء أيضاً وصل عدد من قادة وزعماء الغال فى سهل البو والتقوا هانيبال ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه ونصحوه بمواصلة طريقه دون تأخير ، ولما لم ينجح سكيبيو فى ملاقاة هانيبال وتأكده من توجيهه نحو شمال إيطاليا ، قفل عائداً إلى روما بسرعة بعد أن ترك شقيقه جانيوس (Ganius) سكيبيو بقيادة الجيش الرومانى ، وطلب منه التوجه إلى أسبانيا ، وكان لقراره الذكى هذا عميق الأثر فى سير الحرب فيما بعد لأنه سيمنع وصول الإمدادات لهالنيبال ، لقد أدرك كورنيليوس أن واجبه الأول كقنصل هو الدفاع عن حدود روما فإذا ما تعذر تأدية هذا الواجب على نهر الرون فسيؤديه على نهر البو .

وعموماً فقد اتجه هانيبال نحو جبال الألب وكان عليه أن يلقى ويواجه الصعاب ليس من قبل القبائل الألبية بل أيضاً كان عليه مواجهة الصعاب فى تسيير فيلته فى الممرات الجبلية الضيقة أو الشديدة الانحدار ، وقضى هانيبال فى تسلق الجبال تسعة أيام وصل بعدها فى أوائل شهر سبتمبر إلى قممها فوجدها مغطاة بالثلوج ، وبعد أن استراح هو ورجاله ودوابه يومين شرع فى النزول فى ممرات

أشد وعورة من التى سلكها فى الصعود وطـرق صخرية يصعب اجتيازها ، وأخرى مغطاة بالجليد وكثيراً ما كانت الحيوانات تزل أقدامها فتسقط فـى هاويات سحيقة تلقى فيها حتفها ، وكان هانيبال يستحث جنده اليائسين بأن يشير إلى الحقـول النضرة والمجارى المائية المتلألئة التى تنتشر من بعيد فى جنوب الجبـال ويقـول لهم إلى هذه الجنة التى وعدتم بها والتى ستكون لكم بعد قليل ، وبعد سـبعة عشـر يوماً من الصعود والهبوط وصل هانيبال وجنده إلى السهول ، وكانت خسارته فـى هذه المغامرة كبيرة للغاية فقد خسر الكثير من الرجال والجياد ، وكل فيلته إلا ثلاثـة منها ، وكان هذا الجيش حسبما يقول بوليبيوس يتكون من ٥٠ ألف جنـدى مشـاة وتسعة عشر ألفاً من الفرسان وفرقة تضم ٣٧ فيلاً ، ولم يبق من جيشه علـى حـد قول بوليبيوس أيضاً إلا اثنى عشر الف نوميدى وثمانية آلاف أيبرى ، ولـم يبـق لديه أكثر من ستة آلاف فارس ، ويرى بعض الباحثين أن خسائر هانيبال الكبـيرة حدثت بالتأكيد أثناء عبوره لجبال البرانس ولكن هذه الخسارة لا تفسر فقـده ثلاثـة أخماس جنود المشاة منذ عبور البرانس ، ومن ثم يمكن القول أن هانيبـال خـلال الطريق التى سلكها منذ وصوله إلى بلاد الغال ، وحتى نهر الـرون ، حيـث لـم يخض الجيش أية معركة حقيقية ، ولم يضم أكثر من ثمانية وثلاثين ألفاً من المشـاة وثمانية آلاف فارس ، وأن هانيبال قام بفرز قسم كبير من جيشه أبقاه كحامية كُلفـت بحماية النقاط الاستراتيجية ، وكان يقصد بذلك المحافظة على خطوط اتصالاته مـع اسبانيا ، إضافة إلى احتمال غزو بعض القبائل فى بلاد الغال الجنوبيـة ، كمـا أن بعض الأخبار تشير إلى أن ثلاثة آلاف من الجنود الأسبان نكصوا علـى أعقابـهم حين علموا أنه ينوى عبور الألب وسرح هو نفسه سبعة آلاف غيرهم لأنهم احتجـوا على هذه المغامرة ، وقالوا أنها مستحيلة التحقيق ، وعموماً فإن كل هـذا يعنـى أن

هانيبال خسر الكثيرين من جنده ولكن الخســـارة لم تكن بالقدر الذى ذكره الكتـــّاب القدامى . أما عن خسارته فى فيلته فهى جلية وفادحة .

عندما وصل هانيبال إلى سهل البو شمال إيطاليا فى الخريــــف وجــد فـــى انتظاره جيشاً رومانياً بقيادة سكيبيو والجدير بالقول أن مجلس الشيوخ كان متــــأكداً من أن هانيبال لن يجرؤ على عبور جبال الألب فى هذا الفصل المتـــأخر ، ولكـــن وصلته أخبار عبوره لها ووصوله إلى شمال إيطاليا ، ومن ثم فقـــد كـــانت خطـــة الرومان ألا يعطوا هانيبال فرصة لإراحة جنوده المتعبين وضم الغال إلى جانبــــه ، وتبعاً لذلك قام مجلس الشيوخ باستدعاء جيش سمبرونيوس المعسكرة فى ليلوبـــايوم بصقلية وتم نقله بحراً حيث توجه بسرعة إلى اريمينيـــوم (Ariminium) لنصـــرة ومساندة سكيبيو الذى توجه بمجرد عودته إلى شمالى إيطاليا وجمع حاميـــات نـــهر البو وزحف غرباً لمواجهة هانيبال عند نهر تيكينوس (Ticinus) ولكـــن هانيبـــال تفوق عليه فى فن المناورة وتغلب عليه فى المناوشات التى وقعت بينـــهما وتمكـــن من عبور نهر البو وجرح سكيبيو جرحاً خطيراً وسقط بين ســـنابك الخيـــل وكـــاد القرطاجيون يجهزون عليه لولا شجاعة ولده وعبد ليجورى اللذان قامـــا بانقـــاذه ، ونتيجة لانتصار القرطاجيين على جيش سكيبيو تمرد الجنود الغـــال الذيـــن كـــانوا يحاربون فى صفوف جيش سكيبيو وانضموا إلى هانيبال بعد أن قتلوا عدداً كبـــيراً من الجنود الرومان ، واستقبلهم هانيبال بمودة واستخدمهم فـــى البدايـــة كعنـــاصر دعاية من شعوبهم بهدف حثهم على التحالف معه كما أطلق سراح ٨ أســـرى مـــن الشعوب المغلوبة على أمرها كى ما يعودوا إلى أوطانـــهم المختلفـــة ويـــرووا مـــا شاهدوه ، وتحقق له ما أراده من ذلك فقد علت منزلة القرطاجيين فى نظر الغـــاليين إذ كانت جموعهم فى سهل البو تشاهد تقهقر أعلام الرومان أمام القرطاجيين فمـــع عودة هؤلاء الجنود الذين ثاروا على الرومان طلب منهم أن يبينوا لبنـــى جلدتـــهم

أنهم يستطيعون كسب الغنائم مع الشرف إذا رغبوا فى طرد الرومان من أراضيهم، كما أنه نجح فى استخدام فريق منهم للتجسس على الرومان ، وذلك بنقل الأخبار وتعضيدها من بنى جلدتهم فى الجيش الرومانى ، كما انضم إليه أفراد قبيلة البويى (Boii) ، وعندما انضم تيبريوس سمبرونيوس لونجوس إلى سكيبيو بجيشه وقام بمهاجمة هانيبال بقوات تبلغ ضعف قواته ، أنزل هانيبال بالجيش الرومانى هزيمة نكراء على ضفاف نهر تربيا (Trebia) فى ديسمبر ٢١٨ ق.م بقيادة سمبرونيوس وكانت نتيجة هذه الهزيمة النكراء انسحاب وفرار المستوطنين الرومان من شمالى إيطاليا ، والذين كانت روما قد أنزلتهم فى هذه المنطقة ، ويقو ليفى لقد هزم الجميع وأصبح هانيبال منذ تلك اللحظة سيداً لشمال إيطاليا وأن هذه الهزيمة قد ملأت روما بالرعب إذ كانت الشائعات تروج أن هانيبال يحث السير للمدينة كما أن هذا شجع الكثير من الغال على الانضمام إليه واعتبروه مخلصاً لهم من الرومان ، ونجح هانيبال فى تجنيدهم، وقد قضى فصل الشتاء فى تدريبهم وأطلق أسراه من غير الرومان كوسيلة دعائية له فى أوطانهم ، وفى أثناء قضاء فصل الشتاء فى سهل البو عانى جيشه من قسوة الطقس كما نفقت بقية فيلته إلا واحداً استخدمه هانيبال فيما بعد مطية له أثناء عبوره للمناطق الوعرة ، وعموماً بعد أن أكمل تدريب الغال بدأ زحفه إلى شمالى إيطاليا فى انتهاء فصل الشتاء ، واختار الطريق المؤدى إليها مباشرة على الرغم من وعورته وصعوبة اجتيازه بسبب الفيضانات وهو طريق الابنين ، وقضى أربعة أيام لاجتيازه كانت مريرة له ولجيشه فقد روى كثير من القصص عن المخيمات التى نصبت فى العراء وسط المستنقعات حيث هلك قسم كبير من الدواب ومن المحتمل أن هانيبال قد أصيب فى هذه الفترة بالتهاب فى عينيه وفقد احداهما بسبب خطأ فى العلاج ، وتابع الجيش سيره حتى وصل إلى مقابل مدينة (Arezze) حيث كان القنصل فلامينيوس قد أقام معسكره .

كان الرومان قد اتخذوا موقف الدفاع ورسموا خطتهم على تقسيم جيشهم إلى قسمين أولهما يتولى حماية طريق فلامينيوس وسده فى وجه هانيبال بينما يقوم ثانيتهما بحماية سهل اتروريا وقد نجح هانيبال فى تجنب الاشتباك مع فلامينيوس وجيشه بمروره عبر ممر جبال الابنين ونجاحه فى خطته فى استدراج فلامينيوس فى ساحة للحرب يختارها هو بنفسه ، ولتحقيق ذلك عمل على إثارة خصمه بدفع جنوده بنهب الأرياف المجاورة وإحراقها ، وسلك طريق فلامينيوس ودخل ممر يحف ببحيرة تراسيمنى ، وخيم فى نهايته لقضاء الليل بينما قام الرومان الذين تتبعوه باحتلال مدخل هذا الممر ، وكانت خطة هانيبال تقوم على اخفاء جانب من قواته خَلْف التلال المطلة على الممر على أن تقوم بالانقضاض على قوات الأعداء، وفى صبيحة اليوم التالى دخل القنصل الرومانى وقواته إلى الممر حيث الفخ المنصوب له دون أن يعلم أن أعاليه كانت مراقبة ، وانقض عليه جيش هانيبال من كل صوب من الأمام والجنب والخلف ، فقد كان الفخ محكماً تماماً فخلال ثلاث ساعات كما يروى ليفى قتل وغرق خمسة عشر ألف رومانى من بينهم القنصل نفسه فى البحيرة التى فروا إليها بحثاً عن منقذ أما الآخرون من الجيش فقد أسروا أو لاذوا بالفرار فى حين لم يفقد هانيبال سوى ألف وخمسمائة من جنوده ، كان غالبيتهم من الغال وتابع هانيبال خطته الهادفة لزعزعة نفوذ روما بين حلفائها إذ قام بتحرير الأسرى من غير الرومان وردد على أسماعهم ما كان قد قاله منذ أول معركة بأنه لم يأت لحربهم بل لتحرير المدن الخاضعة لسيطرة الرومان .

لم يلبث هانيبال أن أحرز نصراً آخر على الرومان إذ تروى المصادر أن القنصل سرفيليوس (Servilius) عندما علم بدخول هانيبال إلى سهل اتروريا أرسل قوة تضم أربعة آلاف فارس لتعزيز فيالق زميله فلامينيوس ولكن هذه القوة وصلت بعد انتهاء المعركة ولم يكن نصيبها إلا أن قام ماهربال أحد قادة هانيبال بإبادتها ،

ونتيجة لهذه الهزيمة الثقيلة التى لحقت بالرومان صار الطريق مفتوحا إلـــى رومـــا أمام هانيبال ، ولكنه أدرك أن اقتحام أسوارها ليس بالأمر الـــهين ، وذلـــك نظـــراً لنقص معدات الحصار والاقتحام لأسوارها ودفاعاتها ، هذا فضلاً أنه كان بحاجـــة إلى قواعد مجاورة تموله بالمؤن والاحتياجات وهذا لم يكن متاحاً أيضاً لأن المـــدن المجاورة لروما أوصدت أبوابها فى وجهه وظلت وفية إلى روما على الرغـــم مـــن محاولته ضرب هذا التلاحم وذلك من خلال إطلاق سراح أسراء الإيطـــاليين مـــن غير الرومان دون مقابل ، ونتيجة لهذا فقد اتجه هانيبال إلى إقليم أبوليا فى الجنـــوب بغرض جعلها مركزاً وقاعدة لنشاطه فى إثارة جنوب إيطاليا على رومـــا وليســـهل الاتصال بقرطاجة ، والجدير بالذكر أنه فى البداية أن عزفت مدن الجنـــوب عـــن تقديم الدعم لهانيبال واستمرت على وفائها لروما وأغلقت أبوابها فى وجهه وتـــأهلت لقتاله ، كما أن الغال تخلوا عنه لأنه كان لا يعنيهم إلا أرضهم فى الشمال ، وبلـــغ من كثرة المؤامرات التى دبرت لاغتياله أنه صار يتخفى كل يوم بشـــكل جديـــد ، وأخذ يتوسل لحكومته أن ترسل إليه المدد والعتاد والزاد عن طريق أحـــد الثغـــور الواقعة على البحر الادرياتيكى ولكن حكومته خيبت رجاءه ، فما كـــان منـــه إلا أن طلب من أخيه الأصغر هاسدروبال أن يعد جيشاً يعبر به غالة وجبال الألب وينضـــم إليه ، ولكن الرومان كانوا قد غزوا أسبانيا ولم يجرؤ هاسدروبال علـــى مغادرتـــها ومضت عشر سنين قبل أن يخف إلى نجدته بعد أن كان قد فات الآوان ، فبعـــد أن برئ سكيبيو من حرجه طلب التصريح له بتولى قيادة جيشه القديم فى أســـبانيا ، لا لرغبته فى أن يتحاشى لقاء ثالثا مع القرطاجى هانيبال ، بل لاقناعه أن فتح أســـبانيا هو الذى سيعمل على استقرار أمور الدولة الرومانية وقد شايعه فى هذا الرأى نفـــر من زملائه أعضاء مجلس الشيوخ الذين رأوا أنه من الحصافة وأصالـــة الـــرأى أن ينشـــدوا النصر فى أرض لا يستطيع هانيبـــال أن يكون حاضراً فيـــها وكـــان رد

روما على هزيمتها فى تراسيمنى بانتخاب كوينتيوس فابيوس ماكسيموس (Q.Fabius Maximus) دكتاتوراً لمواجهة هذا الخطب والخطر المحدق بالمدينة ، حيث عمت الشائعات بقرب وصول القرطاجيين لها ، كان كوينتوس فابيوس محارباً محنكاً وكانت خطته تعتمد على رفع الروح المعنوية للرومان بتقديم الأضاحى والقرابين للآلهة وعمل على التعبئة العامة للرومان بدفع ضريبة جديدة وطلب من حلفاء الرومان نفس المطالب كما عمل على حرمان القرطاجيين من الحصول على المؤن فقد أمر بتنفيذ خطة حربية تقوم على اضرام الحرائق وتخريب الأراضى فأينما توجه القرطاجيون كانت تحرق المحاصيل وتنقل الماشية والأهلون قبل وصولهم ، وما كاد يصدر هذه الأوامر حتى ترامى إلى سمعه أن جيش هانيبال كان يحرق البقعة التى يمر بها وقتل جميع الذكور فى سن التجنيد ، ولتخفيف هذا الأمر على الرومان كان يخاطب الزعماء الرومان قائلا لماذا يتلفظون اسم هانيبال فى فزع ، أنه رجل واحد لا أكثر بعيد كل البعد عن قرطاجة، ولم يتبق معه سوى ثلث الجيش الذى يتبعه فى جبال الألب ، ولا محيص له عن أن يحصل على طعامه يوماً بيوم، ولذلك فكل يوم يمر لابد أن يوهنه بينما نحن نزداد قوة" وفى ضوء هذه الكلمات أيضاً فقد كان سلوكه ونهجه تجاه هانيبال فقد كان مدركاً أنه وجيشه لا قبل له بالمواجهة المباشرة مع هانيبال وأن كل نصر يحرزه الأخير يعزز من مركزه فى الجنوب ، ومن ثم فقد كانت خطته أن يتجنب الاشتباك المباشر معه فى معركة والاكتفاء بتتبعه ورصد تحركاته عن قرب فيحرمه الأمان ويضعف الروح المعنوية من قواته وذلك بالانقضاض على الشاردين والضالين ، مما يؤدى إلى تناقص عدده ، كما أن وجود الجيش الرومانى المقتفى أثر جيش هانيبال كان كافياً لتشجيع حلفاء روما على اغلاق أبواب مدنهم فى وجه هانيبال .

أما عن هانيبال فعندما نزل بجيشه إلى الجنوب وقضى فصل الصيـف فـي الاستجمام بمرتفعات البحر الادرياتيكى ولكنه سرعان ما عمل على تجديـد جيشـه وتدريبه على خطط جديدة واستبدل ملابس جنوده المؤقتة بملابس الجنود الرومـان والزرد وواقيات السيقان والدروع الثقيلة ، كما استبقى على سيوفه الطويلـة وتعلـم الكثير من خطط الرومان ، فقد وزع على الفرسان دروعاً ثقيلة ، وقبل الانتهاء مـن التدريبات الجديدة على مراحل سهلة داخل ابوليا ، وهنا ظهر جيش فـابيوس عـن قرب للقرطاجيين مع الحرص بعدم الاشتباك معهم حيث عمـل علـى ألا يبـارح المرتفعات الصخرية حيث كان يعسكر كل مساء مع الانقضاض على جنود هانيبـال الباحثين عن علف للماشية والجياد ويطاردونهم فى عنف وهكذا فقد كـان يحـاول إعاقة حصوله على الامدادات كما عمل فابيوس على تحاشى الوقوع فى أى كميـن، وفى المقابل كان هانيبال يحاول جر الرومان للدخول معهم فى معركـة حاسـمة ، فبدأ بالتحرك والتنقل بين أبوليا وكمبانيا ولكن لم يمنحه فـابيوس الفرصـة وكمـا ذكرنا من قبل فعلى ما يبدو أن هانيبال عندما ذهب جنوباً كان بغـرض الاتصـال بقرطاجة عبر البحر الادرياتيكى إذ تسللت مراكب صغيرة من افريقيا إلى شـاطئ بيسانتا الخالى من الموانئ مارة بالأساطيل الرومانية ويبدو أن هانيبـال قـد بـاع أسرى تراسيمنى لتجار من الشرق وظهر لأول مرة الأسرى الرومان فى الموانـئ اليونانية ، وأرسل هانيبال فى نفس الوقت مندوبين إلى فيليب ملك مقدونيـا وحـاكم دالماتيا للتحالف معه ضد روما .

ويبدو أن ماجو أصغر أخوة هانيبال قد انضم إليه أيضاً فى جنـوب إيطاليـا وحمل معه الأنباء عن الأحوال فى أسبانيا وما حققه الأخوان من أسرة سكيبيو فـى أسبانيا عن انتصارات بقطع خط الاتصالات مع اسبانيا والذى كان يـأمل أن يظـل مفتوحاً وما قامت به الأساطيل الرومانية من ضرب السـاحل الاسـبانى وكذلـك

جزائر الصنوبر ضرباً ، فحين وصل كورنيليوس سكيبيو إلى أسبانيا ٢١٨ ق.م قـام بمهاجمة القوات القرطاجية التى كان يقودها هانو وتم أسره ، وفى عــام ٢١٧ ق.م تمكن الرومان من تحقيق عدة انتصارات بحرية بفضل مساعدة حلفائهم الماســاليون الذين يملكون سفناً سريعة وبفضل التعزيزات التى وصلتهم فــى أسـطول يضـم عشرين سفينة وثمانية آلاف جندى بقيادة بوبليوس ســكيبيو الأخ ، وبفضــل ذلـك تمكن الرومان من التقدم إلى جنوب نهر الابيرو إلى أن وصلوا إلى أطراف مدينـــة ساجونتوم حيث أنشأوا هناك قاعدة قوية واستمالوا إلى جانبهم عدة قبائل أســبانية ، كما علم بأن قرطاجة أرسلت أسطولاً حربياً مكوناً من سبعين ســفينة قويــة إلــى أسبانيا وذلك لتقديم المدد والعون لهاسدروبال فى حربه ضد آل ســكيبيو أولا ، ثـم الإغارة على شواطئ إيطاليا الغربية ثانياً وتصل إلى بيزا ، ورد الرومان على هـذا العمل بإرسالهم أسطول مكون من ١٢٠ سفينة ذات الخمسة صفوف من المجدفيــن من صقلية لحراسة سردينيا وكورسيكا ولمراقبة تحركات القرطــاجيين ومحاولتــهم الاستيلاء عليها .

لقد حاول هانيبال فى استدراج فابيوس وجيشه للدخول فى معركة فقد ســار بجيشه متجهاً صوب الحقول الخصيبة ومدن كمبانيا وتتبعــه فــابيوس فقـط فــى تحركاته ، وكاد أن يوقعه فى فخ ولكن هانيبال تخلص من الحصار عندمــا توغـل جيشه فى وادى ضيق مسدود وذلك بحيلة ذكية استخدم فيها الثـيران التــى اشــعل الأعشاب المثبتة فى قرونها ومن ثم شغل الرومان عن انسحاب جيشه ونجاته مــن هذا الدرب الضيق ، وقد أثارت هذه القصة ونبأ نجاة هانيبال وجيشــه الاســتهجان ضد فابيوس من قبل الرومان ، وعندما استدعى فابيوس إلى روما بحجة الاشــتراك فى الطقوس الدينية ولكن استدعاءه كان فى الواقع للإجابة علــى منتقديــه داخـل مجلس الشيوخ ، وعند ارتحاله نبه على نائبه ماركوس منيوكوس (M.. Minucus)

ألا يدع هانيبال يستدرجه للقتال مهما كانت الظروف ، ففى الواقـــع كــانت خطــة فابيوس غير مرضى عنها من قبل الرومان واتــــهموه بالتقـــاعس (Cunctator) ، ومنحوا نائبه ومساعده ، قائد الفرسان سلطات معادلة لسلطاته وذلك لأنه كان يدعــو إلى اتباع خطة هجومية ، وفى أثناء غياب فابيوس فى روما اجترأ مينوكوس علـــى مهاجمة جيش هانيبال ، فكاد أن يقضى هانيبال على جيشه تمامـــا لـولا وصـــول فابيوس ونجدته له ، ولكن سنجد ان الرومان بمجالسهم قد تخلوا عن خطط فـــابيوس لأنهم كانوا يتحرقون شوقاً للخلاص من كابوس هانيبال وفى الواقع فـــإن فـــابيوس أنقذ الدولة بخططه وقوى الروح المعنوية لدى الرومان ويصدق هنا قـــول الشـــاعر انيوس (Enius) عليه " أنه الرجل الذى بمفرده أنقذ الدولة بصبره " . فقد نجح فـــى انقاذ الجيش الرومانى وقوى من عدده بينما لم ينجح هانيبال فى جره إلى الحـــرب والدخول معه فى مواجهة ينهى خلالها حرب الاستنزاف التى يشنها عليه الرومـــان، ولم تصدق مقولة هانيبال لقد كسبنا الحرب فروح الرومان العسكرية قد تحطمـــت" فقد كان هذا الأمر إلى حين ، فقد عمل الرومان على التخلى عن خطـــط فـــابيوس والتغلب على هانيبال وأساليبه وخططه العسكرية ، وذلك من خلال تجنيـــد جيـــش عرمرم واسندوا قيادته إلى قنصلى عام ٢١٦ ق.م ، وكان الرومان يحدوهم الأمـــل أن يحققوا بهذا الجيش المتفوق عددياً على جيش هانيبال النصر ، لقد كـــان اندفـــاع الرومان للحرب سبباً فى منح هانيبال فرصة لخوض أعظم معركة فى حربه معـــهم، وكما يصفها علماء التاريخ العسكرى فهى أعظم معركة فى العصور القديمة كلـــها ، فقد كان الجيش الرومـــانى بقيادة كل من القنصلين لوكيـــوس ايميليـــوس بولـــوس (Lucius Aemilius Paulus) وكيوس ترنتيوس فارو (Caius Terentius Varo) وقد أشار بولوس الأرستقراطى المحتد بضرورة اتباعه الحيطة والأناة بينمـــا كـــان فارو متعجلاً لخوض غمار الحرب ، وأخذ يبحث عن القرطاجيين حتى وجدهم عند

كاناى ، وكان قوام الجيش الرومانى ٨٠ ألف جندى وستة آلاف فارس ، أما هانيبال فكان لديه تسعة عشر ألف فارس ممن خبرتهم الحرب ، ونجح هانيبال فى جر فارو إلى خدعته وقتاله فى سهل متسع يعد من أحسن الأماكن لحرب الفرسان وبدأ هانيبال خطته مع بداية الصيف ترك جيشه معسكره فى جيرونيوم واستولى على بعض الأرزاق ، ونجح فى إجبار خصومه الرومان على بدء المعركة وذلك عندما استولى على قلعة كاناى الواقعة على ضفاف نهر الاوفيدوس (Aufidus) ولم تكن مجرد قاعدة استراتيجية هامة للرومان ، بل كانت أيضاً مستودعاً للأقوات التى كان الرومان قد خزنوها ، وتبعاً لهذا العمل فقد قرر الرومان بتحريض من فارو من الدخول فى المعركة ودفعوا إلى أتونها بثمانية فيالق ، ولم يكن الجيش الرومانى قد حارب أبداً بمثل هذه القوة من قبل .

دخل الطرفان الحرب فى عام ٢١٦ ق.م على ضفاف نهر الافيدوس وفى سهله المتسع الملائم لتحركات لفرسان وقام هانيبال بتنظيم جيشه وكالعادة وضع خيالته فى الأجنحة ، فالأيبريين والغال منهم على ميسرة الجيش والنوميديين على ميمنته ، ونظم مشاته على جهة تشبه القوس أو الهلال تحدبه باتجاه العدو ، وعلى هذه الجبهة كانت توجد وحدات عسكرية ذات أصول أثنية مختلفة ومستوى قتالى متباين ، ففى الوسط وضع هانيبال مشاة ايبريين وغاليين ، وعلى الميمنة والميسرة كان المشاة الأفريقيون ، وكانت خطة هانيبال تتضمن إثارة العدو ودفعه إلى تركيز هجومه على القسم الأوسط أى المحدب من هذه الجهة المخالفة للتقاليد الحربية ، ففى هذا الجزء كانت توجد العناصر الضعيفة والتى سيكون دورها التعرض للهجوم الأول ومن ثم سيكون موقفها هو التقهقر للخلف ، وهذا التقهقر يجعل التشكيل الأوسط المحدب باتجاه الأمام يتحول حسب الخطة إلى جيب يمتص الجنود الرومان المهاجمين والواثقين من إمكانية اختراق الخطوط القرطاجية واحراز

النصر ، وهنا فى هذه الحالة خطط هانيبال بأن تقوم الوحدات الافريقية ، وهى خيرة الجيش القرطاجى ، بمهاجمة مشاة الرومان على جانبى الجبهة الرومانية التى كانت تأخذ شكل زاوية رأسها للأمام وبالتالى حصرها بين فكى كماشة ، بينما يقوم الفرسان المتمركزون فى الأجنحة بحركة تطويق سريعة باقفال ذلك الجيب ، وهكذا فقد دارت المعركة كما خطط لها هانيبال ، وأثبتت هذه الخطة العبقرية العسكرية لهانيبال ، فوفقاً لها فقد أبيد معظم الجيش الرومانى فقد فرض عليه هانيبال ، بشكل من الأشكال ، التحركات التى بدت لهذا الجيش مؤيديه للنصر ، ولكنها قادته فى الحقيقة إلى الهزيمة وحينما طوق الجيش من كافة الجهات فاستسلم للهزيمة وكانت خسارته تبعث على الرعب ، فحتى لو أننا وجدنا رقم السبعين ألف قتيل والذى ذكره بوليبوس مبالغاً فيه فإن ليفى الذى يستقى معلوماته من مصادر أخرى يتحدث عن سبعة وأربعين ألفاً وسبعمائة قتيل كان من بينهم القنصل باولوس وثمانين من أعضاء مجلس الشيوخ الذين تطوعوا فى الجيش وفر عشرة آلاف إلى كانوسوم (Canusum) ومن بينهم فارو وسكيبيو أما جيش هانيبال فكان قد فقد خمسة آلاف وسبعمائة رجل ، كان من بينهم أربعة آلاف غالى .

وفى اليوم التالى للمعركة طلب ماهربال من هانيبال مواصلة السير إلى روما غير أن هانيبال رفض ذلك فقال له ماهربال " أن الآلهة لا تمنح الإنسان كل شىء ، إنك يا هانيبال تعرف كيف تنتصر ولكن لا تحسن الاستفادة من انتصارك" ولكن هذا القول فيه مجافاة للحقيقة ، لأن هانيبال كن يعرف حدود مواهبه وتبعات هذا الفعل ، ومن ثم فقد أبدى تعقلا فروما لم تكن مدينة يمكن الاستيلاء عليها بحركة خاطفة ، وإذا ما حوصرت فإن أسوارها التى يبلغ طولها أحد عشر كيلومتراً والتى تم تعزيزها ، تجعل أية عمليات حصار ضرباً من الخيال ، لأنه ظن أن قوته أقل من محاصرة المدينة ، أو لنقل فى أكثر الاحتمالات ، قد تستغرق

حصارها وقتاً طويلاً جداً ، وحتى لو استولى عليها فلن يستطيع الاحتفاظ بها ، وهذا العمل لم يكن يتناسب مع أساليب الحرب التى كان هانيبال يتميز بها وهى عمليات ذات نتائج مؤكدة توضع وتنفذ خططها بأدق تفاصيلها ، وكأنها لعبة كبرى مليئة بالشراك بالنسبة للمتهورين حيث يحرز النصر فيها الأكثر دهاء والأكثر ابداعاً ، لقد كانت خطط هانيبال تحمل المفاجآت التى تشل قوى العدو ، كما أن هانيبال كان يدرك أن لديه الكثير ليفعله عدا الزحف إلى روما ، فقد هدف إلى تحطيم التحالف الرومانى الإيطالى وزعزعته .

لقد كان أثر الهزيمة فى المعركة ثقيل الوطئ على الرومان ، فقد انتشر الرعب والهلع فى روما ، فالجنود الذين نجوا من المذبحة شعروا أنه لا أمل لروما ، وفكروا فى الهرب إلى بلاد اليونان ولكن سكيبيو ظل يندد بموقفهم حتى استحوا ، وقضت روما شهراً كاملاً وهى فى أشد حالات الخوف فلم يكن بها إلا حامية صغيرة ولجأت النساء إلى المعابد والهياكل باكيات وعاشرت بعض النساء اللائى قتل أزواجهن وابناؤهن فى الحروب الأجانب والعبيد خشية أن ينقطع نسلهن وظن مجلس الشيوخ أن الآلهة غضبى فأحل مرة أخرى التضحية البشرية مرضاة لها وأمر بدفن اثنين من الغال واثنين من اليونان أحياء ، ولكن مع ذلك استطاع الرومان بما كان لدستورهم من مزايا بالاستماع إلى حسن المشورة ، وسكن الصراع الطبقى بينهم ، وسعوا جميعاً لإنقاذ الوطن فتبرع الأطفال والأرامل لخزانة الدولة بما كانوا قد ادخروه ، وجند كل رجل قادر على حمل السلاح ، وحتى الارقاء فقد قبلوا فى الفيالق ووعدهم أسيادهم بأن يهبوهم حريتهم إذا ما كتب النصر لروما ولم يرض جندى واحد أن يتناول عن عمله أجراً ، انتظروا هانيبال ولكنه لم يأت لاقتحام مدينتهم .

لقد بدأ هانيبال فى تنفيذ خططه بعد المعركة بإطلاق سراح الأسرى جميعاً من غير الرومان ، أما عن الرومان فقد عرض إطلاق سراحهم على روما نظير فدية قليلة ، فلما رفض مجلس الشيوخ افتدائهم أرسل أغلبهم عبيداً إلى قرطاجة وأرغم الباقين على أن يسلوا رجاله بأن يصارع بعضهم بعضاً فى حلبة الجلاد حتى الممات كما يفعل الرومان .

عمل هانيبال كما قلنا من قبل على زعزعة المحالفات الرومانية مع القوى الإيطالية المختلفة ونقضها ، وقد تشجع حلفاء روما على فض تعاهداتهم معها بعد الهزيمة التى حاقت بها فى كاناى بل لم يكتف البعض منهم بذلك بل انضموا إلى جانب هانيبال بعد أن وعدهم بألا يفرض عليهم أعباء فى حربه مع روما وهكذا فقد الرومان كل جنوب إيطاليا تقريباً فيما عدا المستعمرات الرومانية واللاتينية والمدن اليونانية الساحلية وكانت هذه المدن تخشى أن يسلمها هانيبال للقبائل السمنية المستعدة لممارسة عمليات النهب ، كما أن الحكومات التى كانت تسيطر عليها وهى من الأشراف كانت تشارك الفئات الرومانية الحاكمة فى وجهات النظر ، فقد انفصل السمنيون واللوكانى والبروتيى وعدد من مدن اليونان الكبرى ، وثار الغال فى الشمال ، فقد أوقعت قبائل البويى والانسوبرس جيش الحدود الرومانى فى مصيدة وسحقوا ٢٥ ألف جندى وقتلوا قائده ، وأبادوا القوات الرومانية القريبة من أمينوس ، كما انضمت كابوا إلى جانب هانيبال وتخلت عن تحالفها مع روما ، فقد استقبل هانيبال استقبالا حراً من قبل انصاره الكثيرين هناك إذ أن زعماء المدينة كانوا يسعون باظهارهم حقدهم على الجمهورية الرومانية لأن تحل مدينتهم محل روما فى المكانة ، كما قام جيش قرطاجى بالإبحار الى صقلية واحتل اجريجتوم ودعم ثورة سيراكوز على روما وانضمام ملكها الجديد هيرونيموس (Heronymos) بعد هيرون والموالى للرومان لقرطاجة ، وكان من نتائج هذا

التحالف حرمان روما من شحنات القمح الصقلى ونجح هانيبال فى عقد معاهدة فى عام ٢١٥ مع فيليب المقدونى لتبادل العون والمساعدة وأخذ فيليب يتحرش بالممتلكات الرومانية فى الليريا وذلك بغرض طرد الرومان منها ثم النزول إلى إيطاليا وعمل هانيبال على احتلال بعض الموانئ الجيدة وذلك بغرض تأمين اتصالاته مع قرطاجة ومن ثم فقد احتل كل من لوكريس (Locres) وكروتون فى عام ٢١٥ ق.م ، وقد ساعده على ذلك حدوث الصراع الداخلى بين الأشراف والعامة بهما . وفى عام ٢١٣ ق.م نجح هانيبال أيضاً فى الاستيلاء على مدينة تارنتم وهى أهم المدن الساحلية على اثر مؤامرة باستثناء قلعتها حيث توجد حامية رومانية قوامها خمسة آلاف رجل وتسيطر على الميناء ، وفى ربيع عام ٢١٢ ق.م دخل هانيبال هيراكليا وميتابونتى وثوريوى (Thurioe) ، ولكن على الرغم من كل هذه الانتصارات التى فككت الائتلاف الإيطالى فقد بقيت قوة هانيبال محدودة إذ لم تبلغ ذروتها إلا وكان الانحسار قد بدأ .

لم يتلق هانيبال التعزيزات الماسة والكافية كى يعزز من انتصاراته سوى فصيل مؤلف من ٤٠٠٠ نوميدى وأربعين فيلاً ، وكان السبب فى ذلك أحداث أسبانيا وافريقيا ذاتها فقد أجبر الرومان قرطاجة على تغيير أهدافها ، إذ أن هاسدروبال كان قد اصطدم بجيش سكيبيو جنوب نهر الابيرو وهزم ولم يكن الأمر الصادر بالنسبة له من قبل قرطاجة أن يصل إلى أخيه ولكن تم تكليفه بالتدخل ضد سوفاكس (Syphax) ملك نوميديا الذى كان يهاجم الممتلكات القرطاجية فى افريقيا، كما أن العمليات الناجحة للرومان فى أسبانيا قد أجبرت قرطاجة على أن ترسل قوات إلى أسبانيا بدلاً من إرسالها إلى هانيبال فقد حشدت قرطاجة اثنى عشر ألفا من الجنود وألف وخمسمائة فارس وعشرين فيلا وستين سفينة حربية وكان على رأسها ماجون شقيق هانيبال ثم عززت قرطاجة هذه القوة بقوة أخرى بقيادة

هاسدروبال شقيق جيسكون بحيث نجحت فى عام ٢١١ ق.م من تعديـــل الموقـف لصالحها وألحقت الهزيمة بالجيشين اللذين كانا يقودهما الأخوان سكيبيو ، فقد نجـح القرطاجيون فى إبادتهما ، مع ضباطهما بعدما تخلى المرتزقـــة الغـال والأسـبان عنهما ، والجدير بالذكر أن القوة القرطاجية التى سعى القرطـاجيون مـن خلالـها الاستيلاء على سردينيا كانت قد تعرضت إلى عاصفة هوجاء جنحت بعدهـا إلـى جزر البليار وسحقت فى أول معركة مع الرومان فماذا كان رد فعل روما أمام هـذه الخسائر والنكبات ؟ كان على روما أن تواجه كل هذه النكبات بثبات ، فقـد حـدث توافق بين الأشراف والعامة ، وبقى الحلفاء الآخرين وخاصة اللاتين والاتروريـين مخلصين لروما وأسند الرومان إلى السناتو إدارة شئون الحرب والتخطيط لها مـع هانيبال كما عمل على استرجاع ما خسره الرومان من أراضى وحلفـاء ، وكـانت خطة مجلس الشيوخ هى تضييق الخناق على هانيبال وذلك بقطـع اتصالاتـه مـع الغال لمنع وصول الامدادات إليه منهم ، ومتابعة النشاط العسكرى الذى كان قد بـدأ سكيبيو فى اسبانيا وذلك بغرض منع وصول امدادات إلى هانيبال سواء من أسـبانيا أو من قرطاجة ، وتتبع جيش هانيبال كظله والامتناع عن خوض معارك معه كمـا فعل فابيوس من قبل ، وفى نفس الوقت محاولة استرداد المدن التى انحـازت إلـى جانبه للحد من مصادر تمويله ، واثمرت هذه الخطة فى أنها منعت قيـام هانيبـال بعمليات عسكرية كبيرة ، والحد من خططه التى كانت على النحو الآتى :

١- الاستيلاء على المدن اليونانية الساحلية .

٢- محاولته جر الرومان لخوض غمار حرب و حروب معه يجبرهم بعدها علـى التسليم وبدأ فى تنفيذ الخطة فاستولى على عدد من المدن اليونانية الساحلية مـن بينها تارنتم وميتابونتوم (Metapontum) وهيركليا وثورى .

عمل الرومان عموماً على تعبئة قواهم ، ففى عـام ٢١٤ ق.م نجحـوا فـى تجنيد ١٨ فرقة وجندوا ٨٠٠٠ عبد متطوع ، شكلوا منهم فرقتين ، وبرهن السـناتو عن يقظة وتبصر كبيرين فى التعامل مع الجيش الرومانى ، واعتبر أساليب فبيـوس العسكرية فى المماطلة نموذجاً جديراً بالاحتذاء ، حتى يتم تجنب وإبطال الفرصـة على هانيبال وما خطط له من حل الحلف الإيطالى وتوحيد أعـداء الرومـان فـى حلف آخر ، وفى نفس الوقت سعى باتباعه لتكتيك فابيوس لاضعاف وعزل جيـش هانيبال وذلك بمنع وصول الإمدادات والتعزيزات مما يضعف روحه المعنوية .

وكان على روما أن تكافح من أجل استرداد ما فقدته عقب موقعـة كانـاى ، فقد نجح الرومان فى توطيد مواقعهم فى شبه الجزيرة فـى خـلال الفـترة ٢١٥ – ٢١٠ ق.م من خلال خط المستعمرات المنيعة القائمة على طول مجرى ايريس ثـم التقدم نحو كمبانيا وسانتوم ، وعمل الرومان علـى اسـترداد كـابوا وحاصروهـا وعندما حاول هانيبال رفع الحصار عنها وذلك بالتقدم نحو روما ولـم يبـق بينـه وبينها إلا بضعة أميال ، أدرك الرومان ما كان يدور بخلده فلـم يسـحبوا قواتـهم المحاصرة لكابوا وفى نفس الوقت جندوا ٢٥ فرقة جديدة أى حوالـى ٢٠٠ ألـف جندى ولم تكن قوة هانيبال قد زادت عن ٤٠ ألف مقاتل فاضطر إلـى الانسـحاب نحو الجنوب ، وسقطت كابوا فى أيدى الرومان عـام ٢١١ ق.م وقطعـت رؤوس زعمائها الذين أباحوا قتل من كان من الرومان فى المدينة من قبل ، ومن لم يقتـل منهم انتحر ، وشتت أهلها الذين ناصروا هانيبال فى جميع أنحاء إيطاليا ، وحينمـا قطعت سيراكوز علاقاتها بروما ، ردت روما على ذلك بمحاولتها السيطرة عليـها واستعادتها إلى حظيرة نفوذها فقد تم إرسـال القنصـل الرومـانى م. كلوديـوس ماركيلوس (M. Claudius Marcellus) فى عام ٢١٣ ق.م وحـاول أن يضـرب بحصاره على سيراكوز وإنهاء تمردها ، واستولى على بعض توابع سيراكوز كمـا

عقد معاهدة مع سكان الجزيرة القدماء والذين كانوا يكرهون اليونـان مستغليهم ، وردت على ذلك قرطاجة بتوجيه جيش قوى قوامه خمسة وعشرين ألـف جنـدى وثلاثة آلاف فارس وعشرون فيلا بقيادة هيميلكون واستطاع هذا الجيش فـى عـام ٢١٣ ق.م أن يستولى على هيركاليا وأجريجنتوم غير أنه لم يتمكن من فك الحصـار على سيراكوز واخفق فى محاولته الثانية فى العام التالى ٢١٢ ق.م إذ بسـبب مـا حل بجيشه من أوبئة قضت عليه ، وفى نفس الوقت تمكن بوملكار قائد الأسـطول القرطاجى من التدخل عبر البحر ، فقد دخل ميناء سيراكوز على رأس قوة ضمـت خمساً وخمسين سفينة غير أنه خشى مواجهة الأسطول الرومـانى المتفـوق عليـه عدداً ، فقفل عائداً إلى عرض البحر ليطلب العون والمدد من قرطاجة ، بيـد أنـه أعاد الكرة مرتين ففى المرة الأولى كان معه مائة سفينة وفى الثانية كان معه مائـة وثلاثون سفينة ومع ذلك لم يجرؤ على الاشتباك مع الأسطول الرومانى على الرغـم من تفوقه عليه إذ يقول ليفى حينما رأى بوملكار الأسطول الرومانى متجـهاً نحـوه تملكه خوف شديد لم يعرف أحد سببه فأمر سفنه بالتوجه إلى عرض البحر ووصـل إلى مدينة تارنتم وأدى هذا الهروب إلى سرعة تسليم المدينة للرومان ، فبعد وقـت قصير فى عام ٢١٢ ق.م قام موريكوس (Morricus) وهو قائد لمرتزقـة أسـبان بتسليم المدينة للرومان بعد أن فقد الأمل فى الحصول على المساعدة من قرطاجـة وسلمت المدينة للرومان بعد أن لقى أرشميدس حتفه الذى نجحت اختراعاته وحيلـه فى تأخير سقوط المدينة وجعلتها عصية على الرومان ، وأخيراً وفـى عـام ٢١٠ ق.م سقطت اجريجنتوم بعد مقاومة طويلة بسبب خيانة قائد الفرسـان النوميديين موتينس (Muttines) والذى كان قد أقيل ظلما من قبل الحاكم هانو وبـهذا تكـون صقلية قد ضاعت إلى الأبد من قرطاجة .

وسعى السناتو الرومانى إلى إبطال مفعول وأثر المعاهدة بين هانيبال وفيليب المقدونى ومنع خطرها ، فقد كان فيليب يأمل فى تحالفه مع هانيبال ضد روما أن تنضم بلاد اليونان كلها إليه وتسير فى ركابه لمواجهة روما ولكن سرعان ما انتشرت الشائعات حول اعتزامه إذا ما حقق القرطاجيون النصر أن يخضع بلاد اليونان جميعها تحت سيطرته بمعونة القرطاجيين ، ونتيجة لهذه الشائعات وما أعقبها من مخاوف فى بلاد اليونان أن تحالف كل من الحلف الايتولى ٢٨٢ ق.م وبرجامون مع روما وتعاهدا معها على مساعدتها فى حربها ضد فيليب ، وقد بنى السناتو خطته على شغل فيليب ومنعه من تقديم العون لهانيبال ومن التحرش بأملاك الرومان فى الليريا ، ومن أجل ذلك أمر السناتو فى عام ٢١٤ ق.م قائد الأسطول الرومانى فى البحر الادرياتيكى بإنزال قوة فى ابولونيا على شاطئ الليريا وزيادة قوة الاسطول ، وأغرى الرومان هذا الحلف بمهاجمة مقدونيا مما أدى إلى نشوب الحرب المقدونية الأولى (٢١٢ – ٢٠٦ ق.م) ، وفى هذه الحرب انضم الحلف الآخى إلى فيليب بينما انضم ملك برجامون إلى الحلف الايتولى ، وقدمت روما مساعدة بحرية ، واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين إلى أن ترتب على سحب الأسطول الرومانى فى عام ٢٠٧ ق.م أن تفوق فيليب والآخيين ولكن استمع الفرقاء إلى نداء بعض الدول المحايدة لوقف الحرب وبالفعل عقد الصلح بين الفريقين فى عام ٢٠٦ ق.م ، وفى عام ٢٠٥ ق.م أجبر الرومان الملك فيليب على عقد الصلح بعد أن أدرك أنه ليس بإمكانه التعويل على مساعدة الأسطول القرطاجى والذى كان تدخله ضرورى ليستطيع الدخول مباشرة فى حرب إيطاليا ، ولم يقم الأسطول القرطاجى طوال الحرب إلا بدور بسيط فكان قادته قليلى الخبرة، ضعفاء ويخشون من نتائج أية هزيمة محتملة ، وكانوا دون شك أقرب إلى تفكير الأقلية الحاكمة القرطاجية المحافظة من تفكير الأوساط المؤيدة لهانيبال ، ومثالنا

على ذلك فى العمليات التى قام بها الأسطول فى صقلية ، وهكذا وبفضل براعة الرومان السياسية فوتوا على كل من هانيبال وفيليب فرصة تآزرهما سوياً فى محاربة روما التى كانت تجتاز أسوأ مراحل الحرب ، وكان هانيبال فى أشد الحاجة إلى عون ومساعدة من الخارج .

وكما ذكرنا من قبل سعت روما من البداية تقويض دعائم مركز قرطاجة فى أسبانيا ولمنعها فى نفس الوقت من إرسال إمدادات لهانيبال ، وعلى الرغم مما حل بالرومان فى أسبانيا من هزيمتهم وقتل الأخوين من آل سكيبيو ، إلا أن الرومان بقيادة الاخوين كانوا قد استولوا على بعض ممتلكات قرطاجة ونجحوا فى إغراء بعض القبائل الأسبانية على الخروج على قرطاجة وإذا كان هاسدروبال قد نجح فى هزيمتهما إلا أنهما كانا قد بثا الفرقة والفتنة بين رعايا قرطاجة وفى شل يد قرطاجة عن إرسال امدادات إلى هانيبال لو أنها وصلته بعد كاناى لكان لها تأثير فاصل فى سير الحرب ، وهكذا نجح الرومان فى تفويت الفرصة على قرطاجة لدعم مركز هانيبال فى إيطاليا حين توالت النكبات على روما ، وعلى الرغم من الهزيمة التى حلت بالرومان فى أسبانيا وكاد أن تضيع ثمار ما حققه هناك إلا أن الرومان أبوا ضياع مكاسبهم فى أسبانيا وإفساد خطتهم ومن ثم فقد أرسلوا جيشاً جديداً تولى قيادته بوبليوس كورنيليوس سكيبيو الملقب بالأفريقى وعمره لم يتجاوز الرابعة والعشرين ربيعاً ولم تكن هذه السن تجيز له من الناحية القانونية أن يشغل هذا المنصب الخطير بيد أن مجلس الشيوخ كان فى ذلك الوقت لا يرى ضيراً فى أن يتجاوز عن حرفية الدستور إذا كان فى ذلك التجاوز نجاة للدولة .

وهكذا فقد أتت ثمار جهود وخطط مجلس الشيوخ الرومانى أو كلها وبدأت مرحلة جديدة فى هذه الحرب والتى سنعرض لها الآن :

المرحلة الثانية من الحرب ٢١١-٢٠٣ ق.م :

على الرغم من النجاح القرطاجي فى أسبانيا فى عام ٢١١ ق.م إلا أنه كان عاماً ملئ بالانتصارات للرومان وحمل خيبة الأمل إلى هانيبال ، فقد بدأت روما تخرج من مأزقها وبدأت تأخذ عنصر المبادأة ، فقد استردت كابوا وسيراكوز وترماى "هيموا" واستولت على أجريجنتوم ، كما أنها فى خواتيم هذا العام قد أرسلت جيشاً بقيادة الشاب بوبليوس كورنيليوس سكيبيو إلى أسبانيا ، على الرغم من حداثة سنه إلا أنه لم يكن حديث بالحروب فقد شارك فى معارك عدة منها كاناى كما خدم من قبل تحت قيادة أبيه ، وكان يدرك أسباب انتصارات هانيبال ، فقد وجدت فيه روما الرجل الذى أرسلته العناية الإلهية كى يقلب موازين الأقدار ، فانطلق على رأس فرقتين انضمتا فيما بعد إلى الجيش الرومانى الموجود فى اسبانيا وفى ربيع ٢٠٩ ق.م بدأ سكيبيو يستأنف أعمال أبيه فى جنوب أسبانيا بجرأة فما أن علم بانسحاب الجيوش القرطاجية إلى الداخل وتفرقها فى ثلاثة جيوش اثنان منها بقيادة هاسدروبال وماجو شقيقى هانيبال ، أما ثالثهم فكان بقيادة هاسدروبال شقيق جيسكون ، حتى انقض على العاصمة قرطاجنة واستولى عليها على الرغم من المقاومة العنيفة ، ووضع يده على خزائنها واستولى على غنائم هائلة ، كما استولى على مناجم الفضة القريبة منها وبذلك حرم هاسدروبال من الموارد التى كان يستمدها منها . وعمل سكيبيو على تدعيم نصره وذلك باتباعه لأسلوب هانيبال الذى اتبعه مع قبائل الغال إذ سعى إلى كسب ود القبائل الأسبانية النازلة فى المنطقة وخصوصاً زعمائها وفى نفس الوقت بدأ فى تدريب قواته على أساليب القتال الهانيبالية مع إعادة تسليح الجيش بالسيوف الأسبانية الطويلة بدلاً من الرومانية القصيرة ، وفى عام ٢٠٨ ق.م توغل داخل جنوب أسبانيا بغرض الاستيلاء على مناجم الفضة فى وادى باتيس (Pates) والتى كانت أحد أهم أسباب

ثراء قرطاجة ودخل في معركة مع هاسدروبال عند بـــايكولا (Baecula) وحقـــق عليه نصر غير حاسم ، فقد نجح هاسدروبال من الإفلات بأغلب قواته فيها ، وهنـــا أدرك هاسدروبال أنه إذا قام فوراً بأخذ الامدادات إلى شقيقه استطاعا سوياً إرغـــام روما على التسليم وأمكن بعد ذلك استرجاع كل شيء ، أما إذا انتظر أطـــول مـــن ذلك فقد تذهب كل آمال قرطاجة أدراج الرياح لأن الموقف في أسبانيا قـــد تدهـــور إلى حد يتعذر معه إرسال امدادات إلى هانيبال فيزداد موقفه حرجاً فـــي إيطاليـــا ، وتبعاً لذلك فقد اتجه بقواته عبر هضبة كاستيل ومن المرجح أن سكيبيو لم يعـــترض طريقه لأنه كان مطمئناً إلى قدرة القوات الرومانية في إيطاليا على معالجـــة أمـــر هاسدروبال ، كما رأى أن انصراف هاسدروبال أكبر ضمان له لاتمام فتح أســـبانيا وتوجيه ضربة قاضية إلى قرطاجة ، فقد تمكن في عام ٢٠٦ ق.م من إنهاء القســـم الأول من خطته ونجح في الحاقه الهزيمة بآخر جيـــش قرطـــاجي كـــان لا يـــزال موجوداً في أسبانيا بقيادة القائدين ماجو وهاسدروبال وكان يضم حوالـــي خمســـين ألف جندي وأربعة آلاف فارس إذ هاجمه سكيبيو بالقرب من ايليبا (Ilipa) وابـــاده تماماً ، وكان سر نجاحه في هذا النصر اتباعه لنفس أساليب وخطط هانيبـــال لجـــأ ماجو بعد هذه المعركة مقتفياً أثر زميله هاسدروبال وقد حاول تجميع بعض القـــوات من الأسبان في نفس الوقت طلب العون من قرطاجة وبمده بقوات أفريقية ، وكـــان ماجو قد سمع عن تمرد بين القادة الرومان بالجيش وأن سكيبيو قام بإعدامهم ، كمـــا أن بعض القادة الأسبان لم يريدوا استبدال الهيمنة القرطاجية بالرومانية ، فقام مـــاجو باستثمار هذه الظروف وكانت خطته ترمي إلى إنهاك الجيـــش الرومـــاني وإيقافـــه بعيداً عن إيطاليا أطول فترة ممكنة ، ولكن هذه الخطة فشلت وذلك لفشل ماجو فـــي استرداد العاصمة قرطاجنة وحين عاد إلى قادش منعه أهلها من دخولها إذ كان قـــد أنهك وأكل كاهل سكانها وفرغ خزائنها وأجبر زعماءها على تسليم أموالهم لتغطيـــة

نفقات الحرب ، وقام أهلها بالتخلص من القرطاجيين وتسليم المدينة للرومان ، ونتيجة لهذا فقد اتجه ماجو إلى جزر الباليار وقضى هناك شتاء ٢٠٦ – ٢٠٥ ق.م في مينورقا حيث عمل على حشد قواته حتى ينزل شمال إيطاليا ، وهكذا فقد ضاعت أسبانيا إلى الأبد من يد القرطاجيين ، ولم يكتف سكيبيو أيضاً بالقضاء على الوجود القرطاجي في أسبانيا بل عمل على إثارة القلاقل في أفريقيا ، وخاصة في نوميديا فقد أقام علاقات مع سوفاكس (Syphax) الذي كان يثير المتاعب لقرطاجة منذ عام ٢١٥ ق.م ، أما عن هاسدروبال وجيشه فقد اجتاز جبال الألب بعد أن قضى شتاء ٢٠٨ – ٠٧ ق.م في جنوب بلاد الغال ، في اتجاه نهر البو وقضى هناك وقتاً ثميناً وحاصر مدينة بليزانس ثم وصل إلى ما وراء مدينة ريميني في بداية صيف ٢٠٧ ق.م وكانت أنباء نزول هاسدروبال من جبال الألب قد أقلقت الرومان وازداد هذا القلق حينما وقعت قوات كل من القنصلين كلاوديوس ماركيلوس وكونيكتوس كريسبينيوس (T. Quinctus Crispinius) في كمين بينما كانا يعدان لمهاجمة معسكر هانيبال ، هذا فضلاً عما حل من دمار بالبلاد ، كما أن طول فترة الحرب أنهكت الشعب الروماني ، كما أعلنت اثنى عشرة مدينة لاتينية عن سخطها من الأعباء الحربية والمالية التي فرضها مجلس الشيوخ ، ومن ابتعاد الجنود الرومان عن روما في صقلية ، لقد كانت حالة الإنهاك هذه تهدد إذا ما تمكن هاسدروبال من ضم قواته إلى جيش أخيه ، بتحقيق انتصار ساحق لقد كانت روما تعاني من أيام الحرب السيئة ، وعموماً عندما وصل هاسدروبال شمال إيطاليا انضم إليه قوات غالية كبيرة ، ولما كان الرومان يخشون هذا الأمر فقد عملوا على منع الاتصال بين الأخوين ومن ثم فقد أرسلوا جيشين أحدهما بقيادة القنصل جايوس كلاوديوس لمجابهة هانيبال في ابوليا والآخر بقيادة القنصل ماركوس ليفيوس لوقف زحف هاسدروبال ، وكان الحظ حليفاً للرومان إذ تم

القبض على مبعوثى هاسدروبال وعرفوا منهم خط سير جيشه تجاه أبوليا حيث يعسكر أخوه من قبل رجال كلاوديوس ، تحرك هذا القنصل بجانب من جيشه سراً وسارع بالانضمام إلى زميله وعلى ضفاف نهر متاوروس (Metaurus) ، حاول هاسدروبال تجنب فرق الرومان غير أنه أجبر حين وصوله على قتالها ، نجح القنصلان فى القضاء على جيش هاسدروبال وقتل هاسدروبال وعندما وصلت أخبار هذا النصر إلى روما عمها الفرح فقد كان هذا النصر هو بداية النهاية لهانيبال الذى كان يعلق آمالاً كبيرة على وصول نجدة أخيه وما ستحققه من تغيير فى ميزان القوى ، وكى تقضى روما على هذه لآمال وبشكل شديد القسوة كلفت رسولاً من قبلها بإلقاء رأس هاسدروبال داخل معسكر أخيه ، انسحب هانيبال بعدها مع جل قواته إلى إقليم البروتيى فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى بشبه الجزيرة الإيطالية حيث ظل هناك إلى أن صدرت إليه الأوامر بالعودة إلى قرطاجة فى خريف عام ٢٠٣ ق.م ، ولم يتجرأ الرومان على الاشتباك معه على الرغم من تفوقهم عليه .

وعموماً ابتداء من عام ٢٠٥ ق.م بدأت مشاعر الخوف لدى القرطاجيين من أن الرومان سيأخذون زمام المبادرة ونقل ساحات الحرب إلى افريقيا ، ومن ثم فقد سعت قرطاجة إلى منع ذلك إذ أنها أوكلت إلى ماجو شقيق هانيبال الموجود فى جزر لباليار بتكوين قوة والنزول بها فى شمالى إيطاليا لجمع قوات من الغال وذلك لغزو شبه الجزيرة الإيطالية ، ونجح ماجو فى النزول مع جنوده على ساحل ليجوريا وكان جيشه يتكون من خمسة عشر ألفاً ، استولى دون جهد على مدينتى جينيس (Genes) وسافونى (Savone) ، وأحدث وصوله قلقاً واضطراباً فى روما، ورابط ماجو فى إقليم الليجورين ووجد بعض من التأييد فى أوساط الليجوريين والغال ، كما تلقى من قرطاجة مساعدة قوامها ستة آلاف رجل وثمانمائة فارس

وسبعة أفيال تم نقلها بواسطة أسطول مكون من خمس وعشرين سفينة هذا بالإضافة إلى أموال لتجنيد المرتزقة .

ولا يوجد لدينا دليل يشير إلى أن هدف ماجو كان الالتقاء بأخيه هانيبال ، ولكن ما يمكننا قوله أن الحكومة القرطاجية كانت تهدف من ذلك هو خلق حالة من الاضطراب والفوضى فى روما وذلك بغرض تخفيف الضغط على هانيبال ، وفى نفس الوقت منع غزوهم لبلادهم ، فقد كان هذا التواجد القرطاجى فى الشمال الإيطالى يحتم على الرومان التركيز على جبهة ثانية فى الشمال ويمنعهم من المجازفة بتوجيه جيش إلى افريقيا وتفريغ إيطاليا من الجيوش ، ولقد بقى ماجو عامين فى شمالى إيطاليا وفى نهاية عام ٢٠٣ ق.م تلقى أمراً بالعودة مع فرقته إلى قرطاجة ، فكان يشكو جرح خطير أصيب به فى معركة فى شمال ايطاليا ، وتوجه إليها تاركاً وراءه قائد آخر اسمه هاملكار فى شمال إيطاليا ومواصلة حرب العصابات ضد روما بمساعدة سكان شمال إيطاليا ، غير أن ماجو لم ير قرطاجة لموته نتيجة لحرجه خلال رحلته إلى قرطاجة .

أما عن روما فقد كان سكيبيو وهو فى أسبانيا يسعى بعد القضاء على السيطرة القرطاجية فيها إلى تحقيق وتنفيذ باقى خطته وذلك بمهاجمة قرطاجة فى عقر دارها حتى يخلص إيطاليا من خطر هانيبال ، ولتحقيق ذلك اتبع الخطوات الآتية ، فقد سار على نهج هانيبال فى شمال إيطاليا ، إذ نجده يحاول بث الفرقة والانقسام بين الحكام النوميديين والقرطاجيين ، فقد نجح فى استمالة ماسينيسا النوميدى إلى جانبه بعد أن فقد عرشه لصالح سوفاكس وكان ذلك بتحريض من القرطاجيين واتخذ من كيرتا عاصمة ثانية له ، كما حاول أن يستميل سوفاكس إلى جانبه ، ونجح سكيبيو مع الأول وفشل مع الثانى ، فقد كان ماسينيسا يرى أنه لابد له من الاعتماد على الرومان كى يستعيد حقه السليب فى العرش أما بالنسبة

لسوفاكس فيقال أن سكيبيو أرسل إليه وفداً برياسة جايوس لايليوس (Gaius Laelius) إلى افريقيا والتقى هذا الوفد بسوفاكس وطلب التعاهد معه بيد أن الأخير قال للوفد أنه لن يتعاهد إلا مع سكيبيو نفسه ومن ثم فقد ذهب إليه سكيبيو والتقاه وحاول سوفاكس أن يقوم بدور الوسيط بين الرومان والقرطاجيين الذين وصله وفد منهم فى نفس الوقت ، ولكنه فشل لأن سكيبيو ذكر أنه ليس مخولاً له أن يتخذ مثل هذا القرار وهذا الأمر شأن من شئون مجلس الشيوخ وفشل فى النهاية فى استمالته فقفل عائداً إلى أسبانيا ٢٠٦ ق.م .

وفى عام ٢٠٥ ق.م عاد سكيبيو إلى روما وتم انتخابه قنصلاً وطلب من مجلس الشيوخ نقل ساحة الحرب إلى افريقيا ، ولكن تردد مجلس الشيوخ فى ذلك الأمر ، وذلك لعدة اعتبارات أولها أن هانيبال ما يزال فى إيطاليا ، وأن ذهاب قوات معه يخفض القوات المدافعة عن إيطاليا ، ثانيها : أنه أراد ألا يفرض أعباء جديدة على الحلفاء الإيطاليين بحشد قوات جديدة ، ولكن سكيبيو كان قد استطاع اكتساب جمعية المينينات وعندئذ قرر مجلس الشيوخ السماح له بأخذ أى متطوعين يستطيع جمعهم إلى جانب فرقتين من بقايا الجيش الرومانى المنهزم فى كاناى ، وكان مجلس الشيوخ قد أرسلهما إلى صقلية عقاباً لهما على فرارهما من ساحة المعركة بعد أن حمى وطيسها ، وقبل سكيبيو قرار مجلس الشيوخ ، اتجه سكيبيو إلى صقلية وقضى بقية عام ٢٠٥ ق.م بها فكان يقوم خلالها بتدريب رجاله على الأساليب القتالية الهانيبالية ، وقام سوفاكس فى تلك الأثناء بتحذيره من مهاجمة أراضيه وأراضى حلفائه القرطاجيين إذ عليه فى هذه الحالة القتال دفاعاً عن أرض افريقيا التى ولد فيها مثل القرطاجيين ودفاعاً عن وطن زوجته وفى سبيل أبيه وآلهته ، وبينما كان سكيبيو يعد بهمة لحملته على أفريقيا قرر أن يقوم بالاستيلاء على ميناء لوكريس (Locres) التى لم تكن مستعدة للقتال ، واستولى عليها ،

بالفعل بمساعدة بعض الأهالى وبمساعدة الأسطول ، ووضعت المدينة تحت قيـــادة بليمنيوس الذى أباحها لقواته ، وأرسل سكيبيو فى نفـــس العـــام ٢٠٥ ق.م حملـــة استطلاعية وتخريبية إلى الساحل الافريقى بقيادة لايليوس صديق سكيبيو ، ونجحت هذه الحملة فى الاتصال بماسينيسا الذى أخـــبرهم بـــأن ســـوفاكس مشـــغول فـــى المنازعات مع السكان المحليين .

وفى عام ٢٠٤ ق.م جددت قيادة سكيبيو الذى قرر وضـــع خطتـــه موضـــع التنفيذ ، فخرج بجيش اختلف الكتاب القدامى حول عدده فبعضهم يذكر أنـــه كـــان يضم خمساً وثلاثين ألف جندى وفارس ، وأبحر بهذا الجيش أمام حشود هائلة مـــن السكان المحليين الذين قدموا من كل أنحاء صقلية لمشاهدة هـــذا المنظـــر العظيـــم وليرفعوا أيضاً من معنويات القائد الرومانى ، وصلت تلك القـــوات بـــالفعل إلـــى الساحل الافريقى ، ونزلت بالقرب من اوتيكا (Utica) شمالى غـــرب قرطاجـــة ، وسارع ماسينيسا بالانضمام إليها ، وقد أدى هذا إلى بعـــث الرضـــا فـــى قلـــوب الرومان فى بداية حملتهم ، واختلف الكتّاب حول القوة التـــى قادهـــا ماسينيســـا فالبعض يرى أنها كانت مؤلفة من مائتى فارس بينما يرى البعض الآخر أنها كـــانت تزيد على الألفين .

أما عن قرطاجة فقد قامت بإعداد جيش كبير للدفاع عن أراضيـــها وعندمـــا علمت بنزول جيش سكيبيو إلى أفريقيا أبلغت سوفاكس الذى خف بجيشـــه وانضـــم إلى جيش القرطاجيين بقيادة هاسدروبال ، وكان الجيش الرومانى قد زادت ثقته بعـــد أن قام باحتلال قرى الإقليم وبعمليات سلب ونهب والاشتباك مـــع بعـــض القـــوات القرطاجية ، ومن ثم فقد هاجم أوتيكا بغرض الاستيلاء عليها وقضاء فصل الشـــتاء بها فقام بمحاصرتها أربعين يوماً براً وبحراً ، ولكنه فشل وأجبر علـــى التقـــهقر إذ هددته القوات القرطاجية البالغة ثلاثة وتسعين ألف رجل ثلثهم من قوات ســـوفاكس ،

ومن ثم فقد أصر على التحصن فى منطقة سميت كاســترا كورنيليـا . ولتحقيــق أغراضه بعد ان شل نشاطه لجأ إلى الحيلة وتظاهر باستعداده لعقد الصلح بناء علــى الاقتراح الذى عرضه سوفاكس الذى أراد أن يقوم بــدور الوســيط مــرة أخــرى والتفاوض بدلاً من الحرب ، فكان اقتراحه يقضى بأن ينسحب الرومان من افريقيــا مقابل انسحاب القرطاجيين من إيطاليا ، ويحتفظ كل جانب منهما بالأراضى التــى يسيطر عليها حتى ذلك التاريخ ، وكان سكيبيو يسعى إلــى كســب ود ســوفاكس واستمالته إلى جانبه لأنه كان يعرف أن من طبع التوميديين أن يرجعوا بسرعة عــن تعهداتهم ، كما أنهم لا يحافظون إلا نادراً على الإيمان بعهودهم التى قطعوها أمــام الآلهة وأما الناس ، كما أن سكيبيو دخل المفاوضة وعمل على اطالتها بغرض الحد من حماس ويقظة الجيش القرطاجى وحليفه ، وأيضــاً لدراســة أحــوال خصمــه بالتجسس على معسكره ومعرفته لمواطن ضعفه ، فقد لجأ إلــى إرســال ضبــاط رومان برفقة وفد التفاوض متنكرين فى زى الخدم الذين قاموا بجمــع المعلومــات عن جميع المنشآت الحربية ، وعند حلول فصــل الربيــع وبعــد تجميعــه كافــة المعلومات الهامة لديه ، أشار إلى مفاوضيــه بقطــع المفاوضــات مــع الجــانب القرطاجى بحجة أنها اصطدمت بمعارضة مجلس الشــيوخ الرومــانى ، وبعــد أن تظاهر بالهجوم على أوتيكا بهدف صرف الأنظار عــن هجومــه علــى معســكر القرطاجيين ، أرسل عناصر من جيشه فى ظلمة الليل البهيم أشــعلت النــار فــى مراكز الجيشين القرطاجى والافريقى ، وانتشرت النــيران بســرعة فــى منشــآت المعسكر المصنوعة من الخشب والبوص والمتلاصقة مع بعضها البعض ، ونتيجــة لهذا الحريق فقد عمت الفوضى بين رجال المعسكر فإما انهم ماتوا حرقــاً بالنــار ، وإما أنهم ماتوا ذبحاً على يد القوات الرومانية فى أثناء محاولتهم الــهرب ، وأبيــد معظم الجيشين ويقدر ليفى الخسارة بأربعين ألف جندى تم قتلهم وخمسة آلاف تــم

أسرهم ، ولا يمكن التأكد من صحة هذه الأرقام فهى تختلف مــن كــاتب لآخــر ، ولكن نجح كل من سوفاكس وهاسدروبال فى الفرار مع بعض فرســانهم وأصبــح للرومان بعد هذه المعركة حرية الحركة .

وعلى الرغم من هذه الكارثة فقد كلف مجلس الشــيوخ القرطــاجى بتجنيــد جيشاً آخر وتم تجميع قوة من الفرسان الغال والأسبان قوامها أربعة آلاف فــارس ، وبلغ حشد القوات القرطاجية النوميدية قرابة ثلاثين ألف رجــل ، وتــرك ســكيبيو أوتيكا التى ظلت محاصرة براً وبحراً ، وأخذ معه قوة والتقى الجيــش القرطــاجى النوميدى فى وادى نهر المحردة وحلت الهزيمــة الســاحقة بالقرطــاجيين ، وقــام سكيبيو بعد هذه المعركة باحتلال تونس ، بينما باشرت قوة رومانية بقيادة لايليــوس بالتقدم فى أراضى نوميديا ، حيث وقع سوفاكس فى الأسر من قبل ماسينيسا وفقــاً لرواية ابيانوس وتم سجنه واقتياده فيما بعد ليمشى فى موكب النصر مع عدد آخــر من الأسرى إلى روما ، وحصل ماسينيسا على لقب ملك حيث حل محل ســوفاكس فى مملكة نوميديا.

وكان أثر هذه المعركة على قرطاجة أن انقسم القرطــاجيون علــى انفســهم فريقين ، أولهما يدعو للصلح والسلام مع الرومان ، فقد كان من الضرورى حســب رأيهم إيقاف الحرب خاصة نتيجة للفشل الذى حاق بهم ، بينما اقترح الفريق الثــانى استدعاء هانيبال والجيوش القرطاجية من إيطاليا إذ ظل هانيبال فى نظرهم الأمــل الأخير ، وفى الواقع فقد سار القرطاجيون فى الخطين معاً ولعل السبب فــى ذلــك القلق أو عدم الثقة فى روما .

ويعتقد ليفى أن تصرف القرطاجيين على هذا النحو ينم عن خطــة مدبــرة بدقــة ، فقد استخدمت الحكومة القرطاجية المكــر القرطــاجى (Frdus Punica)

متظاهرة بالبدء بالمفاوضات لكسب الوقت بانتظار عـــودة هانيبـــال ومـــاجو مـــن إيطاليـــا ، ولكن يبدو أن رأى ليفى فى الحقيقة ، فيه مبالغة ومجافى للحقيقـــة إذ لا يمكن أن ننسى أن جماعة هانو الكبير الداعية للسلام كانت لاتزال مسموعة الكلمـــة بحيث نبهت إلى المخاطر الناجمة عن وجود العدو على أبواب المدينة .

وعموماً فقد اتفق الطرفان ، فى النهايـــة ، على إرسال وفد قرطاجى يضـــم ثلاثين عضواً من مجلس الشيوخ القرطاجى إلى سكيبيو الذى كان يحاصر المدينـــة وفى نفس الوقت كان مدركاً أن اقتحامها ليس بـــالأمر اليســـير ، وذلـــك لمعرفـــة شروطه وعقد هدنة ، فوافق على عقد هدنة ، وهنا أملى شروطه على النحو الآتى:

١- أن تطلق قرطاجة سراح الأسرى وأن تعيد اللاجئين والعبيد الرومـــان الفـــارين إليها.

٢- الانسحاب من إيطاليا وبلاد الغال وأسبانيا وجميع الجزر الموجودة بين إيطاليـــا وأفريقيا .

٣- يقوم القرطاجيون بتسليم أسطولهم الحربى عدا عشرين سفينة .

٤- أن يدفع القرطاجيون غرامة قدرها خمسة آلاف تالنت ، وأن يـــزودوا الجيـــش الرومانى بحاجته من القمح والشعير حتى التوقيع على معاهدة الصلـــح بينـــهما وانسحاب الجيش الرومانى .

وافقت قرطاجة على هذه الشروط أو على الأقل تظاهرت الفئـــة الرافضـــة للهزيمة بالموافقة ، وأرسلت بعثة إلى روما للتوقيـــع علـــى المعـــاهدة ، غـــير أن المفاوضات التى بدأت فى خريف ٢٠٣ ق.م استمرت وقتاً طويلاً جداً ، فقـــد كـــان على مجلس الشيوخ أن يستشير سكيبيو فى بنود المعاهدة التى لم توقعـــها الجمعيـــة الشعبية إلا فى ربيـــع عام ٢٠٢ ق.م ، ولكن خلال تلك الفترة قام القرطاجيـــــون

باستدعاء كل من هانيبال وماجو من إيطاليا ، وعلى الرغم من أن قلبه كـان يغلـي بالحقد لانسحابه ، بناء استدعاء قرطاجة ، من إيطاليا التى بقى فيها خمسـة عشـر عاماً يحارب ويهزم أقوى دولة عسكرية فى العالم بجيشه القليل العدد البعيـد عـن وطنه ، وفى الواقع فإن من هزم هانيبال فى إيطاليا لم يكن الرومـان الذيـن لاذوا بالفرار مرات عديدة ، بل الفئة الحاكمة والفاسدة والحسودة فى قرطاجة وترك قبـل رحيله من جنوب إيطاليا لوحة مكتوبـة باللغتين القرطاجية واليونانية ، على أحـد أعمدة معبد يونو فى رأس لاكينيون (Lacinion) روى فيها معاركه منذ انطلاقـه من أسبانيا .

وصل هانيبال فى بداية خريف عام ٢٠٣ ق.م إلى افريقيا التى تركـها منـذ خمسة وثلاثين عاما ونزل عند ليبتس مينور (Lipitis Minor) كى يكون بعيداً عن مراقبة سكيبيو وليكون حر التصرف بعد تعزيزه بقوات أخيـه مـاجو ، وليتجنـب التدخل فى شئون جيشه من قبل أعضاء حكومته التى لم يكن يعتمد فيـها إلا علـى بعض الأصدقاء ، ولأن هذه المنطقة كان بها أنصار عائلته .

وتلاحقت الأحداث واستؤنفت أعمال القتال بعد عودة الوفد القرطـاجى مـن روما ، فقد تعرضت قافلة بحرية تحمل قمحاً إلى جيش سكيبيو لعاصفة هوجاء أمـام السـواحل الأفريقيـة ، فضلت بعض سفنها وجنحت إلى شاطئ جزيـرة زامـبرا (Zambra) الصغيرة الواقعة فى مدخل خليج تونس على الشاطئ الغربى ، واجتمـع المجلس الأعلى القرطاجى الذى كان يضم القضاة بضغط مـن المواطنيـن الذيـن يشكون من قلة الامدادات لمناقشة السبل الواجب اتباعها ، وقرر أن يتم الاسـتيلاء على السفن الرومانية الجانحة والتى فر بحارتها ، وتم قطر هذه السفن حتى مينـاء قرطاجة ، ونتيجة لهذا التصرف أرسل سكيبيو وفداً للاجتماع على ما اعتبره نـهبا للقافلة وطالب بالتعويضات ، غير أن مندوبيه كانوا متعجرفيـن ، ومـن ثـم فقـد

استقبلوا بشكل غير ودى ، مما حتم عليهم العودة دون الحصول على رد واضح ، وفوق ذلك ، حاولت ثلاث سفن قرطاجية صدم السفينة الرومانية التى حملت الوفد الرومانى بعد مغادرتها قرطاجة مما ترتب عليه فقد بعض البحارة الرومان ولكن نجح أعضاء الوفد فى الوصول إلى معسكرهم .

وكان هذا العمل الذى تعمدت الحكومة القرطاجية حدوثه ربما بتحريض من الفريق الرافض للهزيمة ، كان بمثابة إعلان حرب على روما ، وتبعاً لذلك رد سكيبيو بالقيام بأعمال سلب ونهب فى الريف القرطاجى ، وأسر عدداً كبيراً من الأهالى وفى نفس الوقت استحث حليفه ماسينيسا الحضور ومعه فرقة قوية للانضمام إليه بأسرع ما يمكن على حد قول بوليبيوس ، هنا طلب القرطاجيون من هانيبال نجدتهم وتحرك جيشه وعسكر عند زاما الواقعة على مسيرة خمسة أيام من قرطاجة أى قرابة مائة وخمسين كيلومتراً .

حاول هانيبال التفاوض مع سكيبيو والذى قبله ، وطالب هانيبال بالوصول إلى اتفاق يحفظ لقرطاجة أسطولها الحربى ، فقد كانت رغبته بأن يحتفظ لوطنه بمكانته بين القوى الكبرى فى عصره ولكن هذه المفاوضات لم تسفر عن شىء ، ومن ثم فقد كان لابد من حدوث المواجهة بين القائدين فى خريف عام ٢٠٢ ق.م يقول أبيانوس أن الجيش القرطاجى كان يبلغ عدده حوالى خمسين ألف رجل بما فيهم القوات التى عادت من إيطاليا ، والجنود الأسبان والغال ، والافريقيون والقرطاجيون ، واثنى عشر ألف مرتزقة من الليجوريين والغاليين والباليارين والمغاربة الذين جندهم ماجو سابقاً .

أما الرومان فكانوا متفوقين بشكل خاص فى سلاح فرسانهم والذى تم تعزيزه من قبل ماسينيسا ، كما يمكن أن يكون عدد مشاتهم يساوى ما كان لدى خصومهم القرطاجيين .

وهكذا فقد كان الجيشان متكافئين تقريباً من حيث عدد الجند ، ولكن كان لدى هانيبال فرقة من الفيلة ، غير أن مشاة جيشه كانوا متفاوتين في الكفاية القتالية ، وكان لضياع نوميديا أثر كبير في إضعاف قوة فرسانه وزيادة فرسان سكيبيو هذا فضلاً عن حسن تدريب مشاته وطول خدمتهم تحت قيادته .

ويقدم لنا بوليبيوس شرحاً وافياً لتفاصيل ووقائع معركة زما وذلك لصداقته لأحد قادتها الرومان لايليوس ، وحسب قول الأخير فقد كانت خطة سكيبيو تتضمن اعداد ممرات واسعة متعامدة مع الجبهة بين وحدات مشاته التى نظمت هى أيضاً على ثلاثة خطوط تنفصل عن بعضها البعض ، وبفضل هذا الترتيب أصبحت هجمات الفيلة القرطاجية ضعيفة التأثير ، ويذكر ليفى دور الفرسان الحاسم الذين تمكنوا بمناوراتهم فى ضعضعة قوة القرطاجين ، فقد قام فرسان ماسينيسا الذين وضعهم سكيبيو فى جناح جيشه الأيمن بالهجوم على الجناح الأيسر للفرقة القرطاجية الذى كان يضم النوميديين بقيادة فيرمينا (Vermina) بن سوفاكس ، ثم قام فرسان ماسينيسا وفرسان لايليوس بمطاردة الفارين ثم التفوا وطوقوا مؤخرة الكتائب القرطاجية التى حوصرت بين فكى كماشة ، أما فى المقدمة فقد أجبر محاربو إيطاليا القدماء أى محاربو هانيبال والقرطاجيون على الدفاع عن أنفسهم أمام هجوم مرتزقتهم الذين رفضوا التضحية بأنفسهم فارتدوا يذبحون ويقتلون فكانت كارثة مروعة وهزيمة ثقيلة ، انسحب على أثرها هانيبال مع بعض فرسانه إلى معسكره الذى نزل فيه ، وألح على قرطاجة بقبول الصلح بشروطه القاسية وأهمها :

١- تخلى قرطاجة عن جميع ممتلكاتها فى افريقيا ما عدا مدينة قرطاجة ذاتها وإقليمها ، وإقليم المدن الثلاث (طرابلس).

٢- دفع تعويض قدره عشرة آلاف تالنت على خمسين عاماً .

٣- تسليم جميع السفن الحربية القرطاجية ما عدا عشر سفن من ذات الثلاثة صفوف من المجدفين ، وتسريح الجيش القرطاجي والاستغناء عن الفيلة .

٤- تلتزم قرطاجة بعدم خوض غمار حرب فى أفريقيا أو خارجها دون موافقة روما مسبقاً على ذلك .

٥- رد كل ممتلكات ماسينيسا التى كانت فى حوزته وحوزة اسلافه من قبل وتعيينه ملكاً على نوميديا وكان غرض الرومان من ذلك أن يرقب ماسينيسا قرطاجة ويضيق عليها الخناق .

٦- التزام قرطاجة بإعادة كل المغانم التى كسبتها أثناء الحرب وإعادة كل الأسرى والفارين من الرومان .

٧- تسليم ١٠٠ رهينة من أبناء الأسر القرطاجية النبيلة وذلك لضمان قيام قرطاجة بالوفاء بتعهداتها السابقة .

قبل القرطاجيون هذه الشروط وعقدوا الصلح عام ٢٠١ ق.م وعاد بعدها سكيبيو إلى روما واحتفى بانتصاره وتقديراً لنصره منح لقب افريكانوس (Africanus) الأفريقى . وهكذا انتهت حرب اعتبرها بعض الباحثين حرباً عالمية لتعدد جبهاتها وخرجت منها روما مسيطرة على غرب البحر المتوسط وكأعظم قوة فى العالم .

وبعد أن عرضنا لأحداث الحرب ووقائعها وتطورها يمكن لنا الخروج بـرأى عن أن سلوك كل من الرومان والقرطاجيين كان يؤدى إلى وقوع الصدام بينهم لا محالة وأن المسئولية مشتركة بينهما ولعل تدخل روما فى شئون اسبانيا ومحاولة الاضطلاع على نوايا القرطاجيين ومحاولة توسعهم شمالى نهر الابيرو ثم عقدهم معاهدة تحالف مع ساجونتوم بعد أن عقدوا معاهدة مع قرطاجة تشير إلى أن روما تتحمل قسطاً أكبر من المسئولية فى إشعال لحرب مع قرطاجة وأن أقوال

المؤرخين القدامى كانت تبريرية وما رددوه وزعموه عن مسئولية هانيبال في إشعال نيران الحرب بهجومه المباشر على ساجونتوم الذى جاء فى لواقع رداً على طرد الحزب المناصر له منها ثم اعتداء حكومة ساجنتوم على قبيلة أسبانية متحالفة مع القرطاجيين ، ومن ثم فقد رأى هانيبال أن هذا يعنى الاعتداء على قرطاجة ، كما أن رد هانيبال ومجلس الشيوخ القرطاجي على الوفد الرومانى يشير إلى خرق الرومان لمعاهدة نهر الابيرو ، كما أن مطالب وفد روما من مجلس الشيوخ القرطاجى تمت بطريقة استفزازية وجارحة لكرامة القرطاجيين مما دفعهم لقبول التحدى الذى فرضه عليهم رئيس الوفد حيث خيرهم بين تحقيق مطالب روما وبين حربها .

وبعد أن عرضنا لأحداث الحرب ووقائعها ننتقل للحديث عن التعلات الكامنة وراء انتصار الرومان وخسارة القرطاجيين لقد كانت عوامل ومفاتيح النصر تقع في صالح الرومان على الرغم من الانتصارات التى حققها هانيبال فى بداية الحرب ونجملها على النحو الآتى :

١- اهتمام الرومان بدعم سيادتهم البحرية إلى حد لم تستطع قرطاجة تحدى هذه السيطرة تحدياً خطيراً .

٢- وفرة عدد المواطنين الرومان وحلفائهم الإيطاليين مع اتباع فرض التجنيد الإجبارى على المواطنين الرومان والحلفاء ، مما أتاح لروما حشد جيوش من المواطنين والحلفاء والتى تمتاز عن جيوش قرطاجة المرتزقة من حيث العدد والروح المعنوية العالية ، فطالما بقى هانيبال فى إيطاليا كانت روما تجند من عام إلى آخر نحواً من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، ولم يحدث إلا مرة واحدة أن عجزت روما عن تعويض خسائرها طبقاً لنظام التجنيد العام وكان ذلك عقب معركة

كاناى عندما اضطرت إلى تجنيد ٨٠٠٠ عبد ووعدتهم بالعتق جزاء لحسن بلائهم .

٣- تناسى كل الصراعات بين الطبقات وترك مقاليد الأمور فى يد السناتو الذى أظهر من الشجاعة والمرونة والكفاية وبعد النظر وحسن التقدير ، وقد أدى تماسك مجلس الشيوخ وشجاعته إلى تطبيق نظام التوجيه المركزى الذى يعتبر عاملاً جوهرياً لنيل وتحقيق النجاح ، والحروب لا تكون فى صالح المناقشات التى تدور فى الجمعية الشعبية ، بل هنا تدعم مركز السلطة التنفيذية فقط وفى روما كانت السلطة التنفيذية تعنى مجلس الشيوخ وتبعاً لذلك فإنه لمدة نصف قرن بعد انتهاء الحرب أى فى عام ٢٠٠ - ١٥٠ ق.م كانت السيادة لمجلس الشيوخ وكان شغل مناصب القناصل حكراً على عائلات بعينها ففى الفترة من ٢٤٣ - ١٤٣ ق.م كان نصفهم من عشر عائلات فقط ، بينما كان اربعة قناصل من ستة وعشرين عائلة .

٤- حسن تقدير الرومان لظروف ومواجهة متطلباتها سواء بإطالة مدة ممارسة القناصل والبريتوريس للسلطة التنفيذية من أجل التغلب على عيب تغيير القائد العام سنوياً أم بإسناد القيادة العليا إلى خير من يصلح لتوليها وإن كان ذلك خروج على التقاليد مثلما حدث فى تعيين سكيبيو ابن الخامسة والعشرين ربيعاً كقائد عام لجيش أسبانيا ، كما عمل الرومان على مواجهة ظروف الحرب وحشدوا كل طاقاتهم ومواردهم بل وصل بهم الأمر عند الضرورة إلى تجنيد العبيد ، فقد كشفت هذه الحرب عن معدن الرومان من شجاعة ووفاء وبذل وفداء ، وكلفتهم نفقات طائلة وتضحيات كبيرة فى الأرواح هذا فضلاً عن التخريب الذى حل بأقاليم إيطاليا ، وكلفها تجهيز الجيوش والأساطيل موارد مالية طائلة وجعل خزانتها خاوية وهذا اضطرها فى عام ٢١٦ ق.م إلى

مضاعفة ضريبة الحرب وإلى عقد قرض مع هيرو ملك سيراكوز ، كما نجد أن روما ناشدت وطنية رجال الأعمال فوافقوا على تقديم الإمدادات اللازمة للقوات الموجودة فى أسبانيا والحصول على استحقاقاتهم عندما تتحسن أحوال الخزانة العامة ، ونجدها فى عام ٢١٤ ق.م عندما نشأت الحاجة إلى إنشاء قوة بحرية إضافية لموجهة الموقف المضطرب فى صقلية قد فرضت على أثرياء الرومان دفع أجور مجدفى السفن الحربية ، ونجد أن الجند الرومان لم يبالوا بعدم تلقيهم رواتبهم بعد ضياع كابوا وتعذر دفع تلك الرواتب ، كما نجد أن أعضاء مجلس الشيوخ تبرعوا بكمية كبيرة من الذهب والفضة لخدمة المجهود الحربى فى عام ٢١٠ ق.م وأمام نقص الموارد اضطرت الحكومة الرومانية فى عام ٢٠٩ ق.م إلى استخدام آخر احتياطى للخزانة العامة وهو المعروف بالخزانة المقدسة (Aerarium Sanctius) وكانت عبارة عما تكدس فيها من دخل ضريبة ٥ % المفروضة على اعتاق العبيد ، وعندما كان سكيبيو يعد حملته لغزو أفريقيا وعجزت الخزانة عن توفير كل احتياجاته إلى الجنود والسفن سمحت له بمناشدة وطنية الرومان وشجاعتهم لتزويده بالمتطوعين والمال .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد تحمل الرومان ارتفاع تكاليف الحياة وخطر حدوث مجاعة بسبب اضطراب الأحوال فى إيطاليا وصقلية وتجنيد أعداد كبيرة من المزارعين ، ولم ينقذ الرومان فى ٢١٠ ق.م إلا مناشدة بطلميوس الرابع تزويدهم بالحبوب وانتهت الأزمة فى عام ٢٠٩ ق.م وذلك لأن روما نجحت فى إعادة الأمور إلى نصابها فى صقلية .

وقد نزلت بأقاليم شبه الجزيرة الإيطالية الجنوبية أشد ضروب التخريب وتحولت أرضها إلى أرض جرداء ومن ثم فقد اضطر أهلها إلى هجرها ، وهذا قد

أدى إلى تدهور مدنها ، وتحمل الرومان أيضاً خسائر جسيمة فى الأرواح فقد كـــان عدد المواطنين الصالحين للتجنيد فى بداية الحرب يقدر بمائتى وثمانين ألف جنـــدى وهبط هذا العدد ووصل إلى ٢٣٧,٠٠٠ جندى فى عام ٢٠٩ ق.م ولابد أن يكـــون الحلفاء قد تحملوا على الأقل عدداً مماثلاً .

قصارى القول أن عوامل النجاح والنصر كانت فى جانب الرومـــان بينمـــا عوامل الهزيمة والفشل كانت من نصيب القرطـــاجيين ، وذلـــك لأن القرطـــاجيين ارتكبوا خطأين أولهما : إهمال الأسطول الحربى بعد الحرب البونيكية الأولى ولـــم يحاولوا إعادة بناء أسطول قوى يمكنهم من مجابهة الأسطول الرومانى ، وثانيـــهما أن القرطاجيين اساءوا التقدير بإرسالهم الإمدادات إلى أسبانيا فلو أنهم أرسلوها إلـــى هانيبال فى الوقت المناسب لتغيرت نتيجة الحرب ، وهذا خير دليل علـــى حكمـــة النشاط الذى تابعته روما فى أسبانيا منذ بداية الحرب حتى عام ٢٠٥ ق.م ويرجـــع الفضل فى هذا إلى القرار الذى اتخذه والد سكيبيو الافريقى عام ٢١٨ ق.م .

وعلى الرغم من أن قرطاجة لم تدخر وسعاً فى تجنيد الجيوش عقـــب كـــل هزيمة نزلت بها إلا أنها كانت تعتمد على الجنود المرتزقة وعلى رعاياهـــا الذيـــن أساءت معاملتهم وكان طبيعياً أنه كلما قلت الموارد أصبح من العسير عليها تجنيـــد المرتزقة ، وأنه كلما فرضت أعباء والتزامات جديدة على رعاياها ، أدى ذلك إلـــى إثارتهم مما كان يتطلب جهداً كبيراً منها لاخضاعهم ، هذا فضلاً عـــن أن تكويـــن جيش من أعراق مختلفة كان يتطلب شخصية قوية مثل شخصية هانيبال ليبث فيـــها من النظام وروح الجماعة ما يجعلها أهلاً لمواجهة جيوش مثل جيـــوش الرومـــان ولسوء الحظ لم يكن لديها إلا هانيبال واحد وأن باقى قوادها لم يفتقروا إلى شـــخصية هانيبال وكفايته فحسب ، بل أنهم لم يرتفعوا إلى مستوى المسئولية ويتغلبـــوا علـــى

المنافسات الشخصية ويتعاونوا مع بعضهم بعضاً تعاوناً صادقاً سواء فى صقلية أم فى أسبانيا .

ونتساءل الآن حول آثار لحرب البونيكية الثانية على كل من قرطاجة وروما ؟ لقد تركت الحرب بصماتها على كل من قرطاجة وروما فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية ونعرض أولاً بشكل موجز للغاية عن آثارها على المجتمع القرطاجي .

لقد كان لهذه الحرب آثاراً بالغة المدى على قرطاجة فقد فقدت إلى غير رجعة أسبانيا ومواردها الغنية ، كما فقدت جل أملاكها فى افريقيا لصالح ملك نوميديا ماسينيسا ، كما أنها فقدت سيطرتها ودورها البحرى فى حوض البحر المتوسط الغربى ، بفقدها لأسطولها وتحديد عدده ، كما ان الرومان قد اشترطوا عليها عدم الدخول فى حرب حتى لو كانت هى غير البادئة فيها أى معتدى عليها إلا بإذن روما ، وكان هذا الأمر قاسياً جداً على قرطاجة فقد وضعت قرطاجة وفقاً لهذا الأمر تحت رحمة جارتها نوميديا ، بل سيكون الذريعة المباشرة التى استغلتها روما لتدمير قرطاجة بحجة أنها خالفت وخرقت هذا الشرط ، وكان للجزية والغرامة الثقيلة التى فرضتها روما على قرطاجة أثرها الواضح على سير الأحداث فى المجتمع القرطاجي ، فقد تولى هانيبال بعد انتخابه معالجة الأمر وتدبير دفعها دون إضافة ضرائب جديدة على القرطاجيين ، وذلك بضغط الأوضاع المالية للحكومة وهذا كان كفيلاً بتوفير المال الضرورى ، وفى نفس الوقت سعى ما وسعه إلى ذلك سبيلا بأن يقضى على تفشى الفساد والرشوة مما حد من نفوذ الطبقة المتنفذة فيها ، وفى نفس الوقت سعى إلى تجديد وإصلاح الهيئات التنفيذية والتشريعية القرطاجية التى استشرى فيها الفساد معتمداً فى ذلك على الغضب الشعبى لما حاق بوطنه من نكبات وما حل به من ذل وهوان من قبل

الطغمة الحاكمة الفاسدة ، فعلى سبيل المثال لهذا الفساد رفض أمين الخزانة القرطاجية تسليم كشوف الحسابات الخاصة بالدولة ، وذلك لما بها من مخالفات واستغلال للنفوذ من قبل الفئة الحاكمة ، وتبعاً لذلك الرفض تم تقديمه للمحاكمة وعرض أمره على المجلس الشعبى وبعد التحقيقات وتحرى الأمر تم الكشف عن الخطط والامتيازات الاقتصادية للأقلية الحاكمة والتى كنت تبغى الحفاظ عليها ومن ثم تزداد وتتضخم ثرواتها ، وتبعاً لهذه التحقيقات تم عزله ، وسعى هانيبال لإصلاح أعلى هيئة قضائية ، وهى مجلس المائة وأربعة ، والتى كان اعضاؤها يعينون مدى الحياة فقرر أن يتم انتخابهم سنوياً ولا يحق لهم التجديد فيها ، وعموماً فقد كان هانيبال يسعى لإصلاح أحوال وطنه ولكن هذا الاصلاح لم يلق قبولاً من أصحاب المصالح والمتضررين منه ومن ثم فقد سعوا للخلاص منه بالخديعة فقد بعثوا سراً إلى مجلس الشيوخ بروما مدعين أنه يعد العدة لاستئناف القتال ضدها وطلبوا من روما أن تطلب تسليمه إليها ، وبذل سكيبيو الافريقى بكل ماله من نفوذ أن يحيل دون تحقيق ذلك ، ولكنه غلب على أمره أمام استجابة مجلس الشيوخ الرومانى للقرطاجيين الكارهين لهانيبال وطالب بتسليمه إلى روما ، ولكن هانيبال فر فى جنح الظلام ، أما عن روما والمجتمع الرومانى فقد كان للحرب آثارها الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والسياسية ونعرضها بايجاز على النحو الآتى:

١- الآثار الاقتصادية :

أ- الأرض والزراعة والرعي :

عانى اقتصاد الأرض الزراعية من ويلات الحرب فقد دمرت الحقول والقرى وأحرقت فى أغلب الأحوال على أيدى هانيبال وجنوده وفى بعض الأحوال

بأيدى الرومان ، وقد وصلت أعمال الحرق والتدمير إلى حد البشاعة فــى جنــوب إيطاليا ، فقد محيت أربعمائة بلدة من الوجود فى إقليم ابوليا أثناء القتــال الــذى دار بين موقعة كاناى وعقب الاستيلاء على تارنتم ، ولم يكن الحرق والتدمير وحدهمــا هما اللذان قد أديا إلى تدهور الزراعة بل أدى ترك الرومان وحلفائــهم لأراضيــهم الزراعية تلبية لأداء الواجب الوطنى والخدمة العســكرية إلــى تدهــور الزراعــة وإهمالها مما أدى إلى بوارها واقفــارها ، وزاد الطيــن بلــة أن الكثــيرين مــن المزارعين الرومــان عندما عادوا إلى أراضيهم قد وجدوها وقد أصابها البوار هــذا فضلاً عن أعراض الكثيرين منهم عن ممارسة الزراعة ورغبتــهم علــى العيــش والانتقال إلى روما ، وفى مثل هذه الأحوال كانت فرصة طبقــة أصحــاب رؤوس المال ولثراة الرومان فى استغلال أموالهم فى تأجير وشراء أراضى الدولة والتــى زادت زيادة هائلة نتيجة لمصادرة أراضى الجماعات المتمردة من ســكان جنــوب إيطاليا ، وهذا قد أدى إلى تخفيض أسعار الأراضى ، كما ساعدهم وشجعهم علــى استغلال أموالهم واستثمارها فى شراء الأرض وفرة الأيدى العاملة مــن العبيــد ، والتى قامت بزراعة ورعاية الحقول والبساتين ، ورعايــة قطعــان الماشــية فــى أراضى المراعى العامة ، وقد نتج عن هجر صغار الملاك لأراضيهم وبيعها لــثراة القوم الذين استغلوا أراضى الدولة إلى تكوين ضياع واسعة فى مناطق واسعة مــن إيطاليا على حساب المزارع الصغيرة . مع الاهتمــام بغــرس الأشــجار المثمــرة والتحول عن زراعة الحبوب .

ب- التجارة :

لقد كون طبقة رجال الأعمال من طبقة الفرسان والتجار الرومــان خاصــة تجار العبيد ، ثروات طائلة من القيام بالأعمال التجارية وعقد العقود الخاصة بتقديم المؤن والعتاد للجيوش والقيام بمشروعات لحساب الدولة ، وهذه الطبقة قــد بــدأت

فى استغلال أموالها بعد انتهاء الحروب فى شراء وتأجير الأراضـــى المعروضـــة للبيع والتأجير من الدولة ، وساعدهم وشجعهم وفرة العبيد فى الأســواق لاســتغلال تلك الأراضى .

١- الآثار الاجتماعيـة :

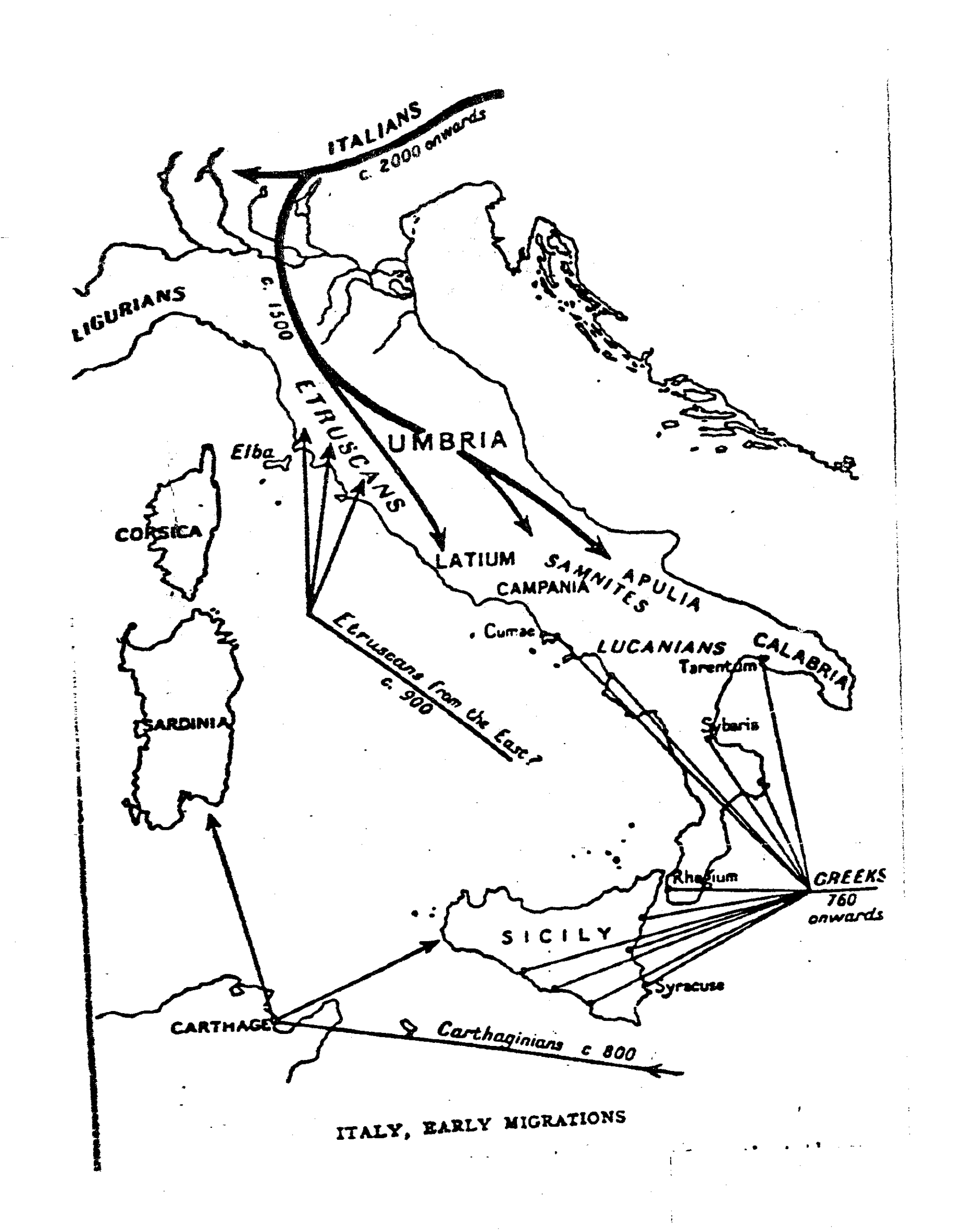
كان لهذه الحروب آثار بعيدة المدى فى التركيبـــة الاجتماعيـــة والشـــخصية الرومانية ، فعندما عاد الجنود الرومان من الحرب الطويلـــة لـــم يطيقـــوا العيـــش والاستقرار فى الريف ومزاولة الزراعة ، حرفتهم الأساسية ، بعد تعودهـــم علـــى حياة المغامرات وعلى جنى الأسلاب والغنائم والتنقل من بلد إلى بلد ، ومن ثم فقـــد هجروا الزراعة وآثروا أن يرحلوا إلى العاصمة روما لينضموا إلى دهماء المدينـــة فيتسكعون بلا عمل ويطالبون بالخبز من الدولة كما أن شخصيتهم قد تغيرت ومـــالوا إلى العنف والثورة على الأوضاع الظالمة فى المجتمع الرومانى ، نظراً لمـــا حـــل بهم من فقر .

وكانت الحروب خير وبركة لطبقة الفرسان والتجار فقد حققوا مـــن ورائـــها أموالاً طائلة استغلوها فى مجال الزراعة وتربية قطعان الماشية ، ومـــن ثـــم فقـــد وجدت أسر ثرية سيكون لها دور ونفوذ فى مجال السياسة الرومانية وقـــد أدخلـــت الحرب فئة كبيرة العدد فى نسيج المجتمع الرومانى متعددة الأعراق وهى فئة العبيد الذين تم أسرهم فى الحروب وتم بيعهم فى سوق النخاسة ، وتـــم اســـتغلالهم فـــى الزراعة وفى مجالات أخرى ، وكان لوجودهم عظيم الأثر فى الاقتصاد الرومـــانى إذ أن وجودهم ورخص أسعارهم قد قضى على سوق العمال الأجراء الأحرار مـــن الرومان ، وهكذا زادت نسبة البطالة بين الرومان .

وعموماً تسببت الحرب فى تغير أحوال الأسر الرومانية فقد تفككت لأسر وانهارت قيمها ومثلها العليا وبدأ الفسق والفجور وساد الانحلال بعد ان فقدت روما ثلاثمائة ألف رجل تركوا من ورائهم أرامل وأسر دون عائل ورعاية ، هذا فضلا عن زيادة أعداد النساء على الرجال ، وانتشار الأفكار والشعائر الانحلالية الوافدة .

١- الآثار السياسية :

ظهرت أسر رومانية جديدة راحت تلعب دوراً فى سياسة روما معتمدة على نفوذها وثرائها وبدأت روما بقادتها وسراتها هؤلاء إلى التطلع إلى التوسع والفتح وفرض النفوذ ، وشهدت الفترة ضعف الحزب الديمقراطى ، فقد عجزت الجمعيات الشعبية عن حسن اختيار قادة أو إدارة دفة الحرب فقد لزعماء الحزب الديموقراطى سجل مشين فى الحروب ، وذلك لأنهم كانوا مرتبطين بسياسة التهور التى أدت إلى مصير مشئوم وإلى كارثة تراسمينى وكاناى ، وفى مقابل هذا الضعف زادت وتدعمت سلطة السناتو فى إدارة شئون روما حيث أثبت أنه الهيئة القادرة على إدارة دفة الأمور وترشيح القادة المناسبين لقيادة الأمة الرومانية فى أحلك أوقاتها مثل فابيوس وسكيبيو .



ITALY, EARLY MIGRATIONS



GALLIA
TRANSPADANA
L. Verbanus
L. Larius
Vercellae
Mediolanum
Cremona
Mantua
VENETIA
Aquileia
Patavium
Atheste
Atria
Placentia
Padus
GALLIA
CISPADANA
LIGURIA
Genua
Mutina
Bononia
Ravenna
Ariminum
Luna
Pisae
Florentia
Faesulae
Arnus
SINUS LIGUSTICUS
UMBRIA
Sena Gallica
Ancona
Volaterrae
Arretium
L. Trasimenus
Perusia
Clusium
ETRURIA
PICENUM
Firmum
Asculum
SABINI
Volsinium
Vulci
Tarquinii
Corsica
I. Ilva
Aleria
ÆQUI
Corfinium
L. Fucinus
MARSI
SAMNIUM
Mt. Garganus
Caere
ROMA
Praeneste
Tusculum
Ostia
LATIUM
Fregellae
Æsernia
Luceria
Antium
Norba
VOLSCI
ARUNCI
OSCI
Cannae
Asculum
Aquilonia
Beneventum
Venusia
APULIA
Circeium
Sinuessa
Capua
Caudium
Nola
Neapolis
Cumae
Mt. Vesuvius
Pompeii
CAMPANIA
Via Appia
MESSAPIA
CALABRIA
Brundisium
Tarentum
Hydruntum
Metapontum
Sinus Tarentinus
Heraclea
Callipolis
LUCANIA
I. Capreae
Paestum
Velia
Olbia
Sardinia
Thurii
Consentia
Croton
BRUTTIUM
Carales
Is. Liparaeae
Caulonia
Locri
Messana
Rhegium
Mylae
Panormus
Soluntum
Is. Ægusa
Drepanum
Himera
Lilybaeum
Tauromenium
Mt. Ætna
Sicilia
SICANI
Catana
Triocala
Selinus
Leontinium
Agrigentum
Syracusae
Camarina
Hippo
Utica
Carthago
AFRICA
MARE AFRICUM
MARE TYRRHENUM
MARE ADRIATICUM
MARE IONIUM
ILLYRICUM
LIBURNIA
DALMATIA
Epidaurus
Routes principales
50 0 50 100 km
46
42
38
10
14